

الأيام

(الجزء الأول)

المكتبة العربية

www.tipsclub.net

Amly

طه حسين

لا يذكر لهذا اليوم اسماً ، ولا يستطيع أن يضعه حيث
 وضعه الله من الشهر والسنة ، بل لا يستطيع أن يذكر من
 هذا اليوم وقتاً بعينه ، وإنما يُقرب ذلك تقريباً .

وأكبرُ ظنه أن هذا الوقت كان يقعُ من ذلك اليوم في
 فجره أو في عِشائه . يُرجَّح ذلك لأنه يذكر أن وجهه تَلَقَّى في
 ذلك الوقت هواءً فيه شيءٌ من البرد الخفيف الذي لم تذهب به
 حرارةُ الشمس . ويُرجَّح ذلك لأنه على جهله حقيقةَ النور
 والظلمة ، يكاد يذكر أنه تَلَقَّى حين خرج من البيت نوراً
 هادئاً خفيفاً لطيفاً كأنَّ الظلمة تَمَشَى ^(١) بعض حواشيه . ثم
 يُرجَّح ذلك لأنه يكاد يذكر أنه حين تَلَقَّى هذا الهواء وهذا
 الضياء لم يُؤثر ^(٢) من حوله حركةً يَهْتَظُّه قوية ، وإنما آنس

(١) تمشى : تنطى . (٢) آنس : أبصر .

يذكر هذا كله ، ويذكر أنه كان يحسد الأرناب التي كانت تخرج من الدار كما يخرج منها ، وتتخطى السياج وثباتها من فوقه ، أو انسياباً^(١) بين قصبه ، إلى حيث تُقرض^(٢) ما كان وراءه من نبت أخضر ، يذكر منه الكُرُنْبُ خاصَّةً . ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس وتمشى الناس ، فيعتمد على قصب هذا السياج مفكراً مُغرقاً في التفكير ، حتى يرده إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله ، والتف حوله الناس وأخذ يُشدم في نعمة عذبة غريبة أخبار أبي زيد وخليفة ودياب ، وهم سكوت إلا حين يستخفهم^(٣) الطرب أو تستفزهم الشهوة ، فيستعيدون ويتأرون^(٤) ويحتصمون ، ويسكت الشاعر حتى يفرغوا من لفظهم^(٥) بعد وقت قصير أو طويل ، ثم يستأنف إنشاده العذب بنغمته التي لا تكاد تتغير .

ثم يذكر أنه لا يخرج ليلة إلى موقه من السياج إلا

(١) الوثب : القفز . والانسياب هنا : الدخول . (٢) تفرض : تقطع .
 (٣) استخفه الأمر : أطرده وحمله على الخفة والجهل . واستفزه : استخفه .
 (٤) يتأرون : يتجادلون .
 (٥) القنط : الصوت والجلبة .

منه مسبقاً من قوم أو منبئة عليه . وإذا كان قد أتى له من هذا الوقت ذكرى واضحة بينة لا سبيل إلى الشك فيها ، فإنما هي ذكرى هذا السياج^(١) الذي كان يقوم أمامه من القصب^(٢) ، والذي لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات فصار . هو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس . يذكر أن قصب هذا السياج كان أطول من قامته ، فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان مقرباً كأنما كان متلاصقاً ، فلم يكن يستطيع أن ينسل^(٣) في ثناياه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان يتد من شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية ، وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية . وكان آخر الدنيا من هذه الناحية قريباً . فقد كانت تندهى إلى قنطرة عرفها حين تقدمت به السن ، وكان لها في حياته — أو قل في خياله — تأثير عظيم .

(١) الدار : ما يحيط بالثوب من خشب أو حديد أو حجر أو بناء .
 (٢) القصب : حطب من البت ذو كعوب حرقاء ، كانت تتخذ منه الأعلام ، والسيوف والرمح والراعي .
 (٣) ينسل : يدخل . وأما الشيء : تضاعيفه ، الواحد ثني ، بالكسر .

وفي نفسه حَسْرَةٌ لِأَذْعَةٍ^(١)؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُقَدِّرُ أَنْ سَيُقَطَّعُ عَلَيْهِ
اسْتِمَاعُهُ لِنَشِيدِ الشَّاعِرِ حِينَ تَدْعُوهُ أُخْتُهُ إِلَى الدَّخُولِ فَيَأْتِي،
فَتُخْرَجُ فَتَشُدُّهُ مِنْ ثَوْبِهِ فَيَمْتَنِعُ عَلَيْهَا، فَتَحْمِلُهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا
كَأَنَّهُ الثَّمَامَةُ^(٢)، وَتَعْدُو^(٣) بِهِ إِلَى حَيْثُ تُنِيمُهُ عَلَى الْأَرْضِ
وَتَضَعُ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِ أُمِّهِ، ثُمَّ تَعْمِدُ^(٤) هَذِهِ إِلَى عَيْنَيْهِ الْمَظْلَمَتَيْنِ
فَتَنْفُتِحُهُمَا وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى، وَتَقَطُّرُ فِيهِمَا سَائِلًا يُؤْذِيهِ
وَلَا يُجِدِي عَلَيْهِ خَيْرًا^(٥)، وَهُوَ يَأْلُمُ وَلَكِنَّهُ لَا يَشْكُو وَلَا يَبْكِي؛
لِأَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ كَأَخْتِهِ الصَّغِيرَةِ بَكَاءً شَكَاةً^(٦).

ثُمَّ يُنْقَلُ إِلَى زَاوِيَةٍ فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ فَتُنِيمُهُ أُخْتُهُ عَلَى
حَصِيرَةٍ قَدْ بُسِطَ عَلَيْهَا لِحَافٍ، وَتُلْقَى عَلَيْهِ لِحَافًا آخَرَ، وَتَدْرُهُ
وَإِنَّ فِي نَفْسِهِ لَحَسْرَاتٍ، وَإِنَّهُ لَيَمُدُّ سَمْعَهُ مَدًّا يَكَادُ يَخْتَرِقُ بِهِ
الْحَائِطَ لَعَلَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِلَهُ بِهِذِهِ النَّعْمَاتِ الْحُلُوهِ الَّتِي يُرَدِّدُهَا
الشَّاعِرُ فِي الْهَوَاءِ الطَّلُوقِ تَحْتَ السَّمَاءِ. ثُمَّ يَأْخُذُهُ النَّوْمُ، فَمَا

(١) حَسْرَةٌ : تَلَهْفٌ . وَلاَذْعَةٌ : شَدِيدَةٌ مَوْجَلَةٌ . (٢) الثَّمَامُ : نَبْتٌ
صَعِيفٌ شَبِيهُ بِالْحَوْسِ ، يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ لِمَا هُوَ هَيْنَ الْمُنَاقَلِ .

(٣) تَعْدُو : تَجْرِي .

(٤) تَعْمِدُ : تَعْقِدُ . (٥) لَا يُجِدِي عَلَيْهِ خَيْرًا : لَا يَجِدُ لَهُ خَيْرًا وَلَا يَنْبِيْلُهُ .

(٦) بَكَاءٌ شَكَاةٌ : كَثِيرٌ الْبَكَاءِ وَالشُّكْوَى .

يُحْسِنُ إِلَّا وَقَدْ اسْتَيْقِظَ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، وَمِنْ حَوْلِهِ إِخْوَتُهُ
وَأَخْوَاتُهُ بَعُطُونُ^(١) فَيَسْرِفُونَ فِي الْغَطِيطِ، فَيُلْقِي اللِّحَافَ عَنْ
وَجْهِهِ فِي خَفِيَةٍ وَتَرَدُّدٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَنَامَ مَكشُوفَ
الْوَجْهِ . وَكَانَ وَاثِقًا أَنَّهُ إِنْ كَشَفَ وَجْهَهُ أَتَيْنَاهُ اللَّيْلُ أَوْ أَخْرَجَ
أَحَدَ أَطْرَافِهِ مِنَ اللَّحَافِ، فَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَمْبَثَ بِهِ عَفْرِيَةٌ
مِنَ الْعَفَارِيثِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمُرُ أَقْطَارَ الْبَيْتِ^(٢) وَتَمَلَأُ
أَرْجَاءَهُ وَنَوَاحِيَهُ، وَالَّتِي كَانَتْ تَهْبِطُ تَحْتَ الْأَرْضِ مَا أَضَاءَتْ
الشَّمْسُ وَاضْطَرَبَ النَّاسُ . فَإِذَا أَوَّتِ الشَّمْسُ إِلَى كَهْفِهَا،
وَالنَّاسُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَأَطْفَقَتِ السُّرُجُ، وَهَدَأَتِ الْأَصْوَاتُ،
صَعِدَتْ هَذِهِ الْعَفَارِيثُ مِنْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَمَلَأَتِ الْفِضَاءَ
حَرَكَةً وَاضْطِرَابًا وَتَهَامَسًا وَصِيحَابًا .

وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَسْتَيْقِظُ فَيَسْمَعُ تَجَاوِبَ الدِّيَكَةِ وَنَصَائِحَ
الدَّجَاجِ، وَيَجْتَهِدُ فِي أَنْ يَمَيِّزَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ . فَأَمَّا
بَعْضُهَا فَكَانَتْ أَصْوَاتُ دِيكَةٍ حَقًّا، وَأَمَّا بَعْضُهَا الْآخَرُ

(١) غَطِيطٌ : نَخْرٌ وَتَرَدُّدٌ نَفْسُهُ صَاعِدًا إِلَى حَلْفِهِ حَتَّى يَسْمَعَهُ مِنْ حَوْلِهِ .

(٢) أَقْطَارُ الْبَيْتِ : نَوَاحِيهِ .

فَكَانَتْ أَصْوَاتُ عَفَارِيَتٍ تَنَشَّكِلُ بِأَشْكَالِ الدَّيَكَةِ وَتُقَلِّدُهَا
عَبَثًا وَكَيْدًا. وَلَمْ يَكُنْ يَحْفَلُ بِهَذِهِ الْأَصْوَاتِ وَلَا يَهَابُهَا، لِأَنَّهَا
كَانَتْ تَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ بَعِيدٍ، إِنَّمَا كَانَ يَخَافُ الْخُوفَ كُلَّهُ
أَصْوَاتًا أُخْرَى لَمْ يَكُنْ يَتَبَيَّنُّهَا إِلَّا بِمَشَقَّةٍ وَجَهْدٍ. كَانَتْ تَتَّبَعُ
مِنْ زَوَايَا الْحُجْرَةِ نَحِيْفَةً ضَنْيَلَةً، يَمَثِّلُ بَعْضُهَا أَزِيرَ الْمَرْجَلِ^(١).
يَنْغِي عَلَى النَّارِ، وَيَمَثِّلُ بَعْضُهَا الْآخِرَ حَرَكَةً مَتَاعٍ خَفِيفٍ يُنْقَلُ
مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَيَمَثِّلُ بَعْضُهَا خَشْبًا يَنْقَصُمُ أَوْ عُودًا
يَنْعَطِلُ^(٢).

وكان يخاف أشد الخوف أشخاصاً يمثّلها قد وقفت على
باب الحجره فسدته سداً وأخذت تأتي بحركات مختلفة أشبه
شيء بحركات المتصوفة في حلقات الذكر. وكان يمتد أن
ليس له حصن من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات
المنكرة؛ إلا أن يلتف في لحافه من الرأس إلى القدم، دون
أن يدع بينه وبين الهواء منفذاً أو ثغرة. وكان واثقاً أنه إن

(١) المرجل: القدر. وأزيره: صوته. (٢) ينقصم وينعطل: ينكسر.

تَرَكَ ثَغْرَةً فِي لِحَافِهِ فَلَا يَدَّ مِنْ أَنْ تَمْتَدَّ مِنْهَا يَدٌ عَفْرِيَتٍ إِلَى
جِسْمِهِ فَتَنَالَهُ بِالْعَمَزِ وَالْعَبَثِ.

لذلك كان يقضى ليله خائفاً مضطرباً إلا حين يغلبه النوم،
وما كان يغلبه النوم إلا قليلاً. كان يستيقظ مبكراً، أو قل
كان يستيقظ في السحر، ويقضى شطراً طويلاً من الليل في
هذه الأهوال والأوجال^(١) والخوف من العفاريات؛ حتى إذا
وصلت إلى سمعه أصوات النساء يعدن إلى يوتهن وقد ملأن
جرارهن من القنأة وهن يتغنن « الله يا ليل الله .. » عرف
أن قد بزغ الفجر، وأن قد هبطت العفاريات إلى مستقرها
من الأرض السفلى، فاستحال هو عفريتاً، وأخذ يتحدث إلى
نفسه بصوت عال، ويتغنن بما حفظ من نشيد الشاعر، ويغمز
من حوله من إخوته وأخواته، حتى يؤظهم واحداً واحداً.
فإذا تم له ذلك، فهناك الصياح والغناء، وهناك الضجيج

(١) الأوجال: المخاوف، الواحد وجل، بالتحريك.

والمجيج^(١) ، وهناك الضوضاء التي لم يكن يضع لها حداً إلا
نُهوضُ الشيخ من سريره ، ودعاؤه بالإبريق ليتوضأ .

حينئذ تخفّت^(٢) الأصوات وتهدأ الحركة ، حتى يتوضأ
الشيخ ويصليّ ويقرأ وردّه ويشرب قهوته ويمضي إلى عمله .
فإذا أغلق الباب من دونه نهضت الجماعة كلها من الفراش ،
وانسابت^(٣) في البيت ضائحةً لاعبةً ، حتى تختلط بما في
البيت من طير وماشية .



(١) الغنجيج والمجيج : الصياح ورفع الصوت .

(٢) تخفّت الأصوات : تسكن أو تضعف .

(٣) انسابت : جرت وجمالت .

يمش فيه ، تعمره كائناتٌ غريبةٌ مختلفة لا تكاد تُحصى : منها التماسيح التي تَزْدَرِدُ^(١) الناسَ ازدراداً ، ومنها المسحورون الذين يعيشون تحت الماء يَبَاصُ النهارَ وسوادَ الليل ، حتى إذا أشرقت الشمس أو غرَبَت طفوا يتنسمون الهواء^(٢) ، وهم حين يطفون خطرهم على الأطفال وقتنه للرجال والنساء . ومنها هذه الأسماك الطوال العراض التي لا تكاد تظفر بطفل حتى تزدرده ازدراداً ، والتي قد يُتَاحُ^(٣) لبعض الأطفال أن يظفروا في بطونها بخاتم الثلك ، ذلك الخاتم الذي لا يكاد الإنسان يُديره في أصبعه حتى يسعى إليه دون لَمَحِ البصر خادمان من الجنِّ يَقْضِيَان له ما يشاء ، ذلك الخاتم الذي كان يَتَحْتَمُه سُلَيْمانُ فيُسَخِّر له الجنَّ والريحَ وما شاء من قُوَى الطبيعة . وما كان أحبَّ إليه أن يهبط في هذه القناة لعلَّ سمكاً من هذه الأسماك تزدرده فيظفرَ في بطنها بهذا الخاتم ؛ فقد كانت حاجته إليه شديدةً . . . ألم يكن يطعم على أقلِّ

(٢) طفوا : علوا . وتنسم الهواء : تشمه

(١) تزدرد : تبتلع .

ووجد نسيه . (٣) يتاح : يجأ .

كان مطمئناً إلى أن الدنيا تنتهي عن يمينه بهذه القناة التي لم يكن بينه وبينها إلا خطوات معدودة . . . ولم لا وهو لم يكن يرى عرضَ هذه القناة ، ولم يكن يُقدِّر أن هذا العرض ضئيلٌ بحيث يستطيع الشاب النشيط أن يثب من إحدى الحافتين فيبلغ الأخرى . ولم يكن يقدر أن حياة الناس والحيوان والنبات تتصل من وراء هذه القناة على نحو ما هي من دونها . ولم يكن يقدر أن الرجل يستطيع أن يمُر هذه القناة ممتلئةً دون أن يبلغ الماء إبطيه . ولم يكن يقدر أن الماء ينقطع من حينٍ إلى حينٍ عن هذه القناة ، فإذا هي حفرةٌ مستطيلةٌ يعبث فيها الصبيان ، ويبحثون في أرضها الرخوة عما تخلف من صغار السمك فات لا تقطاع الماء عنه . لم يكن يقدر هذا كله ، وإنما كان يعلم يقيناً لا يخالطه الظنُّ ، أن هذه القناة عالمٌ آخرٌ مستقلٌ عن العالم الذي كان

تقدّر في أن يحمله أحد هذين الخادمين إلى ما وراء هذه
القناة ليرى بعض ما هناك من الأعاجيب ! ولكنه كان يخشى
كثيراً من الأحوال قبل أن يصل إلى هذه السفكة المباركة .
على أنه لم يكن يستطيع أن يبلو^(١) من شاطئ هذه القناة
مسافة بعيدة ؛ فقد كان هذا الشاطئ محفوظاً عن يمينه وعن
شماله بالخطر . فأما عن يمينه فقد كان هناك العدويون ، وهم
قوم من الصعيد يقيمون في دار لهم كبيرة يقوم على بابها دائماً
كلبان عظيمان لا ينقطع نباحهما ، ولا تنقطع أحاديث الناس
عنها ، ولا ينجو المارّ منهما إلا بعد عناء ومشقة . وأما عن
شماله فقد كانت هناك خيام يقيم فيها « سعيد الأعرابي »
الذي كان الناس يتحدثون بشره ومكره وحرصه على سفك
الدماء ، وامرأته « كوابس » التي كانت قد اتخذت في أفنها
حلقة من الذهب كبيرة ، والتي كانت تختلف^(٢) إلى الدار
وتقبل صاحبنا من حين إلى حين ، فيؤذيه خزامها ويرّوعه^(٣) .
وكان أخوف الأشياء إليه أن يتقدم عن يمينه فيتعرض لكلبي

(١) يبلو : يخبر .
(٢) تختلف إلى الدار : تتردد عليها .

(٣) يرّوعه هنا : يغيثه .

العدويين ، أو يتقدم عن شماله فيتعرض لشر « سعيد »
وامرأته « كوابس » .

على أنه كان يجد في هذه الدنيا الضيقة القصيرة المحدودة
من كل ناحية ضروباً من اللهو والعبث تملأ نهاره كله .
ولكن ذاكرة الأطفال غريبة ، أو قل إن ذاكرة
الإنسان غريبة حين تحاول استعراض حوادث الطفولة ؛ فهي
تتمثل بعض هذه الحوادث واضحاً جلياً كأن لم يمض بينها
وبينه من الوقت شيء ، ثم يمحي منها بعضها الآخر كأن
لم يكن بينها وبينه عهد .

يذكر صاحبنا السياج ، والمزرعة التي كانت تنبسط من
ورائه ، والقناة التي كانت تنتهي إليها الدنيا ، و « سعيداً »
و « كوابس » وكلاب العدويين ، ولكنه يحاول أن يتذكر
مصير هذا كله فلا يظفر من ذلك بشيء . وكأنه قد نام ذات
ليلة ثم أفاق من نومه فلم ير سياجاً ولا مزرعة ولا سعيداً
ولا كوابس ، وإنما رأى مكان السياج والمزرعة بيوتاً قائمة
وشوارع منظمة ، تنحدر كلها من جسر القناة ممتدة امتداداً

قصيراً من الشمال إلى الجنوب . وهو يذكر كثيراً من الذين كانوا يسكنون هذه البيوت رجالاً ونساءً ، ومن الأطفال الذين كانوا يعثون في هذه الشوارع .

وهو يذكر أنه كان يستطيع أن يتقدم يميناً وشمالاً على شاطئ القناة دون أن يخشى كلاب العدويين أو مكر سعيد وأمراته . وهو يذكر أنه كان يقضى ساعاتٍ من نهاره على شاطئ القناة سعيداً مبتهجاً بما سمع من نغمات « حسن » الشاعر يتغنى بشعره في أبي زيد وخليفة ودياب ، حين يرفع الماء بشادوفه ليسقي به زرعه على الشاطئ الآخر للقناة . وهو يذكر أنه استطاع غير مرة أن يعبر هذه القناة على كتف أحد إخوته دون أن يحتاج إلى خاتم الملك ، وأنه ذهب غير مرة إلى حيث كانت تقوم وراء القناة شجرات من الثوت فأكل من ثوتها ثمرات لذيذة . وهو يذكر أنه تقدم غير مرة عن يمينه على شاطئ القناة حتى وصل إلى حديقة المعلم وأكل فيها غير مرة تفاحاً ، وقطف له فيها غير مرة نعناع وريحان . ولكنه عاجز كل العجز أن يتذكر كيف استحالت الحال وتغير وجه الأرض من طوره الأول إلى هذا الطور الجديد .

كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه ، وخامس أحد عشر من أشقته . وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكاناً خاصاً يمتاز من مكان إخوته وأخواته . أكان هذا المكان يرضيه ؟ أكان يؤذيه ؟ الحق أنه لا يتبين ذلك إلا في غموض وإبهام . والحق أنه لا يستطيع الآن أن يحكم في ذلك حكماً صادقاً . كان يحس من أمه رحمة ورافة ، وكان يجد من أبيه ليناً ورفقاً ، وكان يشعر من إخوته بشيء من الإحباط في تحدثهم إليه ومعاملتهم له . ولكنه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرافة من جانب أمه شيئاً من الإهمال أحياناً ، ومن الغلظة أحياناً أخرى . وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئاً من الإهمال أيضاً ، والإزورار^(١) من وقت إلى وقت . وكان احتياط إخوته

(١) الإزورار : الإعراض والانحراف .

وأخواته يؤذيه ؛ لأنه كان يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشوباً
بشيءٍ من الأزدراء .

على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كله ؛ فقد أحسَّ أن
لغيره من الناس عليه فضلاً ، وأن إخوته وأخواته يستطيعون
ما لا يستطيع ، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له . وأحسَّ
أنَّ أمه تأذَنُ لإخوته وأخواته في أشياء تحظرها عليه^(١) ،
وكان ذلك يُحفظه . ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن
استحالت إلى حزنٍ صامت عميق ؛ ذلك أنه سمع إخوته يصفون
ما لا علم له به ، فعلم أنهم يرون ما لا يرى .

كان من أول أمره طلعة^(١) لا يحفل بما يلقى من الأمر في
سبيل أن يستكشف ما لا يعلم . وكان ذلك يكلفه كثيراً
من الألم والعناء . ولكنَّ حادثه واحدةً حدثت مثله إلى
الاستطلاع ، وملأت قلبه حياءً لم يفارقه إلى الآن . كان جالساً
إلى العشاء بين إخوته وأبيه ، وكانت أمه كعادتها تُشرف على
حفلة الطعام ، تُرشد الخادم وتُرشد أخواته اللاتي كنَّ يشاركن
الخادم في القيام بما يحتاج إليه الطاعمون . وكان يأكل كما
يأكل الناس . ولكن لأمرٍ ما خطر له خاطرٌ غريب ! ما الذي
يقع لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد
واحدة ؟ وما الذي يمنعه من هذه التجربة ؟ لا شيء . وإذن
فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وعمسها من الطبِّق المشترك ثم
رفعها إلى فمه . فأما إخوته فأغرَقوا في الضحك^(٢) . وأما أمه

(١) طلعة : كثير التطلع . ولا يحفل بالشيء : لا يبالي به .

(٢) أغرقوا في الضحك : بالغوا فيه .

(١) تحهوا عليه : تحرمها عليه وتمنع منها . ويحفظه : يفضيه . وما يبق

في نفس المرء من اللبظ والغضب يقال له الحفيظة .

فأجهشت^(١) بالبكاء . وأمّا أبوه فقال في صوت هادئ حزين :
ما هكنا تؤخذ اللقمة يا بُنَيَّ . . . وأمّا هو فلم يعرف كيف
قضى ليلته .

من ذلك الوقت تبيّدت حركاته بشيء من الرّزانة
والإشفاق والحياء لاحدّه . ومن ذلك الوقت عرّف لنفسه
إرادةً قويّة . ومن ذلك الوقت حرّم على نفسه ألواناً من
الطعام لم يُتَبَّحْ له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين . حرّم
على نفسه الحساء والأرز وكلّ الألوان التي تُؤكَل بالملاعق ؛
لأنه كان يعرف أنّه لا يُحْسِنُ اصطناع المِلْعَقَة ، وكان يكره
أن يضحك إخوته ، أو تبكي أمّه ، أو يُعلّمه أبوه في هدوء حزين .
هذه الحادثة أعانتته على أن يفهم حقاً ما تتحدّث به الرّوَاة
عن أبي العلاء من أنّه أكل ذات يومٍ دبساً^(٢) ، فسقط بعضه
على صدره وهو لا يدري . فلما خرج إلى الدّرس قال له بعض
تلاميذه : يا سيّدِي أكلت دبساً ؟ فأسرع بيده إلى صدره

(١) أجهشت بالبكاء : همت به وتهيأت له .

(٢) الدبس : عسل النمر وعسل النحل .

وقال : نَعَمْ قاتل الله الشّرّة ! ثم حرّم الدبس على نفسه
طوال الحياة .

وأعانتته هذه الحادثة على أن يفهم طوراً من أطوار
أبي العلاء حقّ الفهم . ذلك أنّ أبا العلاء كان يتسّرّ في أكله
حتى على خادمه ؛ فقد كان يأكل في نفق^(١) تحت الأرض ،
وكان يأمر خادمه أن يُعدّ له طعامه في هذا النفق ثم يخرج ،
ويخلو هو إلى طعامه فيأخذ منه ما يشتهي . وقد زعموا أنّ
تلاميذه تذاكروا مرّةً بطيخ حَلَب وجودته ، فتكلّف
أبو العلاء وأرسل إلى حَلَبٍ مَن اشترى لهم منه شيئاً فأكلوا .
واحتفظ الخادم لسيّده بشيء من البطيخ وضعه في التّفق ،
وكأنه لم يضعه في المكان الذي تعود أن يضع فيه طعام الشيخ ،
وكره الشيخ أن يسأل عن حطّه من البطيخ ، فلبث البطيخ
في مكانه حتى فسّد ولم يدقّه الشيخ .

فهمّ صاحبنا هذه الأطوار من حياة أبي العلاء حقّ الفهم ؛
لأنه رأى نفسه فيها . فكّم كان يتمنى طفلاً لو استطاع أن

(١) النفق : الحفير تحت الأرض .

يخلو إلى طعامه ، ولكنه لم يكن يجزو على أن يُملن إلى أهله هذه الرغبة . على أنه خلا إلى بعض الطعام أحياناً كثيرة ، ذلك في شهر رمضان وفي أيام المواسم الحافلة ، حين كان أهله يتخذون ألواناً من الطعام حلوة ، ولكنها تُؤكل بالملاعق ؛ فكان يأبى أن يُصيب منها على المائدة . وكانت أمه تكره له هذا الجرمان ، فكانت تُقرده طباقاً خاصاً وتُحلي بينه وبينه في حجرة خاصة ، يُلقها هو من دونه حتى لا يستطيع أحد أن يشرف عليه وهو يأكل .

على أنه عند ما استطاع أن يملك أمر نفسه اتخذ هذه الخطة له نظاماً . بدأ بذلك حين سافر إلى أوربا لأول مرة ، فتكلف التعب وأبى أن ينهب إلى مائدة السفينة ، فكان يُحمل إليه الطعام في غرفته . ثم وصل إلى فرنسا فكانت قاعدته إذا نزل في فندق أو في أسرة أن يُحمل إليه الطعام في غرفته دون أن يتكلف الذهاب إلى المائدة العامة . ولم يترك هذه العادة إلا حين خطب قرينته ، فأخرجته من عادات كثيرة كان قد ألفها .

عنه المداثة أخذته بالوان من الشدة في حياته ، جعلته مضرب المثل في الأسرة وبين الذين عرفوه حين تجاوز حياة الأسرة إلى الحياة الاجتماعية . كان قليل الأكل لأنه كان قليل الميل إلى الطعام ، بل لأنه كان يخشى أن يوصف بالشرة أو أن يتغامز عليه إخوته . وقد آلمه ذلك أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن تعودته حتى أصبح من العسير عليه أن يأكل كما يأكل الناس . كان يُسرف في تصغير اللقمة ، وكان له عمٌ يفيظه منه كلما رآه فيفضب وينهره^(١) ويلح عليه في تكبير اللقمة ، فيضحك إخوته . وكان ذلك سبباً في أن كره عمه كرهها شديداً . كان يستحي أن يشرب على المائدة مخافة أن يضطرب القدح من يده ، أو ألا يُحسن تناوله حين يقدم إليه ، فكان طعامه جافاً ما جلس على المائدة ، حتى إذا نهض عنها ليغسل يديه من حنيفة كانت هناك شرب من مائها ما شاء الله أن يشرب . ولم يكن هذا الماء تقياً دائماً ، ولم يكن هذا النوع من رمى الظمأ ملائماً

(١) ينهره : يذممه .

للصحة ، فانتهى به الأمرُ إلى أن أصبح مَمْعُوداً^(١) ،
وما استطاع أحد أن يعرف لذلك سبباً .

ثم حرّم على نفسه من ألوان اللَّعِبِ واللبث كلَّ شيء ،
إلا ما لا يكلفه عناءٌ ولا يُعرّضه للضحك أو الإشفاق . فكان
أحبُّ اللب إليه أن يجمع طائفة من الحديد وينتجى^(٢) بها
زاوية من البيت ، فيجمعها ويفرقها ويقرّع بعضها ببعض ،
يُنْفِقُ في ذلك ساعاتٍ ، حتى إذا سئمه وقف على إخوته
أو أترابه وهم يلعبون ، فشاركهم في اللب بمقله لا يده .
وكذلك عرّف أكثر ألوان اللب دون أن يأخذ منها بحظٍّ .
وانصرفه هذا عن العبث حبّب إليه لوتاً من ألوان اللهو ،
هو الاستماع إلى القصص والأحاديث ؛ فكان أحبُّ شيء
إليه أن يسمع إنشادَ الشاعر ، أو حديثَ الرجال إلى أيه
والنساء إلى أمه ، ومن هنا تعلّم حسن الاستماع . وكان
أبوه وطائفة من أصحابه يُحِبُّون القصص حباً جماً ، فإذا

(١) ممعد : بعمته داء .

(٢) ينتجى : يقصد .

سألوا العصرَ اجتمعوا إلى واحد منهم يتلو عليهم قصص الغزوات
والفتوح ، وأخبار عنرة والظاهر بيبرس ، وأخبار الأنبياء
والنسك والصالحين ، وكتباً في الوعظ والسُنن . وكان
صاحبنا يقعد منهم مزجراً^(١) الكلب وهم عنه غافلون ، ولكنه
لم يكن غافلاً عما يسمع ، بل لم يكن غافلاً عما يتركه هذا
القصص في نفوس السامعين من الأثر . فإذا غربت
الشمس تفرّق القوم إلى طعامهم ، حتى إذا صلّوا العشاء
اجتمعوا فتحدّثوا طرفاً من الليل ، وأقبل الشاعر فأخذ
يُنشدهم أخبار الهلاليين والزنايين ، وصاحبنا جالس يسمع
في أوّل الليل كما كان يسمع في آخر النهار .

والنساء في قرى مصر لا يُحِبُّن الصمت ولا يعلن
إليه ؛ فإذا خلت إحداهن إلى نفسها ولم تجد من تحدّث
إليه ، تحدّثت إلى نفسها ألواناً من الحديث ، ففتت إن
كانت فرحةً ، وعدّدت^(٢) إن كانت محزونة . وكلُّ امرأةٍ في

(١) أى تقريباً منهم . ومزجر الكلب : المكان الذي يزجر فيه . وذلك أن الكلب

يكون حول القوم عند الطعام فينبوه بالصوت ليبيد عنهم .

(٢) التعدد : ذكر محاسن البيت . والمراد هنا : ما تلهج به المرأة من بكاء

موتها أو ذكر أشجانها .

مصر محزونة حين تُريد . وأحبُّ شيء إلى نساء القرى إذا خلون إلى أنفسهن أن يذكُرْنَ آلامهن وموتاهن فيمعددن ، وكثيراً ما ينتهي هذا التعديد إلى البكاء حقاً . وكان صاحبنا أسعدَ الناس بالإستماع إلى أخواته وهنَّ يتعنَّين . وأمُّه وهى تُعدِّد . وكان غناء أخواته يُعِظه ولا يترك في نفسه أثراً ؛ لأنه كان يجده سخيلاً لا يدلُّ على شيء . في حين كان تعديداً أمُّه يهزه هزاً عنيفاً ، وكثيراً ما كان يُكيه . وعلى هذا النحو حفظ صاحبنا كثيراً من الأغاني ، وكثيراً من التعديد ، وكثيراً من جِدِّ القصص وهزله ، وحفظ شيئاً آخر لم تكن بينه وبين هذا كله صلة ، وهى الأوراد التى كان يتلوها جدُّه الشيخ الضرير إذا أصبح أو أمسى .

كان جدُّه هذا ثقيلَ الظلِّ بغيضاً إليه ، وكان يقضى فى البيت فصلَّ الشتاء من كلِّ سنة ، وكان قد صلَّح ونسك حين اضطرتة الحياة إلى الصلَّاح والنسك ، فكان يُصلِّي الخمس لأوقاتها ، ولم يكن لسائه يفتُر عن ذكر الله . وكان يستيقظ آخر الليل ليقرأ « وِرْدَ السَّحَرِ » . وكان

ينام فى ساعة متأخرة بعد أن يصلِّي العشاء ويقرأ ألواناً من الأوراد والأدعية . وكان صاحبنا ينام فى حُجْرَةٍ مجاورةٍ لحجرة هذا الشيخ ، فكان يسمعه وهو يتلو ، حتى حفظ من هذه الأوراد والأدعية شيئاً كثيراً . وكان أهلُ القرية يحبُّون التصوِّفَ ويُقيمون الأذكار ، وكان صاحبنا يحبُّ منهم ذلك ؛ لأنه كان يلهو بهذا الذكر ، وبما يُنشِده المنشدون أثناءه . ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وَعَى من الأغاني والتعديد والقصص وشعر الهلايين والزنايين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملةً سالحة ، وحفظ إلى ذلك كله القرآن .



ولكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن ، ولا يذكر كيف بدأه ولا كيف أعاده ، وإن كان يذكر من حياته في الكتاب مواقف كثيرة ، منها ما يضحك الآن ، ومنها ما يخزئه : يذكر أوقاتا كان يذهب فيها إلى الكتاب محمولا على كتف أحد إخوته ؛ لأن الكتاب كان بعيدا ، ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشيا تلك المسافة . ثم لا يذكر متى بدأ يسمي إلى الكتاب . ويرى نفسه في ضحى يوم جالسا على الأرض بين يدي « سيدنا » ومن حوله طائفة من النعال كان يميث يعضها ، وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرقع . وكان « سيدنا » جالسا على دكة^(١) من الخشب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة ؛

(١) تطلق الدكة في مصر على سرير من الخشب يجلس عليه ، له في جوانبه العليا ما عدا مقدمه سياج . وأصل الدكة (بفتح الدال) : بناء يسطح أعلاه ويجلس عليه . فأطلقها المصريون على هذا السرير ، ولكنهم يكسرون الدال .

قد وُضِعَتْ على يمين الداخل من باب الكُتَّاب بحيث يمرُّ كلُّ داخل « بسيدنا » . وكان « سيدنا » قد تعودَ متى دخل الكتاب أن يخلع عباءته ، أو بعبارة أدقَّ « دِفِيَّتُهُ » وَيُلْفِيهَا لَفًّا يجعلها في شكل المِخْدَةِ ، ويضعها عن يمينه ، ثم يخلع نعله ويترع على دكته ، ويُشعل سيجارته ، ويبدأ في نداء الأسماء . وكان « سيِّدنا » لا يُعنى نعليه إلا إذا لم يجد من ذلك بدأً ، كان يرْفَعُهُما من اليمين ومن الشمال ومن فوق ومن تحت . وكان إذا أَخَلَّتْ به إحدى نعليه دعا أحد صِبيان الكتاب وأخذ النعل بيده وقال له : تذهبُ إلى « الحزَيْنِ » وهو هنا قريب ، فتقول له : « يقول لك سيِّدنا إنَّ هذه النعل في حاجة إلى لَوْزَةٍ من الناحية اليمنى » . انظر أترى ! هنا حيث أضع أصبعي .. فيقول لك « الحزَيْنِ » : « نعم ! سأضع هذه اللوزة » . فتقول له : « يقول لك سيِّدنا يجب أن تختير الجلد متيناً غليظاً جديداً ، وأن تُحسِّن الرِّقْعَ بحيث لا يظهر ، أو بحيث لا يكاد يظهر » . فيقول لك : « نعم سأفعل هذا » . فتقول له : « يقول لك سيِّدنا : إنه عميلك »

منذ زمن طويل ، فاستوص بالأجر خيراً . ومهما يقل لك فلا تقبل منه أكثر من قرش ، ثم عدَّ إلى مسافة ما أغمض عيني ثم أفتحها . وينطلق الصبى ويلهو عنه سيِّدنا ، ثم يعود وقد أغمض سيِّدنا عينه وفتحها مرَّةً ومرَّةً ومرَّات .

على أن الرجل كان يستطيع أن يُغض عينه ويفتحها دون أن يرى أو يكاد يرى شيئاً ، فقد كان ضريراً إلا بصيصاً ضئيلاً جداً من النور في إحدى عينيه . يُمثِّل له الأشباح دون أن يُمكنه أن يميزها . وكان الرجل سعيداً بهذا البصيص الضئيل . . . وكان يحدِّث نفسه ويظنُّ أنه من المبصرين . . . ولكن ذلك لم يكن يمنعه من أن يعتمد في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت على اثنين من تلاميذه ، يبسط ذراعيه على كتفي كلِّ واحد منهما ، ويمشي الثلاثة في الطريق هكذا ! قد أخذوها على المارَّة ، حتى إنهم لينتخون لهم عنها .

وكان منظر سيِّدنا عجيباً في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت صباحاً ومساءً . كان ضخماً بادئاً ، وكانت دِفِيَّتُهُ تزيد في ضخامته . وكان كما قدَّمنا يبسط ذراعيه على كتفي رفيقيه .

وكانوا ثلاثهم يمشون وإتهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضرباً . وكان سيّدنا يتخيّر من تلاميذه لهذه المهمّة أنجبهم وأحسنهم صوتاً ؛ ذلك أنه كان يحبّ الغناء ، وكان يحبّ أن يعلمّ تلاميذه الغناء ، وكان يتخيّر الطريق لهذا الدرس . فكان يُغنى . ويأخذ رفيقه بمصاحبته حيناً ، والاستماع له حيناً آخر ، أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر . وكان سيّدنا لا يُغنى بصوته ولسانه وحدها ، وإنما يُغنى برأسه وبدنه أيضاً ؛ فكان رأسه يهبط ويصعد ، وكان رأسه يلتفت يميناً وشمالاً . وكان سيّدنا يُغنى بيديه أيضاً . فكان يُوقع الأنغام على صدر رفيقه بأصابعه . وكان سيّدنا يُعجبه « الدور » أحياناً ، ويرى أنّ المشى لا يلائمه فيقف حتى يُبتعثه . ثمّ أبدأع من هذا كله أنّ سيّدنا كان يرى صوته جميلاً ، وما يظنّ صاحبنا أنّ الله خلق صوتاً أقيح من صوته . وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » إلا ذكر سيّدنا وهو يُوقع أحياناً من « البردة » في طريقه إلى الجامع منطلقاً

لصلاة الظهر أو في طريقه إلى البيت منصرفاً من الكتاب .

يزى صاحبنا نفسه ، كما قدّمنا ، جالساً على الأرض يعبث بالنعال من حوله ، وسيّدنا يُقرئه سورة الرحمن ، ولكنه لا يذكر أكان يقرأها بادئاً أم معيداً . وكأنه يرى نفسه مرّة أخرى جالساً لا على الأرض ولا بين النعال ، بل عن يمين سيّدنا على دكة أخرى طويلة ، وسيّدنا يُقرئه : « أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » . وأكبر ظنّه أنه كان قد أتمّ القرآن بدءاً وأخذ يُعيده . وليس غريباً أن ينسى صاحبنا كيف حفظ القرآن ؛ فقد أتمّ حفظه ولما يُتمّ التاسعة من عمره . وهو يذكر في وضوح ونبلاء ذلك اليوم الذي ختم فيه القرآن . ذلك أنّ سيّدنا كان يتحدث إليه قبل هذا اليوم بأيام عن ختم القرآن ، وعن أن أباه سيبتهج به . وكان يضع لذلك شروطاً ويطلب بحقوقه . ألم يكن قد علم قبل صاحبنا أربعة من إخوته ذهب واحد منهم إلى

الأزهر، والآخرون إلى المدارس، وصاحبنا هو الخامس !
فكم لسيدنا على الأسرة من حقوق ! وحقوقُ سيدنا على
الأسرة كانت تتمثل دائماً طعاماً وشراباً وثياباً ومالاً . فأما
الحقوق التي كان يقتضيها إذا ختم صاحبنا القرآن فَمَشْوَةٌ
دَمِيمَةٌ قبل كلِّ شيء ، ثم جَبَّةٌ وَقُطْطَانٌ ، وزوجٌ من الأحذية ،
وطربوش مغربيٌّ ، وطاقيَّةٌ من هذا القماش الذي تُتخذُ منه
العمائم ، وجنيه أحمر ، لا يرضى بشيء دون ذلك . . . فإذا لم
يُودَّ إليه هذا كله فهو لا يعرف الأسرة ولا يقبل منها
شيئاً ، ولا صلةً بينه وبينها ، وهو يُقسم على ذلك بمُخْرِجات
الإيمان^(١) . وكان هذا اليوم يوم الأربعاء ، وكان سيدنا قد أنبأ في
الصباح بأنَّ صاحبنا سيختم القرآن في هذا اليوم . وأقبلوا في
المصر ، يمشى سيدنا متعمداً على رفيقيه ، ويمشى صاحبنا من
ورائه يقوده يتيمٌ من أيتام القرية . حتى إذا بلغوا البيت دَفَع
سيدنا الباب دفعا وصاح صيحته المتأدَّة : « يا سَتَّار » ، وأجبه
إلى المنظرة ، فإذا فيها الشيخ قد انفتل^(٢) من صلاة العصر

(١) محرجات الإيمان : الإيمان المطلقة التي تقع في المرح ، وهو الإثم .

(٢) انفتل : انصرف .

وهو يقرأ شيئاً من الأدعية كعادته ، فاستقبلهم مبتسماً مطمئناً ،
وكان صوته هادئاً ، وكان صوت سيدنا عالياً ، وكان صاحبنا
لا يقول شيئاً ، وكان اليتيم مبتهجاً . أجلس الشيخ سيدنا
ورفيقيه ، ووضع في يد اليتيم قطعةً من فِضَّة ، ودعا الخادم
وأمره أن يأخذ هذا اليتيم إلى حيث يُصيب شيئاً من الطعام ،
ومسح على رأس ابنه وقال : « فَتَحَ اللهُ عَلَيْكَ ! أَنْصِرْفِ إِلَى
أُمَّكَ ، وَقُلْ لَهَا إِنَّ سَيِّدَنَا هُنَا » .

وكانت أمه قد سمعت صوت سيدنا ، وكانت قد أعدت له
مالاً لا بد منه في مثل هذا الوقت ، وهو كوزٌ ضخٌ طويل من
السُّكَّر المذاب لاشيء عليه . أخرج إلى سيدنا هذا الكوز
فعبه عباً ، وشرب رفيقاه كوين من السُّكَّر المذاب أيضاً . ثم
أخرجت القهوة فشرها سيدنا مع الشيخ . وكان سيدنا يُلِحُّ
على الشيخ في أن يمتحن الصبي فيما حفظ من القرآن ، وكان
الشيخ يُجيب : « دَعُهُ يَلْعَبُ إِنَّهُ صَغِيرٌ » . ثم نهض سيدنا
لينصرف ، فقال له الشيخ : « نصلِّي المغرب معاً إن شاء الله » .

وكانت هذه هي الدعوة إلى التَّشَاء . وما أَحْسِبُ أَنْ سَيِّدَنَا
نال شيئاً آخر أجراً على ختم صاحبنا للقرآن ؛ فقد كان يعرف
الأسرة منذ عشرين سنة ، وكان له فيها عادات غير مقطوعة ،
وكانت الكلفة بينه وبينها مرفوعة ، وكان واثقاً أن الحظَّ
إن يُخطئه معها هذه المرّة فلن يُخطئه مرةً أخرى .



منذ هذا اليوم أصبح صديقنا شيخاً وإن لم يتجاوز التاسعة ؛
لأنه حفظ القرآن ، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مها تكن
سنة . دعاه أبوه شيخاً ، ودعته أمه شيخاً ، ولعمود سيدنا أن
يدعوه شيخاً أمام أبويه ، أو حين يرضى عنه ، أو حين يريد
أن يترصّاه لأمر من الأمور . فأما فيما عدا ذلك فقد كان
يدعوه باسمه ، وربما دعاه «الواد» . وكان شيخنا الصبيّ قصيراً
نحيفاً شاحباً زريّ الهيئة^(١) على نحو ما ، ليس له من وقار
الشيخ ولا من حسن طلعتهم حظّ قليل أو كثير . وكان أبواه
يكتفیان من تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذي أضافاه إلى اسمه
كبراً منهما وعجباً لا تَلطُفُأبه ولا تحبباً إليه . أمّا هو فقد أعجبه
هذا اللفظ في أوّل الأمر ، ولكنه كان ينتظر شيئاً آخر من
مظاهر المكافأة والتشجيع : كان ينتظر أن يكون شيخاً حقاً ،
فيُتخذَ العِمّةَ ويلبسَ الحِجّةَ والتُّقْطانَ ، وكان من العسير إقناعه

(١) زرى الهيئة : حقيرها .

بأنه أصغر من أن يحمل العمّة، ومن أن يدخل في القفطان...
وكيف السبيل إلى إقاعه بذلك وهو شيخ قد حفظ القرآن!
وكيف يكون الصغير شيخاً! وكيف يكون من حفظ القرآن
صغيراً! هو إذن مظلوم... وأى ظلم أشد من أن يُحال
بينه وبين حقه في العمّة والجبّة والقفطان!..

وماهى إلا أيام حتى سُمّ لقب الشيخ، وكره أن يُدعى به،
وأحسن أن الحياة ملوثة بالظلم والكذب، وأن الإنسان يظلمه
حتى أبوه، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من
الكذب والعبث والخداع.

ثم لم يلبث شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء^(١) لِقَب
الشيخ، وإحساس بما كان يملأ نفس أبيه وأمه من الفرور
والعجب. ثم لم يلبث أن نسي هذا كله فيما نسي من الأشياء.
على أنه في حقيقة الأمر لم يكن خليقاً أن يُدعى شيخاً،
وإنما كان خليقاً رغم حفظه للقرآن أن يذهب إلى الكتاب
كما كان يذهب، مُهْمَل الهَيْئَة، على رأسه طاقيته التي تُنظّف

(١) استحال إلى كذا : تحول وصار . وازدراء : احتقار .

يوماً في الأسبوع، وفي رجليه حذاء يُحْدَثُ مرّةً في السنة،
ولا يدبّعه حتى لا يَحْتَمِلَ شيئاً، فإذا تركه فليمش حافياً أسبوعاً
أو أسابيع حتى يأذن الله له بحذاء جديد. كان خليقاً بهذا كله؛
لأن حفظه للقرآن لم يذم طويلاً... أكان وحده ملوماً
في ذلك؟ أم كان اللوم مشتركاً بينه وبين سيّدنا؟ الحق أن
سيّدنا أهمله حيناً وعُني بغيره من الذين لم يهتموا بالقرآن.
أهمله ليستريح، وأهمله لأنه لم يتقاضَ أجراً على ختمه للقرآن.
واستراح صاحبنا إلى هذا الإهمال، وأخذ يذهب إلى الكتاب
ينضى فيه طوال النهار في راحة مطلقة ولعب متصل، ينتظر
أن تنتهي السنّة ويأتي أخوه الأزهرى من القاهرة، حتى إذا
اتتهت الإجازة وعاد إلى القاهرة، استصحبه ليُصْبِحَ شيخاً
حقاً، وليجاوز في الأزهر.

ومضى على هذا شهرٌ وشهرٌ وشهر، يذهب صاحبنا إلى
الكتاب ويمود منه في غير عمل، وهو واثق بأنه قد حفظ
القرآن، وسيّدنا مطمئن إلى أنه حفظ القرآن، إلى أن كان
اليوم المشنوم... كان هذا اليوم مشنوماً حقاً؛ ذاق فيه

صاحبنا لأول مرة مرارة الخزي والذلة والضمة وكره الحياة .
 عاد من الكتاب عصر ذلك اليوم مطمئناً راضياً ، ولم يكده
 يدخل الدار حتى دعاه أبوه بلقب الشيخ ، فأقبل عليه ومعه
 صديقان له . فتلقاه أبوه مبتهجاً ، وأجلسه في رفق ، وسأله
 أسئلة عادية ، ثم طلب إليه أن يقرأ « سورة الشعراء » .
 وماهى إلا أن وقع عليه هذا السؤال وقع الصاعقة ، ففكر
 وقدر ، وتحفز^(١) واستماذ بالله من الشيطان الرجيم ، وسمى
 الله الرحمن الرحيم ، ولكنه لم يذكر من سورة الشعراء إلا أنها
 إحدى سور ثلاث ، أولها (طسم) ، فأخذ يردد (طسم)
 مرةً ومرةً ومرةً ، دون أن يستطيع الانتقال إلى ما بعدها .
 وفتح عليه أبوه بما يلي هذه الكلمة من سورة الشعراء ،
 فلم يستطع أن يتقدم خطوة . قال أبوه : فاقراً سورة التمل .
 فذكر أن أول سورة التمل كأول سورة الشعراء (طس) ،
 وأخذ يردد هذا اللفظ . وفتح عليه أبوه ، فلم يستطع أن
 يتقدم خطوة أخرى . . . قال أبوه : فاقراً سورة القصص ،

(١) تحفز : انتصب في قمته غير مطمئن ، أو استوى جالساً على ركبتيه .

فذكر أنها الثالثة ، وأخذ يردد « طسم » ، ولم يفتح عليه أبوه
 هذه المرة ، ولكنه قال له في هدوء : قم ؛ فقد كنت أحسب
 أنك حفظت القرآن ، فقام خجلاً يتصبب عرقاً . وأخذ
 الرجلان يمتدنان عنه بالخجل وضغر السن ، ولكنه مضى
 لا يدري أي يوم نفسه لأنه نسي القرآن ، أم يلوم سيدنا لأنه
 أهمله ، أم يلوم أباه لأنه امتحنه !

ومها يكن من شيء ، فقد أمسى هذا اليوم شر مساء ،
 ولم يظهر على مائدة العشاء ، ولم يسأل عنه أبوه ، ودعته أمه
 في إغراض إلى أن يتعشى معها فأبى ، فانصرفت عنه ونام .
 ولكن هذا المساء المنكر كان في مجلته خيراً من الغد .
 ذهب إلى الكتاب ، فإذا سيدنا يدعو في جفوة : ماذا
 حصل بالأمس ؟ وكيف عجزت عن أن تقرأ سورة الشعراء ؟
 وهل نسيته حقاً ؟ اتلها علي ! فأخذ صاحبنا يردد (طسم) .
 وكانت له مع سيدنا قصة كقصته مع أبيه . قال سيدنا :
 عوصنى الله خيراً فيما أنفقتُ معك من وقت ، وما بذلتُ
 في تعليمك من جهد ؛ فقد نسيت القرآن ، ويجب أن تعيده .

ولكنَّ الذنبَ ليس عليك ولا عَلَيَّ ، وإنما هو على
أبيك ؛ فلو أنه أعطاني أجرى يوم ختمت القرآن ،
لبارك الله له في حفظك ، ولكنه منغى حقِّي ، فحيا الله القرآن
من صدرك .

ثم بدأ يُقرئه القرآن من أوَّله ، شأنه مع من لم يكن
شيخاً ولا حافظاً .



٧

وليس من شكِّ في أنه حفظ القرآن بعد ذلك حفظاً
جيداً في مُدَّةٍ قصيرةٍ جداً . فهو يذكر أنه ناد من الكتاب
ذات يوم مع سيِّدنا ، وكان سيِّدنا في هذا اليوم حريصاً على أن
يعود معه ، حتى إذا وصلوا إلى الدار عطف عليها سيِّدنا فدفع
البابَ فاندفع له ، وصاح صيحته المألوفة : « يا ستار ! » وكان
الشيخُ كعادته في النظرة قد فرغ من صلاة العصر .
فلما استقرَّ سيِّدنا في مجلسه ، قال للشيخ : « زعمت أن ابنك
قد نسي القرآن ، ولُمّتى في ذلك يوماً شديداً ، وأقسمتُ لك
أنه لم ينسَ وإنما خجل ، فكذبني وعبثتَ بلحيتي هذه .
وقد جئتُ اليوم لتمتحنَ ابنك أُمامي ، وأنا أقسم : لئن ظهر
أنه لا يحفظ القرآن لأحلقنَّ لحيتي هذه ، ولأصبحنَّ معرَّةَ الفقهاء
في هذا البلد . » قال الشيخ : « هوّن عليك ! ومالك لا تقول :
إنه نسي القرآن ثم أقرأته إياه مرَّةً أخرى ! » . قال : « أقسمُ

بِالله ثلاثًا ما نسيه ولا أقرأته ، وإنما استمعتُ له القرآن ،
فتلاه على كالماء الجاري ، لم يَقِفْ ولم يتردد .

وكان صاحبنا يسمع هذا الحِوَارَ^(١) ، وكان مقتنعًا أن أباه مُحَقٌّ^٢
وأن سيِّدنا كاذبٌ ولكنه لم يَقُلْ شيئًا ، وليتَ منتظرًا الامتحان .
وكان الامتحانُ عسيرًا شاقًّا ، ولكنَّ صاحبنا كان في هذا
اليومَ نجيبًا بارعًا ، لم يُسألَ عن شيءٍ إلا أجابَ في غير ترددٍ
وقرأَ في إسراعٍ ، حتى كان: الشيخ يقول له : « على مهلك فإن
الكَرَّ في القرآن خطيئة » حتى إذا أتمَّ الامتحانَ قال له أبو به :
« فَتَحَ اللهُ عَلَيْكَ ؛ اذْهَبْ ؛ إِنِّي أَمَكُ فَقُلْ لَهَا إِنَّكَ حَفِظْتَ
القرآنَ حقًّا . » ذهب إلى أمِّه ، ولكنه لم يَقُلْ لها شيئًا ،
ولم تسأله هي عن شيءٍ . وخرج سيِّدنا في ذلك اليوم ، ومعه
جِبَّةٌ من الجوخ خَلَمَهَا عليه الشيخ .

٨

وأقبل سيِّدنا إلى الكتاب من الغد مسرورًا مبتهجًا ، فدعا
الشيخ الصبي بلقب الشيخ هذه المرة فأنلًا : أمَّا اليومَ فأنتَ
تستحقُّ أن تُدعى شيخًا ؛ فقد رفعتَ رأسِي وبيَّضتَ وجهِي
وشرفتَ لِحيتِي أمس ، واضطرَّ أبوك إلى أن يُعطيني الجِبَّةَ .
ولقد كنتَ تلو القرآنَ أمسِ كسلاسل الذهب ، وكنتَ على
النارِ مخافةً أن تزلَّ^(١) أو تنحرف . وكنتَ أَحصنكَ بالحِجِّيِّ
القيوم الذي لا ينام ، حتى انتهى هذا الامتحان . وأنا أَعْفيكَ
اليومَ من القراءة ، ولكن أريد أن آخذَ عليك عهدًا ، فعِدني
بأن تكونَ وفيًّا . قال الصبي في استحياء^(٢) : « لك علىَّ
الوفاءُ » . قال سيِّدنا : فَأَعْطِنِي يَدَكَ . وأخذ بيد الصبي ،
فأراعَ^(٣) الصبيَّ إلا شيءٌ في يده غريبٌ ، ما أحسنَ مثله

(١) يزل هنا : يفلط . ويقال : زل عن الصخرة ونحوها ، إذ زلق عنها
وسقط ، وعن الصواب في منطق ، إذا انحرف .
(٢) في استحياء : في خجل . (٣) ما راعني إلا كذا : أي ما شعرت إلا به .

قَطُّ، عَرِيضٌ يَتَرَجَّحُ^(١)، مَلُوهٌ شَعْرُهُ تَفُورُ فِيهِ الْأَصَابِعُ. ذَلِكَ
 أَنَّ سَيِّدَنَا قَدْ وَضَعَ يَدَ الصَّبِيِّ عَلَى لِحْيَتِهِ، وَقَالَ: هَذِهِ لِحْيَتِي
 أُسَلِّمُكَ يَا هَا، وَأُرِيدُ الْأَتَّهِنِيهَا، فَقُلْتُ: «وَاللَّهِ الْعَظِيمِ ثَلَاثًا،
 وَحَقُّ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لَا أَهْنِيهَا». وَأَقْسَمَ الصَّبِيُّ كَمَا أَرَادَ
 سَيِّدَنَا. حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْ قَسَمِهِ، قَالَ لَهُ سَيِّدَنَا: كَمْ فِي
 الْقُرْآنِ مِنْ جُزْءٍ؟ قَالَ: ثَلَاثُونَ. قَالَ سَيِّدَنَا: وَكَمْ نَشْتَغَلُ
 فِي الْكُتَّابِ مِنْ يَوْمٍ؟ قَالَ الصَّبِيُّ: خَمْسَةَ أَيَّامٍ. قَالَ سَيِّدَنَا:
 فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ مَرَّةً فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ، فَكَمْ تَقْرَأُ
 مِنْ جُزْءٍ كُلِّ يَوْمٍ؟ فَفَكَرَ الصَّبِيُّ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ: سِتَّةَ أَجْزَاءٍ.
 قَالَ سَيِّدَنَا: فَتَقْسِمُ لَتَلَوْنَ عَلَى الْعَرِيفِ سِتَّةَ أَجْزَاءٍ مِنْ
 الْقُرْآنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ، وَلَتَكُونَنَّ هَذِهِ التَّلَاوَةُ
 أَوَّلَ مَا تَأْتِي بِهِ حِينَ تَصِلُ إِلَى الْكُتَّابِ. فَإِذَا فَرَّغْتَ مِنْهَا
 فَلَا جُنَاحَ^(٢) عَلَيْكَ أَنْ تَلْهَوْا وَتَلْتَبَ، عَلَى الْأَنْصَرَفِ الصَّبِيَّانِ
 عَنْ أَعْمَالِهِمْ. أَعْطَى الصَّبِيَّ عَلَى نَفْسِهِ هَذَا الْمَهْدَ. وَدَعَا

سَيِّدَنَا الْعَرِيفَ فَأَخَذَ عَلَيْهِ عَهْدًا مِنْهُ، يُسَمِّنُ لِلصَّبِيِّ فِي
 كُلِّ يَوْمٍ سِتَّةَ أَجْزَاءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأُودِعَهُ شَرْفَهُ، وَكَرَامَةَ
 لِحْيَتِهِ، وَمَكَانَةَ الْكُتَّابِ فِي الْبَلَدِ، وَقَبْلَ الْعَرِيفِ الرَّدِيعَةَ.
 وَاتَّهَى هَذَا الْمَنْظَرُ وَصَبِيَّانِ الْكُتَّابِ يَنْظُرُونَ وَيُحِبُّونَ.

(١) يترجح : يضطرب .

(٢) الجناح (بضم الجيم) : الإثم .

من ذلك اليوم انقطعت صلة الصبي التعليمية « بسيدنا »
 واتصلت بالعرف . ولم ين العريف أقل غرابه من سيدنا
 كان شاباً طويلاً نحيفاً أسود فاحماً ، أبوه سوداني ، وأما
 مولدة ، وكان سيئ الحظ ، لم يوفق في حياته لخير ، جرب
 الأعمال كلها فلم يفلح في شيء منها . أرسله أبوه عند كثير
 من الصنائع ليتعلم صنعة فلم يفلح ، وحاول أن يجد له في
 معمل السكر شغل العامل أو الخفير أو البواب أو الخادم ،
 فلم يفلح في شيء من هذا . وكان أبوه ضيق الصدر به ، يمتننه
 ويزدره ، ويؤثر^(١) عليه إخوته الذين يعملون جميعاً ويكسبون .
 وكان قد ذهب إلى الكتّاب في صباه فتعلم القراءة والكتابة
 وحفظ سوراً من القرآن لم يلبث أن نسيها . فلما ضاقت به
 الحياة وضاق بها أقبل إلى سيدنا فشكا إليه أمره . قال له
 سيدنا : فتعال هنا فكن عريفاً ، عليك أن تعلم الصبيان

(١) يؤثر عليه إخوته : يفضلهم عليه .

القراءة والكتابة ، وتلاحظهم وتمنّهم من العبث ، وتقوم
 مقابلي متى غبت ، وعلى أن أقرهم القرآن وأحفظهم إياه .
 عليك أن تفتح الكتاب قبل أن تطلع الشمس ، وتشرّف
 على تنظيفه قبل أن يحضر الصبيان ، عليك أن تُنلق
 الكتاب متى صليت العصر ، وتأخذ مفتاحه . عليك مع
 هذا كله أن تكون يدى اليمنى ، ولك ربع ما يأتي به الكتاب
 من نقد ، تقتضى ذلك في كل أسبوع أو في كل شهر . وتم
 هذا العقد بين الرجلين وقرآ عليه الفاتحة ، وبدأ العريف عمله .
 وكان العريف يُبغضُ سيدنا بغضاً شديداً ويزدره ،
 ولكنه يُصانمه^(١) . وكان سيدنا يكره العريف كرهاً عنيفاً
 ويحتقره ، ولكنه يتملّقه .

فأما العريف فكان يكره سيدنا ؛ لأنه أثر^(٢) غشاش
 كذاب ، يخني عليه بعض موارد الكتاب ، ويستأثر^(٣) بخير
 ما يحمل الصبيان معهم من طعام . ويزدره ؛ لأنه كان ضريراً
 يتكلف الإبصار ، وكان يبيع الصوت يتكلف حسن الصوت .

(١) يصانمه : يلاينه ويداره . (٢) أثر : يؤثر نفسه بالخير .
 (٣) استأثر بالشيء : استبد به وخص به نفسه .

وأما سيدنا فكان يكره العريف؛ لأنه مكارم داهية، ولأنه
يُخْفِي عليه كثيراً مما ينبغي أن يعلمه، ولأنه سارقٌ، يسرق
ما يوضع بين يديهما من الطعام وقتَ الفداء ويختلس
أطايبه، ولأنه يَأْتُرُ^(١) مع كبار الصبيان في الكتاب، ويَمْتَسِ
مهمم على غفلةٍ منه، فإذا صُلِّيتِ المصْرُ وأُغْلِقَ الكتابُ
كان يئنهم وينهم مواعيدُ هناك عند شجر التوت أو عند
«القطرة» أو في «معمل السكر».

ومن غريب الأمر أن الرجلين كانا صادقين مُصِيبين،
وأنها كانا مُضْطَرِّينِ إلى أن يتعاونوا على كُرْمِهِ وَمَضْنِ^(٢)؛
أحدهما محتاج إلى أن يعيش، والآخر محتاج إلى من يابِّره
أُمور الكتاب.

اتَّصَلَ صِينَا بالعريف، وأخذ يتلو القرآن بين يديه،
سِتَّةَ أَجْزَاءٍ في كلِّ يومٍ. ولكنَّ ذلك لم يستمرَّ ثلاثة أيامٍ.
صَاقَ الصَّبِيُّ بهذه التلاوة منذ اليوم الأول، وصَاقَ العريفُ
بها منذ اليوم الثاني، وتكاشفا^(٣) بهذا الضيق في اليوم

(١) يَأْتُرُ مهمم هنا: يَشَاوِرُ مهمم على عمل شيء.
(٢) المَضْنُ: الألم. (٣) تَكَاشَفَا: كَشَفَ كُلُّ مَهْمَا لِلآخَرِ مَا فِي نَفْسِهِ.

الثالث، واتفقا منذ اليوم الرابع على أن يتلو الصبِّي في سيره
سِتَّةَ أَجْزَاءٍ بَيْنَ يَدَيْ العريف، حتى إذا أَحْسَسَ اضطراباً
أو غاب عنه لفظ، سأل عنه العريف. وأخذ الصبِّي يَأْتِي في
كلِّ يومٍ فيسَلِّمُ على العريف. ويجلس على الأرض بين يديه،
ويجْرِكُ شَفْتَيْهِ مَهْمِمًا^(١) كأنه يقرأ القرآن، ويسأل العريف
من حين إلى حين عن كلمة، فيُجِيبُهُ مَرَّةً ويتناقل عنه مَرَّةً
أخرى. ويَأْتِي سَيِّدَانَا في كلِّ يومٍ قبيل الظهر؛ فإذا سَلَّمَ
وجلس، كان أوَّلُ عَمَلٍ يَأْتِيهِ أَنْ يَدْعُو الصَّبِيَّ فيسأله: أقرأت؟

— نعم.

— من أين إلى أين؟

وكان الصبِّي يُجِيبُ: من البقرة إلى «لَتَجِدَنَّ» في يوم
السبت، ومن «لتجدنَّ» إلى «وما أبرئُ» في يوم الأحد.
وكذلك قسم القرآن ستة أقسام اصطلاح عليها الفقهاء، وخصَّ
لكل يوم من الأيام الحسنة، قسماً من هذه الأقسام يُخْبِرُ به
سيدنا متى سأله.

(١) المهمة: الكلام الخفى.

ولكن العريف لم يكن ليكتفى بهذا الاتفاق الذي يريه
ويُريح الصبيّ ، وإنما كان يطمع في أن يستفيد من موقف
الصبيّ بين يديه ، وكان يُنذر الصبيّ من حين إلى حين ، بأنه
سيُخبر سيدنا ، أنه قد وجد بعض السور « متعته » ، سيئة
الحفظ عند الصبيّ ، « سورة هود » ، أو « سورة الأنبياء » ،
أو « سورة الأحزاب » . وإذا كان القرآن كله « متعته » عند
الصبيّ ، لأنه أهمل قراءته منذ أشهر ، فقد كان يكره أن
يتحنه سيدنا ، ويشترى صمت العريف بكلّ شيء . وكم دفع
إلى العريف ما كان يملأ جيبه من خبز أو فطير أو تمر !
وكم دفع إليه هذا القرش الذي كان يُعطيه إياه أبوه من حين
إلى حين ، والذي كان يُريد أن يشتري به أقرص النعناع !
وكم احتال على أمّه ، ليأخذ منها قطعة ضخمة من السكر ،
حتى إذا وصل إلى الكتاب دفعها إلى العريف ، وإنه ليشتها
كلّها أو بعضها ، فيأخذها العريف ويدعو بالماء يغمس فيه
السكر ، ثم يمضه مضاً شديداً ، ثم يزدرد السكر وقد ذاب
أو كاد . . . وكم نزل عن طعامه الذي كان يُحمّل إليه من البيت

ظَهَرَ كُلَّ يَوْمٍ ، وإنه لشديد الجوع ، ليأكل العريف مكانه ؛
لئلا يخبر سيدنا بأن القرآن عنده « متعته » . . .
على أن هذه الصلوات المستمرة لم تلبث أن ضمنت له مودة
العريف ؛ فقد اتّخذ العريف صديقاً ، وأخذ يستصحبه إلى
الجامع بعد الغداء ليصليّ معه الظهر ، ثم أخذ يعتمد عليه ،
ويثقُ به ، ويطلب إليه أن يُقرئ القرآن بعض الصبيان ،
أو يسمعه من بعض الذين أخذوا يُعيدون ويحفظون . وهنا
كان صاحبنا يسئلك مع تلاميذه مسألت العريف معه بالدقة :
كان يُجلس الصبيان بين يديه ، ويأخذهم بالتلاوة ، ثم يتشاغل
عنهم بالحديث مع أترابه ، حتى إذا فرغ من حديثه ، التفت
إليهم ، فإذا آنس منهم عبثاً أو إبطاءً أو اضطراباً ، فالنذير ،
ثم الشتم ، ثم الضرب ، ثم إخبار العريف . والحق أنه لم يكن
أحسن حفظاً للقرآن من تلاميذه ولكن العريف قد اتّخذ
معه هذه الخطة ، فيجب أن يكون هو عريقاً حقاً . وإذا
كان العريف لا يشتمه ولا يضربه ولا يرفع أمره إلى سيدنا ،
فذلك لأنه يدفع عن ذلك كله غالياً . وقد فهم الصبيان هذا

فأخذوا يدفعون له الثمن غالباً أيضاً، وأخذ هو يسترد بالرشوة ما كان يدفع إلى العريف . على أن رشوته كانت متنوعة ؛ فلم يكن محروماً في بيته ، ولم يكن في حاجة إلى الخبز ولا إلى التمر ولا إلى السكر ، ولم يكن يستطيع أن يقبل « الفلوس » . وماذا يصنع بالفلوس وهو لا يستطيع أن ينفقها وحده ! فهو إن قبلها دلّ على نفسه وافتضح أمره . وإذن فقد كان عسيراً ، وكان إرضاءه شاقاً . وكان الصبيان يتفننون في إرضائه ، فيشترون له أقراص النعناع و « السكر الثبات » و « اللب » و « الفول السوداني » ، وكان يتفضل بكثير من ذلك على العريف .

ولكن لو نأمن الرشوة خاصاً كان يُعجبه ويفتنه ، ويُشجعه على أن يهمل واجبه أشنع إهمال ، وهذا اللون هو القصص والحكايات والكتب . فإذا استطاع الصبي أن يقصّ عليه أحدثثة ، أو يشتري كتاباً من هذا الرجل الذي يتنقل بالكتب في قرى الريف ، أو يتلو عليه فضلاً من قصة « الزير سالم » أو « أبي زيد » ، فهو واثق بما شاء من رضاه ورفقه ومحاباته . وكان أمر تلاميذه في هذه ، صبيّة مكفوفة

البصر ، يقال لها نفيسة . أرسلها أهلها إلى الكتاب لتحفظ القرآن ، حفظته وأتقنت حفظه ، ووكّلها^(١) سيدنا إلى العريف . ووكّلها العريف إلى صاحبنا ، وأخذ صاحبنا يسلك معها مسلك العريف معه . وكان أهل هذه الفتاة أغنياء ، ولكنهم من المُحدّثين . كان أبوها حماراً ، ثم أصبح تاجراً مُثرياً ، وكان يُنفق على أهله من غير حساب ، ويُسبغ^(٢) عليهم سعة غريبة من العيش . فلم تكن تنقطع الفلوس من يد نفيسة . وكانت أقدّر الصبيان على تحيير الرّشا ، ثم كانت أحفظهم للقصص ، وأقدرهم على الاختراع ، وأحفظهم لألوان الغناء المُفرح و « التمديد » المبكي ، وكانت تُحسن الغناء والتعديد معاً . وكانت غريبة الأطوار ، في عقلها شيء من الاضطراب ؛ فكانت تُلهي صاحبنا أكثر وقتها بتدبيرها وأقاصيصها وألوان رشوتها . وبينما كان صاحبنا يرشو ويرتشي ، ويُخدع ويُخدع ، كان القرآن يَمحى من صدره آية آية ، وسورة سورة . حتى اليوم المحتوم . . . وبأله من يوم . . .

(١) ووكّلها إليه : تركها له وجعل أمرها إليه . (٢) أي - صبها عليهم وديبها .



كان يوم الأربعاء، وكان صاحبنا قد قضاه فرحاً مسروراً .
زعم لسيدنا أول النهار أنه قد أتمَّ الختمة ، ثم فرغ بعد ذلك
لإستماع القصص والأحاديث ، وعبث آخر النهار .

فلما انصرف من الكتاب لم يذهب إلى البيت ، وإنما
ذهب مع جماعة من أصحابه إلى الجامع ليصلي العصر . وكان
يجبُ الذهاب إلى الجامع ، والصعود في المنارة ، والإشتراك
مع المؤذن في التسليم (وهو النداء الذي يلي الأذان الشرعي) .

ذهب في ذلك اليوم وصعد في المنارة ، واشترك في الأذان
وصلى . وأراد أن يعود إلى البيت ، ولكنه افتقد نعله فلم يجدها
كان قد وضعها إلى جانب المنارة ، فلما فرغ من الصلاة ذهب
يلتمسها فإذا هي قد سُرقت . أحزنه ذلك بعض الشيء ،
ولكنه كان فرحاً مبهجاً هذا اليوم ، فلم يجزع ولم يُقدّر للأمر
عاقبة ، وعاد إلى البيت حافياً . وما كان أبعد المسافة بين البيت

والجامع ! ولكن ذلك لم يرعه^(١) ، فكثيراً ما مشى حافياً .

دخل البيت ، وإذا الشيخ في المنظرة كماذته يدعوهُ :
 وأين نملك ؟ فيجيب : نسيتهما في الكتاب . فلا يجفل
 الشيخ بهذا الجواب ، ثم يهمل الصبي حيناً ريثما يدخل
 فيتحدث إلى أمه وإخوته قليلاً ، وبأكل كسرة من الخبز ،
 كان من مادته أن يأكلها متى عاد من الكتاب ، ثم يدعوهُ
 الشيخ ، فيسرع إلى إجابته . فإذا استقرَّ به مكانه ، قال له أبوه :
 ماذا تلوت اليوم من القرآن ؟ فيجيب : ختمته وتلوت الأجزاء
 الستة الأخيرة . قال الشيخ : وما زلت تحفظه حفظاً جيداً ؟
 قال نعم . قال الشيخ : فاقراً لي سورة سبأ . وكان صاحبنا قد
 نسي سورة سبأ ، كما نسي غيرها من السور ، فلم يفتح الله عليه
 بحرف . قال الشيخ : فاقراً سورة فاطر ، فلم يفتح الله عليه
 بحرف . قال الشيخ في هدوء وسخريّة : وقد زعمت أنك
 ما زلت تحفظ القرآن ؟ فاقراً سورة يس . ففتح الله عليه
 بالآيات الأزلَى من هذه السورة ، ولكن لسانه لم يلبث أن

(١) لم يرعه : لم يفقهه ولم يفهمه .

انعقد ، وريقه لم يلبث أن جف ، وأخذته رعدة مُنكرة تصبَّب
 على أثرها في وجهه عرقٌ بارد . قال الشيخ في هدوء : قم
 واجتهد في أن تنسى نعليك كلَّ يوم ، فما أرى إلا أنك أضعتما
 كما أضعت القرآن ، ولكن لي مع سيّدك شأنًا آخر .

خرج صاحبنا من المنظرة مُنكس الرأس مضطرباً يتعثر ،
 ومضى في طريقه حتى وصل إلى الكرّار (والكرّار : حجرة
 في البيت كانت تُدخِرُ فيها ألوان الطعام ، وكان يُربّي فيها
 الحمام) ، وكانت في زاوية من زواياها القرّمة (وهي قلمنة
 ضخمة عريضة من الخشب كأنها جذع شجرة) كانت أمه
 تقطع عليها اللحم . وكانت تدعُ على هذه القرمة طائفة من
 السكاكين ، منها الطويل ، ومنها القصير ، ومنها الثقيل ،
 ومنها الخفيف .

مضى صاحبنا حتى وصل إلى الكرّار ، وانمطف إلى
 الزاوية التي فيها القرّمة ، وأهوى إلى الساطور ، وهو أغلظُ
 ما كان عليها من سكاكين وأحده وأثقله ، فأخذه يميناه وأهوى
 به إلى قفاه ضرباً ! ثم صاح ، وسقط الساطور من يديه .

رأسرت أمه إليه، وكانت قريبة منه لم تحفل به حيناً مرَّ بها،
فإذا هو واقفٌ يضطرب والدم يسيل من قفاه، والساطور
مُلَقَّى إلى جانبه... وما أسرعَ ما أَلَقَتْ أمه نظرةً إلى الجرح!
وما أسرعَ ما عرفت أنه ليس شيئاً! وما هي إلا أن انهالت
عليه شتاً وتأييباً، ثم جذبته من إحدى يديه حتى انتهت به
إلى زاوية من زوايا المطبخ فألقته فيها إلقاءً، وانصرفت إلى
عملها. ولبت صاحبنا في مكانه لا يتحرك ولا يتكلم ولا يبكي
ولا يفكر كأنه لاشيء، وإخوته وأخواته من حوله يضطربون
ويلعبون، لا يحفلون به ولا يلتفت هو إليهم.

وقرَّبت المغرب، وإذا هو يدعى ليحبيب أباه، فخرج
خزيناً متعزراً حتى انتهى إلى المنطرة. فلم يسأله أبوه عن شيء،
وإنما ابتدره سيّدنا بهذا السؤال: ألم تقرأ على اليوم الأجزاء
الستة من القرآن؟ قال بلى. قال: ألم تقرأ على أمس سورة
سبأ؟ قال بلى. قال: فما بالك لم تستطع أن تقرأها اليوم؟ فلم
يجب. قال سيّدنا: فاقراً سورة سبأ، فلم يفتح الله عليه منها
بحرف. قال أبوه: فاقراً السجدة، فلم يحسن شيئاً. هنا اشتدَّ

غضب الشيخ، ولكن على سيّدنا لا على الصبيّ قال: وإذن
فهو يذهب إلى الكتاب لا ليقراً ولا ليحفظ، ولا لتعنى به
أو تلتفت إليه، وإنما هو لعبٌ وعبثٌ! ولقد عاد اليوم حافياً،
وزعم أنه نسي نعليه في الكتاب... وما أظنّ عنايتك بحفظه
للقرآن، إلا كعنايتك بمشيه حافياً أو ناعلاً...

قال سيّدنا: أقسم بالله العظيم ثلاثاً ما أهملته يوماً. ولو لا
أنّي خرجتُ اليوم من الكتاب قبل انصراف الصبيان
لمارجع حافياً. وإنه ليقراً على القرآن مرّة في كل أسبوع:
ستّة أجزاء في كل يوم، أسمعها منه متى وصلت في الصباح.
قال الشيخ: لا أصدّق من هذا شيئاً. قال سيّدنا: امرأتى
طالق ثلاثاً ما كذبتك قط، وما أنا بكاذب الآن، وإنى
لأسمع له القرآن مرّة في كل أسبوع. قال الشيخ: لا أصدّق.
قال سيّدنا: أفتظن أن ما تدفع إلى في كل شهر أحبّ إلى
من امرأتى؟ أم تظن أنى في سبيل ما تدفع إلى أستحلّ الحرام
وأعيش مع امرأة طلقته ثلاثاً بين يديك؟ قال الشيخ:
ذلك شيء لا شأن لي به، ولكن هذا الصبيّ لن يذهب إلى

الكتاب منذ غد . ثم نهض فانصرف ، ونهض سيّدنا فانصرف كثيراً محزوناً . وظلّ صاحبنا في مكانه لا يفكر في القرآن ولا فيما كان ، وإنما يفكر في مقدرة سيّدنا على الكذب ، وفي هذا الطلاق المثلث الذي ألقاه كما يُلقي سيجارته متى فرغ من تدخينها !

ولم يُظهر الصبي في هذه الليلة على المائدة ، ومكث ثلاثة أيام يتجنب مجلس أبيه ويتجنب المائدة . حتى إذا كان اليوم الرابع دخل أبوه عليه في المطبخ حيث كان يجب أن يزوى إلى جانب الفرن ؛ فإزال يكلمه في دُعاة وعطف ورفق حتى أنس الصبي إليه ، وانطلق وجهه بدمعوسه . وأخذ أبوه يديه فأجلسه مكانه من المائدة ، وعنى به أثناء النداء عناية خاصة . حتى إذا فرغ الصبي من طعامه ونهض لينصرف ، قال أبوه هذه الجملة في مزاح قاسٍ لم ينسه قط ، لأنه أضحك منه إخوته جميعاً ، ولأنهم حفظوها له ، وأخذوا يميظونه بها من حين إلى حين — قال له : « أَحْفَظْتَ الْقُرْآنَ ؟ »

واقطع الصبي عن الكتاب ، واقطع سيّدنا عن البيت والتمس الشيخ فقيهاً آخر يختلف إلى (١) البيت في كل يوم ، فيتلو فيه سورة من القرآن مكان سيّدنا ، ويُقرئ الصبي ساعة أو ساعتين . وظلّ الصبي خراً يعبت ويلعب في البيت متى انصرف عنه الفقيه الجديد . حتى إذا كان العصر أقبل عليه أصحابه ورفاقه مُنصرِفهم (٢) من الكتاب . فيقصُّون عليه ما كان في الكتاب ، وهو يلهو بذلك ويعبت بهم وبكتابهم وبسيّدنا وبالعريف . وكان قد خيّل إليه أن الأمر قد انبت (٣) بينه وبين الكتاب ومن فيه ، فلن يعود إليه ، ولن يرى الفقيه ولا العريف . فأطلق لسانه في الرجلين إطلاقاً شنيعاً ، وأخذ يُظهر من عيوبهما وسيئاتهما ما كان يُخفيه ، وأخذ

(١) يختلف إلى البيت : يتردد عليه . (٢) منصرفهم : وقت انصرافهم .

(٣) انبت : انقطع .

يَلْعَنُهَا أَمَامَ الصَّبِيَّانِ وَيَصِفُهَا بِالكَذِبِ وَالسَّرِقَةِ وَالطَّمَعِ ،
وَيَتَحَدَّثُ عَنْهَا بِأَشْيَاءٍ مُنْكَرَةٍ ، كَانَ يَجِدُ فِي التَّحَدُّثِ بِهَا
شِفَاءً لِنَفْسِهِ ، وَلَدَةً لِهَوْلَاءِ الصَّبِيَّانِ . وَمَا لَهُ لَا يُطْلَقُ لِسَانَهُ
فِي الرَّجْلَيْنِ ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّفَرِ إِلَى الْقَاهِرَةِ إِلَّا شَهْرٌ
وَاحِدٌ ؛ فَيَسْمَعُ أَخُوهُ الْأَزْهَرِيُّ مِنَ الْقَاهِرَةِ بَعْدَ أَيَّامٍ ؛ حَتَّى
إِذَا قَضَى إِجَازَتَهُ اسْتَجَبَهُ إِلَى الْأَزْهَرِ ، حَيْثُ يُصْبِحُ مُجَاوِرًا ،
وَحَيْثُ تَنْقَطِعُ عَنْهُ أَخْبَارُ الْفَقِيهِ وَالْعَرِيفِ .

الْحَقُّ أَنَّهُ كَانَ سَعِيدًا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، كَانَ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ
التَّفَوُّقِ عَلَى رِفَاقِهِ وَأَتْرَابِهِ ؛ فَهُوَ لَا يَذْهَبُ إِلَى الْكُتَّابِ كَمَا
يَذْهَبُونَ ، وَإِنَّمَا يَسْعَى إِلَيْهِ الْفَقِيهِ سَعْيًا ، وَسَيَسَافِرُ إِلَى
الْقَاهِرَةِ حَيْثُ الْأَزْهَرِ ، وَحَيْثُ « سَيِّدُنَا الْحُسَيْنِ » ، وَحَيْثُ
« السَيِّدَةِ زَيْنَبَ » وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ . وَمَا كَانَتْ الْقَاهِرَةُ
عِنْدَهُ شَيْئًا آخَرَ ، إِنَّمَا كَانَتْ مُسْتَقَرًّا الْأَزْهَرِ وَمَشَاهِدَ
الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

وَلَكِنَّ هَذِهِ السَّعَادَةَ لَمْ تَدُمْ إِلَّا رِيثًا يَعْقُبُهَا شِقَاؤُ شَنِيعٍ ؛
ذَلِكَ أَنَّ سَيِّدَنَا لَمْ يُطِقْ صَبْرًا عَلَى هَذِهِ الْقَطِيعَةِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ

أَنْ يُحْتَمِلَ انْتِصَارَ الشَّيْخِ عَبْدِ الْجَوَادِ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَ يَتَوَسَّلُ
بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ إِلَى الشَّيْخِ . وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ لَانَتْ قَنَاءَةُ^(١) الشَّيْخِ ،
وَأَمْرَ الصَّبِيِّ بِالْعَوْدَةِ إِلَى الْكُتَّابِ مَتَى أَصْبَحَ . عَادَ كَارَهُمَا مُقَدَّرًا
مَا سَلِقَاهُ مِنْ سَيِّدِنَا وَهُوَ يُقْرَأُ الْقُرْآنَ لِلْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ . وَلَكِنَّ
الْأَمْرَ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ؛ فَقَدْ كَانَ الصَّبِيَّانِ يَنْقُلُونَ إِلَى الْفَقِيهِ
وَالْعَرِيفِ كُلَّ مَا يَسْمَعُونَ مِنْ صَاحِبِهِمْ . وَلَهُ أَوْقَاتُ الْعَدَاءِ
طَوَالَ هَذَا الْأَسْبُوعِ ، وَمَا كَانَ سَيِّدَنَا يَنَالُ بِهِ الصَّبِيَّانِ مِنْ لَوْمٍ ،
وَمَا كَانَ الْعَرِيفُ يُعِيدُ عَلَيْهِ مِنْ أَلْفَاظِهِ ، تِلْكَ الَّتِي كَانَ يُطْلَقُ
بِهَا لِسَانُهُ مُقَدَّرًا أَنَّهُ لَنْ يَرَى الرَّجْلَيْنِ !

فِي هَذَا الْأَسْبُوعِ تَعَلَّمَ الصَّبِيُّ الْإِحْتِيَاطَ فِي اللَّفْظِ ، وَتَعَلَّمَ أَنْ
مَنْ ائْتَمَلَ وَالْحَمَقُ^(٢) الْإِطْمِئْنَانَ إِلَى وَعِيدِ الرَّجَالِ ، وَمَا يَأْخُذُونَ
أَنْفُسَهُمْ بِهِ مِنْ عَهْدٍ . أَلَمْ يَكُنِ الشَّيْخُ قَدْ أَقْسَمَ لَا يَعُودُ الصَّبِيُّ
إِلَى الْكُتَّابِ أَبَدًا وَهَاهُو ذَا قَدِ عَادَ ! وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الشَّيْخِ
يُقْسَمُ وَيُحْنَثُ ، وَبَيْنَ سَيِّدِنَا يُرْسِلُ الطَّلَاقَ وَالْإِيمَانَ إِرْسَالًا
وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ ؟ وَهُوَ لَا يَتَحَدَّثُونَ إِلَيْهِ ، فَيَسْتَمُونَ

(١) لَبِنُ الْقَنَاءَةِ هُنَا : كِنَايَةٌ عَنِ الرِّضَا .

(٢) ائْتَمَلَ وَالْحَمَقُ : قَلَّةُ الْعَقْلِ وَرِضَاؤُهُ .

له الفقيه والعريف، ويُفْرَوُه^(١) بِشْتَمَها، حَتَّى إِذَا ظَفِرُوا
 مِنْهُ بِذَلِكَ، تَقَرَّبُوا بِهِ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، وَابْتَغَوْا^(٢) بِهِ إِلَيْهَا
 الْوَسِيلَةَ. وَهَذِهِ أُمَّهُ تَضَحَّكَ مِنْهُ، وَتُعْرِى بِهِ سَيِّدَنَا حِينَ أَقْبَلَ
 يَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا بِمَا تَقَلُّ إِلَيْهِ الصَّبِيَّانِ. وَهَؤُلَاءِ إِخْوَتُهُ يَشْمَتُونَ
 بِهِ، وَيُعِيدُونَ عَلَيْهِ مَقَالَه سَيِّدِنَا مِنْ حِينَ إِلَى حِينَ، يَنْيِظُونَهُ
 وَيُشِيرُونَ سَخَطَهُ. وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحْتَمِلُ هَذَا كُلَّهُ فِي صَبْرٍ وَجَدَلٍ.
 وَمَا لَهُ لَا يَصْبِرُ وَلَا يَتَجَلَّدُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِرَاقِ هَذِهِ
 الْبَيْتَةِ^(٣) كُلِّهَا إِلَّا شَهْرٌ أَوْ بَعْضُ شَهْرٍ !

١٢

وَلَكِنَّ الشَّهْرَ مَضَى، وَرَجَعَ الْأَزْهَرِيُّ إِلَى الْقَاهِرَةِ،
 وَظَلَّ صَاحِبِنَا حَيْثُ هُوَ كَمَا هُوَ، لَمْ يُسَافِرْ إِلَى الْأَزْهَرِ، وَلَمْ
 يَتَّخِذِ الْعَمَّةَ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي جَبَّةٍ أَوْ قَفْطَانٍ.
 كَانَ لَا يَزَالُ صَغِيرًا، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْيَسِيرِ إِسْرَالَهُ إِلَى
 الْقَاهِرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ أَخُوهُ يَحِبُّ أَنْ يَحْتَمِلَهُ، فَأَشَارَ بَأَنُ يَبْقَى
 حَيْثُ هُوَ سَنَةً أُخْرَى، فَبَقِيَ وَلَمْ يَخْفَلِ أَحَدٌ بِرِضَاهُ أَوْ غَضَبِهِ.
 عَلَى أَنَّ حَيَاتِهِ تَغَيَّرَتْ بِعَمَضِ الشَّيْءِ؛ فَقَدْ أَشَارَ أَخُوهُ
 الْأَزْهَرِيُّ بَأَنُ يَقْضَى هَذِهِ السَّنَةَ فِي الْإِسْتِعْدَادِ لِلْأَزْهَرِ،
 وَدَفَعَ إِلَيْهِ كِتَابَيْنِ يَحْفَظُ أَحَدَهُمَا جَمَلَةً، وَيَسْتَظْهِرُ مِنَ الْآخَرِ
 مُصْحَفًا مُخْتَلَفَةً.

فَأَمَّا الْكِتَابُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يُدُّ مِنْ حِفْظِهِ كُلَّهُ فَالْقِيَّةُ ابْنِ مَالِكٍ.
 وَأَمَّا الْكِتَابُ الْآخَرُ فَجَمْعُ التُّونِ. وَأَوْصَى الْأَزْهَرِيُّ قَبْلَ
 سَفَرِهِ بَأَنُ يَبْدَأُ بِحِفْظِ الْأَلْفِيَّةِ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهَا وَأَتَقَّنَهَا

(١) أَغْرَاهُ بِهِ : أَوْلَعَهُ بِهِ وَخَصَّهُ عَلَيْهِ . (٢) ابْتَغَوْا : طَلَبُوا . وَالْوَسِيلَةُ :
 مَا يَقْرَبُ بِهِ إِلَى الْغَيْرِ . (٣) الْبَيْتَةُ : (بِالْكَسْرِ) : اسْمٌ مِنْ تَبَوُّا الْمَكَانَ
 إِذَا حَلَهُ . وَيُرَادُ بِهَا الْمَكَانَ الَّذِي يَأْوِيهِ الْإِنْسَانُ وَكُلُّ مَا يَحِيطُ بِهِ فِيهِ .

إتقاناً ، حفظ من الكتاب الآخر أشياء غريبة ، بعضها
يسمى الجوهرة ، وبعضها يسمى الخريدة ، وبعضها يسمى
السراجية ، وبعضها يسمى الرحية . وبعضها يسمى لامية
الأفانل . وكانت هذه الأسماء تقع من نفس الضبي مواقع تيه
وإعجاب ؛ لأنه لا يفهم لها معنى ، ولأنه يُقدّر أنها تدلّ على
العلم ، ولأنه يعلم أن أخاه الأزهرى قد حفظها وفهمها ، فأصبح
عالماً ، وظفر بهذه المكانة الممتازة في نفس أبويه وإخوته وأهل
القرية جميعاً . ألم يكونوا جميعاً يتحدثون بعودته قبل أن يعود
بشهر ، حتى إذا جاء أقبلوا إليه فرحين مبتهجين متلطفين ! ألم
يكن الشيخ يشرب كلامه شرباً ، ويُعيد على الناس في إعجاب
وغفار ! ألم يكن أهل القرية يتوسلون إليه أن يقرأ لهم درساً
في التوحيد أو الفقه ! وماذا عسى أن يكون التوحيد ؟ وماذا
عسى أن يكون الفقه ؟ ثم ألم يكن الشيخ يتوسل إليه ، مُلحاً
مستعظماً مسرفاً في الوعد ، بآلاً ما استطاع وما لم يستطع من
الأمانى ، ليلقى على الناس خطبة الجمعة ! ثم هذا اليوم المشهود
يوم مولد النبي ، ماذا لقي الأزهرى من إكرامٍ وحفاوةٍ ، ومن



تَجَلَّوْا كِبَارًا! كانوا قد اشتَرَوْا له فقطآنًا جديدًا، وَجِبَّةً جديدةً، وطربوشًا جديدًا، و «مركوبًا» جديدًا. وكانوا يَتَحَدَّثُونَ بهذا اليوم وما سيكون فيه قبل أن يُظْلَهُمْ^(١) بأيام. حتى إذا أُقبل هذا اليومُ واتصف، أُسرعتِ الأسرةُ إلى طعامها فلم تُصب منه إلا قليلًا، وليس الفتى الأزهرى ثيابَه الجديدة، واتخذ في هذا اليوم عمامة خضراء، وألقى على كتفيه شالًا من الكشمير، وأُمه تدعو وتتلو التعاويذ، وأبوه يخرج ويدخل جَدَلًا مضطربًا. حتى إذا تَمَّ للفتى من زِيَّه وهَيْئته ما كان يُريد، خرج فإذا فرسٌ ينتظره بالباب، وإذا رجالٌ يحملونه فيضعونه على السرج، وإذا قومٌ يَكْتَفُونَهُ^(٢) من يمينٍ ومن شمال، وآخرون يَسْعَوْنَ بين يديه، وآخرون يمشون من خلفه، وإذا البنادق تُطلقُ في الفضاء وإذا النساءُ يُزْعِرْنَ من كلِّ ناحية، وإذا الجوّ يتأرجح^(٣) بعرفِ البخور، وإذا الأصوات ترتفع متعنية بمدح النبي، وإذا هذا الحُفْلُ كله يتحرك في بُطءٍ وكأنما تحرك

(١) يظلمهم : يأتيهم وينشاهم .

(٢) يكتفونه : يحيطون به من كل جانب .

(٣) تأرجح الجوّ والمكان : فاحت فيه رائحة طيبة ذكية . والعرف : الرائحة .

معه الأرض وما عليها من دُور . كلُّ ذلك لأنَّ هذا الفتى الأزهرى قد اتَّخذ في اليوم خليفة، فهو يُطاف به في المدينة وما حولها من القُرى في هذا المهرجَانِ الباهر . وما باله اتَّخذ خليفة دون غيره من الشبان ؟ لأنه أزهرى قد قرأ العلم وحفظ الألفيَّةَ والجوهرة والخريدة ! فلم لا ينتهجُ الصبيُّ حين يرى أن سيِّئَرًا من العلم ما قرأ أخوه، وأن سيمتاز من رفاقه وأترابه بحفظ الألفيَّةَ والجوهرة والخريدة !؟

وكم كان فَرِحًا مختلًا حين غدا إلى الكُتَّاب يوم السبت وفي يده نسخةٌ من «الألفيَّة» ! لقد رفعته هذه النسخةُ درجاتٍ، وإن كانت هذه النسخة ضئيلةً قَدْرَةً سيئةً الجِدِّ، ولكنها على صالحتها وقذارتها، كانت تعدلُ عنده خمسين مُصحفًا من هذه المصاحف التي كان يحملها أترابه .

المصحف ! لقد حفظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئًا . وكثير من الشبان يحفظونه فلا يحفل بهم أحدٌ، ولا يُنتخبون خاقانًا يوم المولد النبوي . . .

ولكن الألفيَّةَ !.. وما أدراك ما الألفيَّةَ ! وحسبك أن

سَيِّدَنَا لَا يَحْفَظُ مِنْهَا حَرْفًا ، وَحَسْبُكَ أَنَّ الْعَرِيفَ لَا يُحْسِنُ
أَنْ يَقْرَأَ الْآيَاتِ الْأُولَى مِنْهَا . وَالْأَلْفِيَّةَ شِعْرُهُ ، وَبِئْسَ فِي
الْمَصْحَفِ شِعْرٌ .

الحقّ أنه ابتهج بهذا البيت :

قال محمدٌ هو ابنُ مالكٍ أَحْمَدُ رَبِّي اللَّهُ خَيْرَ مَالِكٍ

ابتهاجًا لم يشعُر بشيءٍ مثله أمام أيِّ سورةٍ من سور
القرآن .



وكيف لا يتبجح وقد أحسن منذ اليوم الأوّل أنه ارتفع
درجات ؛ أصبح « سيّدنا » لا يستطيع أن يُشرفَ على حفظه
لِلْأَلْفِيَّةِ وَلَا أَنْ يُقْرِنَهُ بِأَيِّهَا ، بَلْ ضَاقَ الْكُتَّابُ كُلَّهُ بِالْأَلْفِيَّةِ .
وَكُلِّفَ الصَّبِيُّ أَنْ يَذْهَبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَى الْمَحْكَمَةِ الشَّرْعِيَّةِ ؛
ليقرأ على القاضي ما يريد أن يحفظه من الألفيّة . القاضي عالمٌ
من علماء الأزهر ، أكبرُ من أخيه الأزهرى ، وإن كان أبوه
لا يؤمنُ بذلك ، ولا يرى أنَّ القاضي يُكافئُ ابنه . وهو على
كلِّ حالٍ عالمٌ من علماء الأزهر ، وهو قاضي الشَّرْعِ (بقاف
صنخمة وراء مفخّمة) . وهو في المحكّمة لا في الكتاب . وهو
يجلس على دكّة مرتفعة ، وقد وضعتُ عليها الطنّافس والوسائد ،
لا تقاسُ إليها دكّة سيّدنا ، وليس حولها نعالٌ مرّقة ، وعلى
بابه رجلان يقومان مقام الحاجب ويسمّيهما الناس هذا الاسمَ
البديع ، الذي لم يكن يخلو من هيبة : « الرُّسُل » .

نعم ! كان يجب على الصبي أن يذهب إلى المحكمة في كل صباح ، فيقرأ على القاضي باباً من أبواب الألفية . وكم كان القاضي يحسن القراءة ! وكم كان يملأ فمه بالقاف والراء ! وكم كان صوته يهدج^(١) بقول ابن مالك :

كَلَامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَأَسْتَقِيمُ * وَأَسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفُ الْكَلِمِ
وَإِحْدُهُ سَكَلَةٌ وَالْقَوْلُ عَمٌ * وَكَلِمَةٌ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤَمُّ
وَلَقَدْ اسْتَطَاعَ الْقَاضِي أَنْ يُؤَثِّرَ فِي نَفْسِ الصَّبِيِّ ، وَيَعْلَاهُ
تَوَاضُعًا حِينَ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَاتِ :

وَتَقْتَضِي رِضًا بغير سُخْطٍ * فَائِقَةٌ أَلْفِيَّةٌ ابْنِ مُعْطِي
وَهُوَ بِسَبْقِ حَائِزٌ تَفْضِيلًا * مُسْتَوْجِبٌ ثِنَائِي الْجَمِيلَا
وَاللَّهُ يَفْضِي بِهِاتٍ وَأَفْرَهُ * لِي وَلَهُ فِي دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ
قرأ القاضي هذه الآيات بصوت يحطمه البكاء خطماً ،
ثم قال للصبي : من تواضع لله رفّعه ، أتفهم هذه الآيات ؟
قال الصبي لا . قال القاضي : إن المؤلف رحمه الله تعالى ،
عند ما بدأ في نظم ألفيته اغترت وأخذ الكبر فقال : « فائقة
ألفية ابن معطي » . فلما كان الليل رأى فيما يرى النائم . أن

(١) تهج صوته : تقطع في ارتعاش .

ابن معطي قد أقبل يُعَاتبه عتاباً شديداً . فلما أفاق من نومه
أصلح من الثرور وقال : « وهو بسبق حائز تفضيلاً » .

وكم كان الشيخ مبتهجاً فرحاً حين عاد إليه الصبي عصر
ذلك اليوم ، فقصّ عليه ما سمع من القاضي ، وقرأ عليه
الآيات الأولى من الألفية ! فكان يقطع هذه الآيات بهذه
الكلمة التي يعبر بها الناس عن الاستحسان : « الله ! الله ! » .

على أن لكل شيء حداً ؛ فقد مضى صاحبنا في حفظ
الألفية فرحاً مبتهجاً حتى انتهى إلى باب المبتدأ ، ثم فترت
هيمته . وكان أبوه يسأله عصر كل يوم : هل ذهبت إلى
المحكمة ؟ فيجيب : نعم . فكم حفظت ؟ فيقرأ له ما حفظ .

ولكن الأمر ثقل عليه منذ باب المبتدأ ، فأخذ يحفظ
ويذهب إلى المحكمة متثاقلاً متباطئاً ، حتى وصل إلى باب
المفعول المطلق ، ثم لم يستطع أن يتقدم خطوة قصيرة
ولا طويلاً . ولبت يذهب إلى المحكمة في كل يوم ، ويقرأ
على القاضي فصلاً من فصول الألفية ، حتى إذا عاد إلى

الكتاب ألقى الألفية في ناحية، وانصرف إلى عبته ولعبه،
وإلى قراءة القصص والأحاديث.

فإذا كان العصرُ وسأله أبوه: هل ذهبتَ إلى المحكِّمة؟
أجاب: نعم.

— وكم حفظتَ من بيت؟

— أجب: عشرين.

— من أيِّ باب؟

— من باب الإضافة، أو من باب النَّعت، أو من باب

جمع التَّكسير.

فإذا قال له: اقرأْ علىَّ ما حفظتَ، قرأَ عليه عشرين بيتاً
من المائتين الأوليين، مرَّةً من المُعربِ والمبنيِّ، وأخرى من
التَّكررة والمعرفة، وثالثةً من المبتدأ والخبر، والشيخ لا يفهم
شيئاً، ولا يلاحظ أن ابنه يخدعه؛ وإنما يكتبُ بأن يسمع
كلاماً منظوماً، وهو مطمئن إلى القاضي. ومن غريب الأمر
أنَّ الشيخ لم يفكر مرَّةً واحدة في أن يفتح الألفية، ويُقابلَ
على الصبيِّ وهو يقرأ. ولو قد فعل يوماً من الأيام، لكانت

للصبيِّ قصةٌ كقصته مع سورة الشعراء، أو سبأ، أو فاطر...
على أن الصبيَّ تعرَّض لهذا الخطر مرَّةً. ولولا أن أمه
شَفَعَتْ فيه لمكان له مع أبيه موقفٌ مشهود.

كان له أخ يختلف إلى المدارس المدنيَّة، فعاد من القاهرة
ليقتضى فصلَ الصيف. واتفق أنه حضر هذا الامتحان اليوميَّ
أياماً متَّصلة؛ فسمع الشيخ يسأل الصبيَّ: أيُّ بابٍ قرأتَ؟
فيُجيب الصبيُّ: بابَ العطف مثلاً. فإذا طلب إليه أن يُعيد
ما قرأ، أعاد عليه باب العلم أو باب الصلَّة والموصول.

سكت الشابُّ في أوَّل يوم وفي اليوم الذي يليه. فلما
كثُر ذلك انتظر حتى انصرف الشيخ، وقال للصبيِّ أمام
أمه: إنَّك تخدع أباك وتكذب عليه، وتلعب في الكتاب،
ولا تحفظ من الألفية شيئاً... قال الصبيُّ: إنَّك كاذب!
وما أنت وذاك؟ وإنما الألفية للأزهريين لا لأبناء المدارس!
وسلَّ القاضي يُنبئك بأنِّي أذهب إلى المحكِّمة في كلِّ يوم.
قال الشابُّ: أيُّ باب حفظتَ اليوم؟ قال الصبيُّ: باب
كذا. قال الشابُّ: ولكنك لم تقرأ هذا الباب على أبيك،

وإنما قرأت عليه باب كذا ، وهاتِ نسخة الألفية أمتحنك
فيها . بهت الصبي وظهر عليه الوجوم . وهم الشاب أن
يقصّ القصة على الشيخ ، ولكن أمه توسلت إليه . وكان
الشاب رفيقاً بأمه رءوفاً بأخيه ، فسكت . وظل الشيخ على جهله
حتى عاد الأزهرى . فلما عاد امتحن الصبي وما هي إلا أن
عرف جليّة الأمر ، فلم يقضب ولم يندرز ولم يخبر الشيخ ،
وإنما أمر الصبي أن ينقطع عن الكتاب والحكمة . وأحفظه
الألفية كلها في عشرة أيام .

العلم في القرى ومدن الأقاليم جلال ليس مثله في العاصمة
ولا يثاتها العلمية المختلفة . وليس في هذا شيء من العجب
ولا من العراة ، وإنما هو قانون العرض والطلب ، يجرى على
العلم كما يجرى على غيره مما يباع ويشتري . فبينما يروح العلماء
ويندون في القاهرة لا يحفل بهم أحد ، أو لا يكاد يحفل بهم
أحد ، وبينما يقول العلماء في كثرون في القول ويتصرفون في
فنونه ، دون أن يلتفت إليهم أحد غير تلاميذهم في القاهرة ،
ترى علماء الريف ، وأشياخ القرى ومدن الأقاليم ، يندون
ويروحون في جلال ومهابة ، ويقولون فيستمع لهم الناس مع
شيء من الإكبار مؤثراً جذاب . وكان صاحبنا متأثراً بنفسية
الريف ، يكبر العلماء كما يكبرهم الريفيون ، ويكاد يؤمن
بأنهم فطروا^(١) من طينة تقيّة ممتازة غير الطينة التي فطر
منها الناس جميعاً .

(١) فطروا : خلقوا .

وكان يسمع لهم وهم يتكلمون ، فيأخذ شئاً من الإعجاب
والدهش ، حاول أن يجد مثله في القاهرة أمام كبار العلماء
وجلة الشيوخ ، فلم يُوفَّق .

كان علماء المدينة ثلاثة أو أربعة ؛ قد تقسموا فيما بينهم
إعجاب الناس ومودتهم . فأما أحدهم فكان كاتباً في المحكمة
الشرعية ، قصيراً ضخماً ، غليظ الصوت جهورياً ، يمتلئ
شدة بالألفاظ حين يتكلم ، فتخرج إليك هذه الألفاظ ضخمة
كصاحبها ، غليظة كصاحبها ؛ وتصدمك معانيها كما تصدمك
مقاطعتها . وكان هذا الشيخ من الذين لم يفلحوا في الأزهر ؛
قضى فيه ما شاء الله أن يقضى من السنين ، فلم يُوفَّق للعالمية
ولا للقضاء ، ففُتِح بمنصب الكاتب في المحكمة ، على حين
كان أخوه قاضياً ممتازاً ، قد جعل إليه قضاء أحد الأقاليم . ولم
يكن هذا الشيخ يستطيع أن يجلس في مجلس إفتاء بأخيه ،
وذم القاضى الذى هو معه . كان حنقاً المذهب ، وكان أتباع
أبى حنيفة في المدينة قليلين ، أو لم يكن لأبى حنيفة في المدينة
أتباع ؛ فكان ذلك ينيظه ويحرقه على خصومه العلماء الآخرين ،



الذين كانوا يتبعون الشافعيّ أو مالكا ، ويحدّون في أهل المدينة صدّي لعلمهم ، وطُلاباً للفقوى عندهم . فكان لا يدعُ فُرصةً إلاّ يجد فيها فقهَ أبي حنيفة ، وغضّ فيها من فقه مالك والشافعيّ . وأهلُ الريف مكررةٌ أذكاء ؛ فلم يكن يخفى عليهم أن الشيخ إنما يقول ما يقول ، ويأتي ما يأتي من الأمر ، متأثراً بالحدّ والموجدة^(١) ، فكانوا يعطفون عليه ، ويضحكون منه . وكانت المنافسة شديدةً عنيفةً بين هذا الشيخ وبين الفتي الأزهرى . كان الفتي الأزهرى يُنتخب خليفةً في كلِّ سنة ، فغاضه أن يُنتخب هذا الفتي خليفةً دونه . ولما تحدّث الناس أن الفتي سيُلقَى خطبة الجمعة سمع الشيخ هذا الحديث ولم يقل شيئاً . حتى إذا كان يومُ الجمعة وامتلاء المسجد بالناس ، وأقبل الفتي يُريد أن يصعد المنبر ، نهض الشيخ حتى انتهى إلى الإمام ، وقال في صوت سمعه الناس : إن هذا الشاب حديث السنّ ، وما ينبغي له أن يصعد المنبر ، ولا أن يخطب ، ولا أن يُصلّي بالناس وفيهم الشيوخ وأصحاب الأسنان . ولئن خلّيت بينه وبين المنبر والصلاة لأنصرفن . ثم التفت إلى الناس وقال :

ومن كان منكم حريصاً على ألا تبطل صلّاته فليتبني . سمع الناس هذا فاضطربوا ، وكادت تقع بينهم الفتنة ، لولا أن نهض الإمام فخطبهم وصلى بهم ، وحيل بين الفتي والمنبر هذا العام . ومع ذلك فقد كان الفتي أجهد نفسه في حفظ الخطبة واستعدّ لهذا الموقف أياماً متصلة ، وتلا الخطبة على أبيه غير مرّة . وكان أبوه ينتظر هذه الساعة أشدّ ما يكون إليها شوقاً ، وأعظم ما يكون بها ابتهاجاً ، وكانت أمه مشفقة تخاف عليه العين . فاكاد الفتي يخرج إلى المسجد ذلك اليوم ، حتى نهضت إلى حجر وضعت في إناء وأخذت تُلقي فيه ضرباً من البخور ، وتطوفُ به البيت حُجرةً حُجرةً . تقفُ في كلِّ حجرةٍ لحظاتٍ ومهمهم بكلمات . وظلّت كذلك حتى عاد ابنها ، فإذا هي تلقاه من وراء الباب مُبخرّةً مهمهمةً ، وإذا الشيخ مُغضبٌ يلعن هذا الرجل الذي أكل الحسد قلبه ، خال بين ابنه وبين المنبر والصلاة . وكان في المدينة عالم آخر شافعيّ ، كان إمام المسجد وصاحب الخطبة والصلاة ، وكان معروفًا بالثقي والورع ، يذهب الناس في إكباره وإجلاله إلى حدّ يُشبهه التقديس : كانوا

يتبركون به ، ويلتمسون عنده شفاء مرضاهم وقضاء حاجاتهم .
وكانه كان يرى في نفسه شيئاً من الولاية . وظلَّ أهل المدينة
بعد موته سنينَ يذكرونه بالخير ، ويتحدّثون مقتنعين بأنه
عندما أنزل في قبره قال بصوتٍ سمعه الشيعيون جميعاً : اللهم
اجعله منزلاً مباركاً . وكانوا يتحدّثون بما رأوا فيما يرى النائم
من حظِّ هذا الرجل عند الله ، وما أعدَّ له في الجنة من نعيم .

وشيخٌ ثالث كان في المدينة ، وكان مالكي المذهب ، ولم
يكن يقطع للعلم ولا يتخذُه حرفةً ، وإنما كان يعمل في الأرض
ويتجر ، ويخلف إلى المسجد فيؤدِّي الخمس ، ويجلس إلى
الناس من حينٍ إلى حين ، فيقرأ لهم الحديث ويُفقههم في
الدين متواضعاً غير تباهٍ ولا فخور ، ولم يكن يحفل به إلا
الأقربون عدداً .

هؤلاء هم العلماء . ولكنَّ علماء آخرين كانوا مُنبتين^(١)
في هذه المدينة وقراها وريفها ، ولم يكونوا أقلَّ من هؤلاء
العلماء الرسميين تأثيراً في دَهَاءِ الناس وتسلُّطاً على عقولهم :

(١) منبتين : منتشرين .

منهم هذا الحاج . . . الخياط الذي كان دُكَّانه يكاد يُقايِب
الكتاب ، والذي كان الناس مجتمعين على وصفه بالبخل والشح .
والذي كان مُتصلاً بشيخٍ من كبار أهل الطرق ، والذي كان
يزدرى^(١) العلماء جميعاً ؛ لأنهم يأخذون علمهم من الكتب
لا عن الشيوخ ، والذي كان يرى أن العلم الصحيح إنما هو العلم
اللُدنيّ ، الذي يهبط على قلبك من عند الله دون أن تحتاج إلى
كتاب ، بل دون أن تقرأ أو تكتب .

ومنهم هذا الشيخ . . . الذي كان في أوَّل أمره حماراً ينقل
للناس بضائعهم وأمتعتهم ، ثم أصبح تاجراً ، واقتصرت حمَّره
على نقل تجارته ، والذي كان الناس مجتمعين على أنه أكل أموال
اليتامى ، وأثرى^(٢) على حساب الضعفاء ، والذي كان يكثرُ
من ترديد هذه الآية وتفسيرها : «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا» ،
والذي كان يكره الصلاة في المسجد الجامع ؛ لأنه كان يكره
الإمامَ ومنَ إليه من العلماء ، ويؤثِّر الصلاة في مسجد صغير
لا قيمة له ولا مكانة .

(١) ازدرأ : احقره واستخف به . (٢) أثرى : كثر ماله .

ومنه هذا الشيخ... الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يُحَسِّنُ قِراءَةَ الفاتحة. ولكنه كان شاذياً من أصحاب الطريق، كان يجمع الناس إلى الذكر، ويفتيهم في أمور دينهم ودنياهم.

ثم منهم الفقهاء الذين كانوا يقرءون القرآن ويُقرئونه للناس، والذين كانوا يميزون أنفسهم من العلماء ويسمَّون «حَمَلَةَ كِتَابِ اللَّهِ». والذين كانوا يتصلون بدهماء الناس والنساء منهم خاصة. كانت تجهرشهم من المكفوفين، فكانوا يدخلون البيوت يتلون فيها القرآن. وكان النساء يتحدثن إليهم، ويستفتينهم في أمور الصَّوم والصلاة وما إلى ذلك من أمورهن. وكان لهؤلاء الفقهاء علمٌ يخالف كلَّ المخالفة لعلم العلماء الذين يأخذون علمهم من الكتب، والذين بينهم وبين الأزهر سببٌ قوى أو ضعيف وكان علمهم مخالفاً أيضاً لعلم أصحاب الطرُق وأهل العلم اللدني، كانوا يأخذون علمهم من القرآن مباشرة، يفهمونه كما يستطيعون، لا كما هو ولا كما ينبغي أن يفهمهم. يفهمونه كما كان يفهمه سيدنا، وكان من

أذكى الفقهاء وأشدَّهم علماً، وأقدرهم على التأويل. سأله الصبي ذات يوم: ما معنى قول الله تعالى: «وَخَلَقَكُمْ أَطْوَاراً؟» فأجاب هادئاً مطمئناً: خلقكم كالثيران لا تمقلون شيئاً. أو يفهمونه كما يفهمه جدُّ هذا الصبي نفسه، وكان من أحفظ الناس للقرآن وأبرعهم في فهمه وتفسيره وتأويله. سأله حفيده ذات يوم عن قول الله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ» فقال: «على حرفٍ دَكَّة، على حَرْفٍ مَصْطَبَةٌ... فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ فَهُوَ مُطْمَئِنٌّ فِي مَكَانِهِ، وَإِنْ أَصَابَهُ شَرٌّ انْكَفَأَ عَلَى وَجْهِهِ».

وكان صبينا يختلف^(١) بين هؤلاء العلماء جميعاً، ويأخذ عنهم جميعاً، حتى اجتمع له من ذلك مقدارٌ من العلم ضخمٌ مختلفٌ مضطربٌ متناقضٌ، ما أحسبُ إلا أنه عملٌ عملاً غيرَ قليلٍ في تكوين عقله الذي لم يخلُ من اضطراب واختلاف وتناقض.

(١) يختلف هنا: يتردد.

صاحب السافلة إلى العالية ! وكان أبو الصبي من أتباع صاحب العالية ، أخذ عنه العهد ، وأخذ عنه أبوه من قبل . وكانت أم الصبي من أتباع صاحب العالية أيضاً ، بل كان أبوها من أنصاره وحواربيّه ^(١) المُتقربين إليه . ومات صاحب العالية وخلفه على الطريق ابنته الحاج . . . وكان أنشط من أبيه ، وأقدر على الكيد واللؤم ، وأنهض للخصومة . كان أقرب من أبيه إلى الدنيا ، وأبعد من أبيه عن الدين .

وكان أبو الصبي قد هبط إلى السافلة واستقرَّ فيها ، فكانت لصاحب العالية عادة أن يزوره مرّة في كل سنة . وكان إذا أقبل لم يُقبل وحده ولم يُقبل في نفر قليل ، وإنما أقبل في جيش ضخم ، إن لم يبلغ المائة فليس ينحط عنها إلا قليلا . ولم يكن يتخذ فطر السكة الحديدية ولا سُفن النيل ، وإنما كان يتخذ الجياد والبغال والحمر ، يسير ومن حوله أصحابه ، فيمرون بالقرى والساكر ، ينزلون ويرحلون في أبهة وضخامة ، منتصرين حيث لا سلطان إلا لهم ، مُتحدّين ^(٢) حيث لخصومهم شيء من القوة . وكانوا إذا زاروا أسرة

(١) الحواري : الناصر . (٢) التحدي : طلب المبارزة للغلبة .

وشيوخ الطريق ، وما شيوخ الطريق ! كانوا كثيرين مُنبئين ^(١) في أقطار الأرض ، لا تكاد تخلو منهم المدينة أسبوعاً وكانت مذاهبهم مختلفة ، وكانوا قد تقسموا الناس فيما بينهم فجعلوهم شيعاً ، وفرقوا أهواءهم تفريقاً عظيماً . وكانت المنافسة حادة في الإقليم بين أسرتين من أصحاب الطريق ، لإحداهما أعلاه ، وللأخرى أسفله .

وإذا كان أهل الإقليم ينتقلون ولا يأتون على أنفسهم الهجرة من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة داخل الإقليم ، فقد كان يتفق أن ينزل أتباع إحدى الأسرتين حيث تتسلط الأسرة الأخرى . وكان زعماء الأسرتين ينتقلون في الإقليم يزورون أتباعهم وأشياعهم . والله ما كان يحدث من الخصومات يوم يهبط صاحب العالية إلى السافلة ، أو يصعد

(١) أي منتشرين في نواحي الأرض .

الصبي، أقبلوا حتى ينزلوا، فإذا الشارع ممتلئ بهم وبخيلهم
وبغالهم ومهرم، قد أخذوه من القناة إلى أقصاه الجنوبي،
وإذا الشاء تذبج، وإذا السمط^(١) ممدودة في الشارع، وإذا هم
إلى طعامهم في شره لا يعدله شره، والشيخ جالس في المنطرة
ومن حوله أصفياؤه وأولياؤه، وبين يديه صاحب البيت
وأخصاؤه ياتمرون أمره^(٢). فإذا فرغوا من الغداء انصرفوا
عنه، فنام حيث هو، ثم نهض فتوصلاً. فانظر إلى الناس
يستبقون ويحتصمون أيهم يصب عليه الماء! فإذا فرغ،
فانظر إليهم يستبقون ويحتصمون أيهم يصيب من وضوء^(٣)
الشيخ جرعة! والشيخ عنهم في شغل، يصلّي فيطيل الصلاة،
ويدعو فيطيل الدعاء. حتى إذا فرغ من هذا كله جلس للناس
وهم يتقاطرون عليه، منهم من يقبل يده وينصرف خاشعاً،
ومنهم من يتحدث إليه لحظة أو لحظات، ومنهم من يسأله
حاجة، والشيخ يجيب أولئك وهؤلاء بالفاظ غريبة غامضة،

(١) السمط: جمع سماء (بالكسر)، وهو ما يبسط ليوضع عليه الطعام.

(٢) اتمرون أمره: امتثله. (٣) الرضوء (بفتح الواو): الماء الذي يتوضأ به.

يذهبون في فهمها وتأويلها المذاهب.

أدخل عليه الصبي، فمسح رأسه وتلا قول الله تعالى:
«وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا».
من ذلك اليوم اقتنع أبو الصبي بأن سيكون لابنه شأن. فإذا
صليت المغرب مددت الموائد وأكل الناس ثم تصلّى العشاء
ثم ينصب المجلس.

ونصب المجلس عبارة عن اجتماع الناس إلى حلقة الذكر،
يذكرون الله قاعدين ساكنين، ثم تتحرك رؤوسهم وترتفع
أصواتهم قليلاً، ثم تتحرك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلاً،
ثم تثبت في أجسامهم رعدة فإذا هم جميعاً وقوف، قد دُفِعوا
في الهواء كأنما حركهم لولب، وقد انبث في الحلقة شيوخ
ينشدون شعر ابن الفارض وما يشبهه من الشعر. وكان لهذا
الشيخ خاصة كلف بقصيدة معروفة، فيها ذكر الإسراء
والمعراج، أولها:

من مكة والبيت الأجدد * للقدس سرى ليلاً أحمد
كان الشيوخ يرتلونها ترتيباً، وكان الذاكرون يحركون

أجسامهم على هذا الترتيل، ينحنون ويستقيمون كأنما يُرْقِصهم هؤلاء الشيوخ ترقيصاً.

ومهما ينس الصبي فلن ينسى ليلة غلط فيها أحد المنشدين فوضع لفظاً مكان لفظ من القصيدة، وإذا الشيخ قد ثار وفار، وأرغى وأزبد^(١)، وصاح بلء صوته: يا بني الكلاب! لعن الله آباءكم وآباء آبائكم وآباء آباء آبائكم إلى آدم! أتريدون أن تُخربوا بيت الرجل!

ومهما ينس الصبي فلن ينسى تأثير هذه الغضببة في نفوس الناكرين وفي نفوس الناس من حولهم، وكان الناس قد اقتنعوا بأن الغلط في هذه القصيدة مصدر شويم لا يشبهه شويم. وأظهر أبو الصبي تأثراً وفرعاً، ثم اطمئناناً وهدوءاً. فاما انصرف الشيخ من الغد وتذاكرت الأسرة ما كان من أمره، وما كان من قصته مع الناكرين والمنشدين، ضحك صاحب البيت ضحكة لم يشك الصبي بعدها في أن إيمان أبيه بهذا الشيخ لم يكن خالصاً من الشك والإزدراء... نعم من الشك والإزدراء! فقد كان طمع الشيخ وجرسه أظهر من

(١) أرغى وأزبد: ضج غضباً، وتهدد وتوعده.

أن ينخدع بهما من له حظ من أناة وتفكير.

وكان من أشد الناس مقلداً للشيخ وسخطاً عليه أم الصبي. كانت تكره زيارته، وتستقل ظله، وتودى ما تودى وتعد ما تعد وهي كارهة ساخطة، لا تكاد تُمسك لسانها إلا في مشقة وعناء. ذلك لأن زيارة الشيخ كانت ثقيلة على هذه الأسرة التي كانت تعيش من سعة، ولكنها كانت فقيرة على كل حال.

كانت زيارة الشيخ تستهلك كثير أمن القمح والسمن والعسل وما إلى ذلك، وكانت تكلف صاحب البيت الاقتراض لشراء ما لا بد منه من الضأن والمعز. وكان الشيخ لا يلبث بهذه الأسرة إلا ارتحل من غده وقد أخذ شيئاً راقه وأعجبه: يأخذ في هذه المرة بساطاً، وفي هذه شالاً من الكشمير، وعلى هذا النحو.

كانت زيارة هذا الشيخ وأصحابه شيئاً ترغّب فيه الأسرة رغبة شديدة لأنه يمكنها من الفخر ورفع الرأس ومناوأة الأشباه والنظائر، وتكرهه كرهاً شديداً لأنه يكلفها ما يكلفها من المال والمشقة. كانت شرّاً لا بد منه، جرت به العادة

وصادف هوًى في الناس . وكان اتصال الأسرة بهذا البيت من بيوت الطريق قوياً متيناً ، ترك فيها آثاراً باقية من الأخبار والقصص ، وأحاديث الكرامات والمعجزات . وكانت أمُّ الصبي وأبوه يجذبان لذةً في أن يتحدثا إلى أبنائهما بهذه الأخبار والأحاديث . ولم تكن أمُّ الصبي تدعُ فرصةً إلا قصتُ فيها هذه القصةَ : « حجَّ أبي ومعه جدتي مع الشيخ خالد مرةً ، وكان الشيخ قد حجَّ ثلاث مرات تبعه فيها أبي ، واستصحب أمه في هذه المرة . فاما فرغوا من الحج وانصرفوا إلى المدينة ، وقمت الشيخة في بعض الطريق من الرِّحل^(١) فانحطم ظهرها انحطاماً ، وعجزت عن المشي والحركة ، وأخذ ابنها يحملها وينقلها من مكان إلى مكان ، ويجد في ذلك من المشقة والعناء ما شكاه إلى الشيخ ذات يوم ، فقال له الشيخ : أَلستَ تزعم أنها شريفةٌ من نسل الحسن بن عليٍّ ؟ قال بلى . قال : فهي ذاهبة إلى جدِّها ، فإذا انتهت بها إلى المسجد النبوي فصعَّمها في ناحيةٍ منه ، وخلَّ بينها وبين جدِّها يصنع بها ما يشاء .

(١) الرجل للبعير كالسرج للفرس .

وكذلك فعل الرجلُ : وضعَ أمه في ناحيةٍ من نواحي المسجد وقال لها في لمة الفلاح الجافية يملؤها مع جفوتها الحب والإشفاق : أنتِ وَجَدُكِ ، فليس لي بكأشأن . ثم تركها وتبع شيخه يريد أن يطوف بقبر النبي . قال الرجل : فوالله ما خطوتُ خُطواتٍ حتى سمعتُ أمي تناديني ، فالتفتُ فإذا هي قائمةٌ تسمي ، وأيئتُ أن أعود إليها ، فإذا هي تعدو من ورأى عدوًّا ، وإذا هي تَسْبِقُنِي إلى الشيخ وتطوف مع الطائفين .

وكان أبو الصبي لا يدعُ فرصةً إلا ذكر فيها عن الشيخ هذه القصة : ذكر أمامه أن الغزالي قال في بعض كتبه : إن النبي لا يمكن أن يُرى فيما يرى النَّائمُ ففضِّب الشيخ وقال : والله ما هكذا كان الأملُ فيك يا غزالي ! لقد رأيتُه بعيني رأسي هذا راكباً بغلته . وذكر له ذلك مرةً أخرى فقال : والله ما هكذا كان الأملُ فيك يا غزالي ! لقد رأيتُه بعيني رأسي هذا راكباً ناقته . وكان أبو الصبي يستنبط من ذلك أن الغزالي قد أخطأ ، وأن عامة الناس يستطيعون أن يروا النبي فيما يرى النَّائمُ ، وأن الأولياء والصالحين يستطيعون أن يرووه وهم أيقاظ . وكان

أبو الصبيُّ يُثَبِّتُ هذا بمحدث يرويهِ كلما ذكر هذه القصة ، وهو : « مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ قَدْرَ رَأَى حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي » .

وعلى هذا النحو حفظ الصبيُّ ألواناً من أخبار الكرامات والمعجزات وأسرار الصوفيَّة . وكان إذا أراد أن يتحدث بشيء من ذلك إلى أترابه ورفاقه في الكُتَّابِ قَصَّوا عليه أمثاله ، يُضَيِّفُونَهُ إلى صاحب السافلة ويؤمنون به إيماناً شديداً .

كانت لأهل الريف شيوخهم وشبانهم وصبيانهم ونسائهم عقلية خاصة فيها سذاجةٌ وتَصَوُّفٌ وَغَفَلَةٌ ، وكان أكبر الأثر في تكوين هذه العقلية لأهل الطريق .

على أَنَّ صَبِيَّنَا لم يَلْبِثْ أَنْ أَضَافَ إلى هذه الألوان من العلم لوناً آخر جديداً ، وهو علم السِّحْرِ والطلاسم ؛ فقد كان باعة الكتب يتنقلون في القرى والمدن بخليطٍ من الأسفار ، لعله أُصْدِقُ مثل لمقيدة الريف في ذلك العهد . كانوا يحملون في حقائبهم مناقبَ الصالحين ، وأخبارَ الفتح والغزوات ، وقصة القِطِّ والفار ، وحوارِ السُّلَّكِ والواوور ، وشمس المعارف الكبرى في السحر ، وكتاباً آخر لستُ أدري كيف كان يُسَمَّى ، ولكنه كان يُعْرَفُ بكتاب « الدِّيَرَبِيِّ » ، ثم أورداداً مختلفة ، ثم قصصَ المولد النبويِّ ، ثم مجموعاتٍ من الشعر الصوفيِّ ، ثم كتباً في الوعظ والإرشاد ، وأخرى في المحاضرات وعبائب الأخبار ، ثم قصصَ الأبطال من الهلاليين والزناتيين ، وعترة ، والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذي يزن ، ثم القرآن الكريم مع هذا كله . وكان الناس يشترون هذه الكتب

كلِّها ويلتهمون ما فيها التهاماً ، وكانت عقليتهم تتكوّن
من خلاصته كما تتكوّن أجسامهم من خلاصة ما كانوا
يأكلون ويشربون .

وقد قرى لصاحبنا من هذا كلة ، فحفظَ منه الشيء
الكثير . ولكنه عني بشيئين عنايةً خاصّة : عني بالسحر ،
وعني بالتصوف . ولم يكن في الجمع بين هذين اللونين من
العلم شيء من الغرابة ولا من العُسر ؛ فإن التناقض الذي يظهر
بينهما ليس إلاً صورياً في حقيقة الأمر . أليس الصوفي يزعم
لنفسه وللناس أنه يخترق حُجُبَ النيب ، ويُنبئ بما كان
وما سيكون ، كما أنه يتمدّد حدود القوانين الطبيعية ويأتي
بضروب الخوارق والكرامات ؟ والساحر ماذا يصنع ؟
أليس يزعم لنفسه القدرة على الإخبار بالنيب ، وتجاوز حدود
القوانين الطبيعية أيضاً ، والاتّصال بعالم الأرواح ؟ . . .
بلى ! كل ما يوجد من الفرق بين الساحر والصوفي هو أن
هذا يتّصل بالملائكة ، وذلك يتّصل بالشياطين . ولكن
يجب أن نقرأ ابن خلدون وأمثاله لنصل إلى تحقيق مثل هذا



الفرق ، ونُرتب عليه نتائجهُ الطبيعية من تحريم السحر والترغيب عنه ، وتحبيب التصوُّف والترغيب فيه .

وما كان أبعدَ صبيئنا وأترابه عن ابن خلدون وأمثال ابن خلدون ! إنما كانت تقع في أيديهم كتبُ السحر ومناقب الصالحين وكرامات الأولياء ، فيقرءون ويتأثرون . ثم لا يلبثون أن يتجاوزوا القراءة والإعجاب إلى الاقتداء والتجربة . وإذا هم يسلكون مناهج الصوفيَّة ، ويأتون ما يأتيه السَّحرة من ضروب الفنِّ . وكثيراً ما يختلط في عقولهم السحر والتصوُّف ، فيصبح كلاهما شيئاً واحداً ، غايته تيسيرُ الحياة والتقرب إلى الله .

وكذلك كان الأمر في نفس صاحبنا ؛ فقد كان يتصوَّف ويتكلَّف السحر ، وهو واثقٌ بأنه سيَرْضَى الله ، ويظفَرُ من الحياة بأحبِّ لذاتها إليه .

وكان من القصص التي تكثرُ في أيدي الصبيان يحملها إليهم باعة الكتب ، قصةٌ اقتطعتُ من « ألف ليلة و ليلة » وتُعرفُ بقصة « حسن البصريِّ » . في هذه القصة أخبارُ

ذلك الجوسيِّ الذي كان يحوِّل النحاسَ ذهباً ، وأخبارُ ذلك النصر الذي كان يقوم من وراء الجبل على مُعدِّ شاهقة في الهواء ، ويُقيمُ فيه بناتٍ سبعٍ من بنات الجنِّ ، والذي أوى إليه حسن البصريِّ ، ثم أخبارُ حسن هذا وما كان من رحلته الطويلة الشاقَّة إلى دُور الجنِّ . وبين هذه الأخبار خبرُ ملاءِ الصبيِّ إعجاباً ، وهو أنَّ قضيباً أهدى إلى حسن هذا في بعض رحلاته . وكان من خواصِّ هذا القضيب أن تُضربَ به الأرضُ فتنشقُّ ويخرج منها تسعةُ نفرٍ يأتمرون أمر^(١) صاحب القضيب ، وهم بالطبع من الجنِّ أقبواهُ خفافاً يطيرون ويُعدُّون ، ويحمون الأثقال ، ويقتلعون الجبال ، ويأتون من عجيب الأمر ما لا حدَّ له .

فَتِنَ الصبيُّ بهذه المصا ، ورغِبَ في أن يظفَر بها رغبةً شديدة قوية أرقت^(٢) ليلته ونفست يومه ، فأخذ يقرأ كتب

(١) انتصر أمره : امثله . وعمل به .
(٢) الأرق : ذهب النوم بالليل . والمراد أن هذه الرغبة الشديدة أرقته هو في ليله ونفسته في يومه . ولكن الكتاب قد شك سبيل المجاز في الإسناد ، فجعل التأريخ واقعاً على الليل والتنغيص واقعاً على اليوم ، ليدل على أن التأريخ استغرق ليله كله وأن التنغيص استغرق يومه كله .

السحر والتصوف ، يلتبس عند السحرة والمتصوفين وسيلة تمكنه من هذه العصا .

وكان له قريب صبي مثله يُرافقه إلى الكتاب ، فكان أشد منه كلفاً بهذه العصا . وما هي إلا أن جد الصبيان في البحث حتى اتبها إلى وسيلة يسيرة تمكنهما مما يريدان . وجداها في كتاب الديري ، وهي أن يخلو الفتى إلى نفسه وقد تطهر ووضع بين يديه ناراً ومقداراً من الطيب ، ثم يأخذ في تزويد هذا الاسم من أسماء الله « يا لطيف يا لطيف » ملقياً في النار شيئاً من الطيب من حين إلى حين ، فيمضي في ترديد هذه الكلمة وتحريق هذا الطيب ، حتى تدور به الأرض ، وينشق أمامه الحائط ، ويمثل أمامه خادم من الجن مؤكّل بهذا الاسم من أسماء الله ، فيطلب إليه ما يريده ، والحاجة مقضية من غير شك .

ظفر الصبيان بهذه الوسيلة ، فاعتزما أن يستخدمها . وما هي إلا أن اشتريا ضرورياً من الطيب ، وخلا صبيتا إلى نفسه في المنظرة ، أغلق بابها من دونه ، ووضع بين يديه قطعاً من

النار وأخذ يلتقي فيها الطيب ، ويردد : « يا لطيف ! يا لطيف ! » . وطال به هذا وهو ينتظر أن تدور به الأرض وينشق له الحائط ويمثل الخادم بين يديه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . وهنا تحوّل صبيتا الساحر المتصوف إلى نصاب .

خرج من المنظرة مضطرباً يسك رأسه بيديه ولا يكاد لسانه ينطق بحرف واحد . فلتقاه صاحبه الصبي يسأله : هل لبي الخادم ؟ وهل طلب إليه العصا ؟ وصاحبنا لا يجيب إلا مضطرباً مرتجفاً ، تصطك أسنانه اصطكاً ، حتى روع رفيقه الصبي . وبعد لأي^(١) أخذ صاحبنا يهدأ ويحجب في ألفاظ متقطعة وبصوت مهدج : « لقد دارت بي الأرض حتى كدت أسقط ، وانشق الحائط وسمعت صوتاً ملاً الحجر من جميع نواحيها ، ثم أغمى عليّ ، ثم أفقت فخرجت مسرعاً ! سمع الصبي هذا ، فامتلاً فرحاً وإعجاباً بصاحبه ، وقال له : هوّن عليك ؛ فقد أصابك الرعب وملك الخوف عليك أمرك ؛ فلنبحث في الكتاب عن شيء يؤمنك ويشجعك على أن

(١) بعد لأي : بعد بطء واحتباس أو بعد جهد .

تثبتَ للخادم وتطلب منه ما تشاء . واستأنفا البحث في الكتاب . وانتهى بهما البحث إلى أن صاحب الخلوة يجب أن يصلّي ركعتين قبل أن يجلس إلى النار وبأخذ في ترديد هذا الاسم . وكذلك فعل الصبيّ من غده ، وأخذ يُلقِي الطيبَ في النار ويردّد دعاء « اللطيف » ينتظر أن تدور به الأرض . وينشقّ له الحائط ، ويمثّل الخادم بين يديه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . وخرج الصبي إلى صاحبه هادئاً مطمئناً ، فأخبره أن قد دارت الأرض وانشقّ الحائط ومثّل الخادم بين يديه وسمع منه حاجته ، ولكنه لم يشأ أن يُجيبه إليها حتى يمرّن على هذه الخلوة ، ويكثر من الصلاة وإطلاق البخور وذكر الله ، وضرب له موعداً لقضاء هذه الحاجة شهراً كاملاً يأتي فيه هذا الأمر في نظام ؛ فإن فسَد هذا النظام فلا بُدّ من استئناف الأمر شهراً كاملاً آخر . وصدّق الصبيّ صاحبه ، وأخذ يلحّ عليه في كلِّ يوم أن يخلو إلى النار ويردّد الدعاء . وأخذ الصبيّ يستغلُّ من صاحبه هذا الضمف ، ويكلفه ما شاء من مشقة وعناء . فإن أبي أو أظهر الإباء أعلن إليه صاحبه أنه لن

يخلو إلى النار ، ولن يدعوا « اللطيف » ، ولن يلمس العصا ؛ فيذعن إزعاناً سريعاً .

على أن صاحبنا لم يكن يميل وحده إلى السحر والتصوف ، وإنما كان يُدفعُ إلى ذلك دفعاً ، يدفعه إليه أبوه . ذلك أن الشيخ كان كثير الحاجات عند الله : كان له أبناء كثيرون ، وكان يحرص على تعليمهم وتهذيبهم . وكان فقيراً لا يستطيع أن يؤدّي نفقات ذلك التعليم . وكان يستدين من حين إلى حين ويثقلُ عليه أداء الدين . وكان يطمع في أن يزد راتبه من حين إلى حين ، وكان يطمع في أن يتقدّم درجةً وينتقل من عمل إلى عمل . وكان يلمس هذا كله عند الله بالصلاة والدعاء والاستخارة . وكان أحبُّ وسائل الالتماس إليه « عديّة يس » . وكان يطلب « عديّة يس » هذه إلى ابنه الصبيّ ؛ لأنه صبيٌّ ولأنه مكفوف ، وهو بهاتين العزيتين أشير^(١) عند الله رفيع المكانة عنده . وهل يرضى الله أن يرّد صبيّاً مكفوفاً حين يطلب إليه أمراً من الأمور متوسلاً بقراءة القرآن !

(١) أثير عند الله : مقرب مكرم .

وكانت «عِدْيَةُ يَسَّ» مَرَاتِبَ: أُولَاهَا أَنْ يَخْلُو الْإِنْسَانُ إِلَى نَفْسِهِ فَيَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يَطْلُبُ مَا يَشَاءُ وَيَنْصَرِفُ . وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَخْلُو إِلَى نَفْسِهِ فَيَتْلُو هَذِهِ السُّورَةَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يَطْلُبُ مَا يَشَاءُ وَيَنْصَرِفُ . وَالثَّلَاثَةُ أَنْ يَخْلُو إِلَى نَفْسِهِ فَيَتْلُو هَذِهِ السُّورَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ مَرَّةً لَا يَفْرُغُ مِنْ قِرَاءَتِهَا مَرَّةً حَتَّى يُتِمَّ بِهَا بَدْعَاءَ يَسَّ : «يَا عَصْبَةَ الْخَيْرِ بَخِيرِ الْمَلَلِ» ، فَإِذَا أَتَمَّ الْقِرَاءَةَ طَلَبَ مَا شَاءَ وَانصَرَفَ . وَبِالْبُخُورِ مَحْتَمٍ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الثَّلَاثَةِ . وَكَانَ الشَّيْخُ يَكْفُّ ابْنَ الْعِدْيَةِ الصَّغْرَى فِي صِغَارِ الْأُمُورِ ، وَالْوَسْطَى فِي الْأُمُورِ الْهَامَّةِ ، وَالْكَبْرَى فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَمَسُّ حَيَاةَ الْأُسْرَةِ كُلِّهَا . فَإِذَا سَعَى فِي أَنْ يُدْخِلَ أَحَدَ أَبْنَائِهِ فِي الْمَدْرَسَةِ مَجَانًا فَالْعِدْيَةُ الصَّغْرَى . وَإِذَا تَمَسَّ إِلَى اللَّهِ أَدَاءَ دَيْنٍ ثَقِيلٍ فَالْعِدْيَةُ الْوَسْطَى . وَإِذَا رَغِبَ فِي أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ عَمَلٍ إِلَى عَمَلٍ وَأَنْ يُزَادَ رَاتِبُهُ جَنِيحًا أَوْ بَعْضَ الْجَنِيحِ فَالْعِدْيَةُ الْكَبْرَى . وَكَانَ لِكُلِّ عِدْيَةٍ أَجْرٌ : فَأَمَّا الْعِدْيَةُ الصَّغْرَى فَأَجْرُهَا قِطْعَةٌ مِنَ السَّكَّرِ أَوْ الْخُلُوى . وَأَمَّا الْعِدْيَةُ الْوَسْطَى فَأَجْرُهَا خَمْسَةُ مِئَلِيَّاتٍ . وَأَمَّا

الْعِدْيَةُ الْكَبْرَى فَأَجْرُهَا عَشْرَةٌ . وَكَثِيرًا مَا خَلَا الصَّبِيُّ إِلَى نَفْسِهِ وَقَرَأَ سُورَةَ يَسَّ أَرْبَعًا أَوْ سَبْعًا أَوْ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِنْ عَجِيبِ الْأَمْرِ أَنَّ الْحَاجَاتِ كَانَتْ تُهَضِّى دَائِمًا . وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ تَمَّ اقْتِنَاعُ الشَّيْخِ بِأَنَّ ابْنَ مُبَارَكٍ ، وَبِأَنَّهُ أَثِيرٌ عِنْدَ اللَّهِ .

وَلَمْ يَكُنْ أَمْرُ السَّحْرِ وَالتَّصَوُّفِ مَقْصُورًا عَلَى قَضَاءِ الْحَاجَاتِ وَالتَّنْبُؤِ بِمَا سَيَنْجَلِي عَنْهُ الْغَيْبُ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَتَجَاوَزُ هَذَا كُلَّهُ إِلَى دَفْعِ الْمَكْرُوهِ وَاتِّقَاءِ التَّكْبِتِ . وَقَدْ نَسِيَ الصَّبِيُّ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْسَ هَذَا الرَّغْبَ الَّذِي مَلَأَ قُلُوبَ النَّاسِ جَمِيعًا فِي الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى ، حِينَ وَصَلَتْ إِلَيْهِمُ الْأَخْبَارُ مِنَ الْقَاهِرَةِ بِأَنَّ تَجَمُّدًا ذَنْبٌ سَيُظْهِرُ فِي السَّمَاءِ بَعْدَ أَيَّامٍ ؛ حَتَّى إِذَا كَانَتْ السَّاعَةُ الثَّانِيَةَ بَعْدَ الظُّهْرِ مَسَّ الْأَرْضَ بِطَرْفٍ مِنْ ذَنْبِهِ فَإِذَا هُوَ هَشِيمٌ ^(١) تَذْرُوهَ الرِّيَّاحُ . فَأَمَّا النِّسَاءُ وَعَامَّةُ النَّاسِ فَلَمْ يَحْفَلُوا بِهَذَا أَوْ لَمْ يَكَادُوا يَحْفَلُونَ بِهِ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَشْعُرُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الرَّغْبِ كُلَّمَا تَحَدَّثُوا بِهَذِهِ النَّازِلَةِ أَوْ سَمِعُوا الْحَدِيثَ عَنْهَا ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ

(١) الهشيم : اليابس المتكسر من النبات والشجر .

ينصرفوا إلى ما هم فيه من حياة عملية . وأما المتفقهون في الدين
وحملة القرآن وأصحاب الطرُق وتلاميذهم فكانوا هلمين^(١)
مُرَوِّعِينَ حَقًّا ، لا تكاد تستقرُّ قلوبهم بين جنوبيهم ، وكانوا
يتخاورون^(٢) في ذلك تحاورًا مُتَّصِلًا ؛ فمنهم مَنْ يزعم أنَّ هذه
الكارثة لن تقع ؛ لأنها مخالفة لِمَا عُرِفَ من أَسْرَاطِ^(٣)
الساعة ، وما كان للأرض أن تفتنى قبل أن تظهر الدَّابَّةُ والنَّارُ
والدَّجَالُ ، وقبل أن يهبطَ المسيحُ إلى الأرض فيملأها عدلًا
بعد أن ملئت جورًا . ومنهم مَنْ كان يظنُّ أنَّ الكارثة من
أَسْرَاطِ السَّاعَةِ . ومنهم مَنْ كان يتحدثُ بأنَّ هذه الكارثة قد
تقع فتصيب الأرض بشيء من التدمير دون أن تأتي عليها
جميعًا . كانوا يتخاورون طولَ النهار ، حتى إذا أقبل الليلُ
وصُلِّيَتِ المغربُ اجتمعوا حِلَقًا في المسجد وأمام الدُّورِ ،
وأخذوا يَرُدُّونَ هَذِهِ الكَلِمَةَ : « أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا
مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ » حتى تصلى العِشَاءُ . واتفقت الأيامُ ،

(١) هلمين : جزعين أشد الجزع . والجزع : ضد الصبر . ووروعين : مغزيين

خائفين .

(٢) يتخاورون : يراجعون الكلام بينهم .

(٣) أسراط الساعة : علامات قيامها .

وجاءت الساعةُ المحتومةُ ، ولم يظهر في السماءَ نجمٌ ذو ذَنَبٍ ، ولم
يُصِيبِ الأَرْضَ دَمَارٌ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ . فالتقسيمُ المتفقهون في
الدين وَحَمَلَةُ القُرْآنِ وَأَصْحَابُ الطَّرِيقِ : فأما أهلُ العلمِ الذين
يستمدُّونَ علمهم من الكتبِ وينتمونُ^(١) إلى الأزهَرِ
فاتصروا ، وقالوا : « أَلَمْ تَقُلْ لَكُمْ : إِنَّ هَذِهِ الكَارِثَةُ لَا يُمْكِنُ
أَنْ تَقَعَ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ أَسْرَاطُ السَّاعَةِ ؟ أَلَمْ نَدْعُكُمْ إِلَى تَكْذِيبِ
الْمُنْجِمِينَ ؟ » وَأَمَّا حَمَلَةُ القُرْآنِ فَقَالُوا : « كَلَّا ! لَقَدْ كَادَتْ
تَقَعُ الكَارِثَةُ لَوْلَا أَنْ لَطَفَ اللَّهُ بِالرُّضْعِ وَالْحَوَامِلِ وَالبِهَائِمِ ،
وَسَمِعَ لِدَعَاءِ الدَّاعِينَ ، وَتَضَرَّعَ التَّضَرَّعِينَ » . وَأَمَّا أَهْلُ
التَّصَوُّفِ وَالعِلْمِ اللِّدُنِيِّ فَقَالُوا : « كَلَّا ! لَقَدْ كَادَتْ تَقَعُ الكَارِثَةُ
لَوْلَا أَنْ تَوَسَّطَ القُطْبُ المُتَوَلَّى بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهِ ، فَصَرَفَ عَنِ
النَّاسِ هَذَا البَلَاءَ ، وَاحْتَمَلَ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ^(٢) . »

وَأَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ هَذَا الدَّفَاعَ الَّذِي كَانَ يَدْفَعُ
النَّاسَ إِلَى التَّحَصُّنِ مِنْ « الجَاسِسِينَ » كَانَ سِحْرًا أَوْ تَصَوُّفًا .
أَمَّا أَنَا فَلَأَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ أَحَدِّثَكَ جَمًّا يَذْكَرُ الصَّبِيَّ مِنْ أَنَّ
الأيامَ التي كانت تسبق أيامَ شَمِّ النَّسِيمِ كانت أيامًا غريبةً ،

(١) ينتمون : يتسبون .

(٢) الأوزار : الآثام والذنوب ، الواحد وزر (بكر فسكون) .

يخالط فيها قلوب النساء والصبيان وحملة القرآن شيء من الفرح والخوف . كانوا إذا أظلم يوم الجمعة أسرفوا في الأكل وفي ألوان خاصة من الطعام ، حتى إذا كان يوم السبت أسرفوا في أكل البيض الملوّن . وكان الفقهاء قد استعدوا لهذا اليوم استعداداً خاصاً ، فاشترَوْا ورقاً أبيض صقيلاً ، وقطعوه قطعاً صفراءً دقاقاً ، وكتبوا على كلِّ قطعةٍ « الم ص » ثم يطوون هذه القطع ويعلثون بها جيوبهم . حتى إذا كان يوم السبت الموال^(١) بالدور التي كانوا يتصلون بها ، ففرقوا هذه القطع من الورق على أهلها ، وطلبوا إلى كلِّ واحدٍ أن يتلع منها أربعاً قبل أن يلم^(٢) بطعام أو شراب . وكانوا يزعمون للناس أن ابتلاع هذه القطع من الورق يصرّف عنهم ما تأتي به « الخماسين » من المكروه ، ويصرف عنهم الرّمّة بنوع خاص . وكان الناس يُصدّقونهم ويتلمون هذا الورق ويؤذون إلى الفقهاء منه بيضاً أحمرّاً وأصفرّاً . وليس يدري الصبيُّ ماذا كان يصنع سيّدنا بما كان يجتمع له من البيض في يوم السبت النور ؛ فقد كان كثيراً يتجاوز المئات ، على أن استعداد الفقهاء لهذا اليوم

(١) الموال بالدور هنا : زاروعا .

(٢) أى قبل أن يصيب منه .

لم يكن يقف عند إعداد هذه القطع من الورق ، وإنما كان يتجاوز ذلك إلى شيء آخر : كانوا يشترون الورق الأبيض الصقيل ، ويقطعونه قطعاً طويلة عريضة بعض العريض ، ويكتبون عليها مخلّفات النبي :

مُخَلَّفُ طَه سُبْحَتَانِ وَمُصْحَفٌ وَمُكْحَلَةٌ سَجَادَتَانِ رَحَى عَصَا
حتى إذا فرغوا من هذه المخلّفات أضافوا إليها دعاء آخر
يبتدئ بهذه الكلمات التي كان الفقهاء يقولون إنها سُرّيانية :

« دى دبندى ، كرى كرى ، سرى سرندى ، سبر سبر بتونا ، واحبسوا البعيد عنا لا يأتينا ، والقريب منا لا يؤذينا . . الخ » ثم يطوون هذه الأوراق على أنها حُجُبٌ وتأمم ، يُفرّقونها في البيوت على النساء والصبيان ؛ ويتقاضون أمانتها دراهم وخبزاً وفطيراً وضروباً من الحلوى ، ويزعمون للناس أن الخُذ هذه التأمم والحُجُب يدفع عنهم أذى هذه الشياطين التي تحمّلها رياح الخماسين . وكان النساء يتلقين هذه الحُجُب مطمئنات إليها ، ولكن ذلك لم يكن يمنهن من اتقاء العفاريث يوم شمّ النسيم بشقّ البصل وتعليقه على أبواب الدور ، وأكل الفول النابت دون غيره من ألوان الطعام في هذا اليوم .

وأراد الله أن يَشَقِّ «سَيِّدَنَا» بتأنيده شقاءً غيرَ قليل ؛ فلم تَكْفِه تلك الحوادثُ التي كانت تحدث من حين إلى حين عند ما كان الشيخُ يمتحن الصبيَّ ، ولم تَكْفِه هذه التَّكْبِاتُ المتَّصلة التي نشأت عن عناية الصبيِّ بِمَحْفَظِ الأَلْفِيَّةِ وغيرها من المتون ، وجعلتِ الصبيَّ ثَقِيلاً سَمِجاً يتعالَى على أترابه وعلى سيِّده ، ويرى لنفسه مكانةَ العلماء ، ويصي أوامرَ العريف — لم يَكْفِه هذا كلُّه ، بل كانت نكبةٌ أخرى لم يَكُنِ الرجلُ ينتظرها حقاً ، وكانت أشدَّ عليه من كلِّ النكباتِ الأخرى ، لأنها مسَّته في صِناعته . ذلك أن رجلاً من أهل القاهرة هبَطَ المدينة في يومٍ من الأيام على أنه مُفْتَشٌّ للطريق الزراعيَّة - وكان هذا الرجل في متوسطِ عمره ، وكان « مطربشاً » يتكلم الفِرْنِسيَّة ، وكان يقول : إنه تخرَّج في مدرسة الفنون والصنائع ، وكان خفيفَ الظلِّ جَدَّاباً . فما لبث

١١٣
 أن أحبَّه الناس ودَعَوْه إلى دُورهم ومجالسهم . وما لبث أن اتَّصلت المودَّةُ بينه وبين أبي الصبيِّ . وكان قد رَتَّب « سَيِّدَنَا » في بيته يقرأ له سورةً من القرآن في كلِّ يوم ، وجعل له عشرةَ قروش في كلِّ شهر ، وهو الأجرُ المرتفع الذي كان يدفعه وجوهُ الناس . فكان سَيِّدَنَا مُحِبًّا لهذا الرجل مُثْنِيًّا عليه . ولكنَّ رَمَضَانَ أقبل ، وكان الناس يجتمعون في ليالي رَمَضَانَ عند رجلٍ من أهل المدينة وجيهٍ يعمل في التَّجَارَةِ . وكان سَيِّدَنَا يقرأ القرآن عند هذا الرجل طَوَالَ الشهر . وكان الصبيُّ يرافق سَيِّدَنَا ويرِيحه من حينٍ إلى حين بقراءة سورةٍ أو جزءٍ مكانه . فقرأ ذات ليلةٍ وسمِعَه هذا المُفْتَشُّ ، فقال لأبيه : إنَّ ابنك لشديدُ الحاجة إلى تجويدِ القرآن . قال الشيخُ سَيِّجُودُهُ متى ذهب إلى القاهرة على شيخٍ من شيوخ الأزهر . قال المُفْتَشُّ : فأنا أستطيع أن أجوِّد له القرآن على قراءةٍ حَفْصٍ ، حتى إذا ذهب إلى الأزهر كان قد أَلَمَّ بأصول التجويد^(١) وسهَّلَ عليه أن يفرغ للقرابات السَّبْعِ أو العَشْرَ أو الأربعَ عشرةَ . قال الشيخُ : وهل أنت

(١) أم بأصول التجويد : عرفها .

من حلة القرآن؟ قال المفتش: ومن المَجُودِينَ . ولولا أَنِّي مشغولٌ لاستطعتُ أن أقرئَ ابْنَك القرآنَ على الرواياتِ جميعاً ، ولكنني أُحِبُّ أن أُخَصِّصَ له ساعةً في كلِّ يومٍ فأقرئه روايةً حفص ، وأدرُسَ له أصولَ الفنِّ ، وأُعِدِّه بذلك للأزهرِ إعداداً صحيحاً . قال القوم : وكيف لمطربش يتكلم الفرنسية بحفظ القرآن ورواية القراءات؟ قال المفتش : أنا أزهريُّ بَقَدِّمْتُ في دراسة العلوم الدينية إلى مدي بعيدٍ ، ثم انصرفتُ عنها إلى المدارس ، فتخرجتُ في مدرسة الفنون والصنائع . قالوا : فأقرأ لنا شيئاً . فنزع الرجلُ نعلَيْه وترَبَّعَ ورَتَّلَ لهم سورة هُودٍ ترتيلاً ما سمعوا مثله . فلا تسَلَّ عن إعجابهم به وإكبارهم إياه ، ولا تسَلَّ تماماً أصاب سيّدنا من الحزن والنعيم ؛ فقد قضى الرجلُ ليلته كأنه مصعوقٌ^(١) .

وأصبح الشيخ فأمر ابنه بأن يَخْتَلِفَ^(٢) إلى بيت المفتش في كلِّ يومٍ . وفرِحَ الصبيُّ بهذا فرحاً شديداً ، فأعادَه على أثرابه في الكُتَّاب وتحدَّثَ به الصبيان . ولا تسَلَّ عن مقدار

(١) مصعوق : أصابه ساعقة .

(٢) يَخْتَلِفُ هنا : يتردد .

ما كان يترك هذا الحديث في نفس سيّدنا من الحزن ؛ فقد نهر^(١) الصبيَّ وأمره ألا يذكر اسم المفتش مرةً في الكُتَّاب . وذهب الصبيُّ إلى بيت المفتش ، واتَّصل ذهابه إلى هذا البيت ، وأقرأه المفتش « تحفة الأطفال » وشرح له أصول التجويد : علمه المدَّ والغنَّ والإخفاء والإدغام ، وما يتصل بهذا كله . وكان الصبيُّ مُعجِباً بهذا العلم ، وكان يتحدثُ به إلى أترابه في الكُتَّاب ، وكان يُبَيِّنُ لهم أن سيّدنا لا يُحَسِّنُ المدَّ ولا يُتَقِنُ النغْمَ ، ولا يعرف الفرقَ بين المدِّ الكليِّ والحُرْفِيِّ ، ولا بين المدِّ الثَقَلِ والمُخَفَّفِ . وكانت أصداء هذا كله تصل إلى سيّدنا فتُغَمِّمُه وتُحزِنُه وتُخرِجه أحياناً عن طوره .

وأخذ الصبيُّ يقرأ القرآن على المفتش من أوَّلِه ، وأخذ المفتش يُعلِّمه مواضع الوقف والوصل . وأخذ الصبيُّ يُقلِّدُ المفتش في ترتيله ويحاكي نغمه ، وأخذ يقرأ القرآن على هذا النحو في الكُتَّاب . وجعل أبوه يمتحنه ، فإذا سمعه يقرأ على هذا النحو الجديد أعجب وطرب وأثني على المفتش . وما كان

(١) نهر : زجره .

شيء يفيظ سيدنا مثل ما كان يفيظه هذا الشاء .

وقضى الصبي سنة كاملة يتردد على هذا البيت ويقرأ القرآن على المفتش ، حتى أتقن التجويد برواية حفص ، وكاد يبدأ في رواية ورش لولا أن حدثت حوادث وسافر الصبي إلى القاهرة .
أ كان الصبي يحب الاختلاف إلى هذا البيت لأنه كان يُعجِبُ بالمفتش ، ولأنه كان يحرص على إتقان القرآن وتجويده ، وعلى أن يفيظ سيدنا ويظهر التفوق على أربابه ؛ نعم ! في الشهرين الأولين من هذه السنة ، فأما بعد هذين الشهرين فقد كان يجذبه إلى بيت المفتش ويحببه فيه شيء آخر . . .
كان المفتش متوسط العمر قد بلغ الأربعين إن لم يكن قد جاوزها . وكان قد تزوج من فتاة لم تبلغ السادسة عشرة . ولم يكن له ولد ، ولم يكن يَمُرُّ بيته الكبير إلا هذه الفتاة وجدّة لها قد جاوزت الحسین . فأما حين بدأ الصبي يختلف إلى هذه الدار ، فقد كان يذهب ويعود دون أن يلتفت إليه أحد غير المفتش . وماهى إلا أن كثر تردد الصبي حتى أخذت الفتاة تتحدث إليه وتساله عن نفسه وعن أمه وعن إخوته

وعن داره ، وأخذ الصبي يُحببها مُستَحِيًّا . ثم مُبَسِّطًا . ثم مطمئنًا . واتصلت بين هذه الفتاة وهذا الصبي مودة ساذجة كانت حلوة في نفس الصبي لذينة الموقع في قلبه ، وكانت ثقيلة على نفس هذه الشیخة . وكان المفتش يجهلها جهلاً تاماً

وأخذ الصبي يذهب إلى دار المفتش قبل الميعاد ليظفر بساعة أو بعض ساعة يتحدث فيها إلى هذه الفتاة ، وأخذت الفتاة تنتظره ، حتى إذا أقبل أخذته إلى غرفتها ، جلست وأجلسته وتحدثا . وماهى إلا أن استحال الحديث إلى لعب ، إلى لعب كلمب الصبيان لا أكثر ولا أقل ، ولكنه كان لعباً لذيذاً . وقصّ الصبي هذا كله على أمه ، فضحكت ورتت^(١) للفتاة قائلة لأخت الصبي : طفلة زوّجت من هذا الشيخ لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحد ، فهي ضيقة الصدر في حاجة إلى اللهو والعبث .

ومن ذلك اليوم سمعت أم الصبي في التعرف إلى هذه الفتاة . ودعتها إلى البيت وإلى أن تكثر التردد عليها .

(١) رثت الفتاة : رحمتها ورقت لها .

كانت بين يديها رُوحًا قويًا وتُسبِغ عليها شخصيَّة . فهذه
اللعبه امرأة ، وهذه اللعبه رجل ، وهذه اللعبه فتى ، وهذه
اللعبه فتاة ، والطفلة بين هؤلاء الأشخاص جميعًا تذهب
وتجىء ، وتصلُ بينها الأحاديث مرَّةً في لهوٍ وعبثٍ ، وأخرى
في غيظٍ وغضبٍ ، ومرَّةً ثالثةً في هدوءٍ واطمئنانٍ . وكانت
الأشيرةُ كلها تجد لذَّةً قويَّةً في الاستماع إلى هذه الأحاديث
والتنظر إلى هذه الألوان من اللعب دون أن ترى الطفلة أو
تستمع أو تُحسَّ أن أحدًا يرقبها .

فأهى إلا أن أقبلت بوادر عيد الأضحى في سنةٍ من
السنين ، وأخذت أم الصبي تستعدُّ لهذا العيد ، مُهيِّئ له الدارَ
وتُعدُّ له الخبزَ وألوان الفطير . وأخذ إخوة الصبي يستعدون
لهذا العيد ، يختلف كبارهم إلى الخياط حينًا ، وإلى الحداء حينًا
آخر ، ويلهو صغارهم بهذه الحركة الطارئة على الدار . فينظر
صبينا إلى أولئك وهؤلاء في شيء من الفلسفة كان قد تَعَوَّده ؛
فلم يكن في حاجةٍ إلى أن يختلف إلى خياطٍ أو حداء ، وما كان
ميالًا إلى اللهو بمثل هذه الحركات الطارئة ، وإنما كان يخلو

وكذلك أتصلت أيام الصبي بين البيت والكتاب والمحكمة
والمسجد وبيت المفتش ومجالس العلماء وحلقات الذكر . لاهى
بالخلوة ولاهى بالمرَّة ، ولكنها تخلو حينًا وتمرُّ حينًا آخر ،
وتمضى فيما بين ذلك فائرةً سخيفةً . حتى كان يومٌ من الأيام
ذاق الصبي فيه الألم حقًا ، وعرف منذ ذلك أن تلك الآلام
التي كان يشقى بها ويكره من أجلها الحياة لم تكن شيئًا . وأن
الدهر قادرٌ على أن يؤلم الناس ويؤذيهم ، ويحبب إليهم الحياة
ويهوِّن من أمرها على نفوسهم في وقت واحد . كانت للصبي
أختٌ هى صُغرى أبناء الأسرة ، كانت في الرابعة من عمرها .
كانت خفيفة الروح طليقة الوجه فصيحة اللسان عذبة الحديث
قوية الخيال ، كانت لهو الأسرة كلها ، كانت تخلو إلى نفسها
ساعاتٍ طويلاً في لهوٍ وعبثٍ ، تجلس إلى الحائط فتحدِّث
إليه كما تحدِّث أمها إلى زائراتها ، وتبعت في كلِّ اللعب التي

إلى نفسه ويميش في عالمٍ من أتحال يستمده من هذه القصص
والكتب المختلفة التي كان يقرؤها فيسرف في قراءتها .

أقبلت بوادر هذا العيد وأصبحت الطفلة ذات يوم في
شيء من القصور والهمود لم يكده يلتفت إليه أحد . والأطفال
في القرى ومُدن الأقاليم مُعرضون لهذا النوع من الإهمال ،
ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد ورَبَّة البيت كثيرة
العمل . ولنساء القرى ومُدن الأقاليم فلسفة آتمة وعلم ليس
أقل منها إتماماً . يشكو الطفل ، وقلما تُعنى به أمه . . . وأى
طفل لا يشكو ! إنما هو يومٌ و ليلةٌ ثم يُفريق ويُبيل^(١) فإن عُنيت
به أمه فهي تزدرى الطبيب أو تجهله ، وهي تعتمد على هذا
العلم الآثم ، علم النساء وأشبه النساء . وعلى هذا النحو فقد
صبيتنا عينيه ؛ أصابه الرمد فأهيل أياماً ، ثم دُعِيَ الخلاقُ فمالجه
علاجاً ذهب بعينه . وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة
الحياة ؛ ظلت فاترةً هامةً محمومةً يوماً ويوماً ويوماً . وهي
مُلقاةٌ على فراشها في ناحيةٍ من نواحي الدار ، تُعنى بها أمها

(١) أبيل من مرهه : شئ منه .

أو أختها من حين إلى حين ، تدفع إليها شيئاً من الغذاء الله
يعلم أكان جيداً أم رديئاً . والحركة متصلة في البيت : يهياً
الخبز والفطير في ناحية ، وتُنظف المنظرة وحجرة الاستقبال
في ناحية أخرى ، والصبيان في لهوهم وعشهم ، والشبان في
ثيابهم وأحذيتهم ، والشيخ يغدو ويروح ويجلس إلى أصحابه
آخر النهار وأول الليل .

حتى إذا كان عصرُ اليوم الرابع وقف هذا كله فجأة .
وَقَفَ وعرفت أم الصبي أن شبحاً خيفاً يخلق على هذه الدار .
ولم يكن الموت قد دخل هذه الدار من قبل ، ولم تكن هذه
الأم الحنون قد ذاقت لذع الألم الصحيح . نعم ! كانت في
عملها وإذا الطفلة تصيح صياحاً منكراً ، فتدعُ أمها كل شيء
وتُسرع إليها . والصياح يتصل ويزداد ، فتدعُ أخوات الطفلة
كل شيء ويسرعن إليها . والصياح يتصل ويشدد ، والطفلة
تتلوى وتضطرب بين ذراعي أمها ، فيدعُ الشيخ أصحابه
ويسرع إليها . والصياح يتصل ويشدد ، والطفلة ترتعد
ارتعاداً منكراً ويتقبض وجهها ويتصبب العرق عليه ،

فينصرف الصبيان والشبان عما هم فيه من لهو وحديث
ويُسرعون إليها. ولكن الصياح لا يزداد إلا شدةً، وإذا
هذه الأسرة كلها واجمةً مهوتةً^(١) مُحِيطةٌ بالطفلة لا تدري ماذا
تصنع!... ويتصل ذلك ساعةً وساعةً. فأما الشيخ فقد
أخذ الضعف الذي يأخذ الرجال في مثل هذه الحال فينصرف
مهمهما^(٢) بصلوات وآيات من القرآن يتوسل بها إلى الله وأما
الشبان والصبيان فيتسللون في شيء من الوجوم لا يكادون
ينسون ما كانوا فيه من لهو وحديث، ولا يكادون يستأنفونه.
هم كذلك حيارى في الدار، وأُمهم جالسةٌ واجمةٌ تُحدِّق إلى ابنتها
وتسقيها ألواناً من الدواء لا أعرف ما هي، والصياح متصلٌ
مشتدٌ، والإضطراب مستمرٌ متزايدٌ.

ما كنت أحسبُ أن في الأطفال ولما يتجاوزوا الرابعة قوةً
تعديل هذه القوة. وتأتي ساعة العشاء وقد مُدَّتِ المائدة،
مدتها كبرى أخوات الصبي، وأقبل الشيخ وبنوه فجلسوا
إليها. ولكن صياح الطفلة متصلٌ، فلا تمدُّ يدُ إل طعام، وإنما

(١) واجمة : عابسة مطرقة لشدة الحزن . وبهوتة : متعبدة .

(٢) المهمة : الكلام الخفى .

يتفرقون جميعاً، وترُفَعُ المائدة كما مُدَّتْ، والطفلة تصيح
وتضطرب، وأُمها تُحدِّق إليها حيناً وتبسُّط يدها إلى السماء
حيناً آخر، وقد كشفت عن رأسها وما كان من عاداتها أن
تفعل! ولكن أبواب السماء كانت قد أُغْلقت في ذلك اليوم،
فقد سبق القضاء بما لا بدُّ منه. فيستطيعُ الشيخ أن يتلو
القرآن، وتستطيع هذه الأم أن تتضرع. ومن غريب الأمر
أن أحداً من هؤلاء الناس جميعاً لم يفكر في الطيب. وتقدم
الليل وأخذ صياح الفتاة يهدأ، وأخذ صوتها يخفُّ^(١)، وأخذ
اضطرابها يخفُّ، وخيَّل إلى هذه الأم التيسر أن قد سمع الله
لها ولزوجها، وأن قد أخذت الأزمة^(٢) تنحل. وفي الحق أن
الأزمة كانت قد أخذت تنحل، وأن الله كان قد رَأف بهذه
الطفلة، وأن خُفوت الصوت وهدوء هذا الاضطراب كانا
آتيي هذه الرأفة. تنظرُ الأم إلى ابنتها فيخيَّل إليها أنها ستنام
ثم تنظر فإذا هدوءٌ متصلٌ لاصوت ولا حركة، وإنما هو نفسٌ
خفيفةٌ شديدة الخفة يتردد بين شفتين مفتحتين قليلاً، ثم

(١) يخففت : بضعف ويسكن .

(٢) الأزمة : الشدة .

ينقطع هذا النَّفْسُ وإذا الطفلة قد فارقت الحياة .

ماذا كانت علتها؟ كيف ذهبت بحياتها هذه العلة؟ الله وحده يعلم هذا .

وهنا يرتفع صياحُ آخرُ ويتصلُ ويشتدُّ . وهنا يظهر اضطرابٌ آخرُ ويتصلُ ويشتدُّ . ولكنه ليس صياحَ الطفلة ولا اضطرابها ، وإنما هو صياحُ هذه الأمِّ وقد رأت الموت ، واضطرابها وقد أحستِ الشُّكْلَ^(١) . وإذا الشَّبَانُ والصَّبِيَانُ قد فزعوا إلى أمِّهم وسبَّههم إليها الشيخ . وإذا هي في جَزَعٍ وهَلَجٍ ينطقُ لسانها بألفاظٍ لا صلةَ بينها ، ويُقطعُ الدمع صوتها تقطيعاً ، وإذا هي تلمحُ حَدِيثَهَا في عُنفٍ متصلٍ . وزوجها مائلٌ أمامها لا ينطقُ لسانه بحرفٍ ، وإنما تهمر دموعه انهماراً . وإذا الجاراتُ والحيرانُ قد سمعوا هذا الصياحَ فأقبلوا مسرعين . فأما الشيخُ فينصرف إلى الرجالِ يتقبَّلُ عزاءهم في قوَّةٍ وجلدٍ . وأما الشَّبَانُ والصَّبِيَانُ فيتفرَّقون في الدار ، قد قست قلوب

(١) الشُّكْلُ : الموت والهلاك ، وفقدان الحبيب أو الولد .

لمصهم فنام ، ورقت قلوب بعضهم فسهر . وأما الأمُّ ففياهاى فيه من جَزَعٍ وهَلَجٍ ، أمامها ابنتها هامةٌ جامدةٌ ، تُولولُ^(١) وتُخسُّ وجهها وتصكُّ صدرها ، ومن حولها بناتها وجاراتها يصنعن صنيهما يُولولنَ ويخسِنن الوجوه ويصككن الصدور حتى ينقضى الليل كله .

وما أشدُّ نُكْرَ هذه الساعةِ التي أقبل فيها بعضُ الناس واحتلموا الطفلة ومضوا بها إلى حيث لا تعود ! كان ذلك اليومُ يومَ الأضحى ، وكانت الدار قد هيئت للعيد ، وكانت الضحايا قد أعدت . فيألهُ من يوم ، وبألهما من ضحايا ! ويانكرها من ساعةٍ حين عادَ الشيخُ إلى داره مع الظهر وقد وارى ابنته في التراب ! . . .

منذ ذلك اليوم اتصلت الأواصر^(٢) بين الحزن وبين هذه الأسرة . فهاهى إلا أشهرٌ حتى قعد الشيخُ أباه الهَرِمَ . وما

(١) الولولة : الإعيال والبيكا . الخس : العظم والضراب . والصك هنا : الضرب الشديد . (٢) الأواصر هنا : العلاقات والصلات .

هي إلا أشهره أخرى حتى قَدَّتْ أم الصبي أمها الفانية^(١) وإنما هو حداد^(٢) متصلٌ وألم يقفو^(٣) بعضه بعضاً، منه اللاذع ومنه الهادئ. حتى كان هذا اليوم المنكر الذي لم تعرف الأسرة يوماً مثله، والذي طبع حياتها بطابع من الحزن لم يفارقها والذي ابيض له شعر الأبوين جميعاً، والذي قضى على هذه الأم أن تلبس السواد إلى آخر أيامها، وألا تذوق للفرح طعماً، ولا تضحك إلا بكتٍ إثر ضحكها، ولا تنام حتى تُريق بعض الدموع، ولا تُفريق من نومها حتى تُريق دموعاً^(٤) أخرى، ولا تطعم فاكهة حتى تطعم منها الفقراء والصبيان، ولا تبسم لعيدٍ ولا تستقبل يوم سرورٍ إلا وهي كارهة راغمة.

كان هذا اليوم يوم ٢١ أغسطس من سنة ١٩٠٢. وكان الصيف منكرًا في هذه السنة. وكان وباء الكوليرا قد هبط مصر ففتك بأهلها فتكاً ذريعاً^(٥)، ودتر مدناً وقري، ومحا أسراً

(١) الفانية : التي بلغت أزدل العمر . (٢) حدث المرأة تحدث المرأة تحد كضرب ونصر) حدا وحدادا : تركت الزينة لموت زوج أو حبيب . والمراد بالحداد هنا الحزن . (٣) يقفو : يتبع . (٤) الإراقة : الصب . يريد حيناً تذرّف دموعاً غزيرة . (٥) ذريعاً : سريعاً فاشياً .

كاملة . وكان « سيدنا » قد أكثر من الحُجْب وكتابة الخلفات ، وكانت المدارس والكتاتيب قد أُقفلت ، وكان الأطباء ورُسل مصلحة الصحة قد انبثوا^(١) في الأرض ومعهم أدواتهم وخيامهم يَحْجِزُونَ فيها المرضى ، وكان الهلعُ قد ملا النفوس واستأثر بالقلوب ، وكانت الحياة قد هانت على الناس ، وكانت كل أسرة تتحدث بما أصاب الأسر الأخرى وتنتظر حظها من المصيبة . وكانت أم الصبي في هلع مستمرٍ ، وكانت تسأل نفسها ألف مرّة في كل يومٍ عن تنزل النازلة من أبنائها وبناتها . وكان لها ابن في الثامنة عشرة ، جميل المنظر رائع الطلعة نجيبٌ ذكي القلب ، وكان أُحِبَّ الأسرة وأذكاها وأرقها قلباً ، وأصفاها طبعاً ، وأبرها بأمه ، وأرفها بأبيه ، وأرقفتها بصغار إخوته وأخواته ، وكان مبهجاً دائماً ، وكان قد ظفر بشهادة « البكالوريا » وانتسب إلى مدرسة الطب ، وأخذ ينتظر آخر الصيف ليذهب إلى القاهرة . فلما كان هذا الوباء ، أتصل بطبيب المدينة وأخذ يُراقفه ويقول : إنه يتمرن

(١) انبثوا : انتشروا .

على صناعته ، حتى كان يوم ٢١ أغسطس .

أقبل الشابُ آخر هذا اليوم كعادته باسمًا ، فلاطف أمه وداعبها وهدأ من روعها وقال: لم تُصَبِ المدينةُ اليومَ بأكثر من عشرين إصابةً ، وقد أخذتُ وطأةَ الوباءِ تخفُّفًا ، ولكنه مع ذلك شكنا من بعض الغثيان^(١) ، وخرج إلى أبيه فجلس إليه وحديثه كعادته ، ثم ذهب إلى أصحابه فرافقهم إلى حيث كان يذهب معهم في كلِّ يوم عند شاطئِ الإبراهيمية . فلما كان أوَّلُ الليل عاد وقضى ساعةً في ضحكٍ وعبثٍ مع إخوته . وفي هذه الليلة زعم لأهل البيت جميعاً أنَّ في أكل الثوم وقايةً من الكوليرا ، وأكل الثوم وأخذ كبارَ إخوته وصغارهم بالأكل منه ، وحاول أن يُقنِعَ أبويه بذلك فلم يُوقَفْ .

وكانت الدار هادئةً مُعْرِقةً في النوم كبارها وصغارها وحيوانها عندما اتصف الليل . ولكنَّ صيحة غريبة ملأت هذا الجوَّ الهامئ ، فهبَّ^(٢) لها القوم جميعاً . فأمَّا الشيخ وزوجته

(١) غشت النفس غشياً وغشياناً : غبثت واضطربت حتى تكاد تنفياً .

(٢) هب القوم : انتبهوا من النوم .

فكانا في هذا الدهليز المنبسط الذي تُظِلُّه السماء يدعوان ابنهما باسمه . وأمَّا الشبان من أهل الدار فكانوا يَبْتُونُ من فراشهم مسرعين إلى حيثُ الصوت . وأمَّا الصبيان فكانوا يجلسون يَحْكُونُ أعينهم بأيديهم يحاولون أن يبيِّنوا في شيءٍ من الهلع من أين يأتي الصوتُ وماذا كانت الحركة الغريبة !!

وكان مصدرُ هذا كله صوتُ هذا الفتى وهو يمالج التيء . وكان الفتى قضى ساعةً أو ساعتين يخرج من الحجرة على أطراف قدميه ويمضي إلى الخلاء ليقىء متجهداً ألا يوقظ أحداً . حتى إذا بلغتِ العلةُ منه أقصاها لم يملك نفسه ولم يستطع أن يقىء في لطف ، فسمع أبواه هذه الحُشْرَجَةَ ففزعا لها وفزعا معهما أهلُ الدار جميعاً .

إذن فقد أصيب الشابُ ، ووجد الوباء طريقه إلى الدار ، وعرفت أمُّ الفتى بأىِّ أبنائها تنزل النازلة . لقد كان الشيخ في تلك الليلة خليقاً بالإعجاب حقاً . كان هادئاً رزيناً مرَّوعاً مع ذلك ، ولكنه يملك نفسه . وكان في صوته شيءٌ يدل على أنَّ قلبه مفظور ، وعلى أنه مع ذلك جلدٌ مستعدٌ لاحتمال النازلة .

أوى ابنه إلى حُجْرته ، وأمر بالفصل بينه وبين بقية إخوته ،
وخرج مسرعاً فدعا جارين من جيرانه ، وما هي إلا ساعة حتى
عاد ومعه الطيب .

وفي أثناء ذلك كانت أمّ الفتى مروعةً جلدةً مؤمنةً تُعنى
بأبنها ، حتى إذا أمهله التقيء خرجت إلى الدّهليز فرفعت يدها
ووجهها إلى السماء وفيتت في الدعاء والصلاة ، حتى تسمع
حشرجة التقيء فتسرع إلى ابنها تُسندنه إلى صدرها وتأخذ رأسه
بين يديها ، ولسانها مع ذلك لا يكفُّ عن الدعاء والإبتهال .
ولم تستطع أن تحول بين الصبيان والشبان وبين المريض ،
فلوّا عليه الحجرة وأحاطوا به واجمين ، وهو يُداعب أمّه كلما
أمهله التقيء ، ويعبت مع صغار إخوته . حتى إذا جاء الطيب
فوصف ما ووصف وأمر بما أمر وانصرف على أن يعود مع
الصبح ، لزمّت أمّ الفتى حجرة ابنها ، وجلس الشيخ قريباً
من هذه الحجرة واجماً لا يدعو ولا يصلي ولا يُجيب أحداً
من الذين كانوا يتحدّثون إليه .

وأقبل الصبح بعد لأيٍ ، وأخذ الفتى يشكو ألماً في ساقه .

وأقبلت إليه أخواته يَدُكُنَّ له ساقه ، وهو يشكو صاعاً
مرّةً كماً أبه ومرّةً أخرى التي يُجهده ويخلع في الوقت نفسه
قلب أبويه . وقضت الأسرة كلها صباحاً لم تقض مثله قطّ :
صباحاً واجماً مظلماً فيه شيء مُفزع مُرّوع . فأما خارجُ الدار
فكان يزدحم بالناس ، أقبلوا إلى الشيخ يُواسونه . وأما داخلُ
الدار فكان يزدحم بالنساء أقبلن يُواسين أمّ الفتى . وكان الشيخ
وزوجه عن أولئك وهؤلاء في شغل . وكان الطيب يتردد
بين ساعةٍ وساعة . وكان الفتى قد طلب أن يُبرق إلى أخيه
الأزهرى في القاهرة وإلى عمّه في أعلى الإقليم . وكان يطلب
الساعة من حينٍ إلى حين ينظر فيها كأنه يتعجل الوقت ،
وكأنه يُشفق أن يموت دون أن يرى أخاه الشاب وعمّه الشيخ .
يالها من ساعةٍ منكّرةٍ هذه الساعة الثالثة من الخميس
٢١ أغسطس سنة ١٩٠٢ .

انصرف الطيب من الحجرة يائساً ، وكأنه قد أصرَّ إلى
رجلين من أقرب أصحاب الشيخ إليه بأن الفتى يُحتَضَرُ^(١) فأقبل

(١) يحتضر : يحضره الموت .

الرجلان حتّى دخلا الحجره على الفتى ومعه أمه . ظهرت في هذا اليوم لأول مرّة في حياتها أمام الرجال .

والفتى في سريره يتصوّر (١) ، يقف ثم يُلقى بنفسه ، ثم يجلس ثم يطلب الساعة ، ثم يُعالج القى ، وأمّه واجهه ، والرجلان يُواسيانه وهو يُجيبهما : لست خيراً من النبي . أليس النبي قد مات ! ويدعو أباه يريد أن يُواسيه فلا يُجيبه الشيخ . وهو يقوم ويقعد ويُلقى نفسه في السرير مرّةً ومن دون السرير مرّةً أخرى . وصبيّنا منزو في ناحية من هذه الحجره ، واجم كئيب دهنسٌ يُمزق الحزن قلبه تمزيقاً .

ثم ألقى الفتى نفسه على السرير وعجز عن الحركة ، وأخذ يتنهد أليناً يُخفّت من حين إلى حين . وكان صوت هذا الأنين يُبعد شيئاً فشيئاً . وإن الصبيّ لَيُنسى كل شيء قبل أن ينسى هذه الأنة الأخيرة التي أرسلها الفتى نحيلاً ضئيلاً طويلةً ثم سكت . في هذه اللحظة نهضت أم الفتى وقد انتهى صبرها ووهمي (٢)



(١) يتصوّر : يتلوى .

(٢) وهمى : ضمت .

جَلَدُهَا، فلم تكد تتف حتى هَوَتْ^(١) أو كادت ، وأسندها
الرجلان ، فمالكت نَفْسَهَا وخرجت من الحجرة مُطْرَفَةً
ساعيةً في هدوء ، حتى إذا جاوزتها أنبمشت من صدرها سَكَاةٌ
لا يذكرها الصبي إلا انخلع لها قلبه انخلاعاً . واضطرب الفتى
قليلاً ، ومرت في جسّمه رعدةٌ تبمها سكوتُ الموت . وأقبل
الرجلان إليه فهَيَّاهُ وعَصَبَاهُ وألقيا على وجهه لثامًا ، وخرجا إلى
الشيخ ثم ذكر أن الصبي مُنْزَوٍ في ناحية من نواحي الحجرة ،
فعاد أحدهما إليه فَجَذَبَهُ جَذْبًا وهو ذاهلٌ ، حتى انتهى به إلى
مكان بين الناس فوضعه فيه كما يوضعُ الشيء .

وما هي إلا ساعةٌ أم بعض ساعةٍ حتى هَيَّيَ الفتى للدفن
وخرج الرجال به على أعناقهم .

فيا للقضاء ! ما كادوا يبلغون به باب الدار حتى كان أولُ
من لقي النَّعْشَ هذا العمّ الشيخ الذي كان الفتى يتعمّل الموت
دقائقَ ليراه .

من ذلك اليوم استقرّ الحزن العميقُ في هذا الدار ، وأصبح

(١) هوى : سقط .

إظهارُ الإبتهاج أو السرورِ بأيّ حادثٍ من الحوادث شيئاً
ينبى أن يتجنّبهُ الشبان والأطفال جميعاً .

من ذلك اليوم تَعَوَّدَ الشيخُ ألا يجلسَ إلى غَدائِهِ ولا إلى
عَشائِهِ حتى يذكر ابنه ويكيه ساعةً أو بعض ساعة ، وأمامه
امرأته تُعينه على البكاء ، ومن حوله أبناءُه وبناتُه يُحاولون
تعزيةَ هذين الأبوين فلا يبلغون منهما شيئاً ، فيُجْهَشُونَ جميعاً
بالبكاء^(١) .

من ذلك اليوم تَعَوَّدَتِ هذه الأسرةُ أن تَعْبُرَ النَّيْلَ إلى
مقرِّ الموتى من حين إلى حين ، وكانت من قبل ذلك تَعْبِيبُ
الذين يزورون الموتى .

ومن ذلك اليوم تغيّرت نفسيةُ صبيّنا تَغْييراً تاماً . . عَرَفَ
اللهُ حقاً ، وحرّص على أن يتقرّب إليه بكلّ ألوان التقرّب :
بالصدقة حيناً ، وبالصلاة حيناً آخر ، وتلاوة القرآن مرةً
ثالثةً . ولقد شهد الله ما كان يدفعه إلى ذلك خوفٌ ولا إشفاقٌ
ولا إيثارٌ للحياة ، ولكنه كان يعلم أن أخاه الشاب كان من

(١) أجهش بانك : هم به وبهيا له .

أبناء المدارس ، وكان يُقَصِّرُ في أداء واجباته الدينية ؛ فكان الصبي يأتي ما يأتي من ضروب العبادة يريد أن يحطَّ من أخيه بعض السيئات . كان أخوه في الثامنة عشرة من عمره ، وكان الصبي قد سمع من الشيوخ أن الصلاة والصوم فرض على الإنسان متى بلغ الخامسة عشرة . فقدَّر الصبي في نفسه أن أخاه مدينٌ لله بالصوم والصلاة ثلاثة أعوام كاملة ، وفرض الصبي على نفسه ليصليَ الحس في كلِّ يوم مرتين : مرة لنفسه ومرة لأخيه ، وليصومَ من السنة شهرين : شهراً لنفسه وشهراً لأخيه ، وليكتمَنَّ ذلك عن أهله جميعاً ، وليجعلَنَّ ذلك عهداً بينه وبين الله خاصة ، وليطعمَنَّ فقيراً أو يتيماً مما تصل إليه يده من طعام أو فاكهة قبل أن يأخذ بحظِّه منه . وشهد الله لقد وثى الصبي بهذا العهد أشهراً ، وما غير سيرته هذه إلا حين ذهب إلى الأزهر .

من ذلك اليوم عرفَ الصبي أرقَّ الليل ؛ فكم أتفق سواد الليل كاملاً يفكر في أخيه أو يقرأ سورة الإخلاص آلاف المرات ، ثم يهبُ ذلك كله لأخيه ، أو ينظِّم شعراً على نحو هذا

الشعر الذي كان يقرؤه في كتب القصص يذكر فيه حزنه وألمه لفقده أخيه ، معنياً بالأب يفزع من قصيدة حتى يصلِّي في آخرها على النبي ، وأهبا ثواب هذه الصلاة لأخيه .

نعم ! ومن ذلك اليوم عرفَ الصبي الأحلام المروعة ؛ فقد كانت علة أخيه تتمثل له في كلِّ ليلة . واستمرت الحال كذلك أعواماً . ثم تقدَّمت به السن ، وعمل فيه الأزهر عمله ، فأخذت علة أخيه تتمثل له من حين إلى حين . وأصبح فتى ورجلاً ، وتقلَّبت به أطوار الحياة ، وأنه لعلى ما هو عليه من وفاء لهذا الأخ ، يذكره ويراه فيما يرى المنام مرة في الأسبوع على أقلِّ تقدير .

ولقد تعزَّى عن هذا الفتى إخوته وأخواته ، ونسيه من نسيه من أصحابه وأترابه ، وأخذت ذكراه لا تزور أباه الشيخ إلا لماماً . ولكن اثنين يذكراه دائماً ، وسيدكرانه أبداً أولَّ الليل من كلِّ يوم : هما أمُّه وهذا الصبي .

« أمّا في هذه المرّة فستذهب إلى القاهرة مع أخيك ،
وستُصَيِّحُ مُجاوراً ، وستجتهد في طلب العلم . وأنا أرجو أن أعيش
حتى أرى أخاك قاضياً ، وأراك من علماء الأزهر ، قد جلست
إلى أحد أعمدته ومن حولك حلقة واسعة بميدة المدى . »

قال الشيخ ذلك لابنه آخرَ النهار في يوم من خريف
سنة ١٩٠٢ ، وسمع الصبيُّ هذا الكلام فلم يُصدِّق ولم يُكذِّب ،
ولكنه آثر^(١) أن ينتظر تصديق الأيام أو تكذيبها له .
فكثيراً ما قال له أبوه مثل هذا الكلام ، وكثيراً ما وعده أخوه
الأزهريّ مثل هذا الوعد ، ثم سافر الأزهريّ إلى القاهرة ،
ولبت الصبيّ في المدينة يتردّد بين البيت والكتاب والمحكمة
ومجالس الشيوخ .

وفي الحق أنّه لم يفهم لماذا صدّق وعده في هذه السنة ؛
فقد أخبر الصبيّ ذات يومٍ أنه مسافرٌ بعد أيام . وأقبل يومٌ

(١) آثر : فضل .



الجليس، فإذا الصبي يرى نفسه يتأهب للسفر حقاً، وإذا هورى نفسه في المحطة ولما تشرق الشمس. وهو يرى نفسه جالساً القرفصاء مُنكس الرأس كَثيباً محزوناً، ويسمع أكبر إخوته ينهركه في لطف قائلاً له: لا تُنكس رأسك هكذا، ولا تأخذ هذا الوجه الحزين فتُحزن أخاك. ويسمع أباه يُشجعه في لطف قائلاً: ماذا يُحزنك؟ أَلست رجلاً؟ أَلست قادر أعلى أن تُفارق أمك؟ أم أنت تريد أن تلعب! ألم يتكفك هذا اللعب الطويل؟! شهد الله ما كان الصبي حزيناً لفراق أمه. وما كان الصبي حزيناً لأنه لن يلعب، إنما كان يذكر هذا الذي ينام هنالك من وراء التيل كان يذكره، وكان يذكر أنه كثيراً ما فكر في أنه سيكون معها في القاهرة تلميذاً في مدرسة الطب. كان يذكر هذا كله فيحزن، ولكنه لم يقل شيئاً ولم يُظهر حزنًا، وإنما تكلف الابتسام. ولو قد أرسل نفسه مع طبيعتها لبكى ولأبكى من حوله أباه وأخويه.

وانطلق القطار ومضت ساعات، ورأى صاحبنا نفسه في القاهرة بين جماعة من المجاورين قد أقبلوا إلى أخية حيوه، وأكلوا ما كان قد احتمله لهم من طعام.

انقضى هذا اليوم، وكان يوم الجمعة، وإذا الصبي يرى نفسه في الأزهر للصلاة. وإذا هو يسمع الخطيب شيئاً صغماً الصوت عاليه، فنخم الرءاءات والقافات، لا فرق بينه وبين خطيب المدينة إلا في هذا. فأما الخطبة فهي ما كان تعود أن يسمع في المدينة. وأما الحديث فهو هو. وأما النعت فهو هو. وأما الصلاة فهي هي؛ ليست أطول من صلاة المدينة ولا أقصر. وعاد الصبي إلى بيته، أُرقل إلى حجره أخيه، خائب الظن ببعض الشيء. وسأله أخوه: ما رأيك في تجويد القرآن ودرس القراءات؟ قال الصبي: لست في حاجة إلى شيء من هذا. فأما التجويد فأنا أتقنه. وأما القراءات فلست في حاجة إليها. وهل درست أنت القراءات؟ أليس يكفي أن أكون مثلك؟ إنما أنا في حاجة إلى العلم، أريد أن أدرس الفقه والنحو والمنطق والتوحيد.

قال أخوه: حسبتك! يكفي أن تدرس الفقه والنحو في هذه السنة. وكان يوم السبت، فاستيقظ الصبي مع الفجر، وتوضأ وصلى، ونهض أخوه فتوضأ وصلى كذلك، ثم قال له: ستذهب

معي الآن إلى مسجد كذا، وستحضر درساً ليس لك وإنما هو لي، حتى إذا فرغنا من هذا الدرس ذهبتُ بك إلى الأزهر، فالتست لك شيخاً من أصحابنا تختلف إليه وتأخذ عنه مبادئ العلم. قال الصبي. وما هذا الدرس الذي سأحضره؟ قال أخوه ضاحكاً: هو درسُ الفقه وهو ابن عابدين على الدرّ، قال ذلك يلاً به فمه. قال الصبي: ومن الشيخ؟ قال أخوه: هو الشيخ... وكان الصبي قد سمع اسم الشيخ... ألف مرة ومرة فقد كان أبوه يذكر هذا الاسم، ويفخر بأنه عرف الشيخ حين كان قاضياً للإقليم. وكانت أمّه تذكر هذا الاسم، وتذكر أنها عرفت أمراته فتاةً هوجاء حلفةً، تتكلف زى أهل المدن وماهى من زى أهل المدن في شىء. وكان أبو الصبي يسأل ابنه الأزهرى كلما عاد من القاهرة عن الشيخ ودروسه وعدد طلابه وكان ابنه الأزهرى يُحدّثه عن الشيخ ومكاته في المحكمة العليا وحلقته التي تُعدّ بالثلاث. وكان أبو الصبي يُلحّ على ابنه الأزهرى في أن يقرأ كما كان يقرأ الشيخ، فيحاول الفتى تقليده، فيضحك أبوه في إعجاب وإكبار. وكان أبو الصبي يسأل ابنه: أيعرفك الشيخ؟ فيجيب الفتى: وكيف لا! وأنا ورفاقى من أخصّ

تلاميذه وآثرهم^(١) عنده! نحضر درسه العام ثم نحضر عليه درساً خاصاً في بيته، وكثيراً ما تنمّدى لنعمل معه بعد ذلك في كتبه الكثرية التي يؤلّفها. ثم يمضى الفتى في وصف بيت الشيخ وحجرة استقباله ودار كتبه، وأبوه يسمع ذلك مُعجّباً، حتى إذا خرج إلى أصحابه قصّ عليهم ما سمع من ابنه في شىء من التّيه والفخار.

كان الصبي إذن يعرف الشيخ، وكان سعيداً بالذهاب إلى حلقته والإستماع له. وكَم كان مبتهجاً حين خلع نعليه عند باب المسجد ومشى على الحصير ثم على الرّخام ثم على هذا البساط الرقيق الذي فرش به المسجد! وكَم كان سعيداً حين أخذ مكانه في الحلقة على هذا البساط إلى جانب عمود من الرّخام، لمسّه فأحبّ ملاسته ونعومته، وأطال التفكير في قول أبيه: «إني لأرجو أن أعيش حتى أرى أذاك قاضياً وأراك صاحب عمود في الأزهر». وفيما هو يفكر في هذا ويتمنى أن يمسّ أعمدة الأزهر ليرى أهي كأعمدة هذا المسجد، وللطلاب من حوله دوى غريب، أحسن أن هذا الدوى يحفّت ثم ينقطع، وعمره

(١) آثرهم عنده: أكرمهم وانتم لهم.

أخوه بيده قائلاً في صوت خافت : لقد أقبل الشيخ . اجتمعت شخصيَّة الصبيِّ كلها حينئذ في أذنيه وأنصت . ماذا يسمع ؟ يسمع صوتاً خافتاً هادئاً رزينا ملؤه شيء ؛ قل إنه الكبر ، أو قل إنه الجلال ، أو قل إنه ماشئت ، ولكنه شيء غريب لم يحبه الصبي . ولبت الصبيُّ دقائق لا يُعَيَّرُ مما يقول الشيخ حرفاً . حتى إذا تعوَّدتْ أذناه صوت الشيخ وصدى المكانِ سمع وتبين وفهم . وقد أقسم لي بعد ذلك أنه احتقر العلم منذ ذلك اليوم . سمع الشيخ يقول : « ولو قال لها أنت طلاق أو أنت ظلام أو أنت طلال أو أنت طلاة ، وقع الطلاق ولا عبرة بتغير اللفظ » . يقول ذلك مُتَعَيِّباً به مرَّتين له تريباً في صوت لا يخلو من حَسْرَةٍ ، ولكنَّ صاحبه يحتال أن يجعله عذبا . ثم يختم هذا الفناء بهذه الكلمة التي أعادها طوال الدرس : « فاه يا أدع » . وأخذ الصبيُّ يسأل نفسه عن « الأدع » هذا ما هو . حتى إذا انصرف عن الدرس سأل أخاه : ما الأدع ؟ فقَّهه أخوه وقال : الأدعُ الجَدْعُ ، في لغة الشيخ . ومضى به أخوه بعد ذلك إلى الأزهر ، فقَدَّمه إلى أستاذه الذي علَّمه مبادئ الفقه والنحو سنةً كاملة .

إنك يا ابنتي لساذجةٌ سليمةُ القلب طيبةُ النَّفسِ أنتِ في التاسعة من عُمرِكَ ، في هذه السنِّ التي يُعجَبُ فيها الأطفالُ بأبائهم وأمهاتهم ، ويتخذونهم مُثَلاً عَلِيًّا في الحياة : يتأثرونهم^(١) في القول والعمل ، ويحاولون أن يكونوا مثلهم في كل شيء ، ويفاخرون بهم إذا تحدَّثوا إلى أقرانهم أثناء اللَّعب ، ويُحَيِّلُ إليهم أنهم كانوا أثناء طفولتهم كما هم الآن مُثَلاً عَلِيًّا يصلحون أن يكونوا قُدْوَةً حَسَنَةً وأُسُوَّةً صَالِحَةً .

أليس الأمر كما أقول ؟ ألسنتِ تَرِينُ أَنَّ أباك خيرُ الرجال وأكرمهم ؟ ألسنتِ تَرِينُ أنه قد كان كذلك خيرَ الأطفالِ وأنبأهم ؟ ألسنتِ مقتنعةً أنه كان يعيش كما تعيشين أو خيراً مما تعيشين ؟ ألسنتِ تُحِبِّينَ أن تعيشي الآن كما كان يعيش أبوك حين كان في الثامنة من عمره ؟ ومع ذلك فإنَّ أباك يَبْذُلُ

(١) تأثره : تبع أثره .

من الجهد ما يملك وما لا يملك ، ويتكلف من المشقة ما يطيق وما لا يطيق ، ليحُبِّبِكَ حياته حين كان صبياً .

لقد عرفته يا ابنتي في هذا الطور من أطوار حياته . ولو أنّي حدّثتك بما كان عليه حينئذ لكذّبتُ كثيراً من ظنّك ، ولخيّبتُ كثيراً من أمّك ، ولفتحتُ إلى قلبك السّاذح ونفسك الحلوّة باباً من أبواب العُزْن ، حرامٌ أن يُفتحَ إليهما وأنت في هذا الطور اللذيذ من الحياة . ولكنّي لن أحدّثك بشيء مما كان عليه أبوك في ذلك الطور الآن . لن أحدّثك بشيء من هذا حتى تتقدّم بك السنُّ قليلاً ، فتستطيعين أن تقرّئي وتفهمي وتحكّمي ، ويومئذ تستطيعين أن تعرفي أنّ أباك أحبّك حقاً ، وجدّ في إسمادك حقاً ، ووفّق بعضَ التوفيق لأنّ يحُبِّبِكَ طفولته وصباه .

نعم يا ابنتي ! لقد عرفتُ أباك في هذا الطور من حياته . وإنّي لأعرف أنّ في قلبك رقةً وليناً . وإنّي لأخشى لو حدّثتك بما عرفتُ من أمر أهلك حينئذ أن يملكك الإشفاق وتأخذك الرّافة فتُجهِشِي بالبكاء .

لقد رأيتك ذات يوم جالسةً على حجرٍ أبيض وهو يقصُّ عليك قصّة « أوديب ملكاً » وقد خرج من قصره بعد أن فقأ عينيه لا يدري كيف يسير ، وأقبلت ابنته « أنتيجون » فقادثته وأرشدته . رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصة مبتهجةً من أولها ، ثم أخذ لولك يتخير قليلاً قليلاً وأخذتُ جِبْهَتِكَ السّخنة تُرَبِّدُ^(١) شيئاً فشيئاً ، وما هي إلا أن أجهشتُ بالبكاء وانكبيتُ على أهلك لثماً وتقيلاً ، وأقبلتُ أمّك فاتزعتك من بين ذراعيه ، وما زالت بك حتى هدأ روعك . وفهمتُ أمّك وفهم أبوك وفهمتُ أنا أيضاً أنّك إنّما بكيتِ لأنك رأيتِ أوديب الملك كأهلك مكفوفاً لا يبصر ولا يستطيع أن يهتدى وحده ، فبكيتِ لأهلك كما بكيتِ « لأوديب » .

نعم وإنّي لأعرف أنّ فيك عبتَ الأطفال وميلهم إلى اللهو والضحك وشيئاً من قسوتهم ، وإنّي لأخشى يا ابنتي إن حدّثتك بما كان عليه أبوك في بعض أطوار صباه أن

(١) ترديد : تنفير وتعبس .

تَضَحَّكِي مِنْهُ قَاسِيَةً لَاهِيَةً . وَمَا أَحْبَبُّ أَنْ يَضْحَكَ طِفْلٌ مِنْ
أَبِيهِ ، وَمَا أَحْبَبُّ أَنْ يَلْهُوَ بِهِ أَوْ يَقْسُوَ عَلَيْهِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ
عَرَفْتُ أَنَّكَ فِي طُورٍ مِنْ أَطْوَارِ حَيَاتِهِ اسْتَطِيعَ أَنْ أَحْدِثَ بِكَ
دُونَ أَنْ أُثِيرَ فِي نَفْسِكَ حُزْنَنا ، وَدُونَ أَنْ أُغْرِيكَ بِالضَّحْكَ
أَوْ اللَّهْوِ .

عرفته في الثالثة عشرة من عمره حين أُرسِلَ إلى القاهرة
ليختلف إلى دروس العلم في الأزهر ، إن كان في ذلك الوقتِ
لَصَبِيًّا جِدًّا وَجَمَلِيًّا^(١) . كَانَ نَحِيفًا شَاحِبَ اللَّوْنِ مُهْمَلِ الزِّيِّ
أَقْرَبَ إِلَى الْفَقْرَمَنِ إِلَى الْغِنَى ، تَقْتَحِمُهُ^(٢) الْعَيْنُ اقْتِحَامًا فِي
عِبَاءَتِهِ الْقَدِيرَةِ وَطَاقِيَّتِهِ الَّتِي اسْتَحَالَ بِيَاضِهَا إِلَى سَوَادِ قَاتِمِ ، وَفِي
هَذَا الْقَمِيصِ الَّذِي يَبِينُ مِنْ تَحْتِ عِبَاءَتِهِ وَقَدْ اتَّخَذَ أَلْوَانًا مُخْتَلِفَةً
مِنْ كَثْرَةِ مَا سَقَطَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ ، وَفِي نَظْفِئِهِ الْبَالِيَتَيْنِ
الرُّقْعَتَيْنِ . تَقْتَحِمُهُ الْعَيْنُ فِي هَذَا كُلِّهِ ، وَلَكِنِهَا تَبْتَسِمُ لَهُ حِينَ

(١) أى إنه كان في ذلك الوقت صبى جِدًّا وَجَمَلِيًّا . فِي «إِنْ» هِيَ الْمُؤَكَّدَةُ وَقَدْ
خَفَفَتْ بِالنَّسْكِينِ . وَإِذَا خَفَفَتْ بَطَلْ عَمَلُهَا وَلَكِنْ مَعْنَاهَا وَهُوَ التَّوَكُّيدُ بَاقٍ ، وَتَثْبِيتُ
لَا مِ فِي الْجُمْلَةِ بَعْدَهَا لِتَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ . وَمِنْ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ «وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُوكَ عَنْ
الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» أَيْ أَنَّهُمْ كَادُوا يَفْتَنُوكَ .
(٢) تَقْتَحِمُهُ الْعَيْنُ : تَحْتَقِرُهُ وَتُزْجِرُهُ .

تَرَاهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ حَالِ رِزْمَةٍ^(١) وَبَصَرٍ مَكْفُوفٍ ، وَاضِحَ
الْجَبِينِ مَبْتَسِمِ الشَّعْرِ مَسْرَعًا مَعَ قَائِدِهِ إِلَى الْأَزْهَرِ ، لَا تَخْتَلِفُ
خُطَاهُ وَلَا يَتَرَدَّدُ فِي مِشْيَتِهِ ، وَلَا تَظْهَرُ عَلَى وَجْهِهِ هَذِهِ الظُّلْمَةُ
الَّتِي تَعَشَى^(٢) عَادَةً وَجُوهَ الْمَكْفُوفِينَ . تَقْتَحِمُهُ الْعَيْنُ وَلَكِنِهَا
تَبْتَسِمُ لَهُ وَتَلْحَظُهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الرَّقِّقِ ، حِينَ تَرَاهُ فِي حَلْقَةِ
الدَّرْسِ مُصْنِفِيًّا^(٣) كُلَّهُ إِلَى الشَّيْخِ يَلْتَمِسُ كَلَامَهُ التَّهَامًا ، مَبْتَسِمًا
مَعَ ذَلِكَ لَا مُتَأَلِّمًا وَلَا مُتَبَرِّمًا^(٤) وَلَا مُظْهِرًا مَيْلًا إِلَى لَهْوٍ ،
عَلَى حِينٍ يَلْهُو الصَّبِيَّانِ مِنْ حَوْلِهِ أَوْ يَشْرَبُونَ^(٥) إِلَى اللَّهْوِ .
عَرَفْتُهُ يَا ابْنَتِي فِي هَذَا الطُّورِ . وَكَمْ أَحْبَبُّ لَوْ تَعَرَّفْتَهُ
كَمَا عَرَفْتُهُ ، إِذْ نَ تَقْدُرِينَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنْ فَرْقٍ . وَلَكِنْ
أَنَّيْ لَكَ هَذَا وَأَنْتِ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عَمْرِكَ تَرَيْنَ الْحَيَاةَ كُلِّهَا
نَعِيمًا وَصَفْوًا !
عَرَفْتُهُ يُنْفِقُ الْيَوْمَ وَالْأُسْبُوعَ وَالشَّهْرَ وَالسَّنَةَ لَا يَأْكُلُ

(١) حَالِ رِزْمَةٍ : سَيْفِيَّةٌ . (٢) تَعَشَى : تَعَطَّى .
(٣) مُصْنِفِيًّا : يَمِيلُ أذْنِيهِ لِلِاسْتِغْنَاءِ .
(٤) مُتَبَرِّمًا : مُتَضَجِّرًا .
(٥) يَشْرَبُونَ : رَفَعَ رَأْسَهُ وَوَدَّ عُنُقَهُ لِيَنْظُرَ . وَيَعْنِي هُنَا يَتَطَلَّعُونَ .

إِلَّا لَوْنًا وَاحِدًا ، يَأْخُذُ مِنْهُ حَظَّهُ فِي الصَّبَاحِ ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ حَظَّهُ فِي الْمَسَاءِ ، لَا شَاكِيًا وَلَا مُتَبَرِّمًا وَلَا مُتَجَلِّدًا ، وَلَا مُفَكِّرًا فِي أَنَّ حَالَهُ خَلِيقَةٌ بِالشُّكْوَى . وَلَوْ أَخَذَتْ يَا ابْنَتِي مِنْ هَذَا اللَّوْنِ حَظًّا قَلِيلًا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ لِأَشْفَقْتُ أُمَّكَ وَلَقَدَّمْتُ إِلَيْكَ قَدْحًا مِنَ الْمَاءِ الْمَعْدَنِيِّ ، وَلَا تَنْتَظِرْتِ أَنْ تَدْعُو الطَّيِّبَ .

لَقَدْ كَانَ أَبُوكَ يُنْفِقُ الْأُسْبُوعَ وَالشَّهْرَ لَا يَعْشَى إِلَّا عَلَى خَبْزِ الْأَزْهَرِ . وَوَيْلٌ لِلْأَزْهَرِيِّينَ مِنْ خَبْزِ الْأَزْهَرِ ! إِنْ كَانُوا^(١) لَيَجِدُونَ فِيهِ ضُرُوبًا مِنَ الْقَشِّ وَالْوَانَا مِنَ الْخَصَى وَفَنُونًا مِنَ الْحَشْرَاتِ .

وَكَانَ يُنْفِقُ الْأُسْبُوعَ وَالشَّهْرَ وَالْأَشْهَرَ لَا يَعْشَى هَذَا الْخَبْزَ إِلَّا فِي الْعَسَلِ الْأَسْوَدِ ، وَأَنْتِ لَا تَعْرِفِينَ الْعَسَلَ الْأَسْوَدَ ، وَخَيْرُكَ أَلَّا تَعْرِفِيهِ .

كَذَلِكَ كَانَ يَعْشَى أَبُوكَ جَادًا مَبْتَسِمًا لِلْحَيَاةِ وَالدَّرُوسِ ، مَحْرُومًا لَا يَكَادُ يَشْعُرُ بِالْحُرْمَانِ . حَتَّى إِذَا انْقَضَتِ السَّنَةُ وَعَادَ

(١) إِنْ ، هِيَ الْمُؤَكَّدَةُ الْمُخَفَّفَةُ . أَيْ إِنَّهُمْ كَانُوا يَجِدُونَ ...

إِلَى أَبِيهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَسْأَلَانَهُ كَيْفَ يَأْكُلُ ؟ وَكَيْفَ يَعْشَى ؟ أَخَذَ يَنْظِمُ لَهَا الْأَكَاذِيبَ كَمَا تَعَوَّدَ أَنْ يَنْظِمَ لَكَ الْقِصَصَ ، فَيُحَدِّثُهُمَا بِحَيَاةِ كُلِّهَا رَغَدًا وَنَعِيمًا ، وَمَا كَانَ يَدْفَعُهُ إِلَى هَذَا الْكُذْبِ حُبُّ الْكُذْبِ ، إِنَّمَا كَانَ يَرْفُقُ بِهِذَيْنِ الشَّيْخَيْنِ وَيَكْرَهُ أَنْ يَنْبِيَهُمَا بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ حِرْمَانٍ . وَكَانَ يَرْفُقُ بِأَخِيهِ الْأَزْهَرِيِّ ، وَيَكْرَهُ أَنْ يَعْلَمَ أَبَوَاهُ أَنَّهُ يَسْتَأْثِرُ دُونَهُ بِقَلِيلٍ مِنَ اللَّبَنِ . كَذَلِكَ كَانَتْ حَيَاةُ أَبِيكَ فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِهِ .

فَإِنْ سَأَلْتِنِي كَيْفَ انْتَهَى إِلَى حَيْثُ هُوَ الْآنَ ، وَكَيْفَ أَصْبَحَ شَكْلُهُ مَقْبُولًا لَا تَقْتَحِمُهُ الْعَيْنُ وَلَا تَرْدِيهِ ، وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يُهَيِّئَ لَكَ وَالْأَخِيكَ مَا أَتَمَّ فِيهِ مِنْ حَيَاةٍ رَاضِيَةٍ ، وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يُشِيرَ فِي نَفُوسِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مَا يُشِيرُ مِنْ حَسَدٍ وَحَقْدٍ وَضَمِينَةٍ ، وَأَنْ يُشِيرَ فِي نَفُوسِ نَاسٍ آخَرِينَ مَا يُشِيرُ مِنْ رِضَاعَةٍ وَإِكْرَامٍ لَهُ وَنَشْجِيعٍ — إِنْ سَأَلْتِ كَيْفَ انْتَقَلَ مِنْ تِلْكَ الْحَالِ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ ، فَلَسْتُ أُسْتَطِيعُ أَنْ أَجِيبَكَ ! وَإِنَّمَا هُنَاكَ شَخْصٌ آخَرٌ هُوَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ هَذَا الْجَوَابَ فَسَلِّيهِ يُبَيِّنْكَ .

أَتَعْرِفِينِه؟ انظُرِي إِلَيْهِ! هُوَ هَذَا الْمَلِكُ الْقَائِمُ الَّذِي يَحْنُو
 عَلَى سَرِيرِكَ إِذَا أَمْسَيْتِ لِتَسْتَقْبِلِي اللَّيْلَ فِي هُدُوءٍ وَنَوْمٍ لَذِيذٍ،
 وَيَحْنُو عَلَى سَرِيرِكَ إِذَا أَصْبَحْتَ لِتَسْتَقْبِلِي النَّهَارَ فِي سُرُورٍ
 وَابْتِهَاجٍ. أَلَسْتَ مَدِينَةً لِهَذَا الْمَلِكِ بِمَا أَنْتِ فِيهِ مِنْ هُدُوءِ
 اللَّيْلِ وَبَهْجَةِ النَّهَارِ؟!

لَقَدْ حَنَّا يَا ابْنَتِي هَذَا الْمَلِكُ عَلَى أَبِيكَ، فَبَدَّلَهُ مِنَ الْبُؤْسِ
 نِعْمًا، وَمِنَ الْيَأْسِ أَمَلًا، وَمِنَ الْفَقْرِ غِنًى، وَمِنَ الشَّقَاءِ
 سَعَادَةً وَصَفْوًا..

لَيْسَ دَيْنُ أَبِيكَ لِهَذَا الْمَلِكِ بِأَقْلٍ مِنْ دَيْنِكَ. فَتَتَعَاوَنَا
 يَا ابْنَتِي عَلَى آدَاءِ هَذَا الدَّيْنِ؛ وَمَا أَتَمَّا بِيَالْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَ
 مَا تُرِيدَانِ؟

طه حسين

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٩٤٢

I.S.B.N 977-01-3819-9

الأيام

(الجزء الثاني)

المكتبة العربية

www.tipsclub.net

Amly

طه حسين

أقام في القاهرة أسبوعين أو أكثر من أسبوعين ، لا يعرف من أمره إلا أنه ترك الريف وانتقل إلى العاصمة ليطلب فيها المقام طالباً للعلم مختلفاً إلى مجالس الدرس في الأزهر ، وإلا أنه يقضى يومه في أحد هذه الأطوار الثلاثة التي يتخيلها ولا يحققها .

فهو يسكن بيتاً غريباً يسلك إليه طريقاً غريبة أيضاً ، ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر ، فيدخل من باب يفتح أثناء النهار ويغلق في الليل ، وتفتح في وسطه فجوة ضيقة بعد أن تصلى العشاء . فإذا تجاوز هذا الباب أحس عن يمينه حرّاً خفيفاً يبلغ صفحة وجهه اليمنى ، ودخاناً خفيفاً يداعب خياشيمه ، وأحس من شماله صوتاً غريباً يبلغ سمعه ويثير في نفسه شيئاً من العجب .

وقد ظل أياماً يسمع هذا الصوت إذا عاد من الأزهر مصباحاً وإذا عاد منه ممسياً ، يسمعه وينكره ويستحي أن يسأل عنه ، ثم فهم من بعض الحديث أنه قرقرة الشيشة يدخنها بعض تجار الحى ويهبها صاحب القهوة التي كان ينبعث منها ذلك الحر الخفيف وذلك الدخان الرقيق . فإذا مضى أمامه خطوات وجاوز ذلك المكان الرطب المسقوف الذي لم تكن تستقر فيه القدم لكثرة ما كان يصب فيه صاحب القهوة من الماء ، خرج إلى طريق مكشوفة ، ولكنها ضيقة قدرة تنبعث منها

روائح غريبة معقدة لا يكاد صاحبنا يحققها ، تنبعث هادئة بغيضة في أول النهار وحين يقبل الليل ، وتنبعث شديدة عنيفة حين يتقدم النهار ويشد حر الشمس .

وكان صاحبنا يمضي أمامه في هذه الطريق الضيقة ، وقلما كانت تستقيم له هذه الطريق . وما أكثر ما كان صاحبه ينحرف به ذات اليمين أو ذات الشمال ليجنبه عقبة قائمة هنا أو هناك ! فكان يسعى حينئذ مستعرضاً قد أدار وجهه نحو هذا البناء عن يمين أو ذاك البناء عن شمال ، حتى إذا جاوز هذه العقبة استقبل الطريق كما بدأها ساعياً أمامه في خطى رفيقة قلقة ، تأخذ أنه تلك الروائح المنكرة ، وتأخذ أذنيه أصوات مختلطة مصطخبة تنحدر من عل وتصعد من أسفل ، وتنبعث من يمين وتنبعث من شمال وتلتقي كلها في الجو ، فكأنما كانت تنعقد فتؤلف من فوق رأس الصبي سحاباً رقيقاً ولكنه مراكم قد غشي بعضه بعضاً .

وكانت هذه الأصوات مختلفة أشد الاختلاف : أصوات النساء يختصن ، وأصوات الرجال يتنادون في عنف ويتحدثون في رفق ، وأصوات الأثقال تحط وتبعث ، وصوت السقاء ينغى ببيع الماء ، وصوت الخوذى يزجر حماره أو بغله أو فرسه ، وصوت العربة تتر عجلاتها أژا ، وربما شق هذا السحاب من الأصوات نهيق حمار أو صهيل فرس .

وكان صاحبنا يمضي بين هذا كله مشرد النفس قد غفل أو كاد

بغفل عن كل أمره . حتى إذا بلغ من هذه الطريق مكاناً بعينه سمع أحاديث مختلطة تأتيه من باب قد فتح عن شماله ، فعرف أنه سينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد في السلم الذي سينتهي به إلى حيث يقيم . وكان هذا السلم متوسطاً ليس بشديد السعة ولا بشديد الضيق ، قد اتخذ درجه من الحجر ، ولكن كثر التصعيد فيه والهبوط منه ولم يتعهد بالغسل ولا بالتنظيف ، فتراكم عليه تراب كثيف ، ثم انعقد ولزم بعضه بعضاً حتى استخفى الحجر استخفاء ، وخيل إلى المصعد فيه والهابط منه أنه إنما يتخذ سلماً من الطين .

ومع أن الصبي كان كلفاً بإحصاء الدرج كلما صعد في سلم أو هبط منه ، فقد أقام ما شاء الله له أن يقيم في ذلك المكان ، وصعد في ذلك السلم وهبط منه ما شاء الله له أن يصعد أو يهبط ، ولم ينخطر له قط أن يحصى درج هذا السلم ، وإنما علم بعد أن اتخذ مرتين أو مرات أنه إذا صعد منه درجات فلا بد من أن ينحرف قليلاً نحو الشمال ليمضي في التصعيد تاركاً عن يمينه فجوة لم يبلغها قط ، ولكنه كان يعلم أنها كانت تؤدي إلى الطبقة الأولى من ذلك البناء الذي أقام فيه أعواماً طويلاً .

كان يترك إذن عن يمينه مدخل تلك الطبقة من الطبقات التي لم يكن يسكنها طلاب العلم ، وإنما كان يسكنها أخطا من العمال والبايع ، ويمضي مصعداً حتى يبلغ الطبقة الثانية ، فلا يكاد يبلغها حتى تجد نفسه المكدودة شيئاً من الراحة يأتيه من هذا الهواء الطلق الذي كان

يبيح له التنفس بعد أن كاد يخنق في ذلك السلم القذر. ، وتأتيه من صوت تلك البغاة التي كانت تصوت في غير انقطاع ، كأنما تشهد الناس جميعاً على ظلم صاحبها الفارسي الذي سجنها في ذلك القفص البغيض ، ليبيعها غداً أو بعد غد لرجل آخر يسجنها في قفص بغيض ؛ حتى إذا تخفف منها وقبض ثمنها نقداً اشترى بلها خليفة تقوم في ذلك السجن مقامها وتدعو فيه دعاءها وتنتظر فيه مثل ما كانت تنتظر صاحبها : أن تنقل من يد إلى يد ومن قفص إلى قفص ، وأن ينتقل معها دعاؤها الحزين الذي يبهج الناس به من مكان إلى مكان .

كان صاحبنا إذا بلغ أعلى السلم استقبل الهواء الطلق بوجهه ، ودعاها صوت البغاة إلى أن ينحرف نحو اليمين ، فيفعل ويمضي في طريق ضيقة ، فيمر أمام بيتين يسكنهما رجلان من فارس : أحدهما لا يزال شاباً ، والآخر قد تقدمت به السن . في أحدهما شراسة وغلظة وانقباض عن الناس ، وفي الآخر دعة ورقة وتبسط للناس .

ثم يبلغ الصبي بيته ، فيدخل إلى غرفة هي أشبه بالدلهيز ، قد تجمعت فيها المرافق المادية للبيت ، وهي تنهى به إلى غرفة أخرى واسعة غير مستقيمة قد تجمعت فيها المرافق العقلية للبيت . وهي على ذلك غرفة النوم ، وغرفة الطعام ، وغرفة الحديث ، وغرفة السمر ، وغرفة القراءة والدرس . فيها الكتب وفيها أدوات الشاي ، وفيها بعض

رفائق الطعام . وكان مجلس الصبي من هذه الغرفة معروفاً محدوداً كجلسه من كل غرفة سكنها واختلف إليها . كان مجلسه عن شماله إذا دخل الغرفة ، يمضي - خطوة أو خطوتين فيجد حصيراً قد بسط على الأرض ألقى عليه بساط قديم ولكنه قيم . هنالك يجلس أثناء النهار ، وهنالك ينام أثناء الليل . تُلقي له وسادة يضع عليها رأسه ويخاف يلتف فيه . وكان يحاذي مجلسه من الغرفة مجلس أخيه الشيخ ، وهو أرق في مجلسه قليلاً أو كثيراً : حصير قد بسط على الأرض وألقى عليه بساط لا بأس به ، ثم ألقى على البساط فراش آخر من اللبد ، ثم ألقى من فوق هذا الفراش حشية طويلة عريضة من القطن ، ثم بسطت من فوقها ملاء . على هذه الحشية كان يجلس الفتي الشيخ ويجلس معه أصفياؤه . ولم يكونوا يسندون ظهورهم إلى الحائط كما كان يفعل الصبي ، وإنما كانوا يسندونها إلى وسائد قد رصت على الحشية رصاً ؛ فإذا كان الليل استحال هذا المجلس سريراً ينام عليه الفتي الشيخ .

ويتنافسون فيها تنافساً شديداً .

وكان الصبي يسمع لهذا الهمس فيفهم حيناً ، ويستغلق الأمر عليه في أكثر الأحيان . حتى إذا مضت الأيام وقبعتها الأيام وشب الصبي وأتيح له أن يفهم عن الملتزمين وأصحاب الرمز ، علم ما علم ، فتغيرت في نفسه قيم كثير من الأشياء ، ومعايير كثير من الأحكام ، وأقدار كثير من الناس .

وكان الحاج فيروز رجلاً أسود فاحماً طويلاً قليل الكلام ، فإذا تكلم لم يكذبين ، وإنما كان يلتوى لسانه بالعربية التواء غريباً ترك في نفس الصبي أثراً لا يمحي ؛ فهو لا يقرأ في « البيان والتبيين » قصة زياد مع غلامه حين أراد أن يقول له : « أهدى إلينا حمار وحش » فجعل الحاء هاء في الكلمتين . وأنكر زياد عليه ذلك فقال له : « وبلك ! قل أهدى إلينا غير » . فلما قال الغلام ذلك جعل العين همزة ، فارتاع زياد وردده إلى حمار الوحش .

لا يقرأ هذه القصة إلا ذكر الحاج فيروز . وكان للحاج فيروز في الحى وبين طلاب العلم من أهله خاصة خطر عظيم ؛ فإليه كانوا يفرعون إذا تقدم الشهر أو تأخر الراتب أو نفدت النقود . يفرعون إليه ليطعمهم نسيئة ، ويفرعون إليه ليقرضهم القرش أو القروش ، ويفرعون إليه في كثير من شؤونهم . ولذلك كان اسمه يدور على ألسنتهم كما كانت تدور عليها أسماء كثير من شيوخهم الأعلام في الأزهر الشريف .

لم يكن الصبي يعرف من بيئته القريبة أكثر من هذا . فأما الطور الثاني من أطواره فقد كان اضطرابه في الطريق بين هذه البيئة وبين الأزهر . وكان يخرج من ذلك المكان المسقوف ، فيجد حر القهوة على صفحة وجهه من شمال ، وتبلغ قرقرة الشيشة أذنه اليمنى ، فيستقبل حانوتاً كان له في حياته أثر عظيم : حانوت الحاج فيروز الذى كان يبيع لأهل الحى أكثر ما كانت تقوم عليه حياتهم من الغذاء : يبيع لهم ألوان الفول المدمس إذا أصبحوا . وكان الفول عنده كما هو عند غيره ألواناً مختلفة ، ولكنه كان يمتاز بإتقانه ويغالى بشمسه ؛ فقد كان يبيع الفول صافياً ، وكان يبيعه بالزيت على اختلاف ألوانه ، وكان يبيعه بالسمن ، وكان يبيعه بالزبد ، وكان يضيف إليه عند الحاجة فنوناً من التوابل ترغّب فيه وتغرى به وتدفع طلاب العلم إلى أن يسرفوا على أنفسهم إذا طعموا منه ، ثم يثقلون بعد ذلك عن درس الضحى وينامون أثناء درس الظهر .

فإذا أقبل المساء فقد كان الحاج فيروز يبيع لأهل الحى طعامهم من الجبن والزيتون والطحينة والعلسل ؛ وربما باع للمترفين منهم علب التونة والسردين ، وربما باع لبعضهم حين يتقدم الليل أشياء لم تكن تسمى ولم تكن تؤكل ، وإنما كان يتحدث المتحدثون عنها همساً

وكان للحاج فيروز خطر عظيم آخر في حياة هؤلاء الطلاب :
فياسه كانت ترسل إليهم المسائل التي تحمل إليهم أخبار الأسر ،
والتي تحمل إليهم في طبائها أحياناً تلك الورقة الضئيلة التي كانوا
يذهبون بها إلى مكتب البريد فيدخلون وحيويهم خالية ، ويخرجون
واللفضة في حيويهم زئين حسن الوقع في آذانهم وقلوبهم أيضاً .

ومن هنا لم يكن بد لكل واحد منهم من أن يمر بالحاج فيروز
ليحييه إذا أصبح ، وليحييه إذا أمسى ، وليتقي في أثناء ذلك نظرة
سريعة خاطفة إلى ذلك المكان الذي كانت الرسائل تنتظر فيه أصحابها .
وما أكثر ما كان أحدهم يعود إلى بيته وفي يده ذلك الغلاف المقلل
قد أصابه كثير من ضرر الزيت والزبد ! وإن هذا الغلاف على
تذارته لا أثر عنده من هذه الملمزة أو تلك من هذا الكتاب أو ذلك
من كتب الفقه أو كتب النحو أو كتب الأصول .

كان الصبي إذن يستقبل حانوت الحاج فيروز إذا خرج من
ذلك الممر المسقوف ، وربما خطا مع صاحبه خطوات فحيا الحاج
فيروز والنمس عنده رسالة فوجدتها أو لم يجدها ، فانصرف مبتسماً أو
عابساً ، واستند إلى الشمال ففضى أمامه في ذلك الشارع الطويل
الضيق المزدحم بالمارة من الطلاب والتجار والباعة والعمال وعجلات
الحمل تجرها الحمير أو تجرها الخيل أو تجرها البغال ، ويصيح
بها الخوذية زاجرين حيناً ومتلاحين حيناً آخر ومخاصمين لمن يعترض
طريقهم من الرجال والنساء والصبية أحياناً . وعن يمين هذا الشارع وعن

شماله حوانيت مختلفة ، منها ما يبيأ فيه طعام الفقراء والبائسين ، فيحمل
المهوى منها روائح كريهة ، ولكنها مع ذلك كانت محببة إلى كثير من
هؤلاء المارة بين طلاب العلم والعاملين بأيديهم والحاملين على ظهورهم
وكواهلهم . منهم من كان يعطف على هذه الحوانيت فيشترى منها
القليل يلبسها في مكانه الثمناً أو يحمله إلى بيته ليستأثر به أو يشارك
فيه ، ومنهم من تبلغه هذه الروائح فتثيرة ولكنه لا يثوز ، وتدعوه
ولكنه لا يجيب ، قد رأيت عينه وشم أنفه وتحركت شهوته ، ولكن
فصرت يده وحنانه جيبة ، فضى وفي نفسه حاجة وفي قلبه موجدة
وحفيظة ، وفيه مع ذلك رضا بالقضاء وإذعان للقدر .

ومن هذه الحوانيت ما كانت تدار فيه تجارة هادئة مطمئنة
صامئة لا تقول شيئاً أو لا تكاد تقول شيئاً ؛ فإن نطقت فإنما تنطق
همساً لا يكاد يسمع ، وتنطقه في ظرف وأدب وفي رقة وتلطف ،
وهي على هذا كله بل لهذا كله تغل على أهلها الثراء الضخم والمال
الكثير . وكانت أكثر هذا الحوانيت إنما تدار فيها تجارة البن
والصابون ، وربما أديرت في بعضها تجارة السكر والأرز أيضاً .

وكان الصبي يسعى بين هذا كله يحسه إحساساً قوياً ويجهله جهلاً
شديداً ، لولا أن صاحبه كان يفسره له بعض ذلك من حين إلى حين .
وما يزال الصبي ماضياً في طريقه ، تعتدل مواطئ أقدامه حيناً وتعوج
حيناً آخر ، وهو يسعى حسن السعي ما اعتدلت له الطريق ، ويسعى
متمراً في أذباله حين تعوج أو تضطرب ، حتى يبلغ موضعاً ينحرف

فيه قليلا نحو الشمال ، ثم يندفع في طريق ضيقة أشد الضيق ، ملتوية أشد الالتواء ، قدرة أشد القدرة ، قد استقر فيها هواء فاسد كل الفساد ، انعدت فيه روائح كريهة منكرة ؛ وانبعث فيه بين حين وحين أصوات نحيلة ضئيلة تصور البؤس وتبين عن الضر وتلحف في السؤال ، يبعثها وقع الخطى كأن أصحابها لا يحسون الحياة إلا بأذانهم ، فهم يدعونها كلما سمعوها ، وتتجاوب فيها أصوات أخرى قصيرة غليظة مختلفة مقطعة ، هي أصوات هذه الطير التي تحب الظلمة. وتأنس إلى الخلوة وتألف الخراب . وربما اختلطت هذه الأصوات بمحلق الأجنحة ، وربما دنا هذا الخفق من أذن الصبي أو من وجهه فأخافه وأفزعه ، وإذا يده ترتفع فجأة وعلى غير إرادة لتحمي وجهه أو أذنه ، وإذا قلبه يخفق خفقا خفيفا متصلا .

وهو يمضي مع صاحبه في هذه الطريق الضيقة المظلمة الملتوية ، يصعد قليلا لينحدر قليلا ، ويمضي أمامه ليعطف عن يمينه ، ثم يمضي أمامه ليعطف عن شماله . وهذه الأصوات المنكرة المختلفة تدعوه مرة وتشيعه مرة أخرى وتؤذبه دائما ، حتى يشعر بعد حين بأن قلبه قد هدأ ، وبأن صدره قد اتسع ، وبأن طريق التنفس قد استقامت له ، فيبعث من جوفه نفسا طويلا كأنه يحمل كل ما استقر في نفس الصبي من ألوان الذعر والألم والحزن .

ثم يتنفس حرا طليقا كأنما يستنشق الحياة في هذا الهواء الطلق الذي أخذ يغمره منذ خرج من « حارة الوطاويط » ، ومضى أمامه

في تلك الطريق المنحورة التي لا تعتدل لقدميه ، ولكن ما هي الإلحظات قصيرة ، حتى تعتدل الطريق وتستوى الأرض لقدميه فهو يسعى معتدلا معلما ، قد تهيأت نفسه لشيء من الفرح والمرح تحمله إليه هذه الأصوات الغريبة المختلطة التي يسمعا حين يسعى في ذلك الشارع الهادئ الحلو ، وعن شماله مسجد سيدنا الحسين ، وعن يمينه هذه الحوانيت الصغيرة التي طالما وقف عند بعضها حين تقدمت به الأيام فذاق من طيباتها ما شاء الله له أن يذوق .

ذاق التين المرطب وشرب نقيعه في أثناء الصيف ، وذاق البسبوسة واستمتع بما تبعته من الحرارة في الأجواف أثناء الشتاء . وربما وقف عند بعض الباعة من السوريين فذاق ألوانا من الطعام ، منها الحار ومنها البارد ، ومنها الحلو ومنها الملح ، كان يجد في ذوقها لذة لا تتدر ، ولو قدمت إليه الآن لأشفق أن تحمل إليه العلة أو تغرى به الموت .

وكان يمضي في طريقه هذه حتى يبلغ مكانا تختلط فيه الأصوات وترتفع ، ويشعر بأن الطريق قد افرقت فيه ؛ فهو يستطيع أن يمضي أمامه ، وأن يمضي عن يمين ، وأن يمضي عن شمال ، وأن يعود أدراجه .

وكان صاحبه يقول له : هذه هي المفارق الأربعة ، إن مضيت عن يمينك فإلى السكة الحديدية ثم الموسيقى ثم العتية الخضراء ، وإن مضيت عن شمالك فهي الدراسة ، ولكننا سنمضي أمامنا

فنسلك شارع الخلوّجى ، وهو شارع العلم والجد والعمل ، ضيق تكاد تبلغ جانبيه إذا مددت يديك عن يمين وشمال . ولكنك تمضى بين حوائط صغيرة تباع فيها الكتب جديدها وقديمها . جيدها ورديتها ، مطبوعها ومخطوطها ، وكَم كانت للصبي في ذلك الشارع الضيق وقفات خصبة ممتعة لم ينسها قط حين تقدمت به الأيام واختلفت عليه أطوار الحياة . ولكنه عَجِلَ فيجب أن يبلغ صاحبه الأزهر قبل أن يتدئّ الدرس . وما هو ذا قد بلغ « باب المزيّنين » ، فخلع نعليه وخالف بينهما وأخذهما في يده ومضى مع صاحبه . فلما تقدّم قليلاً تخطى عتبة قليلة الارتفاع ، ثم انفرج له صحن الأزهر هادئاً مطمئنّاً يترقق فيه نسيم بارد هونسيم الصباح . وهو الآن في الطور الثالث من أطوار حياته الأولى .

٣

وكان هذا الطور أحب أطوار حياته تلك إليه وآثرها عنده . كان أحب إليه من طوره ذلك في غرفته التي كان يشعر فيها بالغرابة شعوراً قاسياً ؛ لأنه لا يعرفها ولا يعرف مما اشتملته من الأثاث والمتاع إلا أقله وأذناه إليه ؛ فهو لا يعيش فيها كما كان يعيش في بيته الريفي وفي غرفاته وحجراته تلك التي لم يكن يجهل منها وما احتوت عليه شيئاً ، وإنما كان يعيش فيها غريباً عن الناس وغريباً عن الأشياء ، وضيقاً حتى بذلك الهواء الثقيل الذي كان يتنفسه فلا يجد فيه راحة ولا حياة ، وإنما كان يجد فيه ألماً وثقلاً .

وكان أحب إليه من طوره الثاني في طريقه تلك بين البيت والأزهر ؛ فقد كان في ذلك الطور مشرداً مفرّق النفس مضطرب الخطى ممتلي القلب بهذه الحيرة المضلة الباهظة التي تفسد على المرء أمره وتجعله يتقدم أمامه لا على غير هدى في طريقه المادية وحدها - فقد كان ذلك محتوماً عليه - بل على غير هدى في طريقه المعنوية أيضاً ؛ فقد كان مصروفاً عن نفسه بما يرتفع حوله من الأصوات وما يضطرب حوله من الحركات . وقد كان مستخديباً في نفسه من اضطراب خطاه وعجزه من أن يلائم بين مشيته الضالة الحائرة الهادئة ومشية صاحبه المهتدية العازمة العنيفة .

فأما في طوره الثالث هذا فقد كان يجد راحة وأمناً وطمانينة واستقراراً . كان هذا النسيم الذي يترقق في صحن الأزهر حين تصلّى الفجر يتلقى وجهه بالتحية فيملاً قلبه أمناً وأملاً . وما كان يشبه وقع هذا النسيم على جبهته التي كانت تندى بالعرق من سرعة ما سعى ، إلا بتلك القبلات التي كانت أمه تضعها على جبهته بين حين وحين ، في أثناء إقامته في الريف حين يقرأها آيات من القرآن أو يمتعها بقصة مما قرأ في الكتب أثناء عبثه في الكتاب ، أو حين كان يخرج ضعيفاً شاحباً من خلوته تلك التي كان يتوسل فيها إلى الله بعديّة يس ليقيض هذه الحاجة أو تلك من حاجات الأسرة .

كانت تلك القبلات تُنعش قلبه وتشيع في نفسه أمناً وأملاً وحناناً ، وكان ذلك النسيم الذي كان يتلقاه في صحن الأزهر يشيع في نفسه هذا كله ويرده إلى الراحة بعد التعب ، وإلى الهدوء بعد الاضطراب ، وإلى الابتسام بعد العيوس . ومع ذلك فلم يكن يعلم من أمر الأزهر شيئاً ، ولم يكن يعرف مما يحتويه الأزهر شيئاً ، وإنما كان يكفيهِ أن تمس قدميه الحافيتين أرض هذا الصحن ، وأن يمس وجهه نسيم هذا الصحن ، وأن يحس الأزهر من حوله نائماً يريد أن يستيقظ ، وهادئاً يريد أن ينشط ليعود إلى نفسه أو لتعود إليه نفسه . وإذا هو يشعر أنه في وطنه وبين أهله ، لا يحس غربة ولا يجد ألماً ، وإنما هي نفسه تتفتح من جميع أنحاءها ، وقلبه يتشوق من جميع أقطاره ليتلقى . . . ليتلقى ماذا ؟ ليتلقى شيئاً لم يكن يعرفه ،

ولكنه كان يحبه ويدفع إليه دفعاً ، طالما سمع اسمه وأراد أن يعرف ما وراء هذا الاسم ، وهو العلم . وكان يشعر شعوراً غامضاً ولكنه قوى بأن هذا العلم لا حد له ، وبأن الناس قد ينفقون حياتهم كلها ولا يبلغون منه إلا أيسره . وكان يريد أن ينفق حياته كلها وأن يبلغ من هذا العلم أكثر ما يستطيع أن يبلغ مهما يكن في نفسه يسيراً . وكان قد سمع من أبيه الشيخ ومن أصحابه الذين كانوا يجالسونه من أهل العلم أن العلم بحر لا ساحل له ، فلم يأخذ هذا الكلام على أنه تشبيه أو تجوز ، وإنما أخذه على أنه الحق كل الحق .

وأقبل إلى القاهرة وإلى الأزهر يريد أن يلقى نفسه في هذا البحر فيشرب منه ما شاء الله له أن يشرب ثم يموت فيه غرقاً . وأى موت أحب إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذي يأتيه من العلم ويأتيه وهو غرق في العلم !

كانت هذه الحواطر كلها تتور في نفسه الناشئة فجأة ، فتملؤها وتلكمها وتنسبها تلك الغرفة الموحشة وتلك الطريق المضطربة الملتوية ، بل تنسبها الريف ولذات الريف ، وتشعرها بأنها لم تكن مخطئة ولا غالية حين كانت تتحرق شوقاً إلى الأزهر وضييقاً بالريف .

وكان الصبي يسعى أمامه مع صاحبه حتى يقطع الصحن ويصعد هذه الدرجة اليسيرة التي يتدلى بها الأزهر نفسه ، فيمتلئ قلبه خشوعاً ، وخضوعاً ، وتمتلئ نفسه إكباراً وإجلالاً . ويخفف الخطو

الشيخ وفتره . وما أكثر ما كان الصبي يوازن في نفسه بين أصوات
 الشيوخ حين ينطقون بهذه الصيغة في درس الفجر ، وأصواتهم حين
 ينطقون بها في درس الظهر ! فأما أصوات الفجر فكانت فاترة
 حلوة فيها بقية من نوم . وأما أصوات الظهر فكانت قوية عنيفة
 متمثلة فيها شيء من كسل أيضاً ، تصور امتلاء البطن بما كانت
 تمتلئ به من طعام الأزهريين في ذلك الوقت الذي كان الأزهريون
 يعيشون فيه على القبول والمخلل وما يشبه القول والمخلل من ألوان الطعام .
 كان في أصوات الفجر دعاء للمؤلفين يشبه الاستعطاف ، وكان
 في أصوات الظهر هجوم على المؤلفين يوشك أن يكون عدواناً ،
 وكانت هذه الموازنة تعجب الصبي وتثير في نفسه لذة ومتاعاً .
 وكان يسعى مع صاحبه حتى يرقى هاتين الدرجتين اللتين يبتدئ
 هما الديوان ، وهناك إلى جانب عمود من هذه الأعمدة المباركة قد
 شد إليه كرسي بسلسلة غليظة يُجلسه صاحبه ويقول له : انتظر هنا
 فستمع درساً في الحديث ، فإذا فرغت من درسي فسأعود إليك .
 وكان درس صاحبه في أصول الفقه ، وكان أستاذ صاحبه
 الشيخ راضى رحمه الله ، وكان الكتاب الذي يدرسه الشيخ راضى
 كتاب التحرير للكمال بن الهمام . وكان الصبي يسمع هذه الألفاظ
 كلها فيمتلئ لها قلبه رهباً ورغباً ومهابة وإجلالاً . أصول الفقه ،
 ما عسى أن يكون هذا العلم ؟ الشيخ راضى ! من عسى أن يكون
 هذا الشيخ ؟ التحرير ! ما معنى هذه الكلمة ؟ الكمال بن الهمام !

على هذه الحُصْرُ المبسوطة البالية التي كانت تنفرج أحياناً عما تحبها
 من الأرض ، كأنها تريد أن تتيج لأقدام الساعين عليها شيئاً من البركة
 بلمس هذه الأرض المطهرة . وكان الصبي يحب الأزهر في هذه
 اللحظة حين يفتل المصلون من صلاة الفجر وينصرفون وفي عيونهم
 النعاس ، ليتحلقوا حول هذا العمود أو ذلك ، ويبتغوا هذا
 الأستاذ أو ذلك ، فيسمعوا منه درس الحديث أو درس التفسير أو
 درس الأصول أو درس التوحيد .

كان الأزهر في هذه اللحظة هادئاً لا ينقد فيه ذلك النوى
 الغريب الذي كان يملؤه منذ مطلع الشمس إلى أن تصلى العشاء ،
 وإنما كنت تسمع فيه أحاديث يتهاوس بها أصحابها ، وربما سمعت
 فتى يتلو القرآن في صوت هادئ معتدل ، وربما مررت إلى جانب
 مصبل لم يدرك الجماعة أو أدركها ولكنه مضى في التنفل بعد أن
 أدى الفريضة . وربما سمعت أستاذاً هنا أو هناك يبدأ درسه بهذا
 الصوت الفاتر ، صوت الذي استيقظ من نومه فأدى صلاته ولم يطعم
 بعد شيئاً يعيش في جسمه النشاط والقوة ، فهو يقول في صوت هادئ
 حلومتكسر بعض الشيء : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب
 العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى
 آله وصحبه أجمعين . قال المؤلف رحمه الله تعالى وفتعنا بعلمه
 آمين » .
 والطلاب يسمعون لهذا الصوت في هلهو وفتر يشبهان هلهو

ما أعظم هذين الاسمين ! حقاً إن العلم بحر لا ساحل له ، والخير كل الخير للرجل الذكي أن يفرق فيه . وكان إجلال الصبي لهذا الدرس خاصة يزداد ويعظم من يوم إلى يوم حين كان يسمع أخاه ورفاقه يطالعون الدرس قبل حضوره فيقرعون كلاماً غريباً ولكنه حلو الموقع في النفس .

كان الصبي يسمعه فيتحرق شوقاً إلى أن تتقدم به السن ستة أعوام أو سبعة ليستطيع أن يفهمه وأن يحل ألغازه ويفك رموزه ، ويتصرف فيه كما كان يتصرف فيه أولئك الشبان البارعون ، ويمجاد فيه أساتذته كما كان يمجاد في أولئك الشبان البارعون ، ولكنه الآن مضطر إلى أن يسمع ولا يفهم . وما كان أكثر ما يقلّب في نفسه هذه الجملة أو تلك لعله يجد وراءها شيئاً فلا يظفر بباطل ، ولا يزيده ذلك إلا إكباراً للعلم ، وإجلالاً للعلماء ، وإصغاراً لنفسه ، واستعداداً للعمل والجد !

وقد سمع جملة بعينها شهد الله أنها أرقته غير ليلة من لياليه ، ونغضت عليه حياته غير يوم من أيامه ، ولعلها أن تكون قد صرفته عن غير درس من دروسه اليسيرة ؛ فقد كان يفهم دروسه الأولى في غير مشقة ، وكان ذلك يغريه بالانصراف عن حديث الشيخ إلى التفكير في بعض ما سمع من أولئك الشبان النجباء .

وكانت هذه الجملة التي ملأت نفسه وقلبه غريبة في حقيقة الأمر ، وقعت على أذنه وهو في أول النوم وآخر اليقظة ، فردته إلى

اليقظة ليله كله ، وهي « والحق هدم الهدم » . ما معنى هذا الكلام ؟ كيف يهدم الهدم ؟ وما عسى أن يكون هذا الهدم ؟ وكيف يكون الهدم حقاً ؟ وجعلت هذه الجملة تدور في رأسه كما يدور هذيان الحمى في رأس المريض ، حتى صرف عنها ذات يوم بلاشكال من إشكالات الكفراوي ، أقبل عليه ففهمه وجادل فيه ، وأحس أنه بدأ يشرب من ذلك البحر الذي لا ساحل له وهو بحر العلم .

وكان الصبي يجلس إلى جانب ذلك العمود ، يعبث بتلك السلسلة ، ويسمع للشيخ وهو يلقى دروسه في الحديث ، فيفهم عنه في وضوح وجلاء ، ولا ينكر منه إلا تلك الأسماء التي كانت تساقط على الطلبة يتبع بعضها بعضاً ، تسبقها كلمة « حدثنا » وتفصل بينها كلمة « عن » .

وكان الصبي لا يفهم معنى لهذه الأسماء ولا لتتابعها ولا لهذه « العنونة » المملة ، وكان يتنى أن تنقطع هذه العنونة وأن يصل الشيخ إلى الحديث ، فإذا وصل إليه سمعه الصبي ملقياً إليه نفسه كلها فحفظه وفهمه ، وأعرض عن تفسير الشيخ ؛ لأنه كان يذكّره ما كان يسمع في الريف من إمام المسجد ، ومن ذلك الشيخ الذي كان يعلمه أوليات الفقه .

وبينما كان الشيخ يمضي في دروسه كان الأزهر يستيقظ شيئاً فشيئاً ، كأنما كانت تنبه أصوات أولئك الشيوخ الذين كانوا يلقبون دروسهم ، وما كان ينور بينهم وبين طلابهم من حوار يبلغ العنف

أحياناً . فهؤلاء الطلاب يُقبلون ، وهذه الأصوات ترتفع ، وهذا الدوى ينعقد ، وهؤلاء الشيوخ ترتفع أصواتهم لتبلغ آذان التلاميذ ، بل هؤلاء الشيوخ يضطرون أن ينطقوا بهذه الصيغة التي تؤذن بانتهاء الدرس ، وهي : « والله أعلم » ؛ لأن الطلاب قد أقبلوا ينتظرون درس الفقه من شيخ غير هذا الشيخ ، أو من الشيخ نفسه ؛ فلا بد من أن ينهى درس الفجر ليبدأ درس الصبح . هنالك كان يُقبل على الصبي صاحبه فيأخذه بيده في غير كلام ويجذبه في غير رفق ، ويمضى إلى مجلس آخر فيضعه فيه كما يضع المتاع وينصرف عنه .

وقد فهم الصبي أنه قد نقل إلى درس الفقه ، وأنه سيسمع هذا الدرس وسيفرغ منه ، وسينصرف الشيخ ويتفرق الطلاب ، ويبقى هو في مكانه لا يتحول عنه حتى يعود إليه صاحبه من سيدنا الحسين حيث كان يسمع درس الفقه الذي كان بلقيه الشيخ بحيث رحمه الله . وكان الشيخ بحيث يجب الإطالة في الدرس ، وكان طلابه يلحون عليه في الحدال ؛ فلم يكن يقطع درسه حتى يرتفع الضحى ، وهنالك يعود إلى الصبي صاحبه فيأخذه بيده في غير كلام ، ويجذبه في غير رفق ، ويمضى به حتى يخرج من الأزهر وحتى يردده إلى طوره الثاني ، فيقطع به الطريق بين الأزهر والبيت ، ثم إلى طوره الأول ، فيلقيه في مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم الذي أتى على حصير بال عتيق .

ولم يكن الصبي يفرغ لنفسه إذا أخذ مجلسه على ذلك البساط في ركن من أركان الغرفة ، واعتمد بيده أو بساعده على النافذة عن شماله ، وإنما كان يستعرض الخواطر التي كانت تملأ رأسه : خواطر الطريق ، وخواطر صحن الأزهر ، وخواطر ما سمع من أستاذ الحديث وما سمع من أستاذ الفقه . كان يستعرض هذه الخواطر ويعيش معها لحظات لا تطول ؛ فإن أخاه لم ينصرف عنه حين ألقاه في مجلسه ذاك ليفرغ لنفسه وحدها ، أو لدرسه وحده ، وإنما انصرف عنه ليمد طعام الإفطار .

وكان هذا الإفطار يختلف بين يوم ويوم لا في مادته ، فقد كان القول يفرقه السمن أو يفرقه الزيت ، ولكن فيما يحيط به من الظروف والأطوار . فقد كان هذا الإفطار صامتاً يوماً وناطقاً مصطحباً يوماً آخر . صامتاً حين يخلو الصبي إلى أخيه فيفطران معاً إفطاراً سريعاً مظلماً قائماً لا يكاد أحدهما ينطق فيه بشيء ، وإنما هي جمل متقطعة قصار يردّها الصبي على الشيخ الفتي . وناطقاً مصطحباً حين يشارك فيه زملاء الشيخ الفتي . وكانوا ثلاثة حيناً وأربعة حيناً ، وربما بلغوا خمسة في بعض الأيام ، ولكن لخامسهم هذا شأنًا آخر ، فالخير ألا يذكر الآن .

هنالك كان هؤلاء الشباب من طلاب العلم ينفقون ساعة حاوة
من ساعات حياتهم ، وكان الصبي يهمل إهمالا تاماً لا تلقى إليه
جملة ، ولا يحتاج إلى أن يرجع على أحد جواباً .

وكان ذلك أحب إليه وأثر عنده ؛ فقد كان يروقه أن يسمع .
وما أكثر ما كان يسمع ! وما أغرب ما كان يسمع ! وما أشد
اختلاف ألوان الأحاديث التي كان يسمعها حول هذه المائدة
المستديرة المنخفضة التي كانوا يسمونها « الطبلية » والتي كان يجلس
الطاعمون من حولها على الأرض وقد وضع في وسطها طبق عظيم
مليء بالفول والسمن أو الزيت ، وإلى جانبه إناء عظيم مليء
باللون المخمل الغارقة في ماء يعبّ فيه هؤلاء الشباب قبل أن
يأخذوا في طعامهم . يبدأ أحدهم ، ثم يدار الإناء على سائرهم ، ولكنه
لا يعرض على الصبي . حتى إذا أخذوا حظهم من هذا الماء
الملح الخاد الذي كان يجرش المعدة فيما يقولون مخلصين ، أقبوا
على طعامهم . وقد ألقيت على المائدة جماعات من الأرزقة ، منها
ما يشترى ومنها ما أخذ جارية من الأزهر . والشباب يتنافسون
أبهم يقهر أصحابه في الأكل : يقهرهم في عدد ما يلثم من
الأرزقة ، ويقهرهم في مقدار اللقمة التي يقطعها ، ويقهرهم في
مقدار ما يغترف فيها من الفول وما يبلها به من السمن أو الزيت ،
ويقهرهم فيما يستعين به على هذا كله من اللفت أو الفلفل أو الحيار .
وهم يتنافسون ويزدحمون في أصوات مرتفعة ، وضحكات تملأ

الغرفة ، وتخرق النافذة عن شمال فتتردد في الحارة من ورأها ،
وتخرق الباب عن يمين فتتردد في « الربيع » وتهبط إلى الطبقة السفلى
حيث نساء العمال يختصمن أو يتناجين أو يتناغين ، فتنقطع
لنساء الضحكات خصوصتهن ومناجاتهن ومناغاتهم ، وإذا هن قد
فرغن لهذه الأصوات المرتفعة وهذه الضحكات المضطربة التي
يحملها إليهن الهواء ، كأنما يجدن في الاستماع لها والاستمتاع بها
لذة لا تغلبها إلا اللذة التي يجدها هؤلاء الشباب فيما يلثمون
ويلتقمون من الطعام .

والصبي جالس بينهم قد أطرق إلى الأرض ، وحتى ظهره حتى
كأنه القوس ، ويده تذهب وتجيء في أناة وخوف واستحياء بين
هذا الرغيف قد ألقى أمامه على المائدة ، وهذا الطبق قد قام
بعيداً عنه في وسط المائدة ، ويده تصطدم بهذه الأيدي الكثيرة
المسرعة التي تهوى لترتفع ، وترتفع لتهوى ، وتنزح الطبق في أثناء
ذلك نزحاً . والصبي معجب بذلك منكر له ، لا يكاد يلاثم في
نفسه بين هذا الهالك على الفول والمخلل ، وذلك الهالك على العلم
والدرس وما كانت تعرف به هذه الجماعة من النجاسة والنشاط
وحياة الذكاء .

ولم يكن هذا الإفطار يستغرق من هؤلاء الشباب وقتاً طويلاً ،
وإنما هي لحظات لا تتجاوز ربع الساعة وقد فرغ ما كان في
الطبق ، ونظفت المائدة إلا من فئات ضئيل ، ومن نصف الرغيف

الذى كان قد ألقى أمام الصبي فلم يستطع أو لم يُرد أن يتجاوز نصفه . وما هي إلا لحظة حتى ترتفع المائدة ويذهب بها ذهاب إلى خارج الغرفة فينقبها مما كان عليها ، ثم يعود بها إلى مكانها نظيفة مليء إلا مما كان قد تقاطر عليها من السمن أو ماء المخلل . وقد ذهب أحد هؤلاء الشبان فاستخرج مقداراً من الفحم . فحم الخشب ، وأعد أداة الشاى ، هذه الأداة التى يصطنعها الفرس والروس ، فأوقد فيها النار بعد أن ملأها بالماء ، وعاد بها وقد صفت جنونها ، فوضعها من المائدة مكان الطبق ، وصف على حافة المائدة أكواب الشاى ، وأخذ مجلسه ينتظر أن يعلى الماء ، وأخذ الشبان يتحدثون حديثاً هادئاً فاتراً . يضطربهم إلى هدوئه وفتوره اشتغال بطونهم بما ألقوا فيها من الجامد والسائل ، ومن البارد والحار . ولكن ماذا ؟ لقد خفت الأصوات ثم سكنت ، ثم ملأ الغرفة صمت رهيب ، ثم تردد فيها صوت ضئيل جداً ، نحيل جداً ، منقطع أول الأمر ، متصل بعد ذلك .

وإذا هؤلاء الشبان قد تحركوا حركة الطرب ، ثم انفتحت أفواههم في وقت واحد عن كلمة واحدة يقولونها في صوت هادئ متصل مستقر وهي « الله » يمدون بها أصواتهم مداً كأنما أشاعت الطرب في نفوسهم موسيقى حلوة تأتيم من بعيد . ولا غرابة في ذلك ؛ فقد سمعوا أزيز الماء وهو يدور من حول هذا الموقد الذى تضطرب فيه تلك الجذوة الهادئة الصافية . وقد فرغ لأداة الشاى صاحب الشاى ،

فجعل يتبعها بقلبه وعينه وأذنه ، حتى إذا استحال أزيز الماء غلياناً أخذ هو إبيريقاً من الخزف فقربه من هذه الأداة وأدار مفتاحها في رفق ، فجرى في الإبريق بعض هذا الماء الذى يغلى ويضطرب ، ثم أدار المفتاح فانقطع جريان الماء ، ثم رد على الإبريق غطاءه ، ثم هزه هزاً رقيقاً ليبلغ ما فيه من الماء الساخن أجزاءه كلها ، ثم قام فألقى ما في الإبريق بعد تدفنته ؛ فما ينبغي أن يجد الشاى برد الخزف أو برد المعدن لأن ذلك يفسده . ثم انتظر بهذا الشاى ثوانى ، ثم صب عليه الماء في رفق دون أن يملأ الإبريق إلى غايته ، ثم انتظر به قليلاً ، ثم عمد إلى علبه الشاى الأحمر فأخذ منه مقداراً ووضع في الإبريق ، ثم صب الماء في الإبريق حتى يمتلئ ، ثم رفع الإبريق في تلطف ورفق فوضعه على النار ثوانى ، ثم حطه عنها ، ثم أهاب بأصحابه أن قدموا أكوابكم .

كان ذلك يجرى والقوم سكوت ، ينظرون ويتبعون حركات صاحبهم مراقبين لها حرصاً على ألا ينحرف في بعضها عن الجادة . فإذا ملئت الأكواب وأديرت فيها الملاعق الصغار ، فسمع لها صوت منسجم لا يخلو من جمال حسن الموقع في الأذن يأتي من هذه المداعبة الخفيفة الهادئة بين المعدن والزجاج ، رفع القوم أكوابهم إلى أفواههم ، فجرؤوا الشاى منها بشفاهم جرّاً طويلاً يسمع له صوت منكر يناقض صوت الملاعق حين كانت تداعب الأكواب . ومضوا في شربهم لا يكادون ينطقون إلا بهذه

الجملة التي لم تكن تتغير ، ولم يكن بد من أن ينطق أحدهم بها ويقره عليها الآخرون : « هذا هو الذي سيطني » نار القول . فإذا فرغوا من هذه الدورة الأولى ملكت لهم الأكواب مرة أخرى ، وقد أعيد إلى أداة الشاي ما فقدت من ماء ، ولكن القسوم ينصرفون الآن إلى شايهم عن هذا الماء المسكين الذي ترسل النار عليه حرارتها فين ثم يتغنى شاكياً ، ثم يجهش بالغلجان باكياً . ولكن القوم لا يحفلون به ولا يطربون لغنائه ولا لبكائه ، قد شغلوا عنه بالشاي وبدورته الثانية خاصة ؛ فقد كانت الدورة الأولى مظنة لنار القول ، فأما الدورة الثانية فقد جعلت تخلص لهم ولأعصابهم ، وجعلوا يجدون لها بعض اللذة في أفواههم وحلوقهم وروسهم أيضاً . حتى إذا فرغوا من هذه الدورة تابوا إلى عقولهم أو ثابت عقولهم إليهم ، فهذه ألسنتهم تتحرك ، وهذه شفاههم تبتسم وهذه أصواتهم ترتفع . ولكنهم لا يتحدثون الآن عن طعام ولا عن شراب ، لقد نسوا الطعام والشراب وذكروا أنفسهم . لقد فرغوا من بطونهم والتفتوا إلى عقولهم ، فهم يستعيدون ما سمعوا من الشيخ في درس الفجر ، وهم يستعيدون ما سمعوا من الشيخ في درس الصبح ، وهم يسخرون من هذا مرة ومن ذلك أخرى ، وهم يعيدون اعتراض أحدهم على هذا الشيخ أو ذلك ، أو اعتراض غيرهم على هذا الشيخ أو ذلك ، وهم يجادلون في هذا الاعتراض ، يراه بعضهم قوياً مفتحاً ، ويراه بعضهم سخيفاً لا يبغي شيئاً . وقد أخذ أحدهم مكان الشيخ

المرر ، وأخذ أحدهم مكان الطالب المعترض ، وأقام سائرهم حكماً في هذه المناظرة ، وربما تدخل الحكيم في المناظرة بين حين وحين يرد أحد المتناظرين إلى القصد إن جار عنه ، أو يؤيد أحد المتناظرين بحجة قد أهلها أو دليل قد ندَّ عنه . وصاحب الشاي مشترك في هذا كله ، ولكنه في الوقت نفسه ملتفت إلى الشاي لا يهمله ولا ينساه ؛ فقد أضاف إلى الإبريق شاياً على شاي وماء على ماء ، وقد فرغت الأكواب ثم امتلأت ؛ فالشاي لا يتم إلا بالدورة الثالثة : لأن نصاب الشاي ثلاثة أقداح لا ينبغي أن ينقص ، ولا بأس بأن يزيد .

والصبي مطرق منحني في مكانه ، يقدم له نصيبه من الشاي في صمت ، فيشر به مترقفاً في صمت أيضاً . وهو يلحظ ما يجري حوله ، ويسمع ما يقال حوله ، فيفهم منه قليلاً ويعجزه أكثره عن الفهم ، ولكنه يُعجَب بما فهم وبما لم يفهم ويسأل نفسه متحرراً متى يستطيع أن يقول كما يقول هؤلاء الشباب ، وأن يجادل كما يجادلون .

وقد مضت ساعة أو نحو ساعة ، واستوفى القوم نصيبهم من الشاي . ولكن المائدة ستبقى حيث هي ، وستبقى أداة الشاي في وسطها والأكواب مصطفة على حافتها ؛ فقد قربت الظهر ولا بد من أن يتفرق القوم ليلاً كل منهم نظرة سريعة على درس الظهر قبل أن يذهبوا لاسماعة وهم قد أعدوه معاً منذ أمس . ولكن لا بأس من المراجعة السريعة ، ومن الوقوف عند هذه القولة أو تلك ، فهي

لا تخلو من غموض أو التواء ، ومع ذلك فالمتن واضح والشرح جلي . ولكن « البنان » يصعب السهل ويعقد المتحل . والسيد الجرجاني نافذ البصيرة يستخرج من الأشياء الواضحة أسراراً غامضة . فأما عبد الحكيم فيفهم حيناً وتلتوى عليه الأمور أحياناً . فأما المقرر فجاهل لا يدري ما يقول . ولم يبق على الظهر إلا دقائق . فلنسرع إذن إلى الأزهر ، فسيلدعو المؤذنون إلى الصلاة ، وستقام الصلاة ، ونحن في الطريق ، حتى إذا بلغنا الأزهر كان المصلون قد فرغوا من صلاتهم وأخذ الطلاب يتحلقون حول شيوخهم ، ولا بأس إن فاتتنا صلاة الجماعة فسنقيم الصلاة بعد الدرس ، وستقيمها جماعة أيضاً . والخير ألا تؤدي الصلاة قبل الدرس ؛ فإن النفس تشغل عن العبادة بهذا الدرس وما فيه من صعوبة ومن مشكلات تحتاج إلى الحل . فإذا ألتى الدرس وسمعناه وجادلنا فيه وشقينا نفوسنا من مشكلاته ومعضلاته ، فرغنا للصلاة فأدينامها وقد خلصت لها النفوس والقلوب . وهذا أخو الصبي يدعو بهذه الجملة التي ما زال يدعو بها أعراماً وأعراماً : « يا الله يا مولانا » ، فيبض الصبي متثاقلاً فيمضي مع أخيه متعراً حتى يبلغ الأزهر ، فيجلسه أخوه في مكانه من حلقة النحو ، ويمضي هو إلى درس الشيخ الصالح في زاوية العميان .

وقد سمع الصبي درس النحو ففهمه في غير جهد ، وطال عليه إلحاح الشيخ في الإعادة والتفسير . ثم انقضى الدرس وتفرق الطلاب ،

وظل الصبي في مكانه حتى يعود أخوه فيجذبه في غير كلام وفي غير رفق ، ويمضي به حتى يخرج من الأزهر وحتى يقطع به الطريق التي قطعها به في الصباح والصبحي ، وحتى يلقيه في مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم قد بسط على حصير بال عتيق . ومنذ ذلك الوقت يتهاى الصبي لاستقبال حظه من العذاب .

يستعملوه من درس الظهر مجادلين مناظرين ، ثم يعيدون درس المساء الذي يلقيه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في كتاب دلائل الإعجاز في بعض أيام الأصبوح وفي تفسير القرآن الكريم في بعضها الآخر . وسيحدثون أثناء إعدادهم لهذا الدرس عن الأستاذ الإمام ، وسيستعملون ما كانوا يسمعون من نوادره وما كانوا يحفظون من رأيه في الشيوخ ومن رأى المشيوخ فيه ، وما كانوا يحفظون من أجوبته التي كان يلقيها لبعض السائلين له والمعرضين عليه فيفهمهم ويضحك منهم زملاءهم الطلاب .

وكان الصبي لهذا كله محبباً وبه كلفاً وإليه مشوقاً متحرراً . وربما أحس الصبي في دخيلة نفسه الحاجة إلى كوب من أكواب الشاي تلك التي تدار هناك . فقد كان هو أيضاً قد كلف بالشاي وشعر بالحاجة إلى أن يشربه مصححاً ومسيباً ، وإلى أن يستكمل منه العصاب . ولكنه حرم هذا كله ؛ فهؤلاء القوم يتناظرون ويهرسون ويشربون الشاي غير بعيد ، وهو لا يستطيع أن يشارك في شيء من هذا ، ولا يستطيع أن يطلب إلى أخيه الإذن له بأن يجلس مجلس هؤلاء الشباب ، ويستمتع بما فيه من لذة العقل والنفس معاً .

لا يستطيع أن يطلب ذلك ؛ فأبض شيء إليه أن يطلب إلى أحد شيئاً . ولو قد طلب ذلك إلى أخيه لرده عنه ردّاً رقيقاً وعنيفاً ، ولكنه مؤلم له ، مؤذ لنفسه على كل حال . فالخير في

وكانت الوحدة المتصلة مصدر ذلك العذاب ؛ فقد كان الصبي يستقر في مجلسه من الغرفة قبيل العصر بقليل ، ثم ينصرف عنه أخوه فيذهب إلى غرفة أخرى من غرفات « الربيع » عند أحد أصحابه . وكان مجلس الجماعة لا يستقر في غرفة بعينها من غرفاتهم ، وإنما هو عند أحدهم إذا أصبحوا ، وعند ثان منهم إذا أمسوا ، وعند ثالث منهم إذا تقدم الليل . وكان أخو الصبي يتركه في غرفته بعد درس الظهر ويذهب إلى حيث يلقي أصحابه في إحدى الغرفات ، فيتفقون وقتاً طويلاً أو قصيراً في شيء من الراحة والدعابة والتندر بالشيوخ والطلاب . وكانت أصواتهم ترتفع وضحكاتهم تلوّى في « الربيع » تدوية فتبلغ الصبي وهو جاثم في مكانه ، فتبتسم لها شفتاه ويحزن لها قلبه ؛ لأنه لا يسمع كما كان يسمع في الضحى ما أثارها من فكاهة أو نادرة ، ولأنه لا يستطيع كما كان يستطيع في الضحى أن يشارك صامتاً بابتسامة نحيبة ضيقة في هذا الضحك الغليظ العريض .

وكان الصبي يعلم أن القوم سيجتمعون حول شاي العصر إذا أرضوا حاجتهم إلى الراحة وإلى التندر بالشيوخ والزملاء ، وسيستأنفون حول هذا الشاي حديثاً هادئاً منتظماً ، ثم يستعيدون ما يرون أن

أن يملك على نفسه أمرها ، ويكتم حاجة عقله إلى العلم ، وحاجته
 أذنه إلى الحديث ، وحاجة جسمه إلى الشاي ، ويظل قابلاً
 مجلسه مطرقاً مغرقاً في تفكيره . ولكن كيف السبيل إلى ذلك
 ترك أخوه باب الغرفة مفتوحاً إلى أقصى غايته ، وهذه أصوات
 القوم تبغ ، وهذه ضحكاتهم تصل إليه ، وهذه دقات مصباح
 تنهى إليه فتؤذنه بأن صاحب الشاي يحطم الخشب ليوقد النار
 وكل هذه الأصوات التي تنهى إليه تثير في نفسه من الرهبة
 والرهبة ، ومن الأمل واليأس . ما يُعَنِّيهِ ويضنيه ، ويملاً
 بؤساً وحزناً ، ويزيد في بؤسه وحزنه أنه لا يستطيع حتى أن يتكلم
 من مجلسه ، وأن يخطو هذه الخطوات القليلة التي تمكنه من أن
 باب الغرفة ويقف أمامه حيث يكون أذني إلى هذه الأصوات
 وأجلد أن يسمع ما تحمله مما يتحدث به القوم . لقد كان
 خليقاً أن يسره ويسليه ، ولكنه لا يستطيع أن ينتقل من مكانه
 لا لأنه يجهل الطريق إلى الباب . فقد كان حفظ هذه الطريق
 وكان يستطيع أن يقطعها متمهلاً مستأنياً ، ولكن لأنه كان يسر
 أن يفاجأه أحد المارة فيراه وهو يسعى متمهلاً مضطرب الخجل
 وكان يشفق أن يفاجأه أخوه الذي كان يلمّ بالغرفة من حين
 حين ليأخذ كتاباً أو أداة أو لوناً من ألوان الطعام التي كانت تُسَلِّمُ
 ليتبلى بها أثناء الشاي في غير أوقات الإفطار أو العشاء .
 وكان كل شيء أهون على الصبي من أن يفاجأه أخوه

يسمى مضطرباً حائراً : فيسأله : ما خطبك ؟ ولماذا أين تريد ؟
 فكان إذن يرى الخير في أن يبقى في مكانه ويؤثر العافية ،
 ويردد في نفسه تلك الحشرات اللاذعة التي كان يجدها ، وحشرات
 لم تكن أقل منها لذعاً وإيلاماً ، حشرات الحنين إلى منزله
 ، في قرينه تلك من قرى الريف . هنالك حين كان يعود من
 الكتاب وقد أرضى حاجته إلى اللعب ، فيتبلى بكسرة من الخبز
 المذبح مازحاً مع أخواته قاصداً على أمه ما أحب أن يقص عليها من
 يومه في الكتاب . فإذا بلغ من ذلك ما أراد خرج من الدار
 خلف الباب وراءه ، ثم مضى حتى يبلغ جدران البيت الذي
 يقوم أمامه فلزمه ماضياً نحو الجنوب ، حتى إذا بلغ مكاناً
 انحرف إلى يمين ، ثم مضى أمامه خطوات حتى ينتهي إلى
 الشيخ محمد عبد الواحد وأخيه الشاب الحاج محمود ، فجلس
 متحدثاً متندراً مستمعاً لما كان يقوله المشترون من الرجال
 من النساء من هذه الأحاديث الريفية الساذجة التي
 باختلافها وطرافتها وسذاجتها أيضاً .
 وربما قل الطائرثون على الحانوت من المشترين والمشترين ،
 الصبي أحد صاحبي الحانوت ، وجعل يتحدث إليه أو يقرأ له
 من الكتب . وربما عدل الصبي عن السعي إلى الحانوت
 من داره فجلس على المصطبة الملاصقة لها مطرقاً يسمع حديث
 مع أصحابه في مجلسهم ذلك الذي كانوا يعقدونه منذ فصلى

العصر إلى أن يدعوهم مؤذن المغرب إلى العشاء .

وربما عدل الصبي عن الخروج من داره وتخلا إلى رفيق
رفاقه في الكتّاب ، قد أقبل عليه ومعهم هذا الكتاب أو ذاك
كتب الوعظ ، وهذه القصة أو تلك من قصص المغازي ، فجم
يقرأ له حتى يدعو غروب الشمس إلى العشاء . هنا
لم يكن الصبي يشعر بالوحدة ، ولم يكن يضطر إلى السكون ،
يكن يجد ألم الجوع ، ولم يكن يجد ألم الحرمان ، ولم يكن يتحر
إلى كوب من أكواب الشاي .
كانت كل هذه الحسرات تضطرب في نفس الصبي أشد الاضطراب
وهو ساكن أشد السكون . وربما صرفه عنها لحظة صوت
حين كان يدعو إلى صلاة العصر في جامع بيبرس ، ولكنه
صوتاً منكراً أشد النكر ، فكان يذكّر الصبي بصوت المؤذن في بلد
ولم يكن خيراً من هذا الصوت ولكنه كثيراً ما أتاح للصبي
من اللهو واللعب . فكلم صعد المنارة مع المؤذن ، وكلم أذّن
وكلم شاركه في هذا الدعاء الذي يدعى به بعد الأذان !
هنا في هذه الغرفة لا يستحب هذا الصوت ، ولا يستطيع
يشارك في الأذان ، ولا يعرف حتى من أين يأتي هذا الصوت ،
لم يدخل قط مسجد بيبرس ، وهو لا يعرف الطريق إلى مثل
وهو لم يتبلّجُ درج هذه المئذنة ، ولم يعرف أنستقيم للمصعد
وتتسع له أم تلتوي به وتضيق عليه كشأن مئذنته في الريف .

لا يعرف شيئاً من ذلك ولا سبيل إلى أن يعرف منه شيئاً ، إنما
هو السكون ، والسكون المتصل الطويل . يا للألم ! إن العلم ليكلف
ملاّبه أهوالاً ثقلاً .

وكان هذا السكون يطول على الصبي فيجهده ، وربما أخذته
الإفهامة وهو جالس في مكانه ، وربما اشتدت عليه هذه الإغفاءة
فاضطرتته إلى أن يستلقي ويسلم نفسه للنوم . وكان يسمع من
أمه أن نوم العصر بغيض مؤذ للأجسام والنفوس . ولكن كيف
السبيل إلى أن يرد عن نفسه هذا النوم البغيض ! ولكنه
سبباً فزعاً مذعوراً ؛ فقد سمع صوتاً يدعو بهذه الكلمة التي
رأت في أذانه أعواماً وأعواماً : « مولانا أناثم أنت ؟ » ؛ يهب فزعاً
مذعوراً لأن أخاه أقبل ينظر إليه ويسأله عن شأنه ويحمل إليه
عشاءه . وكان عشاؤه لذيذاً حقاً ؛ فقد كان يتألف من رغيف
وطعامة من الجبن الذي يسمى الجبن الرومي ، أو قطعة من الحللوه
الطحينية . كان هذا عشاءه في أثناء الأسبوع ، فكان أخوه يضع
الك أمامه ويودعه منصرفاً عنه ليذهب إلى الأهر فيحضر درس
الإستاذ الإمام .

وكان الصبي يُقبل على طعامه راغباً عنه حيناً وراغباً فيه حيناً
، ولكنه كان يستنفده على كل حال . كان يبيع نفسه الإقلال
العلماء إذا أكل مع أخيه ، ولم يكن أخوه يكلمه في ذلك
يسأله عنه . فأما إذا خلا إلى طعامه فقد كان يأتي عليه كله

حتى ولو رغب عنه أو ضاق به مخافة أن يسبق منه شيئاً . ويعود أخوه ويرى ذلك فيظن به المرض أو يظن به الحزن . وكان أبغض شيء إليه أن يثير في نفس أخيه همّاً أو قلقاً .

كان إذن يقبل على طعامه ، حتى إذا فرغ منه عاد إلى سكونه وجموده في ركنه الذي اضطرا إليه ، وقد أخذ النهار يتصرّم وأخذت الشمس تنحدر إلى مغربها ، وأخذ يتسرب إلى نفسه شعور شاحب هادئ حزين ، ثم يدعو مؤذن المغرب إلى الصلاة ، فيعرف الصبي أن الليل قد أقبل . ويقدر في نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه ، ويقدر في نفسه أن لو كان معه في الغرفة بعض المبصرين لأضيء المصباح ليطرد هذه الظلمة المتكاثفة ، ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون ، ولأن كان ليبراهم مخطئين في هذا الظن ؛ فقد كان ذلك الوقت يفرق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور . وكان يجد في المصباح إذا أضيء جليساً له ومؤنساً ، وكان يجد في الظلمة وحشة لعلها كانت تأتيه من عقله الناشئ ومن حسه المضطرب . والغريب أنه كان يجد للظلمة صوتاً يبلغ أذنيه ، صوتاً متصلاً يشبه طنين البعوض لول أنه غليظ متملئ . وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه فيؤذيهما ويبلغ قلبه فيملؤه روعاً ، وإذا هو مضطرب إلى أن يغير جلسته فيجلس القرفصاء ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه ويمسح برأسه بين يديه ويسلم نفسه لهذا الصوت الذي يأخذه من كل مكان . ومع أن سكا

العصر كان كثيراً ما يضطربه إلى النوم فقد كان سكون العشية يضطربه إلى اليقظة التي لا تشبهها بقظة .

وكان ينتهي إلى أن يألف صوت الظلمة ويطمئن إليه . ولكن في الغرفة أصواتاً أخرى كانت تُفزعُه وتروعه . أصوات مختلفة ؛ فقد كانت هذه الغرفة من غرفات الأوقاف . ومعنى ذلك أنها كانت قديمة ، قد طال عليها العهد ، وبعد بها الأمد ، وكثرت في جدرانها الشقوق ، وعمرت هذه الشقوق طوائف من الحشرات وغيرها من صغار الحيوان . وكانت هذه الحشرات وهذه الصغار من الحيوان كأنما وكُلت بالصبي إذا أقبل الليل عليه وهو قابع وحده في ذلك الركن من أركان الغرفة ؛ فهي تبعث من الأصوات المشيئة . وتأتي بين الحركات الخفيفة السريعة حيناً والبطيئة حيناً أمر ما يملأ قلب الصبي هلعاً ورعباً . فإذا أقبل أخوه وحده أو مع أصحابه فأضيء المصباح انقطعت هذه الأصوات والحركات كأنها لم تكن . وكان الصبي من أجل هذا ومن أجل أشياء أخرى غير هذا لا يمر على أن يذكر من أمر هذه الأصوات والحركات شيئاً . وأيسر ما كان يخاف إن تحدث ببعض ذلك أن يسفّه رأيه وأن تظن بعقله وبشجاعته الظنون . فكان يؤثر العافية ويكظم خوفه من الحشرات وصغار الحيوان .

وهذا المؤذن يدعو إلى صلاة العشاء ، فيثير في نفس الصبي أملاً فصبوا يتبعه بأس طويل ؛ فقد انتهى درس الأستاذ الإمام ،

وسيقبل أخو الصبي بعد قليل فيضئ المصباح ويضع محفظته في مكانها ، ويأخذ ما يحتاج إليه من كتاب أو أداة أو طعام ، ويشيع في الغرفة في أثناء ذلك شيئاً من الأتس ، ويطرد من الغرفة في أثناء ذلك تلك الوحدة المنكرة ، ولكنه سيلقى إلى الصبي تلك الوسادة التي سيضع عليها رأسه ، وذلك الحفاف الذي سيلتف فيه لينام ، وسيشهد التفاهة في لحافه ووضَّع رأسه على وسادته ، ثم يطفى المصباح وينصرف ، ويغلق الباب من ورائه ويدير فيه المفتاح ، ويمضى وهو يظن أنه أسلم الصبي إلى النوم وإن كان لم يسلمه إلا إلى أرقى متصل مخيف .

وسيعود بعد ساعتين أو بعد ساعات ، وقد طعم وشرب الشاي ، وناظر أصحابه وأعد معهم ما شاء الله أن يعد من درس للغد ، فيدير المفتاح ثم يضيء المصباح ، وهو يظن أن الصبي مغرق في نوم هادئ لذيد ، وما ذاق الصبي في حقيقة الأمر نوماً ، وإنما انتظر جَزَعاً قَزَعاً عودة أخيه .

فإذا استلقى أخوه على فراشه بعد أن أطفأ مصباحه وأخذ نفسه المضطرب أو المنتظم يدل على أنه نام ، فقد أخذ الصبي يحس الأمن والدعة ، ويدير في نفسه خواطر الآمين الوداع وتفكير الهادئ المطمئن .

وهناك تتصل بقضته الآمنة بنومه اللذيد دون أن يشعر بهذا الاتصال .

ولكن صوتين غريبين يردانه فجأة إلى يقظة فزعية : أحدهما صوت عصاً غليظة تضرب الأرض ضرباً عنيفاً ، والآخر صوت السائل مهذج مضطرب لا هو بالغليظ ولا هو بالنحيف ، يتذكر الله ويسبح بحمده ، ويمد ذكره وتسبيحه مداً طويلاً غريباً . وقد سكن كل شيء وشمل هدوء الليل كل شيء ، وجعل هذا الصوت الإنساني ينبعث بين حين وحين مهذجاً مرجعاً ، تقطعه ضربات العصا على الأرض ، وهو يبدو قوياً فيذيع في الليل الهادئ شيئاً يشبه الاضطراب ، ثم يدنو قليلاً قليلاً حتى يكاد يبلغ غرفة الصبي ، ثم ينحرف ويضعف شيئاً فشيئاً حتى يكاد ينقطع ، ثم يبدو مرة أخرى قوياً متصلاً بعد أن هبط صاحبه سلم « الربيع » واستقامت له طريقته في الحارة ، ثم يبعد شيئاً فشيئاً حتى ينقطع .

وقد ارتاع الصبي لهذا الصوت أو لهذين الصوتين حين سمعهما لأول مرة ، وأتعب نفسه في التفكير فيهما والبحث عن مصدرهما ، ولكنه لم يظفر من بحثه بطائل ، إلا أنه فقد النوم وأتم ليله مؤرقاً مروعاً حتى رد الأمن والطمأنينة إلى قلبه صوت المؤذن وهو ينادى : « الصلاة خير من النوم » . فهب الصبي مترقفاً ، وهب أخوه هبناً عجباً ، وما هي إلا دقائق حتى كانا يهبطان السلم ويجدان

في طريقيهما فيل الأزهر ، لسمع أحدهما درس الأصول ، وليسمع الآخر درس الحديث .

وجعل هذان الصوتان يوقظان الصبي كل يوم في أول الثلث الأخير من الليل ، وجعل الصبي يراخ لهذين الصوتين ولا يعرف لهما مصدراً ، ولا يجرؤ على أن يسأل أخاه أو غير أخيه عنهما . حتى كانت ليلة الجمعة ، فأبقتهم الصوتان وروعاها كدأهما في كل ليلة ، ورد المؤذن إليه الأمن والهدوء كدأه في كل صباح ، ولكن الصبي لم يهب مترقفاً ، ولكن أخاه لم يهب عجباً عنيفاً ؛ فليس في فجر الجمعة ولا في صباحه دروس ، وليس الشيخ الفتي ولا الشيخ الصبي في حاجة إلى أن يقطعاً نومهما .

فأما نوم الصبي فقد قطعه هذان الصوتان . وأما أخوه فلم يسمعها هذه الليلة كما لم يسمعها من قبل . وأبى الصبي في فراشه ضيقاً بهذا السكون ، عاجزاً عن الحركة ، مشفقاً أن يوقظ أخاه ، حتى صلبت الفجر وانتشر ضوء الشمس ونفذت أشعتها إلى الغرفة فاترة ، وإذا الصبي يسمع هذين الصوتين مرة أخرى ، ولكنه يسمعها هادئين رقيقين . فأما العصا فتداعب الأرض مداعبة يسيرة ، وأما الصوت فيصافح الهواء مصافحة حلوة لا تخلو من فتور . والصبي يعجب لهذين الصوتين اللذين يعننان حين يسكن الليل وينام الناس ويحسن الرفق ، واللذين يرقان ويلطفان حين ينشط النهار ويستيقظ الناس ويتاح للأصوات أن ترتفع

وأن تأخذ حظها من الحرية والنشاط . وهو مع ذلك مضطر إلى سكونه ، مشفق إن تحرك أن ينبه أخاه ، حتى تشتد حرارة الشمس على رأسه فيستوى جالساً في أناة ، ويتزحزح من مكانه في رفق حتى يبلغ مكاناً لا تلفحه حرارة الشمس فيستقر فيه دون أن يتحرك .

وهو بهذا ضيق ، وله كاره ، وعليه مكروه ، وأخوه مغرق في نومه لا يفتيق ، ولكن الباب يطرق طرفاً عنيفاً وصوت من ورائه ينادى مرتفعاً ساخطاً صاخباً : « هلم يا هؤلاء ، هلم يا بهائم ، أفيقوا إلى متى تنامون ! أعوذ بالله من الكفر ، أعوذ بالله من الضلال ! طلاب علم ينامون حتى يرتفع الضحى لا يؤدون الصلاة لوقتها ، هلم يا هؤلاء ! هلم يا بهائم ، أعوذ بالله من الكفر ، أعوذ بالله من الضلال ! » .

ويد هذا الصوت تفرع الباب وعصاه تفرع الأرض ، ومن حوله ضحكات ترافقه . وقد هب الشيخ الفتي لأول نبأه ، ولكنه ظل في مكانه ساكناً ثابتاً يغرق في ضحك مكثوم مكظوم كأنه يستحب ما يسمع ويستزيد منه ويريد أن يتصل . فأما الصبي فقد عرف هذا الصوت وهذه العصا . إنه الصوت الذي كان يضطرب في الليل ، وإنها العصا التي كانت تفرع الأرض لتوقظها من نومها من عسى أن يكون هذا الرجل ؟ وما عسى أن تكون عصاه ؟ وما هذا الضحك الذي يتبعه ؟ وقد نهض الفتي جاهراً بضحكه

فسعى إلى الباب ففتحه، واندفع منه هذا الرجل صاحباً : « أعوذ بالله من الكفر ! أعوذ بالله من الضلال ! اللهم اصرف عنا الأذى . أعذنا من الشيطان الرجيم ، أناس أنتم أم بهائم ! أمسلمون أنتم أم كفار ، أتتعلمون على شيوخيكم هدى أم ضلالاً ! » .

وقد اندفع معه الشباب من أصحاب الفتى وهم يجأرون بالضحك ويفرقون فيه . وهناك عرف الصبي هذا الرجل ، وهو عمي الحاج علي . وكان عمي الحاج علي رجلاً شيخاً قد تقدمت به السن حتى جاوز السبعين ، ولكنه احتفظ ببقوته كلها : احتفظ بقوة عقله فهو ماكر ماهر ظريف لبق ، واحتفظ بقوة جسمه فهو معتدل القامة ، شديد النشاط ، متين البنية ، عنيف إذا تحرك ، عنيف إذا تكلم : لا يعرف الشمس ، ولا يحسن أن يخافت صوته ، وإنما هو صائح دائماً . وكان عمي الحاج علي فيما مضى من دهره - كما علم الصبي فيما بعد - رجلاً تاجراً ، قد ولد في الإسكندرية وشب فيها ، واحتفظ بما لأهل الإسكندرية من قوة وعنف ، ومن صراحة وظرف . وكان يتجر في الأرز ، ومن أجل ذلك سمى عمي الحاج علي الرزاز . فلما تقدمت به السن أعرض عن التجارة أو أعرضت التجارة عنه . وكان له بيت في القاهرة يغل عليه شيئاً من مال ، فاتخذ لنفسه غرفة في هذا الربع الذي لم يكن يسكنه من غير المجاورين إلا هذا الرجل وهذان الفارسيان اللذان ذكرا في بعض هذا الحديث .

ولم يكده عمي الحاج علي يستقر في غرفته في آخر الربع عن شمال إذا صعدت السلم حتى لفت إليه هؤلاء الشباب من طلاب العلم ، أضحكهم وراقوه ، فانصلت بينه وبينهم مودة حلوة متينة نقية ، فيها ظرف كثير ، وفيها رقة وتحفظ يؤثران في القلوب حقاً . فقد كان هذا الشيخ يعرف من هؤلاء الشباب حبهم للعلم ، وجددهم في الدرس ، وصدوقهم عن العبث ، وكان يجب منهم ذلك . فإذا بدأ أسبوع العمل لم يسع إليهم ، ولم يعرض لهم ، حتى كأنه لا يعرفهم إلا أن يسعوا هم إليه ، أو يلحوا هم عليه في أن يشهد معهم طعاماً أو يشاركهم في الشاي . فإذا كان يوم الجمعة لم يمهلهم ولم يخل بينهم وبين أنفسهم ، وإنما انتظر بهم حتى يتقدم النهار ، وحتى يعلم أنهم قد أرضوا نفوسهم من النوم والراحة . هنالك يخرج من غرفته فيبدأ بأقرب غرف هؤلاء الشباب إليه ، فيرقد صاحبها في هذا العنف والضجيج اللذين رأيتهما ، ثم ينتقل إلى الغرفة التي تليها ومعها صاحبه الذي أيقظه ، وما يزال كذلك حتى يبلغ غرفة أخى الصبي فيوقظه على هذا النحو الشباب من حوله فرحون مرحون ، يستقبلون يوم راحتهم مبتهجين ، قد ابتسموا للحياة وابتسمت لهم الحياة .

وإلى هذا الشيخ كان تدبير طعامهم يهولم البريء في يوم الجمعة ؛ فهو الذي يقترح عليهم طعام الإفطار وقد يعده لهم في غرفته أو في غرفة أحدهم . وهو الذي يقترح عليهم طعام

العشاء ، ويشير عليهم بما ينبغي أن يصنعوا لإعداده ، ويشرف على هذا الإعداد ، ويقوم منه ما يمكن أن يعوج ، يصحبهم صباحهم ، ثم يفارقهم ليصلى الجمعة ، ثم يصحبهم ، حتى إذا وجبت العصر فارقهم لحظة ، ثم يعود إليهم فيشاركهم في عشايتهم وفيما يكون بعده من الشاي ، ثم إذا وجبت المغرب أمهم في صلاتهم ، فإذا وجبت العشاء فارقهم ليعودوا الدروس التي سيسمعونها من الغد .

وكان عمى الحاج على يتكلف التقوى والورع ، ويظهر ذلك إلى أقصى ما يظهر الناس تكلفهم وتصنعهم . يبدأ بهذه الغزوة التي يجدها في الثلث الأخير من كل ليلة ، فيخرج من غرفته صاحبياً صائحاً بذكر الله والتسبيح بحمده ، ضارباً الأرض بعصاه حتى يبلغ مسجد سيدنا الحسين ، فيقرأ فيه ورد السحر ، ويشهد فيه صلاة النجر ، ثم يعود متمتماً مهمتماً مداعباً الأرض بعصاه فيستريح في غرفته . فإذا وجبت الصلوات أداها في غرفته وقد فتح بابها وجهر بالقراءة والتكبير لیسعده أهل الربع جميعاً ، فإذا خلا إلى أصحابه الشباب على طعامهم أو على شايهم أو في بعض سمرهم ، فهو أسرع الناس خاطراً ، وأظرفهم نكتة ، وأطولهم لساناً ، وأخضهم دعابة ، وأشدهم تبعاً لعيوب الناس ، وأعظمهم إغراقاً في الغيبة ، لا يتحفظ في لفظ ، ولا يتحرج من كلمة نابية ، ولا يتردد في أن يجرى على لسانه المنطلق دائماً وبصوته المرتفع دائماً أشنع

الألفاظ ، وأشدّها إغراقاً في البذاء ، وأدّها على أشبع المعاني وأقبح الصور .

وكان أولئك الشباب يحبونه على ذلك ، أو يحبونه من أجل ذلك ، أو قل لأنهم يحبون ذلك منه أشد الحب ، ويتكلمون به أعظم الكلف ، كأنه كان يخبرهم من أطوارهم ، ويريحهم من جد العلم والدرس ، ويفتح لهم باباً من اللهو ما كانوا يستطيعون أن يلجوه حين كانوا يخلون إلى أنفسهم ، بل ما كانوا يستطيعون أن يلجوه حين كانوا يلتفتون حول هذا الرجل الشيخ ، وحين كان يصب عليهم هراءه هذا بغير حساب . كانوا يسمعون ذلك منه ويضحكون له ، حتى إن جنوبهم لتكاد تنقد من الضحك ، ولكمهم على ذلك لم يكونوا يعيدون على الشيخ كلمة من كلماته البذيئة أو لفظاً من ألفاظه النابية ، فكأنما كانوا يرون شيئاً يعجبهم ويلهمهم فيستمتعون به من بعيد ، ولا يبيحون لأنفسهم أو لا تبيح لهم ظروفهم أن يدنوا منه أو يسعوا إليه .

ولم يكن ذلك يدل على أقل من هذه الصفة الغريبة الخليقة بالإعجاب والرحمة معاً ، والتي كان هؤلاء الشبان يمتازون بها من كثير من زملائهم وأقرانهم ، وهي كظم الشهوات وأخذ النفس بأوران من الشدة تمكنهم من المضي في الدرس على وجهه ، وتردهم عن التورط فيما كان كثير من زملائهم يتورطون فيه من هذا العبث السهل الذي يفلّ الحذر ويفتقر العزائم ويفسد الأخلاق .

وكان الصبي يسمع لهذا كله فيفهم ويحفظ ويعجب ، ويسأل نفسه كيف يجتمع طلب العلم وما يحتاج إليه من الجهد مع هذا التهاون على الهزل والتساقط على السخف في غير تحفظ ولا احتياط ؟ وكان يعاهد نفسه على أنه 'نا شب وبلغ طور هؤلاء الطلاب الذين يكبرهم ويقدر ذكاهم ن يسير سيرتهم ولن يتهالك على العيش كما يتهلكون عليه .

وكان يوم الجمعة يوم البطون في حياة هؤلاء الطلاب وفي حياة صديقهم الشيخ . فكانوا إذا أصبحوا اجتمعوا إلى إفطار غزير دسم صاحب ، قوامه الفول والبيض ثم الشاي ، وما كانوا قد ادخروا من هذه الفطائر الجافة التي كانت أمهاتهم يزودنهم بها ويضعن في صنعها وفي تعبثها قلوبهن الساذجة وما يملؤها من حب وعطف وحنان . وكم ذكر الصبي جهد أبيه في كسب ما لم يكن بد من كسبه من النقد لتستطيع أمه أن تهني لابنيتها زادها ، وجداً أمه صنع هذا الزاد وتكلفتها الفرح وهي تهينه ، وحزنها الصامت وهم تعينه ، ودموعها المنهرة وهي تسلّم أحماله إلى من سيذهب إلى القطار .

كم ذكر الصبي هذا كله حين كان هؤلاء الشباب يلتمسون هذا الزاد التهاماً ، يغمسونه في الشاي كما كان يوصيهم الشيخ ، أو يقضمون بأسنانهم وأضراسهم قضمًا ، ثم يعبون في أكواب الشاي ليبلسوا في أفواههم ولتسيغه حلوقهم بعد ذلك سهلاً هيناً ، وهم في آن

ذلك يتضحكون من دعاية الشيخ وفكاهته ، لا يذكرون آباءهم وما جدوا ، ولا يذكرون أمهاتهم وما احتملن من كد وما ذرفن من دموع .

وكان الشيخ وأصدقاؤه الطلاب يدبّرون عشاءهم أثناء الدورة الثانية والثالثة من الشاي الذي يُقبلون عليه بعد الإفطار . وكان تدبيرهم لهذا العشاء يقبض نفس الصبي ويملؤها خجلاً ، فلما فكر فيه بعد أن تقدمت به السن وجد لذكراه حناناً وإعجاباً . كانوا يتداولون ويتشاورون . ولم يكن ميدان مداولاتهم ومشاوراتهم واسعاً ولا عريضاً . وإنما هما لوانان من ألوان الطعام لم يشدوا عنهما قط : فإما البطاطس في خليط من اللحم والطماطم والبصل ، وإما القرع في خليط من اللحم والطماطم والبصل وشيء من الحمص . وكانوا يتفقون على أقدار ما يشترون من هذه الأصناف كلها ، ثم يقدرون ثمن ما سيشترون ، ثم يخرج كل منهم حصته من هذا الثمن إلا الشيخ فكانوا يخرجونه من هذه الغرامة . فإذا اجتمع لهم ما يحتاجون إليه من نقد ، ذهب أحدهم فاشترى لهم طعامهم . فإذا عاد بما اشترى نهض أحدهم إلى موقده فأوقد فيه ناره من هذا الفحم البلدي ، حتى إذا صفت جذوته أقبل على الطعام بهيئة وأصحابه ينظرون إليه مجتمعين أو متفرقين ، والشيخ يلقى إليه نصائحه بين حين وحين . حتى إذا تم له من تهيئة الطعام ما أراد خلى بينه وبين هذه النار تنضجه على مهل ، واجتمع

القوم إلى صديقهم الشيخ يعثون ، أو إلى أنفسهم يدرسون ، وظاهرهم
يخطف نفسه بين حين وحين ليلقى نظرة على هذا الطعام مخافة
أن يحترق أو يفسد ، وليلقى عليه بين حين وحين قطرات من ماء .
وكلهم ينتمى هذه الرائحة الذكية التي تبعثها النار من هذا الطعام
كلما تقدمت به إلى الإلتصاح ، وكلهم يجد في تنسم هذه
الرائحة مقدمة لذينة لعشاء لذيد . ومن المحقق أنهم لم يكونوا
وحدهم يصطنعون هذا الطعام ، وإنما كان لهم في الريع زملاء
يصطنعون مثله ويتنسمون رائحته مثلهم . ومن المحقق أيضاً أن قد
كان لهم في الريع زملاء تقصر بهم ذات أيديهم عن أن يصنعوا
لأنفسهم من الطعام مثل ما كانوا يصنعون . ومن المحقق أيضاً أن
هؤلاء العمال الذين كانوا يسكنون الدور السفلى من الريع كانت تقصر
بهم ذات أيديهم عن أن يطرفوا أنفسهم وأبناءهم ونساءهم بمثل
هذا الطعام . وأكبر الظن أنهم كانوا يجلدون من نساءهم لهذا
الحرمان همّاً ثقيلاً . وأكبر الظن أن هؤلاء المحرومين من الطلاب
والعمال كانوا يجلدون في هذه الروائح التي كانت تملأ الريع يوم
الجمعة لذة مؤلة أو ألماً لذيداً .

وكانت نار هذا الفحم البلدى بطيئة طويلة البال ، فكان ذلك
يطيل لذة قوم ويمد ألم آخرين . حتى إذا صلبت العصر ودعت
الشمس إلى الغروب كان الطعام قد نضج ، فاجتمع القوم حول
مائدتهم وأقبلوا على طعامهم في نشاط يشبه الجدد الهازل أو المزل

الجدد . كلهم حريص على أن يستوفى حظه من هذا الطعام ، وكلهم
يراقب أصحابه أن يسقوه أو يشتطوا عليه ، وكلهم يستحي أن يظهر
هذا الحرص أو يبدي هذه المراقبة . ولكن الشيخ معهم ، فصراحتة
تغنى عن صراحتهم ، وهزله يفضح ما أسروا من الجدد ، فهو يراقبهم
جميعاً ، وهو يقسم الطعام بينهم بالعدل ، وهو يصد أحدهم إن هم أن
يجور على أصحابه ، لا يجنى ذلك ولا يتحفظ فيه ، وإنما يعلنه صاحباً
كعادته ، منبهاً هذا إلى أنه يجذع نفسه عن قطعة البطاطس بقطعة
اللحم ، ومنبهاً ذلك إلى أنه يسرف على نفسه وعلى أصحابه بما
يعترف في لقمته الغليظة من جامد الطعام أو سائله ، مرسلاً
ألفاظه إلى هذا وذاك في هزل يخف على أسماعهم ويحسن موقعه
من نفوسهم ، ويضحكهم ، ولا يؤذيهم فيما ينبغي لهم من الحياء .

والصبي في أثناء هذه المعركة الضاحكة خجل وجل ، مضطرب
النفس مضطرب حركة اليد ، لا يحسن أن يقطع لقمته ، ولا يحسن
أن يغمسها في الطبق ، ولا يحسن أن يبلغ بها فمه . يخجل إلى نفسه
أن عيون القوم جميعاً تلحظه ، وأن عين الشيخ خاصة ترمقه في
خفية ، فيزيده هذا اضطراباً ، وإذا يده ترتعش ، وإذا بالمرق يتقاطر
على ثوبه ، وهو يعرف ذلك ويألم له ولا يحسن أن يتقيه . وأكبر
الظن بل المحقق أن القوم كانوا في شغل عنه بأنفسهم . وآية
ذلك أنهم يفكرون فيه ويلتفتون إليه ويمرّضونه على أن يأكل
ويقدمون إليه ما لا تبلغه يده ، فلا يزيده ذلك إلا اضطراباً

واختلاطاً ، وإذا هذه المعركة الضاحكة مصدر ألم لنفسه وحزن لقلبه ، وكانت خليقة أن تسره وأن تضحكه ، ولكنها إن آذته في أثناء الطعام فقد كانت تسره وتسليه وتضطره أحياناً إلى أن يضحك وحده إذا خلا إلى نفسه بعد أن يشرب الجماعة شايهم وينتقلوا إلى حيث يدرسون أو يسمرون .

وكذلك أنفق هؤلاء الشباب أعواماً طويلة مع هذا الشيخ . وشبَّ الصبي في هذه الحياة الضاحكة بفضل الشيخ على ، على رغم ما كان يعترض طريقها من أسباب الحزن والألم والأسى . ثم تفرقت الجماعة ، وذهب كل من هؤلاء الشباب لوجهه ، وتركوا الربيع واستقروا في أطراف متباعدة من المدينة ، وقلَّت زيارتهم للشيخ ، ثم انقطعت ، ثم تناسوه ، ثم نسوه .

وفي ذات يوم حمل إلى أفراد هذه الجماعة نعي الشيخ ، فحزنت قلوبهم ولم يبلغ الحزن عيونهم ، ولم يرسم آياته على وجوههم . وأخبر الخبر الصادق أن آخر كلمة نطق بها الشيخ وهو يُحتَضَرُ إنما كانت دعاءه لأخي الصبي .

فرحم الله عمي الحاج على ! لقد كان ظله على الصبي ثقيلاً وإن ذكره ليملاً قلبه بعد ذلك رحمة وحناناً .

ولم يكن هؤلاء الشباب يستمدون فرحهم ومرحهم من ذلك الشيخ وحده ، وإنما كان لفرحهم ومرحهم مصدر آخر في بعض الأحيان . ولكن فرحهم كان مقتصداً ومرحهم كان هادئاً إذا جاءهم من هذا المصدر الآخر . كانوا يفرحون بمقدار ، وبمرحون من وراء ستار ، إذا لقوا صاحبهم ذاك الذي كان يسكن غرفة في أقصى الربيع من يمين ، كما كان الشيخ في أقصى الربيع من شمال . وكان صاحب الغرفة اليمنى رجلاً متوسط السن قد تجاوز الأربعين من غير شك ولكنه لم يبلغ الخمسين . وكان طالب علم ، وقد أنفق في الأزهر أكثر من عشرين سنة ولم يظفر بدرجة العالمية بعد ولم يستيس من الظفر بها ، ولكنه لم يقصر عليها جهده ولم يقف عليها حياته ، وإنما كان يطلها ويطلب معها أشياء أخرى هي التي يطلها الناس في حياتهم . فقد كان له زوج وكان له بنون . وكان يمنح زوجته وأبناءه من وقته لإجازة الصيف وإجازة الصوم . وهذه الإجازات القصار التي كانت تتخلل دراسة الأزهرين أحياناً . وكان أهله يقيمون في القرية قريباً من القاهرة ، فلم يكن الانتقال إليهم والارتحال عنهم يكلفان الرجل جهداً ثقيلاً أو نقداً كثيراً . وكان ككثير من أهل إقليمه يملك

قطعة أو قطعاً صغيرة من الأرض ، وقد أصهر إلى رجل يملك قطعة أو قطعاً من الأرض أيضاً . فلم يكن فقير الحال كما كان يقال في ذلك الوقت ، ولكنه لم يكن عظيم اليسار ؛ وكان قبل كل شيء مقتصداً يوشك اقتصاده أن يبلغ البخل .

وكان حبه للعلم معتدلاً ، وكانت رغبته في العلم متواضعة ، وكان إقباله على الدرس ضئيلاً جداً ، وكان ذكائه أضال من إقباله على الدرس ، واستعداده لفهم العلم أقل من إقباله عليه ، وكان مع ذلك يرى نفسه ذكياً ، ويرى نفسه مظلوماً ؛ لا لأنه تقدم لنيل الدرجة فردّها عنها واشتطت عليه اللجنة في الامتحان ، فقد أنفق في الأزهر أكثر من عشرين سنة ولم يتقدم للامتحان ، وكان يستطيع أن يتقدم بعد اثنتي عشرة سنة ، ولكنه لم يفعل لأنه كان يرى الأزهر من وراء منظار قاتم أو شاحب .

كان يسىء الظن بالطلاب ، وكان يرى مخطئاً أو مصيباً - وأكبر الظن أنه كان مخطئاً - أن الدرجات لا تنال في الأزهر بالذكاء والبراعة ، ولا بالجد والتحصيل ، وإنما تنال من جهة بالخط والمصادفة ، ومن جهة أخرى بالتملق وحسن الحيلة والمهارة في التوسل إلى المنتحين . وكان يرى أن الخط قد ظلمه وتحول عنه لسبب مجهول ، وأنه مخفق إن تقدم إلى الامتحان ؛ فالخير في ألا يتقدم .

وكان يبتدئ عامه الأزهرى مصمماً على أن يتأهب للامتحان ،

فيتفق مع جماعة من أصدقائه على أن يقرأ معهم طائفة من الكتب التي لم يكن بد من إتقانها قبل التقدم للامتحان . ثم لا يمضي شهر أو شهران حتى يشعر بأن الخط لا يواتيه ، فيهمل ثم يكسل ثم ينصرف عن الدرس إلى غيره من شؤون الحياة . وكان يعتقد أن الخط قد ظلمه مرة أخرى ، فلم يمنحه من نباهة الذكر ومن هذا الذكاء الخداع ما يلفت إليه الشيوخ ، كما منح فلاناً وفلاناً من أصدقائه ، مع أنه في حقيقة الأمر ليس أقل من أصدقائه فهماً للعلم ، ولا قدرة على التصرف فيه .

ولم يكن يُخفي إذا تحدث إلى أصدقائه الشباب أنه كان يعرف الطريق المأمونة المضمونة إلى الدرجة ، وأنه كثيراً ما راود نفسه عن سلوكها ، ولكن نفسه لم تطب قط عن بيع قيراط أو قيراطين ليظفر بهذه الدرجة التي تمنحه لقلب العالم ، وتزيد جرابته أرغفة ، وتغلّ عليه آخر الشهر خمسة وسبعين قرشاً .

وكان من أجل هذا كله ينتظر أن تصفو له الأيام ، ويبتسم له وجه الخط ، كما ابتسم لصديقه ومواطنه فلان في العام الماضي . فقد أقام صديقه هذا طالباً للعلم ربع قرن ، وكان ذكياً بارعاً ، ثم تقدم فجأة إلى الامتحان فلم يجزه ناجحاً فحسب ، ولكنه ظفر بالدرجة الثانية لا بالدرجة الثالثة ، ولو أنه أحسن التقرب إلى فلان من أعضاء اللجنة لظفر بالدرجة الأولى .

فليتظر إذن كما انتظر صديقه ، ولعل الخط أن يواتيه كما واتى

صديقه . فالأمر كله إلى الحظ أيها الأصدقاء ؛ فقد درست كما تدرسون وتعبت كما تتعبون ، وأنا أتمنى أن يكون حظكم خيراً من حظي وإن كنت لا أتق بذلك ولا أطمع فيه .

وكان هؤلاء الشباب يسمعون من صاحبهم هذه الأحاديث فيحفظونها ويثبتون في أنفسهم طريقته في إلقائها . وكانت طريقته طريفة حقاً ؛ فقد كان يتحدث في هدوء شديد وصوت هو إلى الخفية أقرب منه إلى الجهر ، وكان يعتمد على ألفاظه كأنما يريد أن يشبها في آذان سامعيه ، وكان يفصل بين أحاديثه هذه بكثير من الفكاهات والنوادر التي كان يراها غريبة مضحكة ، فيضحك لها ويطلق الضحك ، وقد مرت على أصدقائه فلم تضحكهم ولم تلتفهم ، ولكنهم رأوه يضحك فوجموا ، ثم رأوا ضحكه متصلاً فضحكوا ، ثم رأوا إغراقه في الضحك فأغرقوا فيه . وكان ضحكه غريباً مضحكاً حقاً إن جاز هنا التعبير ؛ فقد كان يبدوه عالياً ثم يقطعه ويضحك صامتاً لحظة ، ثم يستأنفه عالياً ثم يقطعه ويمضي فيه صامتاً ، ثم يستأنفه ، وهكذا . وكان الطلاب إذا خلوا إلى أنفسهم أعادوا أحاديثه ، ورددوا ألفاظه ، وقلدوا ضحكه وقضوا في ذلك ساعة مسلية سارة .

ولكن الذي كان يعجب هؤلاء الشباب من صديقه هذا شيء ، آخر ؛ فقد كان صاحب لذة بل صاحب إغراق في اللذة وبهالك عليها . وكان يجب الحديث عن لذاته ، ويستمتع بتفصيل

هذا الحديث كما يستمتع بلذاته نفسها أو أكثر مما يستمتع بلذاته نفسها . وكانت اللذات التي يمعن فيها ويتحدث عنها بريئة إن شئت . وأتمة إن شئت أيضاً . كان يذكر لذاته إذا خلا إلى أهله ويفصل ذلك تفصيلاً منكراً يقطعه بضحكه الغريب . وكان يذكر لذاته إذا جلس إلى طعامه الدسم في القرية وإلى طعامه الخشن في المدينة ، ويفصل ذلك بفكاهاته النادرة الفاترة وضحكه المتقطع المتصل . وكان يذكر لذاته إذا سعى في شوارع المدينة وفي حاراتها ، وإذا وقف في الربيع نفسه يستنشق الهواء وألقى عينيه إلى الطبقة السفلى ، فلم يكن يرى امرأة في الشارع أو الحارة أو الربيع إلا فصلها بعينه تفصيلاً ، وحللها في نفسه تحليلاً ، وجردها من ثيابها تجريداً ، ووجد في هذا الجهد الآثم لذة لا تقل عنه إثماً . ولم يكن يسمي المرأة امرأة ولا سيدة ولا أنثى ، ولا شيئاً مما تعود الناس أن يسموها ، وإنما كان يسميها فخذاً . ولم تكن المرأة النجيلة تعدل عنده شيئاً ، وإنما المرأة كل المرأة من ضحمت حتى اكتظت أعضاؤها بالشحم واللحم ، وكان يشبهها بالوسائد حيناً وبالخشايا حيناً آخر .

وكان يستدل على مذهبه هذا بقول كعب بن زهير في صاحبه سعاد :

هيفاء مقلبة عجزاء مدبرة

لا يُشْتَكِي قِصْرَ مِنْهَا وَلَا طَوْلَ

وكان يقول لأصدقائه : ألا ترون أنه لم يكذب يذكر أن صاحبه كانت هيفاء إذا أقبلت حتى استدرك أمره وقوم رأيه فذكر أنها عجزاء إذا أدبرت ! ثم يمضى بعد ذلك في ألوان شنيعة من التفصيل ، ثم يقص الفكاهات وينثر النودار ، ويرسل الضحك ثم يمسكه ، وقد ملك على هؤلاء الشباب أمرهم بما يلقي إليهم من حديث . وأى شيء أبلغ أثراً في نفوس الشباب المحرومين هذه اللذات يربها وأثمها من هذا الحديث !

وكان الصبي يسمع ذلك وهو في ركنه منحني مطرق كأنه ليس مع القوم، وما يفوته من حديث القوم لفظ، وما تشذ عنه من أصوات القوم نبرة . وكان يقول في نفسه : لو عرف هؤلاء الرجال مقدار ما أسمع لهم وما أخذ عنهم لاجتنبوا أن يديروا مثل هذه الأحاديث بمحضر من الصبية الناشئين .

وقد أنفق هذا الرجل منذ عرفه الصبي أعواماً في الربيع اختلفت عليه فيها شؤون كانت كلها تضحك في ظاهر الأمر ، ولكنها تحزن وتثير الأسى عند الرؤية والتفكير .

كان فلاحاً بأدق ما تؤدي هذه الكلمة من معاني الحب للأرض ، والحرص على المال ، والجزع كل الجزع أن يُغلب في بيع أو تأجير أو شراء ، وكان المال ، والمال وحده ، يسيطر على أمره كله إذا ذهب إلى قرية أو فكر فيها أو لقي أحداً من أهلها . وكان صاحب لذة بأدق ما تؤدي هذه الكلمة من معاني

الاستجابة للحس والطلب لهذه المُتَمَتِّعِ القريبة التي لا تحتاج إلى رقة نفس ولا إلى دقة عاطفة ولا إلى صفاء ذوق . وكان طلبه للعلم وانظاره للدرجة وسيلة من وسائله أو قل غاية من غاياته . يستريح إليها إذا جد في تحصيل المال حتى أعياه الجِدِّ ، وإذا تهالك على الاستمتاع باللذة حتى أضناه الاستمتاع . هنالك يعود إلى ربه ويستقر في غرفته ، ويفكر في زملائه وشيوخه ودرجته ، ويتحدث إلى أصدقائه هؤلاء ، ويشاركهم في بعض الطعام ويشاركهم في بعض الشاي . ولكنه كان على هذا كله مؤمناً شديد الإيمان ، له نزعات صوفية غريبة تخرجه بين حين وحين عن أطواره هذه كلها ، وترده زاهداً متقشفاً يأخذ نفسه بالشدّة والعنف ، ويفرض عليها عذاب الحرمان والجوع .

وقد اختلف مع حَمِيهِ ذات يوم في بعض الأمور ، وزهد في زوجته الفلاحة ، وطمح إلى أن يتخذ لنفسه زوجاً من أهل القاهرة ، ويُصهر إلى أسرة متحضرة متأنقة ، فطلق امرأته . وكان يتحدث بآماله هذه إلى أصدقائه مفضلاً لهم في أصرح الألفاظ وأبشعها ما يكون من الفروق بين نساء المدينة ونساء الريف . ولكنه أصبح ذات يوم وقد صُرف عن المال وصرف عن نساء المدينة ونساء الريف ، وصرف عن لذة الطعام والشاي . لأنه أحس أن الحظ سيواتيه إن تقدم للامتحان . فلا بد إذن من أن يتقدم ، ولا بد إذن من أن يتهاى لهذا الصراع بينه وبين الشيوخ . وأمامه

أشهر يستطيع أن يستعد فيها ، فليعجب أصدقائه وزملاءه القدماء والمحدثين ، وليفرغ للأصول والفقه والبلاغة والنحو والتوحيد ، وهذه المواد التي كان يتألف منها « التعيين » . وقد فعل ، وتقدم للامتحان وكان يوم امتحانه يوماً مشهوداً .

أقبل على اللجنة مع الصباح وانصرف عنها عند المساء ، فأتعبها وأتعبته . وكان قد دبر لنفسه حيلة ظريفة وطريفة يستريح بها من اللجنة إن اشتطت عليه ، فاشترى بطيخة أو جماعة من البطيخ وتركها قريباً من غرفة الامتحان ، وزعم اللجنة حين أدخل عليها أنه مريض بسلس البول ، واستأذنها في أن ينصرف كلما اضطرتته علته إلى الانصراف . وقد رحمته اللجنة وأذنت له أن ينصرف كلما دعتته علته إلى ذلك . فكان يأخذ في تقرير الدرس ويأخذ في محاورة المتحنيين إن ألقى عليه أحدهم هذا السؤال أو ذاك ، ثم يقطع تقريره أو حوارها فجأة ويستأذن في الخروج ، فإذا خرج لم يذهب إلى حيث يرضى حاجة أو يشق علة ، وإنما ذهب إلى حيث يصيب مقداراً من البطيخ يبرد به قلبه ويشحذ به ذهنه ويسترد به خاطره كما كان يقول ، ثم عاد إلى اللجنة فاستأنف التقرير أو الحوار من حيث قطع التقرير أو الحوار . وما زال باللجنة وما زالت اللجنة به حتى انقضى أكثر النهار ، وعاد إلى غرفته سعيداً موفوراً ؛ فقد أتبع له النجاح وظفر بالدرجة الثالثة وأصبح من العلماء .

وتفرق عنه أصدقائه مع الصيف . فلما لقوه من الخريف كان قد فارق غرفته في الربيع وحقق آماله تلك ، فأصهر إلى أسرة من المدينة ، وأقام معها غير بعيد من مسكنه القديم .

وقد أخذته نزعته الصوفية ذات يوم ، فاعتزم أن يعتكف في المسجد أياماً يروض نفسه فيها على الصلاة والصوم وذكر الله ، وقد فعل ، فلزم الخلوة أياماً لا أدري كم عددها ولكنها لم تكن قليلة ؛ فقد خرج من الخلوة نحيلاً منهوكاً . فلما عاد إلى أهله أنكره ، ولعلهم سخروا من رجولته . فعدت إليه نفسه الفلاحة الهالكة على اللذات ، وأدركته حميته الريفية ، فخرج مع الصباح حتى أتى مطعماً أو قهوة فأسرف على نفسه أشد الإسراف فيما ألهم من فول وزيت وخبز وبصل ، ثم أسرف على نفسه أشد الإسراف فيما أطفأ به نار هذا الإفطار من شاي ، ثم أضاف إلى كل ما ألقى في جوفه من سائل وجامد شيئاً من هذه الأشياء التي كان أمثاله يشيرون إليها ولا يسمونها ؛ فلما استقر هذا كله أو اضطرب في جوفه عاد إلى أهله فائراً ثائراً ، فأنكروا قوته واتقوه ، وانتهى أمره إلى أن هم بأن يشب من النافذة لولا أن أدركه بعض أعضاء الأسرة فردوه عن ذلك بعد جهد وأوقوه ، وإذا هو مجنون قد ذهب عقله .

وما ينسى الصبي ذلك الصوت الذي كان يصل إليه ذات ليلة بعد أن صليت العشاء ، والذي وقف له أولئك الشباب من

الطلاب واجمين محزونين تريد دموعهم أن تنهل فلا يمسكها إلا الحياء . وكان ذلك الصوت صوت ذلك الرجل الذي أخذته الجنون وأطلق لسانه فهو يتغنى بأشع الهذيان . فلما أصبح ذهب به أصهاره إلى المستشفى هناك حيث يدأوى أمثاله . وقد أقام في هذا المستشفى أسابيع ، ثم خرج منه وقد تغيرت حاله كل التغيير ؛ فانخفض صوته أكثر مما كان منخفضاً ، وهذأت حركاته وانقطع ضحكته ، وأصبح يبعث في نفس من يلقاه شيئاً غريباً من الخوف منه والإشفاق عليه .

وقد مضت الأيام بما تمضى به من الأحداث ، وتفرق عن هذا الرجل أصدقاؤه الشباب ، وذهب كل منهم لوجه من وجوه الحياة ، وقلّ لقاءهم لهذا الرجل ثم انقطع ، وجعلت أخباره تصل إليهم متقطعة ، ثم انقطعت هي أيضاً . وأنبأ المنبيء ذات يوم بأنه قد مات . فسمع أصدقاؤه هذا النبأ فحزنت نفوسهم لحظة ، ولكن عيونهم لم تدرف دموعاً ، ولكن وجوههم لم تفيض إلا قليلاً ، وإنما انطلقت ألسنتهم بهذه الآية الكريمة التي نزلوها دائماً كلما انتهى إلينا النعي : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وغرفة أخرى من غرفات هذا الريع كانت تقوم فيه غير بعيد عن شمالك إذا صعدت السلم ، وكانت مصدر فكاهة ودعابة وهو لهؤلاء الشباب أيضاً .

كان يسكنها شاب لعله كان أكبر من هؤلاء الطلاب شيئاً ، وقد كان أقدم منهم عهداً بالأزهر ، ولكنه كان من جيلهم ومن طبقهم على كل حال . كان نحيف الصوت ، يكفي أن تسمعه لتضحك من صوته . وكان ضيق العقل لم يأذن الله للون من ألوان العلم أن يستقر في رأسه لأن عقله كان محدوداً محصوراً . وكان قصير الذكاء لم يأذن الله لذهنه أن ينفذ إلى أقرب شيء وراء ما كان يقرأ في الكتب على اختلافها . وكان مع ذلك واسع الثقة بنفسه بعيد الطمع في مستقبله مطمئناً في غير تكلف إلى أنه كأصحابه هؤلاء الذين يعيش معهم ويشاركهم في أكثر ما يختلفون إليه من الدروس .

كان يشهد معهم درس الفقه ودرس البلاغة ودرس الأستاذ الإمام ، ولم يكن يخف لدرس الأصول ؛ لأن هذا الدرس كان يقتضيه أن يخرج من غرفته مع الفجر ، وقد كان لراحته مؤثراً وبها ضئيلاً . وكان يشارك أصحابه في بعض مطالعاتهم ، وكان

يشاركهم بنوع خاص في هذه المظالمات التي لا تتصل بالدروس المنظمة ولا بالكتب التي كان الشيوخ يقرءونها .

فقد كان هؤلاء الشبان يضيقون بكتب الأزهر ضيقاً شديداً ، يتأثرون في ذلك برأى أستاذهم « الإمام » في كتب الأزهر ومناهجه . وكانوا يسمعون من الأستاذ الإمام حين يشهدون درسه أو حين يزورونه في داره أسماء كتب قيمة في النحو والبلاغة والتوحيد والأدب أيضاً وكانت هذه الكتب القيمة بغضه إلى شيوخ الأزهر لأنهم لم يألفوها ، وربما اشتد بغضهم لهذه الكتب لأن الأستاذ الإمام قد دل عليها ونوّه بها . وكان الذين ينافسون الأستاذ الإمام من الشيوخ الأعلام يحاولون أن يذهبوا مذهبه فيدلون طلابهم على كتب قيمة أخرى ، لا تقرأ في الأزهر لأن الأزهريين لم يألفوا قراءتها . وكان هؤلاء الطلاب لا يكادون يسمعون اسم كتاب من هذه الكتب حتى يسرعوا إلى شرائه إن وسعهم ذلك ، وربما كلفوا أنفسهم في هذا الشراء جهداً ثقيلاً وحرماناً شديداً . فإن أعياهم ذلك استعاروه من مكتبة الأزهر ، ثم أقبلوا عليه ينظرون فيه ، ثم اتفقوا على أن يقرءوه جماعة ، ويتعاونوا على فهمه .

كان يدفعهم إلى ذلك حبهم الصادق للأستاذ الإمام ورغبتهم الصادقة في العلم والاطلاع . وربما دفعهم إلى ذلك مع هذه العاطفة شيء من غرور الشباب ؛ فقد كانوا يفخرون بتلمذتهم

لأستاذ الإمام وللشيخ نجيت وللشيخ أبي خطوة وللشيخ راضي ، وكان يعلنون أفواههم بأنهم تلاميذ هؤلاء الأئمة وبأنهم من تلاميذهم المقربين المصطنعين . ولم يكونوا يكتفون بالاختلاف إلى هؤلاء الشيوخ في دروسهم ، وإنما كانوا يزورون شيوخهم في دورهم ، وربما شاركوهم في بعض البحث ، وربما استمعوا منهم درساً خاصة في يوم الخميس بعد أن تصلى الظهر أو بعد أن تعلى العشاء . وكانوا لا يكرهون أن يعرف عنهم زملائهم هذا كله ، وأن يتحدث عنهم زملائهم بأنهم يقرءون فيما بينهم هذا الكتاب أو ذلك في هذا الفن أو ذلك . وكانوا قد وصلوا بهذا كله إلى شيء ظاهر من الامتياز بين زملائهم ، حتى عرفوا في الأزهر كله بأنهم أنجب طلاب الأزهر وأخلقهم بالمستقبل السعيد . فكان من المعقول أن يسعى إليهم الأوساط من زملائهم يلتصقون الفنون في الاتصال بهم والامتياز حين يعرف الناس أنهم من أصدقائهم وأصفيائهم ، ويلتصقون بذلك الوسيلة إلى أن يتصلوا بكبار الشيوخ وأئمة الأساتذة . وكان صاحبنا من هؤلاء الطلاب الأوساط ، قد اتصل بهذه الجماعة من الطلاب ، ليقول زملاؤه إنه واحد منهم ، وليستطيع بحكم هذه الصلة أن يصحبهم في زيارتهم للأستاذ الإمام أو الشيخ نجيت .

وكان غرور الشباب يجب إلى هذه الجماعة هذا النوع من الامتياز ، ويهون عليها قبول هؤلاء الطفيليين في العلم من ضعاف

الطلاب وأساتطهم ، ثم يتبع لهم بعد ذلك ، حين يخلون إلى أنفسهم وقد أحصوا على هؤلاء الزملاء جهالاتهم وسخافتهم وأغلاطهم الشنيعة ، أن يعيدوا ذلك وأن يضحكوا منه ملء أفواههم وملء جنوبهم أيضاً . وأكبر الظن أن صاحبهم هذا قد عرفهم في بعض الدروس ، فما زال يبدى نفسه منهم حتى اتصل بهم فزارهم ثم أعجبه ربههم وأعجبه جواره لم في هذا الربيع ، فاتخذ فيه غرضاً وأصبح واحداً منهم ، يشاركتهم في الدرس ، ويشاركتهم في الشاي ، ويشاركتهم في الزيارات ، ويشاركتهم في بعض الشهرة ، ولكن الله يفتح عليه قط بأن يشاركتهم في العلم والفهم ، وفي الإبانة والإيضاح ويظهر أنه كان أوسع منهم يداً ، وأكثر منهم مالا ، أو علماً إنه كان يقتر على نفسه إذا خلا إليها ، فإذا اتصل بأصحابه يستمر على نفسه وأنفق عن سعة . وربما كان يشعر بحاجتهم إلى النفاذ لشراء كتاب ، أو لأداء دين عاجل ، أو لإرضاء حاجة ملحة ؛ فيقبل إليهم من ذلك ما يريدون رقيقاً بهم متلطفاً لهم . وكانوا يرمون ذلك له ويحمدونه ، ولكنهم لم يكونوا يطبقون جهله ، وربما يملكون أنفسهم فضحكوا من هذا الجهل بمحضر منه ، وربما عليه سخفه رداً عنيفاً فيه كثير من الازدراء القاسى . ولكنه يقبل ذلك راضياً ، ويتلقاه باسمياً . وما أظن أنهم عرفوا في وجهه الغضب يوماً على كثرة ما كانوا يثقلون بالفض منه والازدراء له . وكان أجمل ما كانوا يتندرون به

علمه بالعروض أو جهله بالعروض فكلاهما سواء . كان يطالع معهم كتاباً في النحو ، فلا يكاد يعرض لهم شاهد - وما أكثر ما تعرض الشواهد في كتب النحو ! - حتى يكون أسرعهم إلى رد هذا الشاهد إلى بحر من أبحر العروض ، لم يكن يختلف قط وإنما كان « البسيط » دائماً . وقد يكون البيت من « الطويل » وقد يكون من « الوافر » ، وقد يكون من أى بحر من أبحر الشعر ولكنه كان « بسيطاً » دائماً .

والغريب أنه لم يكن يكتفى بالإسراع إلى إعلان أن هذا البيت من البسيط ، وإنما كان يسرع فيأخذ في تقطيع البيت ورده إلى البسيط ، مهما يكن وزنه ، فيقطع على الجماعة درسهم ، ويدفعهم إلى بحر من الضحك لا يكاد يعرف له حد . وقد كثر منه ذلك حتى أغرى به أصحابه وأطمعهم فيه ؛ فكانوا كلما عرض لهم بيت من الشعر أظهروا العجز عن رده إلى وزنه حتى ينبهم صاحبهم بأنه من البسيط . فإذا فعل أظهروا العجز عن تقطيع البيت حتى يأخذ صاحبهم في تقطيعه فيرده إلى البسيط ، وهناك يستأنفون الضحك ، ويستأنفون الاستهزاء ، ويلقاهم هو بهذه الابتسامة الراضية التي لا تعرف الغضب ولا الغيظ .

وقد أقام هذا الشاب على ذلك مع أصدقائه أعواماً طويلاً لم يغيضهم ولم يغيضوه . وكأنه أحس آخر الأمر أنه ليس من تلك الخلبة ، وأنه لا يستطيع أن يجرى في ذلك الميدان ؛ فأخذ

يتخلف قليلاً قليلاً عن الدروس ، ويتكلف التعلات والمعاذير ، لا يشارك القوم في مطالعتهم ، ويكتفى بالمشاركة في الشاي والطعام أحياناً ، والزيارات دائماً .

وقد تقدمت السن بالصبي في أثناء ذلك ، وتقدم به الدرس أيضاً ، وإذا هذا الشاب يظهر العطف عليه والقدر له ، وإذا هو يعرض عليه أن يقرأ معه الكتب ، ويعرض عن مشاركة أقرانه وأنداده إلى مشاركة هذا الغلام الناشئ . ويأخذ الغلام في أن يقرأ معه كتباً في الحديث وأخرى في المنطق وأخرى في التوحيد ، ولكنه لا يجد عنده غناء . وليس الغلام فارغاً للضحك منه والتندر به ، وليس هو قادراً على ذلك ولا راغباً فيه ، وإذا هو يحتاج في التخلص منه والمضي لشأنه .

وإذا هذا الرجل يترك العلم أو يتركه العلم ، ولكنه يظل محسوباً على الأزهر طالباً فيه مشاركاً لأصحابه في الناحية الاجتماعية من حياتهم . وقد ارتقت حياتهم بعض الشيء ، رقاها ذكائهم وجددهم وتفوقهم ورضا الأستاذ الإمام عنهم وتقريبه إليهم ، وإذا هم يتصلون بفلان وفلان من أبناء الأسر الغنية الثرية الذين كانوا يطلبون العلم في الأزهر إذ ذاك ، وإذا الزيارات تتصل بينهم وبين هؤلاء الشبان الأغنياء الأثرياء ، وصاحبهم معهم يزور وزير ، وترتقى حياته الاجتماعية كما ارتقت حياة أصحابه . ولكن أصحابه لا يحسون هذا الارتقاء ولا يكادون يشعرون به . وهم إذن

لا يتحدثون به ولا يتمدحون بزياراتهم لتلك البيوت الممتازة وجلسهم إلى أصحابها النابهين ، وإنما يرون ذلك شيئاً طبيعياً مألوفاً . فأما صاحبهم فهو الذي يراه المجد كل المجد ، ويستمد منه الغبطة كل الغبطة والغرور كل الغرور ، ويستغله لبعض منافعه المادية أحياناً ، ويتحدث به دائماً إلى من أراد أن يسمع له ومن لم يرد .

وتعصى الأيام ويتفرق هؤلاء الطلاب ، وقد أخذ كل واحد منهم طريقه في الحياة . ولكن هذا الرجل لا ينسأ ولا يسمح لهم أن ينسوه . قد عجز عن تتبعهم في العلم فليتبهم في غيره مما تمثلى به الحياة ، يزورهم وإن لم يزوروه ، ويلقاهم في زيارتهم عند فلان أو فلان من أصحاب المنزلة والثراء .

وقد خرج الأستاذ الإمام من الأزهر في تلك الحقبة السياسية المعروفة ، وإذا صاحبنا متصل بالأستاذ وشيعته ، متصل بخصوم الأستاذ الإمام وشيعتهم أيضاً . وقد أخذ الأزهر يضطرب ، ودخلت السياسة في ذلك الاضطراب ، واختصمت فيه السلطان ، وإذا صاحبنا يتصل بالمضربين مشاركاً لهم في الإضراب ، ويتصل بخصوم الإضراب مفشياً لهم أسرار المضربين . ويتكشف الأمر ذات يوم ، وباله من يوم ! عن أن صاحبنا قد كان متصلاً بالمحافظة ، فتنقطع الصلة قطعاً عنيفاً بينه وبين أصدقائه ، وسرد عن البيوت التي كان يسعى إليها ويستقبل فيها ، ويقبع في غرفته تلك في الربيع قد خسر الناس جميعاً ولم يخسر أحد . وقد قصرت به همته

عن درجة الأزهر فهو يتفق حياته الخاملة وحيداً بانساً محتملاً خوله
على مفضض مكتسباً عيشه في مشقة .

ثم بنى النبي ذات يوم بأنه قد مات . أمات من علة ؟
أمات من حسرة ؟ أم مات من الحرمان ؟ ولكن أصدقاءه يسمعون
النعي فلا يأخذهم وجوم ، ولا يمسخ نفوسهم حزن ، وإنما يتلون هذه
الآية الكريمة التي نزلوها دائماً حين ينعي إلينا الناس :

« إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وكان الربيع خالياً أو كالحالي حين أقبل الصبي عليه لأول
مرة ، لم يكن أهله قد عادوا إليه بعد إجازة الصوم . وقد عرف
الصبي بعد ذلك أن طلاب الأزهر كانوا يستحبون الإبطاء في
السفرة إلى القاهرة بعد هذه الإجازة خاصة . ففي هذا الوقت
كانت تبدأ السنة الأزهرية . وكان الطلاب والعلماء كانوا يجنون
سهلاً من المشقة والجهد في مفارقة أهلهم وأوطانهم ، فكانوا يطيلون
إجازتهم يومين أو أياماً ، وربما أطالوها أسبوعاً أو أكثر من
أسبوع . ولم يكن عليهم من ذلك بأس ؛ فقد كان الأزهر حينئذ
في آخر أيامه السعيدة التي لم يكن النظام يخصص فيها على الأساتذة
والطلاب أيام العمل وأيام الراحة ، والتي لم يكن فيها النظام يأخذ
الأساتذة والطلاب بهذه المواظبة القاسية على الدرس في جميع
أيامه وفي جميع أوقاته ، وإنما كان الأمر هيناً سهلاً ، تعين المشيخة
أمر الإجازة وأول العمل ، والأساتذة أحرار يبدعون متى أرادوا
أو متى استطاعوا . والطلاب أحرار يُقبلون على الدروس متى أحبوا
أو متى أتاحت لهم ظروفهم أن يقبلوا عليها .

كان الأمر هيناً سهلاً ، وكان يعتمد على الرغبة والإرادة أكثر
 مما يعتمد على الدقة المقررة والنظام المحتوم . وكان أجدر أن يميز

أصحاب الجلد والعمل من أصحاب الكسل والعبث ، وأن يدع الطلاب إلى العلم حباً فيه وطموحاً إليه لا طاعة للأمر ولا إشفافاً من العقاب .

وكان الأساتذة والطلاب يستمتعون بهذه الحرية الحلوة السمحة في قصد واعتدال . فكان الأسبوعان الأولان من أيام الدرس أسبوعى حرية وسعة ، كما كانا أسبوعى مودة وتعارف وبر .

يُقبل الطلاب من بلادهم على مهل ، فإذا أقبلوا تزاوروا وبر بعضهم بعضاً . ثم سعوا إلى دروسهم على مهل أيضاً . ويقبل الأساتذة من بلادهم في أناة وريث ، فإذا أقبلوا هيثوا منازلهم للإقامة الطويلة ، ثم سعى بعضهم إلى بعض بالتحية والود ، ثم بدءوا دروسهم لا معجلين ولا مرهقين . على أن كثيراً من الأساتذة والطلاب كانوا يؤثرون العلم على أهلهم وأوطانهم . ففهم من يقيم في القاهرة أثناء الإجازة دارساً في بيته أو في الأزهر نفسه أو في غيره من المساجد ، ومنهم من كان يتعجل العودة إلى القاهرة متى سحت له الفرصة وسمحت له الظروف ، ليأخذ من الدرس الحر الخاص نصيباً قبل أن يبدأ في الدرس المنظم المشترك .

من أجل هذا كله كان الربع خالياً أو كالتالي حين أقبل عليه الصبي وأخوه . لم يكن بعمره إلا عمى الحاج على وزميلان من زملاء الشيخ الفتي وهذان الفارسيان . ثم لم يكد الصبي يستقر في الربع يوماً ويوماً ، حتى أخذ أهله يعودون إليه منفردين

يختصمون مع الصباح ومع المساء ، وحتى أخذ الربيع يمتلئ بالحركة والنشاط ، وترتفع فيه الأصوات من يمين وشمال ، ويأخذ شكل المكان المزدحم بأهله أشد الازدحام . وقد كان مزدحماً بأهله حقاً : فقد كان بعض غرفاته يحتضن بالطلاب على نحو غريب ، حتى لقد كان يسكن غرفة من هذه الغرفات عشرون طالباً .

كيف كانوا يجلسون ؟ كيف كانوا يدرسون ؟ كيف كانوا ينامون ؟ هذه أسئلة ألقاها الصبي على نفسه ولكنه لم يجد لها جواباً . وإنما عرف أن أجر الغرفة لم يكن يزيد على خمسة وعشرين قرشاً ، وربما نزل إلى العشرين في كل شهر ، فكان الطالب يسكن بقرش واحد في الشهر على هذا النحو .

وهذا يصور حال هذه الجماعات الضخمة من أبناء الريف التي كانت تغد على القاهرة لتدرس العلم والدين في الأزهر ؛ فتصيب من العلم والدين ما تستطيع ، ولكنها تصيب معها ألواناً من علل الأجسام والأخلاق والعقول أيضاً . وكانت الغرفة التي تلي غرفة الصبي من جهة اليمين خالية أثناء الأسبوع الأول ، لم يسمع الصبي من قبلها صوتاً أو حركة . ثم انقضى الأسبوع وأقبل أسبوع آخر . فلم تشغل الغرفة ولم تأت من قبلها حركة أو صوت ، حتى أخذ الطلاب يتساءلون عن الشيخ الذي كان يسكنها قبل الصوم : ما خطبه ؟ ويقول بعضهم لبعض : لعله تحول عن هذا الربع

إلى مكان آخر . ولكن الصبي استيقظ في ليلة من ليالي الجمعة على صوت عمي الحاج على يشق الليل وعلى صوت عصاه تضرب الأرض ، ففكر كما كان يفكر ، وانتظر صوت المؤذن كما كان ينتظره ، وأذن مع المؤذن في نفسه كما كان يفعل . وانقطع الصوت ، وجعلت نفس الصبي تتبع المصلين في المسجد وهم يقبلون على صلاتهم ، منهم المتعجل النشيط ومنهم المتناقل المتبذل . وإذا صوت غريب مرتفع يشق الحائظ من وراء الصبي ويبلغ أذنه ، فيبعث في جسمه رعدة تجرى فيه من رأسه إلى قدميه . ولم ينس الصبي قط هذا الصوت ، ولم يذكره قط إلا ضحكته له نفسه وإن شغل الجلد شفتيه عن الابتسام . كان صوتاً غريباً ، ملأ الصبي رعباً أول الأمر ، ثم دفعه إلى ضحك مرتفع لم يستطع أن يملكه على ما كان يخاف من إبقاظ أخيه : آل .. آل .. آل ..
 آلله آلله آلله آك .. آل .. آل .. آلله آك . آلله آك . آلله أكبر .. .
 كذلك وصل الصوت إلى الصبي ، فأنكر أوله وأنكر تردده ، وعرف آخره . ولكن الصوت لم ينقطع عند انتهاء التكبير ، وإنما استؤنف بعد ذلك مرة ومرة ، حتى استقر آخر الأمر وقد أخذت حروف التكبير مواضعها من فم المصوت بها ومن الهواء ومن أذن الصبي ونفسه أيضاً . ومضى الصوت من وراء الحائظ بعد ذلك يقرأ الفاتحة ، فعرف الصبي أنه صوت رجل يصلي . ومضى الصوت يقرأ الفاتحة حتى بلغ قول الله تعالى : « إياك نعبد

« إياك نستعين » ، فوقف عند السين ولم يستطع أن يتقدم ، وإذا هو يستأنف التكبير على نحو ما بدأه : آل .. آل .. آل .. آل . هناك لم يملك الصبي نفسه فاندفع في ضحك مرتفع متصل استيقظ له أخوه فزعاً ، وسأل الصبي ما به ؟ فلم يستطع الصبي جواباً . ولكن أخاه لم يحتاج إلى هذا الجواب فقد سمعه من وراء الحائظ ، فاندفع هو أيضاً في ضحك مكظوم ، ثم قال للصبي في صوت خافت : مهلاً ؛ فهذا جارنا الشيخ فلان قد عاد وهو يصلي الصبح وهو شافعي .

واستأنف الشيخ الفتي صمته وهدوءه يدعو إليه النوم . وضبط الصبي نفسه وتبع صوت الشيخ من وراء الحائظ حتى أتم صلاته بعد جهد ثقيل . ولكن سؤالا قد استقر في نفس الصبي : ما بال هذا الشيخ الشافعي يكلف نفسه هذا الجهد وهذا العناء ولا يتم صلاته إلا بعد هذه المشقة التي لا تطاق ؟ فلما أصبح سأل أخاه متشجعاً ، فعرف منه أن الشيخ موسوس بعض الشيء ، وأنه يريد أن يحقق نية الصلاة ، وأن يخلص قلبه ونفسه وضميره لله إذا أقبل على صلاته وفي أثناء مضيه فيها . فإذا رأيته يتردد ويعود من حيث بدأ ويقطع الصلاة لبيتدئها ، فاعلم أنه قد أحس عارضاً من أمور الدنيا عرض لنفسه فصرفها عما ينبغي أن تخلص له من ذكر الله .

وكان هذا الشيخ هادئاً أشد الهدوء ، لا يكاد يسمع له صوت

ولا تكاد تسمع له حركة إلا إذا صلى الفجر . وقد احتاج الصبي إلى أيام وأيام ليعود نفسه هذا الصوت وليسمعه دون أن يضحك منه أو يرى لصاحبه من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجِنَّة والناس .

ولم يبق فى نفس الصبي من هذا الشيخ بعد أن مضت الأعوام إلا ذكرى هذا الصوت وذكرى قصتين شهد إحداهما بنفسه وتحدث إليه بالأخرى الرواة . فأما الأولى فقد كانت للصبي مع الشيخ حين تقدمت به السن وحين تقدم به الدرس وحين بدأ يسمع دروس البلاغة . فقد ذهب يحضر درس الشيخ وبمعه يفسر الجملة المشهورة فى التلخيص « لكل كلمة مع صاحبها مقام » . وما أكثر ما يقال حول هذه الجملة من كلام فى « المختصر » و « المطول » و « الأطول » وفى الشروح والحواشى والتأريز

وهى على ذلك واضحة جليلة لا تعمية فيها ولا غموض . وكان الشيخ كثيره من شيوخ الأزهر يقبل على تفسير هذه الجملة وتقرير ما يقال حولها من كلام كثير ، مجهوداً مكثوداً قد بُحَّ صوته وخارت قواه وتصيب جبينه عرفاً . وأمانة العلم كما تعرف ثقيلة جداً لا ينهض بها إلا الأقوياء ، وقليل ما هم .

فأخذ الغلام يناقش الأستاذ فى بعض ما كان يقول كدأبه مع أساتذته جميعاً ، ولكن الشيخ رد عليه فأفحمه وألجمه وملاً قلبه فى وقت واحد غيظاً وازدراء وخبجلاً . قال الشيخ للغلام

دع عنك هذا يا بنى ؛ فإنك لا تحسنه وإنما تحسن هذه القشور التى تُقبل عليها فى الضحى ، فأما اللباب فلم تخلق له ولم يخلق لك . وضحك الشيخ وتضاحك الطلاب ، واستحيا الغلام أن يقوم عن الدرس قبل تمامه ، فأقام على مضض حتى انصرف مع غيره من الطلاب . وكانت القشور التى عرض بها الشيخ .والتي كان الغلام يقبل عليها فى الضحى دروس الأدب وكتاب الكامل للمبرد خاصة . ومنذ ذلك الوقت سقط الشيخ فى نفس الغلام وبغض إليها . وقد كان الغلام يحبه ويكبره . وأصبح الشيخ موضوعاً من موضوعات الفكاهة التى كان الغلام يلهو بها مع أتراه فى الضحى قبل درس القشور ، وعند الظهر بعد درس القشور . وجاءت القصة الأخرى من قصصى الشيخ ، فلم تزد الغلام إلا عبثاً به وتندراً عليه وتفكهاً مع أتراه بقول الشعر فيه . ومع ذلك فقد كانت قصة سيرة لا غرابة فيها . ولكن أى شىء أيسر من ضحك الشباب !

كان للشيخ ابن لا يظهر عليه الذكاء ولا يدل شىء من أمره على أنه قد خلق لطلب العلم . ولكنه مع ذلك كان يطلب العلم ، وكان يعيش مع أبيه فى غرفته هادئاً كأبيه ، صامتاً كأبيه ، حسن الحوار كأبيه . وأقبل ذات يوم أو ذات ليلة على أبيه نفر من أصدقائه يزورونه ، فطلب القهوة إلى ابنه وقدمت القهوة بعد لحظات ، وأقبل الشيوخ على فنانجيمهم فى شره إليها كما عادتهم ،

فعبثوا فيها أو قل مضوها مصصاً طويلاً له صوت طويل ، ولكنهم لم يكادوا يبلغون حلوقهم بما مضوا حتى رده حلوهم رداً عنيفاً ، وإذا هم جميعاً يسعلون وينحنون متحرّفين لذلك يريدون أن يبرئوا حلوقهم مما أصابها ، وقد جرت القهوة واللعباب على لحاهم وصدورهم وهم يسعلون ويضطربون اضطراباً شديداً ؛ ذلك لأنهم لم يشربوا قهوة البن ، وإنما شربوا قهوة النشوق . أخطأ الفتى علبة البن ، وأخذ مكانها علبة النشوق .

وكانت لقصة الغلام مع الشيخ في درس البلاغة عواقبها ؛ فقد انصرف عن الشيخ إلى شيخ آخر كان مجاوراً له في الربيع ، وكانت غرفته تلي غرفة الشيخ الموسوس ، وكان شافعيّاً مثله ولكنه لم يكن موسوساً . وكان أهدأ الناس وأرزن الناس وأطيبهم قلباً وأقلهم كلاماً . لم يسمع الصبي صوته إلا حين كان يلقي السلام عليه أو على من يمر به من أصحابه . فلما انصرف الغلام عن درس الشيخ الأول ذهب من غده إلى درس الشيخ الثاني ، وكان يلقي درسه في تلك القبة من جامع محمد بك أبي الذهب ، وكان الغلام يعرف هذا الجامع حتى المعرفة . سمع دروس النحو والمنطق في جميع أماكنه وزواياه ، وكانت له قصص قد نلّم بها في هذا الحديث .

فأقبل الغلام إذن مع الظهر مُنصّرّفه من درس القشور ، فصعد هذه الدرجات التي كان يألفها ، ثم خلع حذاءه ومشى في هذا

الممر بين حلقتي من حلقات الدرس طالما عرفهما ، وتخطى عتبة القبة وجلس في حلقة الشيخ ، فلم ينتظر إلا قليلاً ، حتى أقبل الشيخ هادئاً كعادته ، فحمد الله وصلى على نبيه وأخذ يقرأ قول المؤلف في تنكير المبتدأ وفي نكته ومزيائه . ثم مضى حتى وصل إلى استشهاد المؤلف بالآية الكريمة « ورِضْوَانٌ من الله أكبر » فجعل يعلل مع المؤلف والشارح والمحشى والمقرر تنكير الرضوان بكلام لم يعجب الغلام ولم يقع من نفسه ، ولم يستطع الغلام أن يصبر على ما كان يسمع ، فأخذ يجادل الشيخ ، ولكنه لم يكذب بفعل حتى قطع الشيخ عليه كلامه وقال في صوته الهادئ المطمن : « اسكت يا بني فتح الله عليك وغفر لك ووقانا شرك وشرك أمثالك . اتق الله فينا ولا تشاركنا في هذا الدرس فتفسد علينا أمرنا ، وانصرف إلى ما أنت فيه من هذه القشور الضالة المضلة التي تُقبل عليها في الضحى » .

وتصاحك الطلاب ، ووجم الغلام ، واستأنف الشيخ قراءته وتفسيره في صوته الهادئ المطمن الرزين . وأقام الغلام على مضض حتى انصرف الطلاب ، فانصرف معهم ثائراً مجزواً وقد أعرض عن دروس البلاغة وأنفق بقية عامه يخرج من درس القشور إذا كان الظهر فيمضي إلى دار الكتب في باب الخلق فيمكث فيها إلى أن يحين إغلاقها قبيل الغروب .

أكان اتفاق الشيخين على ردّ الغلام عن علمهما مصادفة

أم كان أمراً مدبراً؟ لم يعرف الغلام ذلك . ولكن ذكرى هاتين القصتين الآن تعجل للحوادث دعا إليه الاستطراد . فالخير أن نعود إلى الربع ومن كان فيه ، وما كان فيه ، حين أقبل عليه الصبي لأول عهده بطلب العلم .

وفي زاوية الربع من يمين كانت تقوم غرفة سكنتها أسرة لم يعرف الصبي قط كيف صعدت إلى هذا الربع ، ولا كيف استقرت فيه ، يأخذها العلم وطلابه من جانبيها ، وكان حقها أن تستقر في الطبقة السفلى بين سكان هذه الطبقة من الباعة والعمال . ولكنها صعدت إلى حيث العلم وطلابه وأساتذته ، فأقامت بين هذا كله لم تؤذ أحداً ولم يؤذها أحد ، ولم يتصل الود أو لم تتصل المعرفة بينها وبين أحد .

كانت غريبة في هذا الربع . كما كانت غريبة في القاهرة . فقد كانت لمجتها إذا تحدثت تدل على أنها قد هبطت من الصعيد ، بل من أقصى الصعيد . ولعل غربتها هي التي صعدت بها إلى هذه الطبقة الثانية من الربع ولم تقف بها عند الطبقة الأولى . فقد كان سكان الطبقة الثانية كلهم غرباء ، شيخ من الإسكندرية وفارسيان وطلاب وأساتذة قد أقبلوا من أقطار مصر على اختلافها . فلا بأس على هذه الأسرة الغريبة أن تقيم بين هؤلاء الغرباء . فأما الطبقة الأولى من الربع فقد كان العمال والباعة الذين يسكنونها جميعاً من أهل القاهرة أو من الذين بعد عهدهم بها حتى أصبحوا من أهلها وورثوا لغتها وعاداتها .

كانت هذه الأسرة تتألف من عضوين اثنين : امرأة قد تقدمت بها السن حتى جاوزت الستين ، وأصبح من العسير بل من المستحيل أن تتخذ لفة القاهرة وتصطنع عاداتها ، وابن لها شاب قد نيف على العشرين ولم يبلغ الثلاثين بعد ، فهو حرى إذا مضى عليه الزمن أن بلوى لسانه بلغة القاهرة ، وأن يأخذ نفسه بعادات أهلها ، وكانت الأم لا تصنع شيئاً كما ينبغي لأمثالها حين يتركن الصعيد ويقرن في غرفة من غرفات هذا الربع في مدينة القاهرة .

لم تكن تصنع شيئاً لتكسب حياتها ، إنما قسم الأمر بينها وبين ابنها قسمة عدلاً ، فعلى الفتى أن يجتهد في الشارع طول النهار ويعود بالقوت مع الليل ، وعلى أمه أن تعنى بالغرفة وتبهي الطعام لابنها ولنفسها .

وكان الفتى بائعاً متجولاً ، يصنع ما يبيعه في غرفته ، يبدأ في صنعه مع الصبح ، فإذا ارتفع الضمحي وكاد النهار ينتصف خرج إلى الشارع بما أعد ، فجعل يتغنى به متنقلاً متجولاً في حيث تدفعه قدماه إليه من الشوارع والحارات ، يبعد حيناً ويقرب حيناً ، ولكنه لا يعود حتى يبيع ما يحمل . وكان يحمل في الشتاء هذا اللون من ألوان الحلوى الذي يسمى « غزل البنات » ، وكان يحمل في الصيف هذا اللون الآخر من ألوان الحلوى الذي كان يسمى مرة « جيلاني » ومرة « دندومة » .

وكان الفتى يصنع هذا اللون أو ذلك فرحاً مرحاً متغنياً أو متكلفاً للفرح والمرح والغناء . فإذا أتم صناعته حملها ومر أمام غرفتنا هادئاً صامتاً مستأنياً ، حتى إذا انحرف إلى السلم وهبط منه إلى الحارة ارتفع صوته فجأة بغناء حلو رقيق ، يمدح فيه ما كان يحمل من طعام ، ويدعو إليه طلابه من الصبية والنساء . وكان الفتى كان يستبيح لنفسه الغناء ما أقام في غرفته ، ويحظر على نفسه الغناء إذا مر بغرفات أهل الوقار والجد من العلماء والطلاب . فإذا هبط إلى الطريق العام استباح لنفسه ما يستبيح لها الباعة جميعاً ، فغنى طعامه ودعا الناس إليه . وكان الفتى كان يشعر في نفسه بأن ليس هناك خير في أن يتغنى ما كان يحمل من حلوى أو يدعو إليه أمام هذه الغرفات ، فأهلها أصحاب جد لا يحفلون بالحلوى ولا ينشطون لها ، وإنما يحفلون بالعلم وينشطون للعلم . وأكبر الظن أن الفتى كان مخطئاً في هذا التقدير . فقد كان بين أهل الربع من غدير شك من كانوا يحبون غنساءه ويتشوقون إلى غزل البنات أو إلى الدندومة ، ويودون أن يقف وأن يكونوا أول من يفتح عليه ، ولكنهم لم يكونوا يفعلون ، يمتنعهم من ذلك الحياء حيناً وضيق ذات اليد أحياناً .

وفي ذات يوم انقطع غناء الفتى وانقطع صوت أدواته التي كان يحرك بها ألوان الحلوى . وقام مقام هذا الغناء وهذه الأصوات

غناء آخر وأصوات أخرى ، فقد جعل نسوة يختلفن إلى هذه
الغرفة متصاحبات متصاحكات أول الأمر ، ثم مزغردات متغنيات
ناقرات على الطبول ، حتى أصبحت حياة الطلاب والعلماء
عناء ثقيلاً . ولكن حياة الصبي رقت لذلك وراقت وامتلأت لذة
وجوراً . ذكر ريفه بهذه الطبول وهذه الزغاريد وهذا الغناء ، وقد كان
يحب هذا كله أشد الحب ويمجد فيه لذة ومتاعاً لا يقلان
عما كان يجد من اللذة والمتاع حين كان يستمع لشيوعه وهم يتغنون
بما كانوا يلغون في دروسهم من علم ، وإن اختلف نوع اللذة
والمتاع اختلافاً شديداً .

ثم أضيفت إلى أصوات النساء هذه أصوات أخرى ساعة
من نهار ، أصوات الحمالين الذين أخذوا يصعدون سلم الربع
ويزحمنون طريقه بما كانوا يحملون إلى هذه الغرفة من متاع وهم
يتصايحون ويتشائمون جادين مرة ومازحين مرة أخرى ، والنساء
يلقيهن ويتلقين أمتعهن بنقر الطبول ورفع الزغاريد وإرسال الغناء .
وربما ابتهجت امرأة من أهل الطبقة السفلى لبعض ما كانت تسمع
وترى ، فذكرت يوم زفافها أو استحضرته يوم زفاف ابنها أو بنتها
الذي لم يأت بعد ، وإذا هي تزغرد مع المزغردات وقد تغنى مع
الغنيات على غير معرفة بأصحاب العرس وعلى غير مودة بينها
وبينهم . ولكن الفرح كثير الشيوخ كما أن الحزن كثير الشيوخ ،
ما أسرع ما تنتقل به العدوى بين المصريين !

وقد جاء اليوم الأكبر يوم الخميس بعد أن لقي العلماء وطلاب
العلم من هذا الاضطراب شراً عظيماً أزعج أصحاب الجند منهم عن
غرفاتهم وعن الربع كله ، فذهبوا يلتمسون الهدوء الذي يحتاج
إليه الدرس عند أصحابهم أو في المساجد . أقبل يوم الخميس
فاشتد الاضطراب حتى تعدى حده المألوف وتجاوز الربع إلى
الحارة ، فضرب السرادق ، وجعلت الموسيقى تعزف من العصر ،
وأقبل ناس من غير أهـل الحى فابتهجوا وطعموا وحيوا بعضهم
بعضاً واستمعوا للغناء . والصبي راibus عند نافذته لا يفوته من
هذا كله شيء ، قد نسى العلم والعلماء والأزهر وأهل الأزهر ،
ونسى طعامه وشايه وفنى في هذه الموسيقى التي كان يسميها في
القاهرة لأول مرة ، كما فنى في هذه الألوان المختلفة من الأغاني ،
أغاني الشعب في أول الليل ، وأغاني الشيخ المحترف حين
تقدم الليل .

فأما أخوه وأصحابه فقد هجروا الربع في هذا اليوم هجراً غير
جميل . وأما هو فلم يتحول عن مكانه حتى تقدم الليل ، وكاد عمي
الحاج على يخرج من غرفته فيشق الليل بصوته ويضرب الأرض
بعصاه ، ولكنه لم يفعل . ولو قد فعل لما سمع صوته أحد ولا
أحس عصاه أحد . وأين كان يقع صوته وعصاه من هذه الضوضاء
المتعقدة التي طردت النوم عن الحى كله ، وهذا صياح فظيع ينبعث
طويلاً ممتداً ، وهذه الزغاريد تعجط به وترقص حوله إن صح

أن ترقص الزغاريد ، وهذا الفرح والابتهاج يرقصان من حول الأكم
والعذاب ؛ فقد أدخل الفتى على أهله . ثم يسعى الليل هادئاً بطيئاً
رزيناً ، فيمس بيده المظلمة العريضة هذه الأشياء وهؤلاء الأحياء ،
وإذا المصابيح قد أطفئت ، وإذا الأصوات قد سكنت ، وإذا
النوم قد أقبل رقيقاً كأنه اللص فضم بين ذراعيه أهل الحى
جميعاً إلا هذا الصبي الذى لم يتحول عن نافذته ولم ينقطع تفكيره
فى هذا الأكم الطويل الممتد ، يرقص من حوله فرح عريض
مضطرب ، ولكن الصبي يعود إلى نفسه لأن صوتاً يأتيه من قريب
ينبئه بأن الليل قد انقضى وبأن الصلاة خير من النوم ، الصلاة خير
من النوم ، ولكن الصبي لم يتم من ليلته ، وهو على ذلك ينهض
ويتوضأ ، حتى إذا فرغ المؤذن من أذانه أدى الصبي صلاة
الصبح ، ثم التف فى لحافه وامتد على بساطه القديم ، وذهل عن
نفسه أو ذهلت نفسه عنه فلم تعرفه ولم يعرفها إلا حين أتى
سمى الحاج على حين ارتفع الضحى بطرق الباب طرقاتاً عنيماً ويصبح
صبيحته المعروفة : « يا هؤلاء ، يا هؤلاء ! » .

ولن يتم وصف الربيع وتصوير البيئة التى عاش فيها الصبي
لأول عهده بالقاهرة إذا لم يذكر أشخاص كانوا يقيمون فى الربيع
وكأنهم ليسوا من أهله ، وأشخاص آخرون كانوا يلعبون بالربيع
بين حين وحين وكأنهم من أهله المقيمين فيه . فنن المقيمين
النازحين ذلك الشيخ الذى تقدمت به السن حتى جاوز الخمسين ،
والذى طلب العلم جاداً فى طلبه ما استطاع والتمس الدرجة محتملاً
فى ذاتها ما أطاق ، فلم يحصل من العلم إلا قليلاً ، ولم يتقدم
إلى الدرجة إلا رد عنها فيئس ولم يياس ، وأقام جسمه فى الربيع
ونزحت نفسه عنه . استجيا أن يعود إلى بلده مخففاً فأقام فى
القاهرة وفى حيث كان يقيم أيام كان يطلب العلم جاداً مجتهداً ،
ودبر أمر أسرته فى الريف من بعيد يختطف نفسه إليها يوم الخميس
إذا أمسى ليعود إلى الربيع يوم السبت إذا أصبح . وله حظ من
ثراء وفضل من نعمة ؛ فهو يعيش بين هؤلاء الطلاب عيشة
الأغنياء من أهل الريف . قد أثت غرفته بمناع ممتاز ، وأقام
فيها مصبهاً ومسيماً لا يفارقها إلا قليلاً ، يتجسس إلى الناس
أنه يقرأ ويدرس ، وأنه قد حفظ العلم ووعى أسفاره فليس هو فى
حاجة إلى أن يختلف إلى الدروس ويسمع للشيخ . ولو قد

أسعده الحظ وواتته الأقدار لكان شيخاً مثلهم يلقي الدروس ويختلف إليه التلاميذ ؛ فقد صحب أكثرهم حين كانوا طلاباً ، واستمع معهم للشيخ الإيباني وزار معهم الشيخ الأشموني ، ولكن الحظ وفي لهم وأخلفه ، فأصبحوا أساتذة وظل هو في هذه المنزلة بين المنزلتين ، منزلة الطالب ومنزلة الأستاذ .

ولكنه على كل حال قد اتخذ أكثر خصال الأساتذة ؛ فهو لا يشارك أصدقاءه الشباب في درس ولا يقرأ معهم كتاباً ، وإنما يلتقاهم بين حين وحين مترفعاً عليهم شيئاً ، مترفعاً بهم قليلاً ، يشهد طعامهم وشايهم ويدعوهم إلى طعامه وشايه . ويتحدث إليهم في صوت هادئ ممتلئ ومحروف مضخمة مفخمة ، ولكنه لا يتحدث إليهم في العلم وإنما يتحدث إليهم عن العلماء يعيب أكثرهم ويمدح أقلهم ، يغلو في العيب ويقصد في الثناء ، ويتحدث إليهم عن المال وعن تدبيره ، وعن مكانته بين أهل القرية وصيته بين أهل المركز وارتفاع شأنه بين أهل الإقليم ، وعن إخوته الذين يشرفون على الحرث والزرع ، وأخيه النابه النجيب الذي عظم نصيبه من الذكاء وقل نصيبه من مواتاة الحظ ، فلم يفتح الله عليه نبيل الشهادة الابتدائية على تقدم سنه حتى كاد يبلغ العشرين ؛ لا لأنه كان مقصراً أو غيبياً ، بل لأن الحظ كان يمانعه ويعاكسه . وقد قررت الأسرة أن تغالب الحظ ، وصمم الشيخ على أن يغلب الحظ على أخيه ، ويثب بهذا الفتي من الحمول إلى نباهة الذكر وارتفاع

الشأن ، فأزمع أن يدخله المدرسة الحزبية ويجعل منه ضابطاً باسلاً تزدان كنفه لا بالنجمة بل بالنجمتين بل بالنجوم .

ولكن الحظ كان أقوى من الشيخ ومن أسرته ، فرد الفتي عن المدرسة لأن هباته لم تعجب המתحيزين . والشيخ ساخط على الحظ مصمم على مغالته ، يتحدث بهذا كله حديثاً متقطعاً متصلاً ، تقطعه قرقرة الشيشة التي كان صاحب القهوة يحملها إليه وجسه النهار وآخره وحين يتقدم الليل ، والتي كان ربما أعدها لنفسه أو أعدها له خادمه الصغير ، والتي كانت تبهر هؤلاء الطلاب وتثير في نفوسهم شيئاً من الإعجاب بثراته يجارح ازديادهم لجهله وتندرهم بغيبائه .

وما ينسى الصبي أن هذا الشيخ الغني أراد ذات يوم أن يتخفف من بعض أثاثه ويشترى خيراً منه وأرق ، فعرض قديمه على هؤلاء الطلاب ، فكلهم نكل عن الشراء إلا أنما الصبي ، فإنه اشترى منه دولاباً بأتلف من قطعتين تقوم إحداها على الأخرى ، فأما القطعة السفلى فقد كان لها بابان مُصمَّتان ، وقد خصص أعلاها لثياب الشيخ الفتي وخصص أسفلها لكتبه التي لم تجلد والتي لا يحسن أن ترى ، وخصص جزء منه لما كان الشيخ يحرص على ادخاره لنفسه من طيب الطعام . وكان في أعلى هذه القطعة السفلى درجان خصصهما الشيخ الفتي لأوراقه المنتثرة ولتقوده حين كانت تصل إليه أول الشهر ؛ فكان يضعها

في أحد هذين الدينين ويأخذ منها بمقدار بين يوم ويوم ، وقد حفظ مفتاحيهما في جيبه . وأما القطعة العليا فكان لها بابان زجاجيان وقد خصصت للكتب المجلدة التي يبعث منظرها . في النفوس بهجة ورضا .

وقد غالى الشيخ بدولابه هذا وساوهم في ثمنه حتى تجاوز به الجنيه ؛ لأنه كان من خشب البندق ، واشتره الشيخ الفتي على ذلك . ومن المحقق أن شراءه قد جر على الشيخ الفتي وعلى أخيه أعباء ثقالا . فلم يكن بد من دفع هذا الثمن أقساطاً ، ومن أن تقطع هذه الأقساط من وظيفة الشهر الضئيلة التي كانت تأتي من القرية . ثم لم يكن بد من أن تشتري الكتب ومن أن تجلد وترص لتبدو أعقابها مزدانة باسم الشيخ الفتي من وراء الزجاج . وكان هذا كله يقطع من وظيفة الشهر ويضطر الطالبين إلى أن يقتترا على أنفسهما في الرزق . ثم عجزت وظيفة الشهر عن أن تنهض بهذه الأعباء ، فبدأت الاستئدانة ، وقل ما كان يودع في الدرج من نقود ، وكثر الإلحاح على الشيخ الوالد في أن يزيد الوظيفة أو يضيف إليها شيئاً بين حين وحين .

ولكن شراء هذا الدولار قد رفه على الصبي وأثار في نفسه كثيراً من الفرح والبهجة ؛ فقد كان للشيخ الفتي صندوق طويل عميق عرفه الصبي في أثناء طفولته حين كانت أمه تحفظ فيه ثيابها ونفائس هذه الثياب خاصة . وكان لهذا الصندوق

غطاء مجوف قليلا يرفع فيتكشف عن عمق . كان الصبي يراه عظيماً ، ويتكشف عن درجين خفيين كانت أمه تحفظ فيهما حلها حين كان لها حلى . ثم افتقد الصبي هذا الصندوق في مكانه من الدار ذات يوم فلم يجده ، وكان كثيراً ما يلعب عنده مع أخواته ، وكان كثيراً ما يجلس عليه متربعا وتجلس أخواته بين يديه على الأرض متربات وهو يقص عليهن أحاديثه ويسمع منهن أحاديثهن .

افتقد الصبي هذا الصندوق ذات يوم فلم يجده لأنه حمل إلى النيل حيث أودع سفينة ذاهبة إلى القاهرة ، وهناك تلقاه الفتي الشيخ فحفظ فيه ثيابه وكتبه التي لم يكن يجد لها مستودعاً . وقد حزن الصبي على هذا الصندوق حزناً شديداً ، واضطر إلى أن يجلس مكانه متربعا على الأرض ليتحدث إلى أخواته ويسمع منهن .

فلما انتقل الصبي إلى القاهرة كان شديد الشوق إلى أن يمس الصندوق ويجلس عليه ويمسح بيده الصغيرة خشبه الأملس . ولكن الصندوق كان بعيداً من مجاسه ، قد وضع في زاوية من زوايا الغرفة ، فلم يكن ذهاب الصبي إليه سهلاً ولا ميسوراً . فلما اشترى الدولار وانتقلت إليه ثياب الشيخ الفتي وكتبه ، سقط أمر الصندوق ، فانتقل من مكانه في الغرفة إلى مكان مهممل في الدهليز يكون عن شمال الصبي إذا دخل ، وقيل للصبي : ضع في هذا

الصندوق ثيابك وما قد يكون لك من كتب إن اشتريت كتاباً . ومنذ ذلك الوقت هجر الصبي مجلسه ذاك من الغرفة أثناء النهار واستحمياً أن يجلس على الصندوق فيضحك منه من يراه ، ولكنه جلس إلى جانبه مما يلي عتبة الغرفة مسنداً ظهره إلى الحائط معتمداً بيده على الصندوق ، متحياً فرصة إن أتحت له لينهض فيجلس على الصندوق ويداعبه . وقد يرفع غطاءه ويضع يده في هذا الدرج ثم في ذاك ، ولكنه لم يكن يجد فيهما شيئاً ، وربما انحنى على ثيابه القليلة التي كانت ملقاة في أعماق هذا الصندوق يقلبها مستمتعاً بذلك كأنه يملك شيئاً ويتخذ له حرزاً لا يشاركه فيه غيره . ولكن الأيام قد مضت وتبعها الأيام وامتلاً هذا الصندوق كتاباً .

وشخص آخر كان يقيم في الربيع نازحاً عنه غريباً بين أهله وإن وصلت القرابة بينه وبين بعض هؤلاء الطلاب ، ووصل الود الخالص بينه وبينهم جميعاً . كان قصير النظر ، لا يكاد يبصر إلا عن قرب شديد ، وكان طويل الجسم ، طويل الإقامة على طلب العلم في الأزهر ، طويل السكنى في هذا الربيع ، قد جد في طلب العلم ما استطاع ، وجد العلم في الهرب منه ما استطاع . فلم يكن غريباً بين الطلاب وحدهم وإنما كان غريباً بين الكتب التي كانت تملأ غرفته أيضاً . شهد الدروس وسمع من الشيوخ ، فلما استأيس من هذا كله قبع في غرفته لا يكاد يتنقل

منها إلا إلى هذه الغرفة أو تلك من غرفات الربيع ليتحدث إلى هذا الصديق أو ذاك . وقد كان أصدقاؤه منصرفين إلى علمهم ودرهمهم فانقطع حتى عن زيارتهم . ولكنه كان طيب القلب ، سمح النفس ، عذب الحديث ، شديد الوفاء ، سريعاً إلى معونة أصدقاؤه ، منتظراً بهم أن تعسر الأداء .

فكانوا هم يذكرونه لأنهم كانوا يحبونه ، وكانوا هم يزورونه لأنهم كانوا يستمتعون بحديثه ويجدون اللذة في محضره . ولم تطاوعه نفسه على فراق القاهرة ولا على ترك الربيع . على أنه كان مستيشاً من العلم والدرجة ، فأقام حيث كان يدبر أمره أو يدبر له أمره وهو مقيم في القاهرة ، لا هو بالطالب ولا هو بالفلاح ولكنه شيء بين ذلك . وما أكثر ما كان يزوره أقاربه وأهل قريته فيحملون إليه من طيبات الريف ما يسرع فيدعو أصدقاؤه إلى المشاركة فيه ، أو يسرع فيحمله إليهم في غرفاتهم . وقد أقام هؤلاء الطلاب ما أقاموا في الربيع لا يذكرن هذا الصديق إلا محبين له مثنين عليه . ثم تفرقوا وأخذ كل منهم طريقه ، وانقطعت عنهم أخباره ، ولكنهم ظلوا لا يذكرونه إلا أثنوا عليه .

وشخص آخر كان يقيم في الربيع ، ولكنه لم يكن يسكن فيه غرفة بعينها ولا يستقر منه في مكان بعينه ، ولم يكن لقاءه سهلاً ولا يتحدث إليه مسوراً ، وإنما كان هؤلاء الشباب يتحدثون

عنه بين حين وحين حديثاً مخطوفاً سريعاً مهموساً يتبعه شيء من الضحك السريع الخفيف الذي كان يقطعه التحفظ والحياء .

وكان هذا الشخص يزور ولا يزار ، وكان لا يزور وحده وإنما يزور ومعه شخص آخر . وكان لا يزور في النهار ولا في أول الليل ، ولا يزور في البقظة وإنما يزور في أوساط الليل وفي أثناء النوم العميق .

وكانت زيارته حلوة البدء مرة العاقبة . وكانت زيارته تكلف اللذين يلم بهم عناء ثقيلاً ، ربما آذاهم في أنفسهم ، ولكنه كان يؤذيهم في علمهم وفي أجسامهم دائماً ، وكان يعرضهم لليلة أحياناً وللزكام في كثير من الوقت ولا سيما في الشتاء .

وكان هذا الشخص يسمى بين هؤلاء الشباب أبا طرطور .

ولم يكن هذا الشخص غير الشيطان الذي كان يلم بأحدهم إذا جنة الليل وشمله النوم ، فإذا انصرف عنه أفاق الفتى مذعوراً ضيق النفس متأثماً متحرجاً ، وانتظر حتى يدنو الفجر ، فهب من فراشه عجباً وجلاً حريصاً على أن يطهر ليدرك درس الفجر . فأما في الصيف فقد كان الأمر يسيراً محتملاً ، وأى شيء أيسر وأحب من أن يغمس الفتى نفسه في الماء البارد في هذا المغطس أو ذاك من هذا المسجد أو ذاك ، أو أن يصب الفتى على جسمه مقداراً من الماء البارد يعم جسمه ويحقق شرائط الغسل كما فرضتها كتب الفقه ! ولكن الجهد كل الجهد والعذاب كل العذاب حين يلم

أبو طرطور بالفتى في ليلة من ليالي الشتاء . هنالك لا يجد الفتى الوقت لإسخان الماء ، ولا يجد الوقت - وقد لا يجد النقد - للذهاب إلى حمام من هذه الحمامات العامة . وحسب أبي طرطور أن يضيع على الفتى وقته فأما أن يضيع عليه نقده فلا .

ولا بد من الذهاب إلى الأزهر ، ولا بد من الاستماع إلى الدرس ، ولا بد من أن يكون الفتى طاهر النفس والجسم معاً . وإذاً فهو الماء البارد يصب على الجسم في البيت صبيحاً سريعاً ثم الخروج إلى الأزهر . والحير أن يغمس الفتى نفسه في مغطس من مغاطس المساجد ؛ ذلك لا يكلفه شيئاً إلا البرد والرعدة . فالماء في البيت يشتري ، وما ينبغي أن يستنفد في غير الشرب إلا أن تقضى بذلك الضرورة . ولا بد من أن تحمل الضرورة نفسها على الاقتصاد .

وكان أبو طرطور ملحاً في زيارته على هؤلاء الشباب ، كأنما أقام في أعلى سلم الربيع مخفياً في تلك الزاوية حيث لا يسمع ما كان الطلاب يدرسونه من العلم ويقروونه من الكتب . فإذا انصرف الطلاب عن علمهم أو كتبهم دخلوا إلى ذلك الشيخ الذي كان يسكن أقصى الربيع من شمال أو ذلك الكهل الذي كان يسكن أقصى الربيع من يمين ، وثب أبو طرطور فدخل عليهم غرفتهم من حيث لا يرونه ولا يسمعونه ولا يحسونه ، ثم انسل فضى حتى ركب كتفى الشيخ أو كتفى الكهل أو تقمصه .

وتحدث بصوته ولسانه إلى هؤلاء الشبان ، فأثار في نفوسهم ورهوسهم هذه الخواطر المنكرة التي كانت تصرفهم عنها الكتب . فإذا تفرقوا عن شيخهم أو كهلمهم ، وأووا إلى مضاجعهم وأغرقتوا في نومهم ، كان أبو طرطور قد اختار منهم فريسته فزاره زيارته المنكرة الآتمة .

وربما استخفى أبو طرطور في زاويته تلك من أعلى السلم ، حتى إذا صعدت تلك الفتاة من الطبقة السفلى إلى الطبقة العليا تحمل إلى أحد هؤلاء الطلاب ثيابه غسلية نظيفة ، أو تأخذ من أحد هؤلاء الطلاب ثيابه لتغسلها وتنظفها ، اعترضها أبو طرطور فسأيرها لا يرى ولا يُسمع ولا يحس ، فلا تكاد تلخصل على أحد هؤلاء الطلاب ، حتى يستحيل أبو طرطور نظرة تُلقي من طرف هذه الفتاة ، أو كلمة تجرى على لسانها ، أو ابتسامة ترتسم على شفتيها أو حركة تنبعث من أحد أعضائها .

ثم تنصرف الفتاة وينصرف معها أبو طرطور لم ير ولم يسمع ولم يحس ، ولكنه مع ذلك قد ضرب للفتى موعداً حين يجنه الليل ويشمله النوم . وربما أمعن أبو طرطور في البراعة وغلا في المكر والكيد ، فلم يكلف نفسه الصعود إلى أعلى السلم ، وإنما اندس في الطبقة السفلى ، واختلط بأولئك النساء اللاتي كن يختصمن أحياناً ويتضحكن أحياناً ، ويتحدثن بأصوات مرتفعة يشكّلنها أشكالاً مختلفة على كل حال ، فيستحيل أبو طرطور

إلى جوهر لطيف يجري في صوت من هذه الأصوات ، أو حركة من هذه الحركات ، ويرتفع هذا الصوت أو هذه الحركة بأبي طرطور أو يرتفع هو بهذا الصوت أو بهذه الحركة ، حتى يبلغ الفتى في الطبقة العليا ، وينصرف عنه لوقته وقد أُلقي في نفسه شراً خفياً وضرب له موعداً حين يجنه الليل ويشمله النوم .

وكذلك لم تكن حياة هؤلاء الطلاب في ربعمهم وفي أزهرهم صفواً كلها ، ولا علماً كلها ، ولم تكن حياة الصبي بين هؤلاء الطلاب صفواً خالصاً ، ولا علماً خالصاً ، وإنما كان يلهم أبو طرطور فيحمل إليهم عذاباً حلواً مرّاً ، ويسمع الصبي من أحاديثهم ما كان يدعو إلى التفكير .

واحداً ، وكان ذلك يكلفه عناء كثيراً .

وكان إلى هنا غريب الصوت إذا تحدث . كان صوته مهذباً
مكسراً يقطع الحروف تقطيعاً ، ويتراكم مع ذلك بعضه فوق
بعض ، وتنفجر شفتاه عن كلامه أكثر مما ينبغي ، فلا يكاد يسمعه
السماع إلا حتى يضحك ، ولا يكاد يمتص في الحديث معه حتى
يملك فتور صوته وتكسره وانفراج الشفتين عنه .

ولم يكد يظفر بدرجة العالمية حتى أسرع إلى شارة العلماء
«العلماها» وليس «الفراجية» متعجلاً لئسها ، ولم يكن العلماء يتخذون
عنده الشارة إلا بعد أن يبعد عنهم بالدرجة وتعرف لهم في العلم
سابقة وقدمة تيسر لهم حياتهم المادية شيئاً .

ولكن صاحبنا أسرع إلى «الفراجية» فلبسها وأضحك منه أصحابه
من الطلاب وأساتذته من الشيوخ . وزادهم ضحكاً منه وتندراً عليه
أنه كان يلبس الفراجية ويمشي حافياً في نعاله ، إن صح هذا
العبير لا يتخذ الحوارب عجزاً منه عنها أو زهداً منه فيها . وكان
إذا مشى في الشارع تناقل وتباطأ واصطنع وقار العلماء وجلال
العلم ، فإذا خطا عتبة الأزهر ذهب عنه وقاره وفارقته أناته ولم
يمش إلا مهرولاً .

وقد عرف الصبي رجليه قبل أن يسمع صوته ؛ فقد أقبل على
مكان درسه لأول مرة مهرولاً كما تعود أن يمشى ، فغمر بالصبي
وكاد يسقط من عثرته ، ومست رجلاه العاريتان اللتان خشن

على هذا الربيع أقبل الصبي ، وفي هذه البيثة عاش . وأكبر
الظن أن ما اكتسب فيها من العلم بالحياة وشؤونها والأحياء وأخلاقهم
لم يكن أقل خطراً مما اكتسبه في بيئته الأزهرية من العلم بالعلم
والنحو والمنطق والتوحيد .

ولم يكد الصبي يستقر في ربه يومين أو ثلاثة ، حتى أسلمه
أخوه إلى أستاذ كان قد ظفر بالدرجة أثناء الصيف ، وكان
سيبدأ الدرس ويجلس مجلس الأستاذ من صغار التلاميذ لأول
مرة في حياته . وكان قد بلغ الأربعين أو كاد يبلغها . وكان
معروفاً بالتفوق مشهوراً بالذكاء ، قد غالب الحظ فغلبه ، وإن
يكن انتصاره على الحظ ملائماً لحقه في الفوز ؛ فقد ظفر بالدرجة
الثانية ، وعُدَّ هذا انتصاراً ، وقصر عن الدرجة الأولى وعُدَّ هذا
ظلماً . وكان ذكائه مقصوراً على العلم ، فإذا تجاوزته إلى الحياة
العملية فقد كان إلى السذاجة أدنى منه إلى أي شيء آخر .
وكان يعرف بين أصدقائه الطلاب والعلماء بأنه يحب لبعض الناس
المادية مهالك عليها ، يفرض عليه مزاجه ذلك ولا يفرضه عليه
رذيلة أو فساد خلق مألوف . وكان كثير الأكل قد شهر بال
يهالك على اللحم ولا يستطيع أن ينقطع عن أكله والإسراف

جلدهما يد الصبي فكادت تقطع . ثم مضى حتى جلس وأسند رأسه مرة ظهره إلى ذلك العمود التي تمنى أن يسند ظهره إليه معلماً .

وكان كثيره من أقرانه في ذلك الوقت بارعاً في اللغة الأزهرية كل البراعة : ساخطاً على طريقة تعليمها سخطاً شديداً قد بلغت تعاليم الأستاذ الإمام قلبه فأثرت فيه ، ولكنها لم تملأ إلى أعماقه ؛ فلم يكن مجدداً خالصاً ولا محافظاً خالصاً ، وإنما شيئاً بين ذلك . وكان هذا يكفي لينظر الشيوخ إليه شزراً وليلجس في شيء من الريبة والإشفاق . ولم يكده يبدأ درسه الأول في

حتى أعلن إلى تلاميذه أنه لن يقرأ لهم كتاب « مرقى الفلاح » على نور الإيضاح » كما تعود الشيوخ أن يقرءوا للتلاميذ المبتدئين ولكنه سيعلّمهم الفقه في غير كتاب بمقدار ما في « مرقى الفلاح » فعليهم إذا أن يسمعوا منه ويفهموا عنه . وأن يكتبوا ما يحتاجون إلى كتابته من المذكرات . ثم أخذ في درسه فكان قيماً جداً وسار هذه السيرة في درس النحو ؛ فلم يقرأ للتلاميذ « الكفراوى » ، ولم يعلمهم الأوجه السبعة لقراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها ، وإنما هيأهم للنحو تهية حسنة ، وعرفهم الكلمة والنحو والاسم والفعل والخرف ؛ فكان درسه سهلاً منزهاً أيضاً .

وسئل الصبي أثناء شأى المعسر عما سمع من أستاذه في النحو ، فلما أعاد على أخيه وأصحابه ما سمع رضيت الجماعاً الشيخ وعن منهجه وأقرت طريقته في التعليم . وجعل

الطالب إلى هذين الدرسين لا يتجاوزهما أياماً لا يذكر عددهما ، ولكنه كان يسأل نفسه متى ينتسب إلى الأزهر ويصبح طالباً لها في سجلاته ؛ فلم يكن في هذه الأيام إلا صبيّاً يستمع إلى ما بين الدرسين استماعاً منظماً محتوماً ، ويستمع إلى درس الحديث الذي كان يلقي بعد صلاة الفجر لا لشيء إلا لأنه كان ينتظر أن يفرغ أخوه من درس الأصول وأن يحين الوقت الذي يبدأ فيه درس الفقه .

وقد أقبل اليوم المشهود ، فأنبئ الصبي بعد درس الفقه أنه سيذهب إلى الامتحان في حفظ القرآن توطئة لانتسابه إلى الأزهر . ولم يكن الصبي قد أنبئ بذلك من قبل ، فلم يتهيأ لهذا الامتحان . ولو قد أنبئ به لقرأ القرآن على نفسه مرة أو مرتين قبل ذلك اليوم ، ولكنه لم يفكر في تلاوة القرآن منذ وصل إلى القاهرة . فلما أنبئ بأنه سيمتحن بعد ساعة خفق قلبه وجلا ، وسعى إلى مكان الامتحان في زاوية العميان خائفاً أشد الخوف مضطرب النفس أشد الاضطراب ، ولكنه لم يكده يدنو من الممتحنين حتى ذهب عنه الوجع فجأة ، وامتلأ قلبه حسرة وألماً ، واثارت في نفسه خواطر لا ذعة لم ينسها قط ؛ فقد انتظر أن يفرغ الممتحن من الطالب الذي كان أمامهما ، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التي وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقع : « أقبل يا أعمى » .

ولولا أن أخاه أخذ بذراعه فأنهضه في غير رفق وقاده إلى
المتحنيين في غير كلام ، لما صدق أن هذه الدعوة قد سبغت
إليه ؛ فقد كان تعود من أهله كثيراً من الرفق به وتجنباً للذم
هذه الآفة بمحضه . وكان يقدر ذلك وإن كان لم ينس قط أنه
ولم يشغل قط عن ذكرها . ومع ذلك فقد جلس أمام المتحنيين
وطلب إليه أن يقرأ سورة الكهف ، فلم يكذب بمضى في الآيات
الأولى منها حتى طلب إليه أن يقرأ سورة العنكبوت ، فلم يكذب
بمضى في الآيات الأولى منها حتى قال له أحد المتحنيين
« انصرف يا أعمى فتح الله عليك » .

وقد دهش الصبي لهذا الامتحان الذي لا يصور شيئاً ولا يهتد
على حفظ . وقد كان ينتظر على أقل تقدير أن تمتحنه اللجنة على
نحو ما كان يمتحنه أبوه الشيخ . ولكنه انصرف راضياً عن نجاحه
ساخطاً على ممتحنه ، محتقراً لامتحانها . ولم يخرج من دار
العميان قبل أن يعطف به أخوه على بعض أركانها ، فتلقاه هناك
أحد القراشين ، أو أحد « المشدين » بلغة ذلك الوقت ، فأخذ
ذراعه اليمنى ، وأدار حول معصمه سواراً من الخيط جمع طرفي
بقطعة محتومة من الرصاص ، وقال له : انصرف فتح الله عليك
ولم يفهم الصبي لهذا السوار معنى ، ولكن أخاه أنبأه بأن
السوار سيظل حول معصمه أسبوعاً كاملاً حتى يمر أمام الطبيب
الذي سيتمحن صحته ويقدر سنه ويطعمه التطعيم الواقي من الجلد.

وود كان الصبي خليقاً أن يبتهج بهذا السوار الجديدي الذي كان
يهدل على أنه مرشح للانتساب إلى الأزهر ، قد جاز المرحلة الأولى من
مراحله ، لولا أنه ظل مشغولاً عن السوار بدعوة الممتحن له وصرفه
إياه . وأنفق أسبوعه كما تعود أن ينفق أيامه ، مستيقظاً على صوت
صبي الحاج على ، ذاهباً إلى الأزهر مع الفجر ، عائداً منه بعد درس
الغقه ، ثم ذاهباً إلى الأزهر مع الظهر ، ثم راجعاً منه بعد درس
النحو ، ثم مقيماً في مجلسه ذلك ، فثاماً في مجلسه ذلك ، فغادياً على
الأزهر حين يسمع نداء المؤذن بأن الصلاة خير من النوم .
وجاء يوم الامتحان الطبي ، فذهب إليه الصبي وفي نفسه شيء من
الإشفاق أن يدعو الطبيب كما دعاه الممتحن . ولكن الطبيب لم
يدعه لأنه لم يكن يدعو أحداً ، وإنما دفعه أخوه إلى الطبيب دفعاً ،
فأخذ ذراعه وخط فيها خطوطاً ، وقال : « خمسة عشر » ، وانتهى الأمر
عند هذا الحد . وأصبح الصبي طالباً منتسباً إلى الأزهر ، ولم
يكن قد بلغ السن التي ذكرها الطبيب والتي لم يكن بد منها
لصحة الانتساب ، وإنما كان في الثالثة عشرة من عمره ، وقد
حل السوار عن معصمه وعاد إلى غرفته وفي نفسه شك مؤلم للذي
في أمانة المتحنيين وفي صدق الطبيب .

وانتهت إلى الحل بعد ذلك دون أن يقول الصبي لأخيه شيئاً
أو أن يقول له أخوه شيئاً .

دعيت الجماعة ذات يوم إلى أن تسمر عند صديق لها سورى
لا يسكن الربيع ولا يسكن الحى . وقيلت الجماعة دعوة الصديق ،
ومضى اليوم كما تعودت الأيام أن تمضى . وذهبت الجماعة إلى
درس الأستاذ الإمام ثم عادت منه بعد صلاة العشاء ، ليتخفف
كل واحد منها بما كان يحمل من محفظته وأوراقه .

وهياً الشيخ الفتى أخاه الصبي لنومه كما كان يفعل كل ليلة ،
وانصرف عنه بعد أن أطفأ المصباح كما كان ينصرف كل ليلة .
ولكنه لم يكذب يبلغ الباب حتى كان الحزن قد غلب الصبي على
نفسه فأجهش ببكاء كظمه ما استطاع ، ولكنه وصل في أكبر
الظن إلى أذن الفتى ، فلم يغير رأيه ولم يصرفه عن سمره ، وإنما
أغلق الباب ومضى فى وجهه . وأرضى الصبي حاجة نفسه إلى
البكاء ثم عاد إليه اطمئنانه شيئاً فشيئاً ، ومثل قصته التى كان
يمثلها فى كل ليلة ، فلم يستسلم إلى النوم إلا بعد أن عاد أخوه .
ولكنه أصبح فإذا أخوه يقدم إليه بعد درس الفقه وبعد أن
أفطر ألواناً من الحلوى كان قد اشتراها له فى طريقه إلى العودة من
سمره . وقد فهم الصبي عن أخيه وفهم أخوه عنه ، فلم يقل
أحدهما لصاحبه شيئاً .

وكانت هذه الحياة شاقة على الصبي وعلى أخيه معاً . فأما
الصبي فقد كان يستقل ما كان يقدم إليه من العلم ويتشوق إلى
أن يشهد أكثر مما كان يشهد من الدروس ، ويبدأ أكثر مما
كان قد بدأ من الفنون . وكانت وحدته فى الغرفة بعد درس
النحو قد ثقلت عليه حتى لم يكن يستطيع لها احتمالاً ، وكان يريد
لو استطاع الحركة أكثر مما كان يتحرك والكلام أكثر مما كان
يتكلم . وأما أخوه فقد ثقل عليه اضطرابه إلى أن يقود الصبي
إلى الأزهر وإلى البيت مصباحاً ومسياً . وثقل عليه أيضاً أن
يترك الصبي وحده أكثر الوقت ، ولم يكن يستطيع أن يفعل
غير هذا ؛ فلم يكن من الممكن ولا من الملائم لحياته ودرسه أن
يهجر أصدقاءه ويتخلف عن دروسه ويقيم فى تلك الغرفة ملازماً
للصبي مؤنساً له .

ولم يتحدث الصبي بذات نفسه إلى أحد ، ولم يتحدث أخو
الصبي إليه بذات نفسه أيضاً . وأكبر الظن أنه تحدث بذلك
إلى أصدقائه غير مرة . ولكن المشكلة بلغت أقصاها ذات ليلة

ومضى يوم ويوم آخر ، وأخذ الشيخ الفقى كتاباً من الحاج
فيروز فقصه ونظر فيه ثم قال لأخيه وقد وضع يده على كتفه ،
واحتلاً صوته حناناً ورقياً : « لن تكون وحدك في الغرفة منذ غد ،
فسيخضّر ابن خالتك طالباً للعلم ، وستجد منه مؤنساً ورفيقاً » .

وكان ابن خالته هذا رفيق صباح ، وكان له صديقاً وعنده أثيراً ،
وكان كثيراً ما يهبط من بلدته في أعلى الإقليم لزيارة الصبي ،
فينفق معه الشهر أو الأشهر ، يختلفان معاً إلى الكتاب فيلعبان
وللى المسجد فيصليان ، ثم يعودان مع الأصيل إلى البيت فيقرآن
في كتب القصص والسمر ، أو يمضيان في ألوان من العبث
أو يخرجان للنزهة عند شجيرات التوت التي كانت تقوم على حافة
الإبراهيمية . وكانا كثيراً ما أدارا بينهما ألواناً من الأمانى والأحلام .
وكانا قد تعاهدا على أن يذهبا معاً إلى القاهرة ويطلبا العلم معاً
في الأزهر .

وكثيراً ما هبط ابن خالته من مدينته في أعلى الإقليم في آخر
الصيف وقد أعطته أمه تقوداً وأعدت له زاداً وودعته على
أنه سيذهب مع ابن خالته إلى القاهرة ليطلبها فيها العلم معاً .
ولكنه كان يشارك صديقه في الانتظار ثم في الغضب ثم في الحزن
والبكاء ؛ لأن الأسرة رأت أو لأن الشيخ الفقى رأى أن الوقت
لم يثن لذهابهما إلى القاهرة . ثم كانا يفترقان ويعود الصديق
إلى أمه محزوناً كثيراً .
فلا غرابة في أن يقع هذا الخبر من نفس الصبي موقعاً حسناً .

ولا غرابة في أن يقضى الصبي مساءه راضياً مبتهجاً لا يفكر إلا في غد . وقد أقبل الليل وبأى الغرفة بظلمته ، ولكن الصبي لم يسمع للظلمة في تلك الليلة صوتاً ولا حديثاً . وأكبر الظن أن حشرات الغرفة قد لعبت كما كانت تفعل في كل ليلة ، ولكن الصبي لم يسمع لها صوتاً ولم يحس لها حركة .
وقد أرق الصبي ليلته كلها ، ولكنه كان أرقاً فرحاً مبتهجاً ، فيه كثير من تعجل الوقت واستبطاء الصباح . وقد ذهب الصبي إلى درس الحديث فسمع صوت الشيخ وهو يتغنى بالسند والمثنى ، ولكنه لم يلق إلى الشيخ بالا ، ولم يفهم عنه شيئاً . وذهب بعد ذلك إلى درس الفقه فاستمع له لأنه لم يجد عن ذلك بدءاً ، فقد كان أخوه أوصى به الشيخ ، وكان الشيخ يجاوره وينظره ويضطره إلى أن يسمع له ويفهم عنه . ثم عاد الصبي إلى الغرفة في الضحى فأنفق وقته هادئاً قلماً .

هادئاً في ظاهر الأمر ، فقد كان يكره كل الكره أن يظهر أخوه أو أصحابه على أن شيئاً من أمره قد تغير قليلاً أو كثيراً . وقلماً في دخيلة نفسه يتعجل الوقت ويستبطن "العصر الذي سيصل فيه التطار إلى محطة القاهرة .

وقد دعا المؤذن بصلاة العصر آخر الأمر ، ولم يبق بين الصبي وابن خالته إلا هذا الوقت القصير الذي تقطع فيه عربة من عربات النقل هذه المسافة بين المحطة وبين الحى . سالكة باب

البحر فباب الشعيرة منتهية إلى هذا الباب الذي ستتعطف نحوه ، فتمر بين دخان القهوة وقرقرة الشيشة .
وهاتان قدمان تضربان أرض الربيع لا يتردد الصبي في معرفتهما ، وهذا ابن خالته يقبل فيلتي عليه سلاماً ضاحكاً ، ثم يمتنقان ضاحكين ، وهذا سائق العربة يتبعه وقد حمل ما أرسلته الأسرة إلى الطالبين من الطرّف والزاد . ومن المحقق أن العشاء سيكون دسماً هذه الليلة . وأن الأصدقاء جميعاً سيشاركون فيه ، وأن الصبيين لن يجاوا لأنفسهما وأحاديثهما إلا حين يذهب القوم ليشهدوا درس الأستاذ الإمام .
ولكن من المحقق أيضاً أن حياة الصبي قد تغيرت كلها منذ ذلك اليوم ، فذهبت عنه العزلة حتى رغب فيها أحياناً ، وكثر عليه العلم حتى ضاق به أحياناً أخرى .

الربيع ، وإنما كانت في الأزهر نفسه . فقد استراح الصبي من درس الفجر وتلبّث في غرفته حتى يدنو درس الفقه ، فكان يستمتع إذًا مع صديقه بصوت الشيخ الموسوس حين كان يقيم الصلاة في كل يوم ، بعد أن كان لا يستمتع بهذا الصوت إلا يوم الجمعة من كل أسبوع .

فإذا حان وقت الدرس خرج مع صاحبه إلى الأزهر ، فسلكا الطريق نفسها التي كان يسلكها مع أخيه ، ولكنهما يسلكان هذه الطريق متحدثين بالجد مرة وبالزلزلة مرة أخرى . وقد ينحرفان عن حارة الوطويط تلك القنطرة ، إلى شارع خان جعفر ذلك النظيف ، ويخلصان على كل حال إلى شارع سيدنا الحسين . والغريب أن الصبي تعود منذ أقبل صديقه عليه ألا يمر بمسجد سيدنا الحسين ولا يدخله إلا قرأ الفاتحة . عوده صديقه هذه العادة فدأب عليها . وقد تقدمت به السن واختلفت عليه أطوار الحياة ، وما يذكر أنه مر بمسجد سيدنا الحسين إلا قرأ في نفسه هذه السورة الكريمة من سور القرآن .

وكان أخو الصبي قد خصص له ولصاحبه مقداراً يسيراً جداً من النقد ثمناً لإفطارهما ، على أن يأخذوا بعد درس الفقه جربة الشيخ الفتي من رواق الحنفية ، وكانت أربعة أرغفة ، فياً كلان منها رغيفين إذا أفترا ويحفظان منها رغيفين للعشاء . ومع أن هذا القدار الذي خصص لهما من النقد قد كان يسيراً ضئيلاً

« وأيسر ما تغير من حياته المادية أنه هجر مجلسه من الغرفة على البساط القديم الذي بسط على الحصير البالي العتيق ، فلم يعرفه إلا حين كان يجلس للإفطار أو للعشاء ، وحين كان يأوى إلى مضجعه حين يتقدم الليل ؛ وإنما كان يقضى يومه كله أو أكثره في الأزهر ، وفيما حوله من المساجد التي كان يختلف فيها إلى بعض الدروس . فإذا عاد إلى « الربيع » لم يدخل الغرفة إلا ليتخفف من عباءته ، ثم يعود فيخرج منها ليجلس مع صاحبه على فراش ضيق من اللبد قد فرش أمامها وأخذ أكثر الطريق على المارة فلم يجلّ لهم منه إلا موضع أقدام الرجل الواحد أو الرجلين .

وفي هذا المجلس كان الصبيان يلهون بالحديث قليلاً وبالقراءة كثيراً . وقد يفرغان لما كان يجرى في الطبقة السفلى من حركة وحديث ، يسمع أحدهما ، ويرى الآخر ويفسر لصاحبه ما لا يرى .

وكذلك عرف الصبي الربيع أكثر مما كان يعرفه ، وعرف من شؤون أهله أكثر مما كان يعرف ، وسمع من أحاديثهم أكثر مما كان يسمع ، عاش جهرة بعد أن كان يعيش سرّاً . ولكن حياته الحسنة الممتعة منذ أقبل عليه صديقه لم تكن في الغرفة ولا في

لا يتجاوز القرش الواحد في كل يوم ، فقد عرفا كيف يحتالان وكيف يقتصدان ليمتا أنفسهما ببعض ما كانت نفسيهما تنوى إليه من طرائف الطعام والشراب . وما يمنعهما أن يغدوا ذات صباح مع الطير ، فإذا تجاوزوا ذلك الباب المقفل من فجوة الضيقة ، واستدارا ليأخذا طريقهما نحو الأزهر ، وقفا عند بائع البلبلة فأخذ كل منهما قدرًا من هذا الطعام الذي كانا يجبانه أشد الحب ، لكثرة ما أكلتا منه في الريف ، ولكثرة ما كان يوضع عليه من السكر الذي يختلط بجبانه الغلاظ وينوب في مائه الشديد الحرارة جدًّا ، فلا يكادان يسيغانه حتى يطرد عنهما بقية النوم ، ويشيع في جسميهما النشاط ويثير في أفواههما وأجوافهما لذة كانا يقدرانها قدرها ، ويهيئها تهيئة صالحة للدرس الفقه ، يسمعان لحديث الشيخ وقد عمرت بطونهما وروسهما معًا .

وما يمنعهما إذا كانا في شارع سيدنا الحسين أن يعطفا على هذا البائع أو ذاك فيجلسا على مجلس ضيق من الخشب قد ألقى عليه حصير ضيق أحيانًا ، ولم يلق عليه شيء أحيانًا أخرى ، ولكنه كان وثيرًا على كل حال ، لأن الجلوس عليه كان يصحبه انتظار لذة كانا يجبانها ويقدرانها ، لذة هذا الثين المرطب الذي يقدم إليهما في إناء صغير ، فيلتهمانه التهامًا ثم يعبتان في مائه عبًّا ، ثم يأكلان ما كان تحته من زبيب في أناء وهلهو ! وما يمنعهما حين يعودان قبل العصر أو بعيدة أن يجورا على ثمن العشاء فيقفا

عند بائع الهريسة أو بائع البسبوسة ويرضيا لذاتهما البريئة إلى هذا اللون من الحلوى أو ذاك ! وليس على إفطارهما ولا على عشائهما بأس .

فأما الإفطار فقد كان أمره يسيرًا جدًّا : زيارة لبائع من هؤلاء الباعة الذين كانوا يعرضون الفول النبات ، ومعهما رغيفاهما وهما يدفعان إلى هذا البائع مليمين ونصف مليم ، وقد اشتريا بنصف مليم حزمة أو حزمتين من كراث ، وهذا البائع يقبل عليهما بإناء ضخم عميق قد امتلأ مرقًا وسبحت فيه حبات من الفول وألقى عليه قليل من الزيت ، فهما يغمسان خبزهما في المرق ، ويتصيدان ما تيسر من حب ، ويلتهمان ما تحمله يدهما اليسرى إلى أفواههما من الكراث . . . وما يبلغان آخر الرغيف وآخر الكراث حتى يبلغا حظهما من الطعام وقد امتلأ حتى كادا يكتظان . ولكن في الإناء بقية من مرق ، فكان الصبي يستحي أن يجيب صاحبه إلى ما يعرض عليه من شرب هذا المرق . وكان صاحبه يضحك منه ويرفع الإناء فيعجب فيه حتى يرده إلى البائع نظيفًا .

فقد أظفرا إذا ولم ينفقا أكثر من ثلاثة مليات ، وقد غنما ما طعما قبل الدرس . وما عليهما الآن إلا أن يعودا إلى الأزهر ليرضيا عقولهما بعد أن رضيت أجسامهما . وكان الصبي قد حرص كل الحرص على أن يواظب على درس شيخه المجدد المحافظ

في الفقه والنحو ، طاعة لأخيه من جهة وإرضاء لنفسه من جهة أخرى . ولكنه كان شديد الطمع في أن يسمع لغير هذا الشيخ ، وأن يذوق غير هذين اللونين من ألوان العلم . وقد أتبع له ذلك في غير مشقة ولا جهد بفضل هذه الدروس التي كانت تلتقي في الضحى بعد أن يفرغ الطلاب من إفتارهم . وقد قرر الصديقان أن يحضرا شرح الكفراوى وكان يلقي في الضحى من كل يوم ، بلفيه شيخ جديد ولكنه قديم . جديد في الدرجة ، قديم في الصلة بالأزهر . قد تقدمت به السن وطال عليه الطلب حتى ظفر بدرجة ، وبدأ كما كان يبدأ أمثاله بقراءة « شرح الكفراوى » .

وكان الصبي يسمع من شيخه الأول ومن أخيه وأصحابه عبثاً كثيراً بشرح الكفراوى ، وسخطاً كثيراً عليه ، فكان ذلك يغيره به ويرغبه فيه .

وما هي إلا أن يحضر الدرس الأول ويسمع الأوجه التسعة في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها حتى يفتن بهذا اللون من العلم ويكلف به أشد الكلف ، وإذا هو يواظب مع صاحبه في دقة على هذا الدرس من دروس النحو ، ويواظب في دقة أيضاً على درسه القديم . وكان يرى أنه يتعلم النحو في درسه القديم ، وأنه يلهو بالنحو في درسه الجديد . وكان يلهو في درسه الجديد حقاً ، يلهو بهذا الإعراب المتصل الذي ألح فيه الشارح على المتن إلحاحاً شديداً . ويلهو خاصة بالشيخ الذي كان يقرأ متنه

وشرحه ويفسر ما يقرأ في صوت غريب مضحك حقاً . لم يكن يقرأ وإنما كان يغنى . ولم يكن غناؤه يصعد من صدره ، وإنما كان يهبط من رأسه . وكان صوته قد جمع بين خصلتين متناقضتين ، فكان أصم مكظوماً ، وكان ممتداً عريضاً .

وكان الشيخ على ذلك من أهل الصعيد أو قل من أقصى الصعيد ، وكان قد احتفظ بلهجته الإقليمية لم يغير منها شيئاً لا في الكلام ولا في القراءة ولا في الغناء . وكان الشيخ على هذا كله غليظ الطبع ، يقرأ في عتف ، ويسأل الطلاب ويرد عليهم في عتف . وكان سريع الغضب ، لا يكاد يسأل حتى يشتم ؛ فإن ألح عليه السائل لم يُعْفِه من لكمة إن كان قريباً منه ، ومن رمية بحذائه إن كان مجلسه منه بعيداً . وكان حذاء الشيخ غليظاً كصوته جافياً كتيابه ؛ فلم يكن يتخذ العباءة ، وإنما كان يتخذ « الدفية » . كان حذاء الشيخ غليظاً جافياً ، وكانت نعله قد ملئت بالمسامير ، وكان ذلك أمتن للحذاء وأمنع له من البلى . ففكّر في الطالب الذي كانت تصيبه مسامير هذا الحذاء في وجهه أو فيما يبدو من جسمه !

ومن أجل هذا أشفق الطلاب من سؤال الشيخ وخلدوا بينه وبين القراءة والتفسير والتقرير والغناء . ومن أجل ذلك لم يضع الشيخ وقته ولا وقت الطلاب . بدأ سنته الدراسية بشرح الكفراوى ، ولم تنته هذه السنة حتى كان قد أم شرح الشيخ خالد .

فقرأ الطلاب في سنة دراسية واحدة كتابين ، على حين لم يكن غيرهم يقرءون مع غير هذا الشيخ إلا كتاباً واحداً ، وعلى حين لم يكن ذلك الشيخ المجدد المحافظ قد تجاوز بطلاهه القليلين الأبواب الأولى من النحو .

وكان لهذا كله أثره في حياة الصبي النحوية ، إن صح هذا التعبير . فقد قضى إجازة الصيف وعاد إلى القاهرة ، فلم ير شيخه المحافظ المجدد ، وإنما سلك طريق غيره من الأزهريين ، فحضر في الفقه شرح الطائي . على الكثر ، وحضر في النحو حاشية الطار على شرح الأزهرية . ولكن من الخير ألا نتعجل الحوادث وأن نبقي مع صاحبنا في سنته الأولى .

كان إذن يفرغ من درس الضحى فينتقل إلى درس الظهر ، ثم يعود إلى غرفته فيقرأ مع صاحبه مطالعاً دروس غد كما كان يفعل أصحاب الجدد من الطلاب ، أو متقلاً بين كتب مختلفة يفهم عنها أو لا يفهم . فإذا دعيت الشمس إلى غروبها أقبل الصديقان على عشاءهما ، وكان يختلف رقة وغلظاً باختلاف ما بقي لهما من نقد . فإن كان قد بقي لهما نصف القرش قسماه نصفين ، فاشترىا بنصفه شيئاً من الحلوة الطحينية وينتفضه الآخر شيئاً من الجبن الروي ، وأقبل على عشاء مترقب للذياء يجمعان فيه على اللقمة الواحدة قطعة من الجبن وقطعة من الحلوة ، ويريان لهذا المزاج الغريب طعماً للذيء . وإن كانت البلية أو التين أو امرأة عليهما

في نقدهما فلم يبق لهما منه إلا ربع القرش ، اشترىا بما بقي لهما شيئاً من الطحينية ثم صبوا عليه شيئاً من عسل أسود أو أبيض كان يأتيهما من الريف ، ثم أقبلوا على عشاء ليس بالفخم ، ولكنه لا بأس به .

فإن جارت البلية أو التين أو كلاهما على نقدهما فلم يبقيا منه شيئاً ، فليس عليهما من بأس ، لقد حفظا رغيفيهما ، وفي الغرفة هذه الصفيحة أو تلك ، في هذه العسل الأسود ، وفي تلك العسل الأبيض ، فليأخذوا من هذا العسل شيئاً وليغمسا فيه رغيفيهما ، فذلك يجزى عما كانا يجدان في الحلوة والجبن والطحين من ترف .

وإذا أباحا لأنفسهما على هذا البئس شيئاً من ترف فغمسا رغيفيهما الأول وقد اقتسماه في العسل الأسود ، ثم غمسا رغيفيهما الثاني وقد اقتسماه أيضاً في العسل الأبيض .

وقد جعلت الشمس تسرع إلى غروبها ، وكاد المؤذن يصعد إلى منذته ، فليسرع الصديقان إذاً إلى الأزهري ، فهما يحضران درساً بعد صلاة المغرب كما يفعل أولئك الطلاب الكبار . هما يحضران درساً في المنطق ، يحضران متن السلم للأخضرى . ومن الحق أنهما كانا يحضران هذا الدرس على شيخ كان يري نفسه عالماً وإن لم يعترف له الأزهري بالعالية . طال عليه الوقت ، واشتد إلحاحه في طلب الدرجة فلم يظفر بها ، ولكنه لم ييأس منها ولم يرض بحكم المتحنيين فيه ، فجعل يطاولهم من جهة ، وينيظهم من

جهة أخرى . يطاولم بحضور الدرس والتقدم للامتحان ، ويفيظهم بالجلوس إلى أحد الأعمدة إذا صليت المغرب ومن حوله جماعة من الطلاب وهو يقرأ لهم كتاباً في المنطق كما يقرأ العلماء الممتازون ، فلم يكن يهجم على تعليم المنطق إلا هؤلاء العلماء الممتازون .

ومن الحق أن ذلك الطالب الشيخ لم يكن بارعاً في العلم ولا ماهراً في التعليم ، وأن جهله وعجزه كانا يظهران حتى لهؤلاء التلاميذ المبتدئين . ومن الحق أنه كان من أقصى الصعبد ، وكان محتفظاً بلهجته كما عرفها قبل أن يقبل على الأزهر ، ولم يكن يغير منها شيئاً في قراءته وحديثه .

ومن الحق آخر الأمر أنه كان سريع الغضب شديد الحدة ، ولكنه لم يكن يشتم التلاميذ ولا يضرهم ، أو لم يكن يجرؤ على شتم التلاميذ وضرهم ، فإي ينبغي ذلك إلا للعالم حقاً وصدقاً ، الذي نال الدرجة ، ونال معها الإذن الضمني بشتم التلاميذ أو ضرهم .

كل هذا كان حقاً ، وكل هذا سمعه الصديقان من أولئك الطلاب الكبار ، ولكنه لم يمنعهما من حضور الدرس والمواظبة عليه ، ليقولا لأنفسهما إنهما يدرسان المنطق ، وليقولوا لأنفسهما إنهما يذهبان إلى الأزهر بعد صلاة المغرب ويعودان منه بعد صلاة العشاء ، كما يفعل الطلاب الكبار المتقدمون .

وما أسرع ما انتقضت السنة الأولى ! وما أسرع ما اختتمت

دروس الفقه والنحو ! وما أسرع ما دعى التلاميذ إلى التفرق ثم إلى الرحيل إلى حيث ينفقون الصيف بين أهلهم في المدن والقرى ! وما أشد ما كان الصبي يشتوق إلى هذه الإجازة ويتحرق حينئذ إلى الريف !

ولكن الإجازة قد أقبلت ، وإذا هو يريد أن يتمتع عن الرحيل وأن يبقى في القاهرة . أكان صادقاً في هذا التمتع ؟ أم كان متكلفاً له ؟ كان صادقاً وكان متكلفاً معاً .

كان صادقاً لأنه أحب القاهرة وكلف بها وشق عليه فراقها وقد كره الرحيل دائماً . وكان متكلفاً ، فقد كان أخوه يقضى أكثر إجازاته في القاهرة ، وكانت الأسرة تكبر منه ذلك وتراه آية جد واجتهاد . وكان يريد أن يصنع صنع أخيه ، وأن يظن به ما كان يظن بأخيه . ولكن تمنعه لم يغن عنه شيئاً .

وها هو ذا يركب مع صاحبه عربة من عربات النقل ومعهما ثيابهما قد لفت في حزميتين وقد بلغا المحطة ، وأخذت لهما تذكرتان ثم دفعتا إليهما ، ثم وضعا في عربة مزدحمة من عربات الدرجة الثالثة ، ثم تحرك القطار ، ولم يكدهم مضي قليلاً ويبلغ محطة بعد القاهرة أو محطتين حتى نسي الصديقان أزهرهما وقاهرتهما وربيعهما ، ولم يذكرأ إلا شيئاً واحداً هو الريف ، وما سيكون فيه من لذة ونعيم .

وكانت العشاء قد صليت حين نزل الصبيان من القطار ، فلم يجدا في المحطة أحداً . فأنكرا ذلك شيئاً ، ولكنهما وصلا إلى الدار ، فإذا كل شيء كان يجرى فيها كما كانت تجري الأمور في كل يوم . قد فرغت الأسرة من عشاها منذ وقت طويل ، وأتم الشيخ صلاته ثم خرج كعادته فجلس مع أصحابه غير بعيد من الدار ، وتناوم الصبية . وجعلت أختهم الصغرى تحملهم واحداً واحداً إلى مضاجعهم . واضطجعت أم الصبي على فراش من اللبد تحت السماء تستريح ، والنوم يلم بها ثم يصرف عنها ، ومن حولها بناتها قد جلسن يتحدثن كعادتهن في كل ليلة ، حتى يقضى الشيخ سمه القصير ثم يعود إلى الدار ، فتأوى الأسرة كلها إلى مضاجعها . ويشمل الدار سكون وهدهو لا يقطعهما إلا تناجيب الكلاب وتصايح الديكة في داخل الدار وفي أطراف القرية .

فلما دخل الصبيان وجمت الأسرة للدخولها ولم تكن قد أنبتت بعودتهما ، فلم تعد لهما عشاء خاصاً ، ولم تنتظرها بالعشاء المؤلف ، ولم ترسل أحداً لتلقيهما عند نزولهما من القطار . وكذلك أضيع على الصبي ما كان يدبر في نفسه من الأمانى ،

وما كان يقدر من أنه سيستقبل كما كان يستقبل أخوه الشيخ في ابتهاج وحنافاة واستعداد عظيم . على أن أمه نهضت فقبلته ، ونهضت إليه أخواته فضممنه إليهن ، وقدمن إليه وإلى صاحبه عشاء كعشاها في القاهرة . وأقبل الشيخ فأعطى ابنه يده ليقبلها ثم سأله عن أخيه في القاهرة . وأوت الأسرة كلها إلى مضاجعها ، ونام الصبي في مضجعه القديم ، وهو يكتم في صدره كثيراً من الغيظ وكثيراً من خيبة الأمل أيضاً .

ومضت الحياة بعد ذلك في الدار والقرية كما كانت تمضي قبل أن يذهب الصبي إلى القاهرة ويطلب العلم في الأزهر ، كأنه لم يذهب إلى القاهرة ولم يجلس إلى العلماء ولم يدرس الفقه والنحو والمنطق والحديث ، وإذا هو مضطر كما كان يضطر من قبل إلى أن يلقي « سيدنا » بالتحية والإكرام ، ويقبل يده كما كان يفعل من قبل ، ويسمع منه كلامه الفارغ الكثير كما كان يسمعه من قبل . وإذا هو مضطر إلى أن يذهب بين وقت وآخر إلى الكتاب لينفق الوقت ، وإذا التلاميذ يلقونه كما كانوا يلقونه قديماً ، لا يكادون يشعرون بأنه غاب عنهم ، ولا يكادون يسألونه عما رأى أو سمع في القاهرة ، ولو قد سألوه لخبرهم بالكثير .

وأكثر من هذا كله أنه لم يقبل أحد من أهل القرية على الدار ليسلم على الصبي الشيخ بعد أن عاد إليها وقد غاب عنها سنة دراسية كاملة ، وإنما كان يلقاه منهم هذا الرجل أو ذاك ،

فيلقى عليه في فتور وإعراض هذا السؤال : ها أنت ذا ؟ أعدت من القاهرة ؟ كيف أنت ؟ ثم يلقي عليه هذا السؤال الآخر معنياً به رافعاً به صوته : وكيف تركت أخاك الشيخ ؟

وقد استقر إذن في نفس الصبي أنه ما زال ، كما كان قبل رحلته إلى القاهرة ، قليل الخطر ضئيل الشأن لا يستحق عناية به ولا سؤالاً عنه . فأذى ذلك غروره ، وقد كان غروره شديداً ، وزاده ذلك إمعاناً في الصمت وعكوفاً على نفسه وانصرافاً إليها .

ولكنه لم يكده يقضى أياماً بين أسرته وأهل قريته حتى غير رأى الناس فيه ولقهم إليه ، لا لفت عطف ومودة ، ولكن لفت إنكار وإعراض وازورار . فقد احتمل من أهل القرية ما كان يحتمل قديماً يوماً ويوماً وأياماً . ولكنه لم يطق على ذلك صبراً ، وإذا هو ينبو على ما كان بألف ، وينكر ما كان يعرف ، ويتمرد على من كان يظهر لم الإذعان والخضوع . كان صادقاً في ذلك أول الأمر ، فلما أحس الإنكار والازورار والمقاومة ، تكلف وعاند وغلا في الشذوذ . سمع « سيدنا » يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه في العلم والدين ، وبعض تمجيده لحفظة القرآن وحملة كتاب الله ، فأنكر عليه حديثه ورد عليه قوله ، ولم يتحرج من أن يقول : هذا كلام فارغ . فغضب « سيدنا » وشمته ، وزعم أنه لم يتعلم في القاهرة إلا سوء الخلق ، وأنه أضاع في القاهرة تربيته الصالحة .

وغضبت أمه وزجرته ، واعتذرت إلى « سيدنا » وقصت الأمر على الشيخ حين عاد ، فصلى المغرب وجلس للعشاء ، فhez رأسه وضحك ضحكة سريعة في ازدياء للقصة كلها وشماته « بسيدنا » ؛ فلم يكن يحب « سيدنا » ولا يعطف عليه .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لاستقامت الأمور ، ولكن صاحبنا سمع أباه يقرأ دلائل الخبرات كما كان يفعل دائماً إذا فرغ من صلاة الصبح أو من صلاة العصر ، فرجع كتفيه وهز رأسه ثم ضحك ، ثم قال لإخوته : إن قراءة الدلائل عبث لا غناء فيه .

فأما الصغار من إخوته وأخواته فلم يفهموا عنه ولم يلتفتوا إليه ، ولكن أخته الكبرى زجرته زجراً عنيفاً ورفعت بهذا الزجر صوتها ، فسمعها الشيخ ولم يقطع قراءته ، ولكنه مضى فيها حتى أتمها ، ثم أقبل على الصبي هادئاً باسمأ يسأله ماذا كان يقول ؟ فأعاد الصبي قوله . فلما سمعه الشيخ هز رأسه وضحك ضحكة قصيرة وقال لابنه في ازدياء : « ما أنت وذاك ! هذا ما تعلمته في الأزهر ! » فغضب الصبي وقال لأبيه : « نعم ، وتعلمت في الأزهر أن كثيراً مما تقرأه في هذا الكتاب حرام يضر ولا ينفع ؛ فإني ينبغي أن يتوسل إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء ، وما ينبغي أن يكون بين الله وبين الناس واسطة ، وإنما هذا لون من الوثنية » .

هنالك غضب الشيخ غضباً شديداً ، ولكنه كظم غضبه واحتفظ

بابنائه وقال فأضحك الأسرة كلها : « اخرس قطع الله لسانك ، لا تمد إلى هذا الكلام . وإنى أقسم لئن فعلت لأمسكنك في القرية ، ولأقطعنك عن الأزهر ، ولأجعلنك فقياً تقرأ القرآن في المآتم والبيوت » . ثم انصرف ، وتضاحكت الأسرة من حول الصبي ، ولكن هذه القصة على قسوتها الساخرة لم تزد صاحبنا إلا عناداً وإصراراً .

وقد نسيها الشيخ بعد ساعات ، وأقبل على عشائه ومن حوله أبناءه وبناته كعادته ، وجعل يسأل الصبي عن الشيخ الفقى ماذا يصنع في القاهرة ؟ وماذا يقرأ من الكتب ؟ وعلى من يختلف من الأساتذة ؟

وكان الشيخ يجد لذة عظيمة في إلقاء هذه الأسئلة وفي الاستماع لأجوبتها . كان يلقبها على ابنه الشيخ الفقى إذا عاد إلى القرية ، فيجيبه متكلفاً أول مرة ، فإذا أعيدت عرض الفقى عن أبيه وبجل عليه بالجواب . ولم يكن أبوه ينكر ذلك منه جهرة ، ولكنه كان يتأذى به ويشكو منه لزوجته إذا خلا إليها .

فأما الصبي فكان سمحاً طبعاً ، لا يعرض عن أبيه ولا يمتنع عن إجابته ، ولا يدركه السأم مهما تكرر الأسئلة ومهما يكن موضوعها . وكان الشيخ من أجل ذلك يجب أن يسأله ويستمتع بالتحديث إليه في أثناء العشاء وأثناء الغداء . ولعله كان بعيد على أصحابه بعض ما كان ابنه يقص عليه من زيارات الشيخ الفقى

للأستاذ الإمام وللشيخ بحيث ، ومن اعتراض الشيخ الفقى على أساتذته في أثناء الدرس وإحراجه لهم ، وردهم عليه بالعنف وبالشم وبالضرب أحياناً .

وكان الصبي يشعر بلذة أبيه لهذه الأحاديث ورضاه عنها ، فيتزيد ويتكبر ويحترع منها ما لم يكن ، ويحفظ ذلك في نفسه ليقصه على أخيه إذا عاد إلى القاهرة .

وكان الشيخ بهذا كله سعيداً وله مقتباً وعلى تجديده حريصاً . فلما جلست الأسرة للعشاء في تلك الليلة وجدد الشيخ أسئلته عن ابنه الفقى : ماذا يصنع في القاهرة ؟ وماذا يقرأ من الكتب ؟ قال الصبي في دهاء ونجث وكيد : إنه يزور قبرر الأولياء ، وينفق نهاره في قراءة دلائل الخيرات .

ولم يكذ الصبي ينطق بهذا الجواب حتى أغرقت الأسرة كلها في ضحك شديد شرق له الصغار بما كان في أفواههم من طعام وشراب ، وكان الشيخ نفسه أسرعهم إلى الضحك وأشدهم إغراقاً فيه .

وكذلك استحال نقد الصبي لأبيه في قراءته للدلائل والأوراد موضوعاً للهر الأسرة وجبها أعراماً وأعراماً . والظريف من هذا الأمر أن هذا النقد كان يحفظ الشيخ حقاً ، ويؤذيه في نفسه وفيها ورث من عادة واعتقاد . ولكن الشيخ على ذلك كان يدع ابنه إلى هذا النقد ويفريه به ، ويمجد في هذا الأمل لذة ومتاعاً .

ومهما يكن من شيء فإن شذوذ الصبي لم يلبث أن تجاوز الدار إلى مجلس الشيخ قريباً منها ، وإلى دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، وإلى المسجد حيث كان الشيخ محمد أبو أحمد رئيس الفقهاء في المدينة يقرأ القرآن للصبية والشباب ، ويصلي بالناس في أثناء الأسبوع ويفقههم في دينهم أحياناً ، وحيث كان الشيخ عطية - رجل من التجار الذين طلبوا العلم في الأزهر أعواماً ، ثم عادوا إلى الريف فاشتغلوا بأمور الدنيا ولم ينصرفوا عن أمور الدين - يجلس للناس بعد صلاة العصر من حين إلى حين ، فيعظهم ويفقههم ، وربما قرأ لهم شيئاً من الحديث .

بل وصل شذوذ الصبي إلى المحكمة الشرعية ، فسمعه القاضي وسمعه خاصة ذلك الشيخ الذي كان يكتب للقاضي ، ويرى أنه أعلم من القاضي بالشرع ، وأفقه منه بالدين ، وأحق منه بالقضاء ، لولا أنه لم يظفر بهذه الورقة التي تسمى درجة العالمية والتي تشترط لتولي منصب القضاء ، والتي تنال بالجد والاجتهاد قليلاً وباللحظ والتأمل في أكثر الأحيان .

تسامع هؤلاء الناس جميعاً بمقالات هذا الصبي وإنكاره لكثير مما يعرفون ، واستهزائه بكرامات الأولياء ، وتحريمه التوسل بهم وبالأبياء . وقال بعضهم لبعض : إن هذا الصبي ضال مضل ، قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المفسدة ، ثم عاد بها إلى المدينة ليضل الناس .

وربما سعى بعضهم إلى مجلس الشيخ وأصحابه قريباً من الدار وطلبوا إلى الشيخ أن يريهم ابنه ذلك الشاذ الغريب . فقبل الشيخ هادئاً باسمًا حتى يدخل الدار ، فيرى ابنه آخذاً في اللعب أو الحديث مع أخواته ، فيأخذ بيده في رفق ويقوده إلى مجلسه ، فإذا سلم على القادمين أجلسه ، ثم أخذ بعض القادمين في التحدث إليه رفقاً أول الأمر ، فإذا اتصل الحديث ذهب الرفق وقام مقامه الحوار العنيف . وكثيراً ما كان محاور الصبي ينصرف غضباً متحرجاً يستغفر الله من الذنب العظيم ، ويستعيذ به من الشيطان الرجيم . وكان الشيخ وأصحابه من الذين لم يدرسوا في الأزهر ولم يتفقهوا في الدين يرضون عن هذه الخصومات ويعجبون بها ، ويبتهجون لهذا الصراع الذي كانوا يشهدونه بين هذا الصبي الناشئ وهؤلاء الشيوخ الشيب .

وكان أبو الصبي أشدهم غبطة وسروراً . ومع أنه لم يصدق قط أن التوسل بالأولياء والأنبياء حرام ، ولم يطمئن قط إلى عجز الأولياء عن إحداث الكرامات ، ولم يساير قط ابنه فيما كان يقول من تلك المقالات ، فقد كان يجب أن يرى ابنه محاوراً محاصماً ظاهراً على محاوريه ومخاصمه ، وكان يتعصب لابنه تعصباً شديداً . وكان يسمع ويحفظ ما كان الناس يتحدثون به ويحترعونه أحياناً من أمر هذا الصبي الغريب ، ثم يعود مع الظهر أو مع المساء فيعيد ذلك كله على زوجته راضياً حيناً وساخطاً حيناً آخر .

وعلى كل حال فقد انتقم الصبي لنفسه ، وخرج من عزلته وشغل الناس في القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه ، وتغير مكانه في الأسرة ، مكانه المعنوي إن صح هذا التعبير ؛ فلم يحمله أبوه ، ولم تُعرض عنه أمه وإخوته ، ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والإشفاق ، بل على شيء أكثر وأثر عند الصبي من الرحمة والإشفاق .

وانقطع ذلك النذير الذي سمعه الصبي في أول الإجازة بأنه قد بقي في القرية ويقطع عن الأزهر ويصبح فقيهاً يقرأ القرآن في المآم والبيوت . وآية ذلك أنه أصبح ذات يوم فنهض مع الفجر ونهضت الأسرة كلها مع الفجر أيضاً ، ورأى الصبي نفسه بين ذراعي أمه وهي تقبله وتذرف دموعاً صامتة . ثم رأى الصبي نفسه في المحطة مع صاحبه وأبوه يجلسه في القطار رقيقاً به ، ثم يعطيه يده ليقبلها ، ثم ينصرف عنه وهو يسأل الله أن يفتح عليه . ورأى الصبي نفسه يعيث مع صاحبه أثناء السفر ، ثم رأى الصبي نفسه ينزل من القطار في محطة القاهرة ، وإذا أخوه يتلقاه مبتسماً له ، ثم يدعو حمالاً ليحمل ما كان معه من متاع قليل وزاد كثير . فإذا تجاوز باب المحطة دعا عربية من عربات النقل فحمل عليها الزاد وصاحب أخيه ، ثم عربية أخرى من عربات الركوب ، فأجلس فيها أخاه رقيقاً به ، وجلس عن يمينه وأعطى السائق عنوان « الربع » .

وأقبل صاحبنا على دروسه في الأزهر وغير الأزهر من المساجد . فأمن في الفقه والنحو والمطلق ، وأخذ يحسن « الفنقلة » التي كان يتنافس فيها البارعون من طلاب العلم في الأزهر على المنهج القديم ، ويسخر منها المسرفون في التجديد ، ولا يُعرض عنها المجددون المعتدلون . وإذا هو يدرس شرح الطائي على الكنتز مصححاً ، والأزهرية مع الظهر ، وشرح السيد الجرجاني على إيساغوجي ممسماً . وكان يحضر الدرس الأول في الأزهر ، والدرس الثاني في مسجد محمد بك أبي الذهب ، والدرس الثالث في مسجد الشيخ العدوي على أستاذ من سلالة الشيخ العدوي نفسه . وربما ألمّ بدرس من دروس الضحى كان يقرأ فيه كتاب قطر الندى لابن هشام لعجلا للتعلم في النحو والفراغ من كتب المبتدئين والوصول إلى شرح ابن عقيل على الألفية . ولكنه لم يكن يواظب على هذا الدرس . كان يستجمل الشيخ ، ويرى في « فنقلة » الشيخ عبد المجيد الشاذل حول الأزهرية وحاشية العطار ما يكفيه ويرضيه . وقد بقيت في نفسه آثار لا تمنحني من درس الأزهرية هذا ؛ لعله تعلم « الفنقلة » حقاً ، وكان أول ذلك هذا الكلام الكثير والممدد العقيم حول قول المؤلف « وعلامة الفعل قد » ؛ فقد أتقن

صاحبنا ما أثير حول هذه الجملة البريئة من الاعتراضات والأجوبة ،
 وأتعب شيخه حواراً وجدالاً حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا
 الحوار ، ثم قال في صوت حلوم ينسه صاحبنا قط ، ولم يذكر
 قط إلا ضحك منه ورق له : « الله حكيم بيني وبينك يوم
 القيامة » . قال ذلك في صوت يملؤه السأم والضجر ، ويملؤه العطف
 والحنان أيضاً . وآية ذلك أنه بعد أن أتم الدرس وأقبل الصبي
 ليلم يده كما كان الطلاب يفعلون ، وضع يده على كتف الصبي
 وقال له في هدوء وحج : « شد حيك الله يفتح عليك » .

وعاد الصبي مبتهجاً بهذه الكلمات والدعوات ، فأنبأ بها أستاذه
 وانتظر به أخوه موعد الشاي . فلما اجتمع القوم إلى شايهم قال
 للصبي مداعباً : قرر لنا « علامة الفعل قد » . فامتنع الصبي حياءً
 أول الأمر ، ولكن الجماعة ألحت عليه ، فأقبل يقرر ما سمع وما يرى
 وما قال ، والجماعة صامته تسمع له ، حتى إذا فرغ نهض إليه ذلك
 الكهل الذي كان ينتظر الدرجة فقبل جبهته وهو يقول : « حصصك
 بالحي القيوم الذي لا ينام » .

وأما الجماعة فأغرقت في الضحك . وأما الصبي فأغرق في الرضا
 عن نفسه ، وبدأ منذ ذلك الوقت يعتقد أنه أصبح طالباً بارعاً نجيباً
 وقوى هذا الرأي في نفسه أن زملاءه في درس النحو اللغوي
 إليه وجعلوا يستوقفونه بعد الدرس ، أو يدنون منه في

الدرس ، فيسألونه ويتحدثون إليه ، ثم يعرضون عليه أن يعدوا
 معه الدرس قبل الظهر . وقد أغراه هذا العرض فترك درس
 القطر ، وجعل يطالع مع زملائه هؤلاء يقرءون له ويأخذون في
 التفسير ، وجعل هو يسبقهم إلى هذا التفسير ويستبد به من دونهم ،
 فلا يقاومونه وإنما يسمعون منه ويصفون إليه . وجعل ذلك يزيد
 غروراً إلى غرور ، ويخيل إليه أنه قد بدأ يصبح أستاذاً .

واظردت حياته في ذلك العام متشابهة لا جديد فيها إلا
 ما كان يفيد الصبي من العلم كلما أمعن في الدرس ، وما كان
 يشعر به من الغرور إذا كان بين زملائه ، وما كان يرد إليه
 من التواضع إذا كان بين أولئك الطلاب الكبار في الريع ،
 وإلا ما كان يفيد من العلم بشؤون الأساتذة والطلاب في
 الأزهر لما كان يسمع من حديث زملائه وأصدقاء أخيه عن
 أولئك وهؤلاء .

فلم يكن شيء من هذه الأحاديث ليحسن ظنه بأولئك
 أو هؤلاء ، وإنما كان ظنه يزداد بهم سوءاً كلما مر عليه الوقت .
 فقد كان يسمع بين حين وحين ثناء بالذكاء والبراعة على هذا
 الشيخ أو ذاك من صفار العلماء وكبارهم ، ولكنه كان يسمع
 دائماً عيباً لأولئك وهؤلاء بألوان من النقائص التي تتصل بالخلق
 أو تتصل بالسيرة أو تتصل بصناعة العلم نفسها ، والتي كانت تثير
 في نفسه كثيراً من الغضب والازدراء وخيبة الأمل .

ولم يكن يسلم من هذه العيوب أحد . فأما هذا الشيخ فقد كان شديد الحقد على زملائه وأقرانه ، شديد المكر بهم والكيد لهم ، يلقاهم مبتسماً فلا يكاد يفارقهم حتى يقول فيهم أشنع القول ويسمى بهم أقيح السعي . وأما هذا الشيخ الآخر فقد كان رقيق الدين ، يظهر التقوى إذا كان في الأزهر أو بين أقرانه ، فإذا خلا إلى نفسه وإلى شياطينه أغرق في إثم عظيم .

وكان هؤلاء العائبون ربما سما أولئك الشياطين الذين كان الشيخ يخلو إليهم ويشاركهم في الإثم . وكان كبار الطلاب يتندرون على هذا الشيخ أو ذاك ؛ لأنه كان يعنى عناية خاصة بهذا الفتى أو ذاك ، ويلقى نظرات خاصة على هذا الفتى أو ذاك ، ولا يستقر على كرسيه إذا حضر من طلابه هذا الفتى أو ذاك .

وكانت الغيبة والنميمة أشيع وأشنع ما كان يُذكر من عيب الشيوخ . فكان الطلاب يذكرون سعى ذلك الشيخ بصديقه الحميم عند شيخ الأزهر أو عند الشيخ المفتى ، وكانوا يذكرون أن شيخ الأزهر كان أذنًا للأمين ، وأن الشيخ المفتى كان يترفع عن الاستماع لهم ويلقاهم بالزجر القاسى العنيف .

وقد تحدث الطلاب الكبار ذات يوم بقصة عن جماعة من كبار الشيوخ سموهم يومئذ ، فزعموا أن هؤلاء الشيوخ لاحظوا أنهم قد أسرفوا على أنفسهم في الغيبة ، فاستعظمو ذلك وذكروا

قول الله عز وجل : « ولا يغتب بعضكم بعضاً يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » ؛ فتناهوا عن هذه الخطيئة الكبيرة ، وتعاهدوا على أن من أخذ منهم في الغيبة فعليه أن يؤدي إلى أصحابه عشرين قرشاً .

وقد كفوا عن الغيبة يوماً أو بعض يوم ضيقاً بهذا المبلغ من النقد . ولأنهم لى بعض حديثهم ، وإذا شيخ يمر بهم فيلقى عليهم تحية ، ويمضى في طريقه . ولكنه لا يكاد يمضى حتى يخرج أحدهم قطعة من الفضة فيدفعها إلى أصحابه ويأخذ في اغتياب هذا الشيخ .

فأما تحدث الطلاب كباراً وصغاراً بجمل شيوخهم وتورطهم في ألوان الخطأ المضحك الذى كان بعضهم يتصل بالفهم وبعضه يتصل بالقراءة ، فقد كان أكثر من أن يحصى وأعظم من أن يقدر . ومن أجل هذا كان صاحبنا سبب الرأى في العلماء والطلاب جميعاً . وكان يرى أن الخير كل الخير في أن يجهد ويجهد ويحصل ما استطاع من العلم معرضاً عن مصادره التى كان يستقيه منها .

وزاد رأيه سوءاً حين استقبال السنة الثالثة من حياته في الأزهر ، فالتمس لنفسه أستاذاً يقرأ في الفقه شرح ملاً مسكين على الكنز ، فدل على أستاذ معروف بعيد الذكر ظاهر المكاتبة في القضاء ، فذهب إليه وجلس في حلقاته ، ولكنه لم يكد ينفق دقائق حتى أحس حرجاً عظيماً ، رأى نفسه مضطراً إلى أن يبذل جهداً شديداً لمقاومة الضحك . وذلك أن الشيخ رحمه الله قد كانت له لازمة غريبة ، كما كان

في « ألف ليلة وليلة » لا يجتمعان .

وكان حظ الغلام في النحو خيراً من حظه في الفقه ؛ فقد سمع القطر والشذور على الشيخ عبد الله دراز رحمه الله ، فوجد من ظرف الأستاذ وصوته العذب وبراعته في النحو ومهارته في رياضة الطلاب على مشكلاته ما زاده في النحو حباً .

ولكن حظه في النحو لم يلبث أن ساء حين استؤنفت الدراسة في العام الجديد . فقد أخذ الغلام يسمع على الشيخ عبد الله دراز شرح ابن عقيل . وبينما الأستاذ وطلابه ماضون في دروسهم ، راضون عن عملهم ، صدر الأمر إلى الأستاذ بالانتقال إلى معهد الإسكندرية .

فانع في ذلك ما استطاع ، ومانع طلابه ما استطاعوا ، ولكن المشيخة لم تسمع له ولا لهم . فلم يجد بداً من إنفاذ الأمر . ولم ينس الغلام ذلك اليوم الذي ودع الأستاذ فيه طلابه ، وإنه ليبيكي مخلصاً ، وإنهم ليبيكون مخلصين ويشيعونه باكين إلى باب المسجد . ثم أقيم مقام الشيخ ، شيخ آخر ضرير ، وكان مشهوراً بالذكاء الحاد والتفوق الظاهر والنبوغ الممتاز ، وكان لا يذكر إلا أني عليه ذاكره والسامعون لذكوره بهذه الحجال .

أقبل هذا الشيخ ، فأخذ الدرس من حيث تركه الشيخ عبد الله دراز . وكانت حلقة الشيخ عبد الله دراز عظيمة رقعها القبة من مسجد محمد بك أبي الذهب . فلما خلفه هذا الشيخ

ازدادت هذه الحلقة ضخامة واتساعاً حتى اكتظ بها المكان . وألقى الشيخ درسه الأول فرضى عنه الطلاب ، ولكنهم لم يجدوا عنده وداعة أستاذهم القديم ولا عنوية صوته . ثم ألقى درسه الثاني والثالث ، وإذا الطلاب ينكرون منه رضاه عن نفسه وإعجابه بها ، وثقته بما كان يقول ، وغضبه الحاد على مقاطعيه .

ولم يكده يتقدم في درسه الرابع حتى كانت بينه وبين صاحبنا قصة صرفت الغلام عن النحو صرفاً . كان الشيخ يفسر قول تأبط شراً : فأبت إلى فهم وما كدت آتياً

وكم مثلها فارقتها وهي تصفر
فلما وصل إلى قوله « تصفر » قال : إن العرب كانت إذا اشتدت على أحدهم أزمة أو محنة وضعوا أصابعهم في أفواههم ونفخوا فيها ، فكان لها صفير يسمع .

قال الغلام للشيخ : وإذن فما مرجع الضمير في قوله « وهي تصفر ؟ » وفي قوله « وكم مثلها فارقتها ؟ » . قال الشيخ مرجعه « فهم » أيها الغبي . قال الغلام : فإنه قد عاد إلى فهم والبيت لا يستقيم على هذا التفسير . قال الشيخ : فإنك وقع وقد كان ينبغي أن تكون غيبياً . قال الغلام : ولكن هذا لا يدل على مرجع الضمير . فسكت الشيخ لحظة ثم قال : « انصرفوا : فلن أستطيع أن أقرأ وفيكم هذا الوقح ! »

ونفض الشيخ ، وقام الغلام ، وقد كاد الطلاب يبطشون به لولا

أن حماه زملاؤه وكانوا من أهل الصعيد . حموه بأن أحاطوا به وأشهروا نعالهم فتفرق الناس . وأى الأزهرين لم يكن يَفَرِّقُ في ذلك الوقت من نعال أهل الصعيد !

ولم يعد الغلام إلى درس النحو ، بل لم يحضر الغلام بعد ذلك درساً في النحو ، بل ذهب من غده إلى درس كان يلقبه أستاذ معروف من أهل الشرقية . وكان يقرأ شرح الأشموني ، ولكنه لم يتم الاستماع للدرس . مضى الشيخ يقرأ ويفسر ، وسأله الغلام في بعض الشيء ، فرد عليه الشيخ بما لم يقنعه . فأعاد السؤال ، فغضب الشيخ وأمره بالانصراف . فتوسط بعض أصدقائه عند الشيخ يستعطفونه ، فازداد غضب الشيخ وأبى أن يمضي في الدرس حتى يقوم هذا الغلام ومعه أصدقاؤه . ولم يكن لهم بد من أن ينصرفوا ؛ فقد أشهرت عليهم نعال الشرقية . ولم تكن نعال الشرقية بأقل خطراً من نعال الصعيد .

وذهب الغلام من غده مع أصحابه إلى حلقة أخرى كان يقرأ فيها شرح الأشموني ، يقرؤه أستاذ مشهور من أستاذة الشرقية أيضاً . فوقف الغلام على الحلقة لحظة لا تتجاوز الدقائق الخمس ، ولكنه سمع فيها هذه اللازمة الغربية يعيدها الشيخ كلما انتقل من جملة إلى جملة « انحص على بلدي » ، فضحك الغلام وضحك أصدقاؤه وانصرفوا . وأزيع الغلام وصديق له أن يدرسا النحو مستقلين ، وأن يدرسا في مصادره الأولى ، فقرأ كتاب المصطل

للزخشرى ، ثم كتاب سيوييه ، ولكن هذه قصة أخرى . ولم يكن حظه في المنطق خيراً من حظه في الفقه والنحو . لقد أحب المنطق حباً شديداً حين كان يسمع شرح السيد على لإساعوجي من أستاذه ذاك الشاب في العام الماضي . فأما في هذا العام فقد جلس لأمثاله من أوساط الطلاب علم من أعلام الأزهر الشريف ، وإمام من أئمة المنطق والفلسفة فيه ، وكان معروفاً بين كبار الطلاب بهذا الذكاء الظاهر الذي يتجدد . ولا يغني شيئاً ، وكان معروفاً بهذه الفصاحة التي تبهر الأذن ولا تبلغ العقل . وكان يؤثر عنه أنه كان يقول : « مما من الله عليّ به أني أستطيع أن أتكلم ساعتين فلا يفهم أحد عنى شيئاً ولا أفهم أنا عن نفسي شيئاً » . كان يرى ذلك مزية وفخراً . ولكن لم يكن بد للطلاب الذي يقدر نفسه من أن يجلس إليه ويسمع منه . وقد جلس للطلاب بعد صلاة المغرب يقرأ لهم شرح الخبيصي على تهذيب المنطق . وذهب إليه صاحبنا وسمع منه درساً ودرساً ، وكانت حلقة عظيمة حقاً تكتظ بها القبة في جامع محمد بك . وكان الغلام يسبق صلاة المغرب فيجلس في أقرب مكان من كرسي الأستاذ . وكان الأستاذ جهورياً الصوت قد احتفظ بلهجة الصعيد كاملة . وكان شديد النشاط كثير الحركة . وكان إذا سأله طالب رد هو عليه ساخراً منه ؛ فإن ألح الطالب في السؤال ثار هو به وجعل يقول له في حدة : « اسكت يا خاسر ، اسكت يا خنزير ! » وكان يفخم الحياء

في الكلمتين إلى أقصى ما يستطيع فه أن يبلغ من التضخيم .
وقد استقام للشيخ وللطلاب أمرهم حتى أتموا قسم التصورات .
فلما بلغوا في كتابهم المقصد الثاني في التصديقات لقي الغلام من
نفسه ومن شيخه بلاء عظيماً ، فاضطر إلى أن يختار له من الغد
مكاناً بعيداً عن الشيخ ، وما زال يتأخر يوماً بعد يوم في مجلسه حتى بلغ
باب القبة ، فخرج منه ذات ليلة ، ولم يدخله بعد ذلك .

لقي الغلام بلاء من نفسه لم يذكره قط إلا ضحك منه
ضحكاً شديداً ، وأضحك منه أخاه وأصدقاه جميعاً . فقد جلس
الشيخ على كرسيه وأخذ في القراءة ، فقال : « المقصد الثاني في
التصديقات » يقلقل القاف ويفخم الصاد ، ويمد الألفات والياءات
مدّاً متوسطاً ، ثم يعيد هذه الكلمات نفسها فيقلقل القاف
وفخم الصاد ويطيل مد الألفات والياءات . ثم يعيد الكلمات
نفسها فيقلقل القاف ويفخم الصاد ويمد الألف والياء في « الثاني »
ولكنه لا يقول « في التصديقات » ، وإنما يقول « في مين ؟ » فلا يرد
عليه أحد . فيرد على نفسه ويقول « في التصديقات » . ثم يعيد
الكلمة نفسها على هذا النحو نفسه ، فإذا انتهى إلى قوله « في
مين ؟ » ولم يرد عليه أحد ، ضرب بظهر يده في جبهة الغلام
وهو يقول : « ردوا يا غنم ، ردوا يا بهائم ، ردوا يا خنازير ! »
يفخم الغنم والحاء إلى أقصى ما يستطيع فه أن يبلغ من التضخيم ،
فيقول الطلاب جميعاً « في التصديقات » .

لقي الغلام من نفسه عناء شديداً ، فقد كان هذا كله خليقاً
أن يضحكه ، وكان يخاف أن يضحك بين يدي الأستاذ . ولقي
من شيخه بلاء عظيماً بهذه الضربات التي كانت تتوالى على
جبهته بين حين وحين . ومهما يكن من شيء فقد تحول الغلام
عن هذا الدرس ولم يتجاوز بالمنطق عند هذا الشيخ باب القضايا .

تحول عن هذا الدرس في أثناء العام ، وقرر أن يحضر مكانه
درساً في التوحيد كان يلقيه شيخ جديد حديث الظفر بدرجة
العالمية . وكان أصدقائه من كبار الطلاب يذكرونه بالظرف
الشديد والذكاء المتوسط وحلاوة الصوت وحسن الإلقاء ، ويقولون :
إن علمه يندفع من حديثه أو سمع عنه ، فإذا تعمقه لم يجد عنده
شيئاً . وكان يقرأ شرح الحريرة ومنها للدردير . فسمع الغلام
منه درساً وأعجب بصوته وإلقائه وظرفه ، وجعل ينتظر أن يعجب
بعلمه وفنقلته . ولكن الشيخ صرف عن الدرس لأنه نقل من
القاهرة وأرسل إلى مكان بعيد تولى فيه منصب القضاء ، فلم يتح
للغلام أن يعلم علمه ، ولا أن يقضى في أمره بشيء إلا أنه كان
لبقاً ظريفاً حلو الصوت عذب الحديث .

وإذاً فقد ضاعت السنة في حقيقة الأمر على الغلام ، ولم يحصل
فيها أو لم يكده يحصل فيها من العلم شيئاً جديداً ، إلا ما كان
بقرؤه في الكتب ويسمعه من أولئك الطلاب الكبار وهم يطالعون
أو يتناظرون .

فلما عاد إلى الأزهر من قابل ، عاد إليه ضيق النفس به .
شديد الزهد فيه ، حائراً في أمره لا يدري ماذا يصنع : لا يستطيع
أن يقيم في الريف ، وماذا يفعل في الريف ! ولا يجد نفعاً من
إقامته في القاهرة واختلافه إلى الشيوخ . وفي هذا العام اتصل
بدرس الأدب . ولكن لحديث هذا الدرس ساعة

• من الدهر ما حانت ولا حان حينها •
كما تقول بثينة في سلوها عن جميل .

وفي الحق أن إقبال الفتى على درس الأدب لم يصرفه عن
علومه الأزهرية أول الأمر ؛ فقد كان يظن أنه يستطيع الملاءمة
في نفسه بين هذين اللونين من ألوان المعرفة . وهو لم يرسل إلى
القاهرة ولم ينسب إلى الأزهر ليكون أديباً ينظم الشعر أو ينشئ
النثر . وإنما أرسل إلى القاهرة وانتسب إلى الأزهر ليسلك طريقه
الأزهرية الخالصة ، حتى يبلغ الامتحان ويظفر بالدرجة ، ويسند
ظهره إلى عمود من الأعمدة القائمة في ذلك المسجد العتيق ،
ويتحلق الطلاب من حوله فيسمعوا منه درساً في الفقه أو في
النحو أو فيهما جميعاً .

كذلك كان يتمنى أبوه ، وبذلك كان يتحدث إلى الأسرة
في شيء من الأمل والإعجاب بابنه هذا الشاذ الغريب .
وكذلك كان يريد أخوه ، وكذلك كان يريد هو . وماذا كان
يمكن أن يريد غير ذلك وقد فرضت الحياة على أمثاله من
المكشوفين الذين يريدون أن يحيا حياة محتملة لإحدى اثنتين :
فإما الدرس في الأزهر حتى تنال الدرجة وتضمن الحياة بهذه
الأرغفة التي تؤخذ في كل يوم ، وبهذه القروش التي تؤخذ
آخر الشهر لا تزيد عن خمسة وسبعين قرشاً إن كانت الدرجة

الثالثة ، ولا عن مائة قرش إن كانت الدرجة الثانية ، ولا عن خمسين ومائة قرش إن كانت الدرجة الأولى . وإما أن يتجر بالقرآن فيقرأه في المآتم والبيوت كما أنذره بذلك أبوه في وقت من الأوقات .

فلم يكن للفتى بد إذن أن يمضى في طريقه الأزهرية حتى يبلغ غايتها . وكانت هذه الطريق تتشعب إلى شعبتين إذا قضى الطالب ثلاثة أعوام أو أربعة في الأزهر : إحداهما علمية وهي الاختلاف إلى الدروس والتنقل في مراحل العلم . وكان الفتى ماضياً فيها ، أقبل عليها مشغوفاً بها ، ثم فترت همته . ثم ازدهراها وانصرفت عنه نفسه حين استيأس من الأساتذة وساء ظنه بالشيوخ .

والثانية مادية وكانت تتألف من مراحل ثلاث : مرحلة المنتسب ، ومرحلة المنتظر ، ومرحلة المستحق . أما مرحلة المنتسب فهي المرحلة التي يبدأ الطالب بها حياته الأزهرية بعد أن يتم تقييده في سجلات الأزهر . ولم يكن له بد من أن ينتسب إلى أحد الأروقة . وقد انتسب صاحبنا كما انتسب أخاه إلى رواق الفشنية . وأما مرحلة المنتظر فقد كانت المرحلة الثانية ، ينتقل إليها الطالب بعد أن يقيم أعواماً في الأزهر ، وسيله إلى ذلك ورقة يكتبها ويرفعها إلى شيخ الرواق يعين فيها ما أنفق في الأزهر من عام وما حضر فيه من درس ، ويشهد على صدقه فيما سجل فيها شيخان من شيوخه ، ويطلب إلى شيخ الرواق أن يقيد اسمه بين

أسماء المنتظرين ، حتى إذا خلا مكان بين المستحقين للجرية ارتقى إليه فيبلغ المرحلة الثالثة ونال جريته رغيفين أو ثلاثة أو أربعة ، على اختلاف بين الأروقة في ذلك .

فلم يكن بد لصاحبنا من أن يرقى إلى مرحلة المنتظرين ، وقد كتب الورقة وختمها بالجملة التي كانت شائعة إذ ذاك « جعلكم الله ملجأ للقاصدين » .

وشهد شيخان أنه لم يقل في هذه الورقة إلا حقاً . وذهب إلى الشيخ في داره ، فرفع إليه الورقة بعد أن قبل يده وانصرف . فانتظر وطال الانتظار ، ولم يظفر بالجرية قط في هذا الرواق . ولكن ارتقاءه إلى مرحلة المنتظرين أرضى أباه وملاً فخره على كل حال .

وبينما كان ينتظر في طائل أو في غير طائل خرج الأستاذ الإمام من الأزهر في تلك القصة المعروفة ، وبعد تلك الخطبة المشهورة التي ألقاها الخديوي على بعض العلماء .

وكان الفتى يظن أن تلاميذ الشيخ ، وكانوا كثيرين يكتظ بهم الرواق العباسي في كل مساء ، سيحدثون حدثاً ، وسينثون الخديوي بأن شباب الأزهر قد تغيروا ، وبأنهم سيدودون عن شيخهم ، وسيبدلون في سبيل ذلك لا أوقاتهم وحدها بل أرواحهم أيضاً .

ولكن الشيخ ترك الأزهر واتخذ داراً للإفتاء ؛ فلم يزد تلاميذه

عن شيوخه وطلابه . أحس أن الذين بكوا الشيخ صادقين وحزنوا عليه مخلصين لم يكونوا من أصحاب العمائم ، وإنما كانوا من أصحاب الطرابيش ، فوجد في نفسه ميلا خفياً إلى أن يقرب من أصحاب الطرابيش هؤلاء ، وإلى أن يتصل ببيتاتهم بعض الاتصال . ومن له بذلك وهو فقي ضرير قد فرضت عليه الحياة الأزهرية فرضاً فلم يجد عنها منفصراً !

وكان الأستاذ الإمام شيخاً لرواق الحنفية ، فلما خرج من الأزهر أو لما خرج من الحياة أصبح خلفه على الإفتاء خلفاً له على الرواق أيضاً .

وكان ابن المفتي الجديد أستاذاً لصاحبنا الفتي ، سمع عليه في صباه شرح السيد الجرجاني على إيساغوجي في المنطق ، وكان يقوم عن أبيه بأمر الرواق . فأغرى الفتي بالانتساب إلى رواق الحنفية والانتظار فيه . وكانت الجراية في رواق الحنفية أيسر منالا وأكثر عدد أرغفة منها في غيره من الأروقة ، ولم يكن الانتساب إلى رواق الحنفية في أيام الأستاذ الإمام سهلاً ولا يسيراً وإنما كان الامتحان سهيلاً إليه . وقد احتفظ المفتي الجديد بهذه السنة . وكان ابنه هو الذي يمتحن المتقدمين للانتساب في موعد يعينه في العام . فقيل لصاحبنا الفتي مالك لا تنتسب إلى هذا الرواق وقد انتسب إليه أخوك من قبل وأصحابه النجباء أيام الأستاذ الإمام ، وهم يأخذون منه جراياتهم أربعة أرغفة لكل

على أن حزنوا وتحذثوا بالأسف فيما بينهم وبين أنفسهم ، وزار قليل منهم الشيخ في داره بعين شمس ، وانصرف عنه أكثرهم ، وانتهى الأمر عند هذا الحد . فامتألت نفس الفتي حزناً وغيظاً ، وساء ظنه بالطلاب كما ساء ظنه بالشيوخ ، ولم يكن مع ذلك قد عرف الأستاذ الإمام أو قدّم إليه .

وبعد ذلك بقليل توفي الأستاذ الإمام ، فاضطربت مصر لوفاته . وكانت البيئية الأزهرية أقل البيئات المصرية اضطراباً لهذا الحادث الجلل . وأسف تلاميذ الشيخ ، ولعل قليلاً منهم سفحوا بعض الدموع ، ولكنهم أقبلوا بعد الصيف على دروسهم ، كأن الشيخ لم يمُت ، أو كأن الشيخ لم يكن ، لولا أن الخاصة من تلاميذه كانوا يذكرونه بالخير بين حين وحين .

وكذلك عرف الفتي في ألم لاذع ولأول مرة في حياته الناشئة . أن ما يقدم إلى عظماء الرجال من ألوان الإكبار والإجلال وضروب التملق والزبني لغو لا طائل تحته ولا غناء فيه ، وأن وفاء الناس ينحل في أكثر الأحيان إلى كلام لا يفيد .

وزاد سوء الظن بالناس في نفس الفتي قوة ما لاحظته في بعض البيئات من انتهاز وفاة الشيخ فرصة للتجار باسمه ، واستغلال الصلة به ، يتوسلون إلى ذلك بالشعر حيناً وبالثر حيناً آخر ، وبالإعلان في الصحف والمجلات دائماً .

ولكن الفتي أحس شيئاً آخر زاد به انحرافاً عن الأزهر وانصرافاً

واحد منهم في كل يوم ؟ وزين ذلك له وحث عليه أخوه وأصحابه .
وأرسل إلى الامتحان ذات مساء ومعها كتاب إلى الممتحن .
فلما أدخل الفتي على الممتحن حياه وأخذ منه الكتاب فنظر فيه
ثم أتى عليه سؤالاً ورد الفتي جواب السؤال خطأ أو صواباً لم
يدر ، ولكن الممتحن قال له : « انصرف يا علامة » فانصرف
راضياً . ولم يمض إلا وقت قليل حتى أصبح الفتي مستحقاً ونال
رغيفين في كل يوم ، فكثرت الخبز في الغرفة ، وفرحت الأسرة
في الريف .

على أن الفتي لم ينل رغيفين فحسب ، وإنما نال معهما خزانة
في الرواق كانت آثر عنده من الرغيفين . فقد كان يستطيع إذا
دخل الأزهر في الصباح أن يذهب إلى خزانته فيضع فيها نعليه
ورغيفيه أو أحدهما ، ويقضى نهاره حراً لا يعنى بهاتين التعلين
اللتين كان يبذل جهداً غير قليل لحمايتهما من عدوان الخاطفين
والسارقين . وما أكثر ما كانت تسرق النعال في الأزهر !
وما أكثر ما كانت تلتصق على جدران الأزهر من حول الصحن
أوراق يملن فيها أصحابها أن تعالِم قد ضاعت ، وأن من ظفر بها
فردها إلى صاحبها في مكان كذا ، أو رواق كذا ، فله الأجر
والثواب ، ومن احتفظ بها متعمداً قطعه الله من هذا المكان !

كان الفتي إذن سعيداً بخزائنه ورغيفيه ، ولكنه لم يكن سعيداً
بما كان يحصل من العلم أو يسمع من الدرس . وقد كان يكره

نفسه إكراهاً على أن يسمع بعد الفجر درساً في التوحيد كان
يلقيه الشيخ راضى رحمه الله ، وكان يقرأ كتاب المقاصد ، ويسمع
في الصبح درس الفقه على الشيخ بنحيت وكان يقرأ كتاب
الهداية ، ويسمع في الظهر درس البلاغة على الشيخ عبد الحكيم عطا
وكان يقرأ شرح السعد .

وكان درس الفقه يسلى الفتي ويلهيه بما كان يسمع فيه من
غناء الشيخ إذا خلّى الطلاب بينه وبين الغناء ، وحدة الشيخ
ونكته الأزهرية إذا قطع الطلاب عليه غناؤه فجادلوه في بعض
ما كان يقرأ أو كان يقول . وربما كان الشيخ ينشد طلابه أحياناً
من شعره إذا صفا وطابت نفسه للإنشاد . وقد حفظ عنه الفتي
بيتاً من الشعر لم ينس قط صوت الشيخ وهو يتغنى به مترنحاً :
كان عمته من فوق هامته

شنت من التبن محمول على جمل

وقد روى الفتي هذا البيت لأخيه وأصحابه فتصاحكوا وتذاكروا
شعر الشيخ وتناشدوا بعضه . وروى الفتي إلى البيت السابق بيتاً
آخر ليس أقل منه طرافة وظرفاً ، وهو مطلع قصيدة قالها الشيخ
رحمه الله في رثاء بعض العلماء ، وهو :

خطب جليل بعد موتك يا نبي

فقد الأئمة كالإمام المغربي

وقد روى المصريون جميعاً عن الشيخ بعد ذلك العهد بأعوام

طوال بيتاً آخر لم ينسه طرفاؤهم بعد ، وقد سار فيهم كما تسير الأمثال ، وهو :

إنا مع الأمرأ والوفد والوزرا

على وفاق له في القلب تأييد

وكان الفتي ربما جادل الشيخ فأطال الجدل . وقد أسرف الجدل مرة في الطول حتى تأخر الدرس عن إبانته ، وتصايح الطلاب من جوانب المسجد الحسيني بالشيخ أن حسبك فقد نقد القول . فأجابهم الشيخ في غنائه الظريف : لا والله لا تقوم حتى يقتنع هذا المجنون . ولم يكن بد للمجنون من أن يقتنع ؛ فقد كان هو أيضاً حربصاً على أن يدرك القول قبل أن ينفد .

وكان درس البلاغة أثيراً عند الفتي ، لا لما كان يحصل فيه من علم ؛ فقد مضى منذ وقت طويل إقبال الفتي على الدروس في الأزهر لتحصيل العلم ، وإنما كان يقبل عليه أداء للواجب وقطعاً للوقت والتماساً للفكاهة . وكان درس البلاغة أثيراً عنده لأنه كان يجد فيه هذه الفكاهة ، ولأن الشيخ ، نصر الله وجهه ، كان سمح النفس رضى الخلق مخلصاً في درسه للعلم وللطلاب . ولأنه بعد ذلك كان يكلف نفسه في الفهم والإفهام جهداً عظيماً وعناء ثقيلاً . وكان إذا بلغ منه الجهد رفه على نفسه بهذه الجملة يوجهها إلى طلابه بين حين وحين ، في لهجة منياوية عذبة مضحكة « فاهمين يا سيادي ؟ » .

وكان إذا انتصف الدرس أشفق على نفسه وعلى الطلاب فقطع القراءة والتفسير وأقام دقائق صامتاً لا ينطق ، وأقبل على نشوقه فالهم منه بأنفه ما استطاع في تودة وروية وأناة . وكان الطلاب ينتهزون هذه الفرصة ليطفئوا ما كان يتأجج في بطونهم من نار القول والطعمية والكراث بقدر من أقداح الشراب الذي كان يطوف به الباعة عليهم في أثناء الدروس ، ويدعونهم دعاء لطيفاً بهذا النقر الخفيف الذي كان يمس به الزجاج فيبعث إلى الآذان صوتاً خفيفاً ظريفاً .

وفي ذات يوم كان الفتي يستريح مع بعض أصحابه أثناء هذه السكته ، وكان الشيخ مقبلاً على نشوقه والطلاب على شرايهم ، وإذا أحد المشدين يأتي فيدعو الفتي وصاحبيه في رفق إلى غرفة شيخ الجامع .

ولكن هذه قصة لم يأت وقتها بعد . وإن كان الناس قد عرفوها منذ وقت بعيد . وقد قام الفتي وصاحبه عن الدرس ثم لم يعودوا إليه بعد ذلك .

وفي هذا الوقت أو قريباً من هذا الوقت ، وقعت قصة دخل فيها الفتي ومضى فيها إلى غايتها ، ولكنها قضت في نفسه على كل أمل في أن يظفر بنجاح في الأزهر قليل أو كثير .

غضب القصر على شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، فنع الشيخ من إلقاء دروسه ، ورأى الناس أن في هذا المنع ظلماً للشيخ وعدواناً

- على حقوق الأزهر ، ولكنهم لم يصنعوا شيئاً ، وكان الأزهريون أشدهم فتوراً وخضوعاً . ولكن صديقاً من أصدقاء الفتي - كانت له فيها أقبل من الأيام مواقف مشهورة يمجدها له الناس - أقبل عليه ذات يوم فقال له : أأنت ترى فيما حل بشيخنا ظلماً وعدواناً ؟ قال الفتي : بلى وأى ظلم وأى عدوان ! قال له الصديق : ألا تشارك في الاحتجاج على هذا الظلم ؟ قال الفتي : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال الصديق : نجمع نفرأ من أصدقائنا الذين كانوا يسمعون دروس الشيخ ونسعى إليه نتمنى عليه أن يمضي في إلقاء دروسه علينا في بيته ، فإذا قبل انتفعنا بالدرس وأعلننا ذلك في الصحف فعرف الظالمون للأزهر أن بين الأزهريين من لا يقرون الظلم ولا يدعون له . قال الفتي : هذا حسن .

واجتمع نفر من طلاب الشيخ فسعوا إليه بما أرادوا ، وأجابهم إلى ما طلبوا ، فأعلنوا ذلك في الصحف ، وأعلنوا أن الشيخ سيقراً لهم « سلم العلوم » في المنطق « ومسلم الثبوت » في الأصول ، يقسم الأسبوع بين هذين الكتابين .

وبدأ الشيخ دروسه في بيته ، وكثر الطلاب المقبلون على هذه الدروس حين علموا بها ، ورضى هؤلاء الشباب عن أنفسهم وعن شجاعتهم ، وعاد إلى الفتي شيء قليل من الأمل . ولكنه في ذات يوم جادل الشيخ في بعض ما كان يقول . فلما طال الجدل غضب الشيخ وقال للفتي في حدة ساخرة :

« اسكت يا أعمى ما أنت وذاك ! » . فغضب الفتي وأجاب الشيخ في حدة : « إن طول اللسان لم يثبت قط حقاً ولم يمح باطلاً » . فوجم الشيخ ووجم الطلاب لحظة ، ثم قال الشيخ لطلابه : « انصرفوا اليوم فهذا يكفي » .

ولم يعد الفتي منذ ذلك اليوم إلى دروس الشيخ ، بل جهل كل ما كان من أمرها .

وكذلك عاد الفتي إلى بأسه من الأزهر ، ولم يبق له أمل إلا في درس الأدب الذي آن وقت للتحدث عنه وعن آثاره البعيدة في حياة هذا الشاب .

به ، وعرضته لكثير من الشر والألم ، وهي رأيه في أن « عمر » مصروف لا ممنوع من الصرف .

وكان الصبي يسمع حديث « عمر » هذا فلا يفهم منه شيئاً أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن فهمه في وضوح حين تقدم في درس النحو وعرف المصروف والممنوع من الصرف ، وعرف غير المتمكن والمتمكن ، ولتتمكن الأمكن من الأسماء . وكان أولئك الشباب يذكرون مناظرات الشيخ مع جماعات من علماء الأزهر في صرف « عمر » هذا أو منعه من الصرف ، ويتحدثون ضاحكين بأن العلماء اجتمعوا للشيخ ذات يوم في الأزهر يرأسهم شيخ الجامع ، فطلبوا إليه أن يعرض عليهم رأيه في صرف عمر . فقال الشيخ في لهجته المغربية المتحضرة : لا أعرض عليكم هذا الرأي حتى تجلسوا مني مجلس التلاميذ من الأستاذ . فتردد الشيوخ ، ولكن واحداً منهم ماكرأ ماهراً نهض عن مجلسه وسعى حتى كان بين يدي الشيخ فجلس على الأرض متربعاً ، وأخذ الشيخ في عرض رأيه فقال :
أنشد الخليل :

يا أيها الزاري على عُمرٍ

قد قلت فيه غير ما تعلم

قال الشيخ الجالس مجلس التلميذ بصوته الماكر النحيف :
لقد رأيت الخليل أمس فأنشدني البيت على هذا النحو .
« يا أيها الزاري على عُمر » . ولم يدعه الشيخ الشنقيطي يتم إنشاده ،

لم يكذ الصبي يبلغ القاهرة ويستقر فيها حتى سمع ذكر الأدب والأدباء ، كما سمع ذكر العلم والعلماء . سمع حديث الأدب بين هؤلاء الطلاب الكبار حين كانوا يذكرون الشيخ الشنقيطي ، رحمه الله ، وحماية الأستاذ الإمام له وبره به . وقد وقع هذا الاسم الأجنبي من نفس الصبي موقعاً غريباً . وزاد موقعه غرابية ما كان الصبي يسمعه من أعاجيب الشيخ وأطواره الشاذة وآرائه التي كانت تضحك قوماً وتغضب قوماً آخرين .

كان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضربياً للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سناً ومعتاً عن ظهر قلب . وكانوا يتحدثون بحدته وشده وسرعته إلى الغضب وانطلاق لسانه بما لا يطاق من القول . وكانوا يضرّبونه مثلاً لحدة المغاربة . وكانوا يذكرون إقامته في المدينة ورحلته إلى قسطنطينية ، وزيارته للأندلس ، وربما تناشدا شعره في بعض ذلك . وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالخطوط والمطبوع في مصر وفي أوروبا ، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئاً أو ناسحاً . ثم كانوا يذكرون بعد ذلك متضاحكين قصته الكبرى تلك التي شغلته بالناس وشغلت الناس

وإنما قطع عليه الإنشاد محمداً وهو يقول : « كذبت ! كذبت ! لقد مات الخليل منذ قرون طويلة فكيف يمكن لقاء الموق ؟ ! » وجعل بعد ذلك يشهد الشيوخ على تعمد صاحبهم للكذب ، وعلى جهله بالنحو والعروض . وضحك القوم وتفرق المجلس دون أن يقضى في أمر عمر أمتوع من الصرف كما يقول النحاة أم مصروف كما يقول هذا الشيخ الغريب . وكان الصبي يسمع هذا الكلام فيحفظه ، ويجد اللذة فيما فهم منه ، ويعجب بما لم يفهم .

وكان الشيخ يقرأ لبعض الطلاب هذه القصائد التي تعرف بالمعلقات . وكان أخو الصبي وبعض أصلقاته يسمعون هذا الدرس في يوم الخميس أو في يوم الجمعة من كل أسبوع ، وكانوا يعدون هذا الدرس كثيرا من الدروس . وكذلك سمع الصبي لأول مرة :
فقا نبك من ذكرى حبيب ومترل

بسقط الوري بين اللخول فحومل

وما أسرع ما انصرف هؤلاء الطلاب الكبار عن هذا الدرس الذي لم يسيغوه ! ولكن أخا الصبي حاول أن يحفظ المعلقات ، فحفظ منها معلقة امرئ القيس ومعلقة طرفة . كان يردد الأبيات بصوت مرتفع والصبي يسمع فيحفظ ، ثم لم يلبث أن أشرك الصبي معه في الحفظ . ولكنه لم يتجاوز هاتين المعلقتين وانصرف إلى دروسه الأزهرية الأخرى . واستقرت المعلقتان في نفس الصبي يحفظهما ولا يفهم منهما إلا قليلا .

وكان هؤلاء الطلاب يتحدثون عن درس آخر كان يلقي في الأزهر ليعلم الأزهريين صناعة الإنشاء . وكان يلقيه شيخ سوري من خاصة الأستاذ الإمام ، وقد اختلف إليه هؤلاء الطلاب فاشترؤوا الدفاتر وكتبوا موضوعات الإنشاء ، ولكنهم عدلوا عنه بعد قليل كما عدلوا عن درس الشنقيطي . وأقبل أخو الصبي ذات يوم ومعه مقامات الحريري ، فجعل يحفظ بعضها رافعاً صوته بالقراءة والصبي يحفظ صامتاً ، ثم أشركه في الحفظ كما أشركه في حفظ المعلقات ، ومضيا في ذلك حتى حفظا عشر مقامات . ثم انصرف الشيخ الفتى إلى الأصول والفقهاء والتوحيد ، كما انصرف عن المعلقات ودرس الإنشاء .

وأقبل مرة أخرى ومعه كتاب ضخم يسمى نهج البلاغة فيه خطب الإمام عليّ وقد شرحها الأستاذ الإمام نفسه . فجعل يحفظ من هذه الخطب ويحفظ الصبي معه ، ثم أعرض عن هذا الكتاب كما أعرض عن غيره بعد أن حفظ الصبي طائفة من الخطب .

وصنع الشيخ الفتى هذا الصنيع نفسه بمقامات بديع الزمان الهمداني . ولم ينس الصبي قط قصيدة أبي فراس :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر

أما للهوى نهي عليك ولا أمر

فقد أقبل بها أخوه وقد طبع مشطرة أو خمسة ، شطرها أو خمسها بعض الأزهريين ، فجعل يقرأ في هذه القصيدة ، ثم لم يلبث

أن أعرض عن تشطير الأزهرى أو تخميسه وأخذ في حفظ القصيدة نفسها مع أخيه .

وإنما ذكر الصبي هذه القصيدة لأنه صادف في أثنائها بيتاً كان يقع في أذنه موقعاً غريباً ، وهو قول أبي فراس :

بدوت وأهلى حاضران لأننى

أرى أن داراً لست من أهلها قفر

فقد قرأه الشيخ الفنى وحفظه وأحفظه أخاه :

..... لأننى أرى أن دار الـست من أهلها قفر

وكان الصبي يسأل نفسه عن معنى هذا البيت ، كما كان يرى غريباً أن تأتى كلمة « الست » في بيت من الشعر . فلما تقدمت به السن وتقدمت به المعرفة أيضاً قرأ البيت على وجهه ففهمه ، وعرف كذلك أن كلمة « الست » ربما جاءت في شعر المحدثين من العباسيين ونثرهم أيضاً .

وكذلك اتصل صاحبنا بالأدب على هذا النحو المضطرب المختلط ، وجمع في نفسه أطرافاً من هذا الخليط من الشعر والنثر . ولكنه لم يقف عند شيء من ذلك ولم يفرغ له ، وإنما كان يحفظ منه ما يمر به حين تتاح له الفرصة ، ثم يمضى لشأنه وفناقله .

وفي ذات يوم من أول العام الدراسى أقبل أولئك الشباب متحمسين أشد التحمس لدرس جديد يلقي في الضحى . ويلقى في الرواق العباسى ، ويلقيه الشيخ سيد المرصنى في الأدب ، وسما ديوان الحماسة .

وكانوا قد فُتِنُوا بهذا الدرس حين سمعوه فلم يعودوا إلى غرفاتهم حتى اشتروا هذا الديوان ، وأزعموا أن يحضروا الدرس وأن يعنوا به وأن يحفظوا الديوان نفسه . وأسرع أخو الصبي كما دأب دائماً ، فاشترى شرح التبريزى لديوان الحماسة وجلده تجليداً ظريفاً ، وزين به دولابه ذلك ، وإن كان قد نظر فيه بين حين وحين . وقد جعل أخو الصبي يحفظ ديوان الحماسة ويحفظه لأخيه ، وربما قرأ عليه شيئاً من شرح التبريزى . وكان يقرؤه على نحو ما كان يقرأ كتب الفقه والأصول ، ويتفهمه على نحو ما يتفهم هذه الكتب .

وكان الصبي يحسن أن هذا الكتاب لا ينبغي أن يقرأ على هذا النحو ولا أن يفهم على هذا النحو . كان الشيخ الفنى وأصحابه يرون ديوان الحماسة متناً ، وكتاب التبريزى بشرحاً ، وكانوا يأسفون على أن أحداً لم يكتب على هذا الشرح حاشية . وكانوا كثيراً ما يقصون حديث الشيخ لإيهم وعبه بهم وتندره على أسانئهم وعلى كتبهم الأزهرية .

يقصون ذلك ضاحكين منه معجبين به ، ماضين على الرغم منه في درسهم الأزهرى لا يفترون عنه ولا يقصرون فيه .

وكان صاحبنا يسمع أحاديثهم ، فيبهج لها أشد الابهاج ، ويشتاق إلى هذا الدرس أشد الشوق . ولكن أولئك الشباب لم يلبثوا أن أعرضوا عن هذا الدرس كما أعرضوا عن غيره من دروس الأدب ،

لأنهم لم يروه جداً ، ولأنه لم يكن من الدروس الأساسية في الأزهر .
ولنما كان درساً إضافياً من هذه الدروس التي أنشأها الأستاذ
الإمام ، والتي كانت تسمى دروس العلوم الحديثة ؛ وكانت منها
الجغرافيا والحساب والأدب . ولأن الشيخ كان يسخر منهم فيسرف
في السخرية ، ويبعث بهم فيغلو في اللعب .

سواء ظنه بهم ، فأراه غير مستعدين لهذا الدرس الذي يحتاج
إلى الدوق ولا يجتمل الفتنة . وساء ظنهم به ، فأراه غير متمكن
من العلم الصحيح ولا بارع فيه ، وإنما هو صاحب شعر ينشد
وكلام يقال ، ونكت تضحك ثم لا يبقى منها شيء .

وكانوا مع ذلك حراساً على أن يحضروا هذا الدرس ؛ لأن
الأستاذ الإمام كان يحميه ، ولأن الشيخ كان مقرباً من الأستاذ
الإمام ، ينهز كل فرصة لينثني في مدحه قصيدة يرفعها إليه
ثم يلبسها على الطلاب ، ويأخذ بعضهم بحفظها على أنها من جيد
الشعر ورائعه . وكانوا يرونها جيدة رائعة لأنها كانت في مدح
الأستاذ الإمام .

وقد بذلوا ما استطاعوا من الجهد للمواظبة على هذا الدرس ،
ولكنهم لم يطيقوا عليه صبراً ، فانصرفوا عنه وعادوا إلى شايهم
يستمتعون به في الضحى على مهل . وانقطع عن صاحبنا ذكر
الأدب بعد أن حفظ من ديوان الحماسة جزءاً صالحاً . ثم أشيع
ذات يوم أن الشيخ المرصني سيخصص يومين من أيام الأسبوع

لقراءة المنفصل للزخمشري في النحو . فسعى صاحبنا إلى هذا
الدرس الجديد . ولم يسمع للشيخ مرة ومرة حتى أحبه وكلف به ،
وحضر درس الأدب في أيامه من الأسبوع ، ولزم الشيخ منذ
ذلك الوقت .

وكان الصبي قوى الذاكرة ، فكان لا يسمع من الشيخ كلمة
إلا حفظها ، ولا رأياً إلا وعاه ، ولا تفسيراً إلا قيده في نفسه .
وكثيراً ما كان يعرض البيت وفيه كلمة قد مضى تفسيرها أو إشارة
إلى قصة قد قصها الشيخ فيما قدم من درسه ، فكان صاحبنا يعيد
على الشيخ ما حفظ من قصصه وتفسيره وما قيده من آرائه
وخواتمه ونقده لصاحب الحماسة وشرحها ، وتصحيحه لرواية
أبي تمام ، وإكماله للمقطوعات التي كان أبو تمام يرويها .

وإذا الشيخ بحب الفتي ويكلف به ، ويوجه إليه الحديث في أثناء
الدرس ، ويدعوه إليه بعد الدرس فيصحبه إلى باب الأزهر ثم يدعوه
إلى أن يصحبه في بعض الطريق . وقد دعاه ذات يوم إلى أن
يُسعد معه في السير ، حتى انتهى الشيخ وتلميذه هذا وتلاميذ آخرون
إلى قهوة فجلسوا فيها ، وكان هذا أول عهد الفتي بالقهوات . وقد
طال المجلس منذ صليت الظهر حتى دعا المؤذن إلى صلاة العصر .
وعاد الفتي سعيداً مغتبطاً قوى الأمل شديد النشاط .

ولم يكن للشيخ حديث إلى تلاميذه إذا تجاوز درس الأدب
إلا الأزهر وشيوخه وسوء مناهج التعليم فيه . وكان الشيخ قاسياً

إذا طرق هذا الموضوع . وكان نقده لاذعاً وتشبيحه على أسالده
وزملائه ألماً حقاً . ولكنه كان يجد من نفوس تلاميذه هوى
وكان يؤثر في نفس هذا الفتى خاصة بأبلغ تأثير وأعظمه .

وإذا الفتى يؤثر هذا الدرس على غيره من الدروس شيئاً فشيئاً ،
ويختص اثنين من التلاميذ المقربين إلى الشيخ بمودته ثم بوقته .
وإذا هم يلتقون إذا كان الضحى فيسمعون للشيخ ، ثم يذهبون
إلى دار الكتب فيقربون فيها الأدب القديم ، ثم يعودون إلى
الأزهر بعد العصر فيجلسون في هذا المر بين الإدارة والرواق
العباسي ، يتحدثون عن شيخهم وعماً قرعوا في دار الكتب ،
ويعثون بشيوخهم الآخرين ، ويعثون بالداخلين والخارجين من
الشيوخ والطلاب . فإذا صليت المغرب دخلوا الرواق العباسي
فسمعوا درس الشيخ بحيث الذي كان يقرأ في تفسير القرآن مكان
الأستاذ الإمام بعد أن توفي .

ولكن الفتية لم يكونوا يسمعون للشيخ الذي يقرأ كما كان
يسمع له غيرهم من الطلاب ، وإنما كانوا يسمعون له ليضحكوا منه
وليقتيدوا عليه أغلاطه ، وكانت كثيرة ولا سيما حين كان يعرض
للغة والأدب . وليشتنعوا عليه بهذه الأغلاط بعد الدرس ، وليعرضوا
هذه الأغلاط من الغد على شيخهم المرصني ، فيقدموا إليه مادة
جديدة للتشجيع على أساتذته وزملائه من الشيوخ .

وقد كانت نفوس هؤلاء الفتية ضيقة بالأزهر ، فزادها الشيخ

ودرسه به ضيقاً . وكانت نفوسهم شيقة إلى الحرية ، فحط الشيخ
ودرسه عنها القيود والأغلال .

وما أعرف شيئاً يدفع النفوس ، ولا سيما النفوس الناشئة ، إلى
الحرية والإسراف فيها أحياناً كالأدب ، وكالأدب الذي يدرس
على نحو ما كان الشيخ المرصني يدرسه لتلاميذه حين كان يفسر
لهم الحماسة أو يفسر لهم الكامل بعد ذلك . فقد حر للشاعر أولاً ،
وللراوى ثانياً ، وللشرح بعد ذلك ، وللغويين على اختلافهم بعد
أولئك وهؤلاء . ثم امتحان للدوق ورياضة له على تعرف باطن
الجمال في الشعر أو النثر ، في المعنى جملة وتفصيلاً ، وفي الوزن
والنافية وفي مكان الكلمة بين أخواتها . ثم اختبار للدوق الحديث في
هذه البيعة التي كان يلقي فيها الدرس ، وموازنة بين غلظة الدوق
الأزهرى ورقة الدوق القديم ، وبين كلال العقل الأزهرى ونفاذ
العقل القديم ، وانتهاء من هذا كله إلى تحطيم القيود الأزهرية
جملة ، وإلى الثورة على الشيوخ في علمهم وذوقهم وفي سيرتهم
وأحاديثهم بالحق في كثير من الأحيان ، والإسراف والتجني في
بعض الأحيان .

ومن أجل هذا لم يثبت حول الشيخ من تلاميذه الذين كثروا
أول الأمر إلا نفر قليل ، وأمتاز منهم هؤلاء الثلاثة خاصة ، فكونوا
عصبة صغيرة ولكنها لم تلبث أن تبثت أن بعد صوتها في الأزهر ، وتسامع
بها الطلاب والشيوخ ، وتسامعوا خاصة بنقدها للأزهر وثورتها على

التقاليد ، وبما كانت تنظم من الشعر في هجاء الشيوخ والطلاب ،
وإذا هي بغیضة إلى الأزهرین مهیبة منهم فی وقت واحد .
ولم یکن الشیخ أستاذاً فحسب ، ولكنه كان أديباً أيضاً ،
والمعنى ذلك أنه كان يصطنع وقار العلماء إذا لقي الناس أو جلس
للتعليم في الأزهر ، فإذا خلا إلى أصدقائه وخاصتهم عاش معهم
عيشة الأديب ، فتحدث في حرية مطلقة عن كل إنسان وعن
كل موضوع ، وروى لخاصته من شعر القدماء ونثرهم وسيرتهم
ما بثبت أنهم كانوا أحراراً مثله ، يقولون في كل شيء وفي كل
إنسان لا منتظمين ولا متحفظين ، كما كان يقول .

وكان أبسر شيء وأهونه أن يذهب الطلاب مذهب شيخهم ،
ولا سيما إذا أحيوه وأكبروه ، ورأوا فيه المثل الأعلى للصبر على
المكره والرضا بالقليل ، والتعفف عما لا يليق بالعلماء ، والرفع عما
كان ينغمس فيه كثير من شيوخ الأزهر من ألوان السعاية والقيمة
والكيد والتقرب إلى الرؤساء وأصحاب السلطان .

كان تلاميذ الشيخ يرون منه ذلك رأى العين ويلمسونه
بأيديهم ، ويعيشون معه ، في حين كانوا يزورونه في منزله ذلك
المتهدم الحرب القديم في حارة قدرة من حارات باب البحر يقال
لها « حارة الركاكي » . هناك في أقصى هذه الحارة كان يسكن الشيخ ،
يسكن بيتاً قديماً متهدماً ، تدخل فيه من بابه ، فإذا أنت في ممر
ضيق رطب تنبعث فيه روائح كريهة ، قد خلا من كل شيء إلا هذه

الدكة الخشبية الضيقة الطويلة العارية التي قد أسندت إلى حائط
بتساقط منه التراب .

وكان الشيخ ينزل لتلاميذه فيجلس معهم على هذه الدكة ،
ولكنه يجلس راضياً مطمئناً ، يسمع لهم باسماء ويتحدث إليهم
أرق الحديث وأعذبه وأصفاه وأبرأه من التكلف . وربما كان
مشغولاً حين يقبل تلاميذه لزيارته ، فيدعوهم إلى غرفته ، فيصعدون
إليه في سلم مهتم ، ويسلكون إليه دهليزاً خالياً من كل شيء
قد انتشر فيه ضوء الشمس . حتى إذا بلغوا غرفته دخلوا على
شيخ منحرف قد جلس على الأرض ، ومن حوله عشرات الكتب
يبحث فيها عن مقطوعة يريد أن يتمها ، أو بيت يريد أن يفسره ،
أو لفظ يريد أن يحققه ، أو حديث يريد أن يصحح الرأي فيه ،
وعن يمينه أدوات القهوة . فإذا دخلوا عليه لم يتم لهم ، وإنما تلقاهم
مستبشراً فرحاً ، ثم دعاهم إلى الجلوس حيث يستطيعون ، ودعا
أحدهم إلى صنع القهوة وإدارتها عليه وعلمهم . ثم تحدث إليهم
لحظات ، ثم دعاهم إلى أن يشاركوه فيما كان بسبيله من بحث
أو تحقيق .

ولم ينس الفتى وأحد صديقيه أنهما زارا الشيخ ذات يوم
حين صليت العصر . فلما صعدا إليه لقيا شيخاً قد جلس على
فراش متواضع ألقى في هذا الدهليز ، وإلى جانبه امرأة محطمة
قد اتحت حتى كاد رأسها يبلغ الأرض والشيخ يطعمها بيده .

فلما رأى تلميذه هش لهما ، وأمرهما أن ينتظراه في غرفته شيئاً .
ثم أقبل عليهما بعد حين وهو يقول ضاحكاً راضى النفس :
« كنت أعشيتُ أمي » .

كان هذا الشيخ إذا خرج من داره صورة الوفاق والدعة ،
وأمن النفس وطمأنينة القلب وصفاء الضمير . وكان صورة الغنى
واليسار ، لا يحس من يتحدث إليه إلا رجلاً قد يُسرَّ عليه في
الرزق ، فهو يعيش عيشة أمن وهناءة وهندوء .

ولكن تلاميذه وخاصته كانوا يعلمون حق العلم أنه كان من
أشد الناس فقراً وأضيقهم يداً ، وأنه كان يتفق الأسبوع أو
الأسابيع لا يطعم إلا خبز الجراية بغمسه في شيء من الملح ،
وكان على ذلك يعلم ابنه تعليماً ممتازاً ، ويرعى غيره من أبنائه
الذين كانوا يطلبون العلم في الأزهر رعاية حسنة ، ويدلل ابنته
تدليلاً مؤثراً . يصنع هذا كله براتبه الضئيل الذي لم يكن يتجاوز ثلاثة
جنيهات ونصف جنيه . كان من أصحاب الدرجة الأولى ،
فكان يتقاضى جنهاً ونصف جنيه لذلك ، وكان الأستاذ الإمام
قد كلفه درس الأدب فكان يتقاضى لذلك جنيهاً . وكان
يستحي أن يقبض راتبه أول الشهر ، ويكره أن يختلط بالعلماء
وهم يتهاوتون على « المباشر » ليتقاضوا منه رواتبهم ، فكان يدفع
خاتمته إلى تلميذ من خاصته ليقبض له هذا الراتب الضئيل في
الضحى ويؤديه إليه بعد الظهر .

كذلك كان يعيش هذا الشيخ ، وكان تلاميذه يرونه ويشاركونه
في حياته تلك البائسة الحرة الممتازة . وكانوا يرون ويسمعون من
أمر شيوخ آخرين ما كان يملأ قلوبهم غيظاً وحقداً ، ونفوسهم ازدياء
واحتقاراً . فأى غرابية في أن يُفَرِّقَ رأياً بشيخهم ويتأثروه في سيرته
وفي مذهبه وفي ازديائه للأزهريين وثورته بما كان لهم من
تقاليد !

لم ينكر تلاميذ الشيخ عليه في ذلك العهد إلا أنه انحرف
ذات يوم عن الوفاء للأستاذ الإمام حين تولى الشيخ الشربيني
مشيخة الأزهر ، فنظم الشيخ قصيدة يمدح بها الشيخ الجديد ، وكان
تلميذاً للشيخ ومحباً له . وكان الشيخ الشربيني خليفاً بالحلب
والإعجاب . وأملى الشيخ المرصفي على تلاميذه قصيدته التي سماها
ثامنة المعلقات ، والتي عارض بها قصيدة طرفة . فلما فرغ من إملائها
والتف حوله تلاميذه ، مضى في الثناء على أستاذه ، وعرض بالأستاذ
الإمام شيئاً ، فردده بعض تلاميذه في رفق ، فارتد أسفاً خجلاً
واستغفر الله من خطيئته .

وكذلك اندفع هؤلاء التلاميذ فيما دفعهم إليه جهم للشيخ
وتأثرهم به ، فأسرفوا على أنفسهم وعلى شيخهم أيضاً .

لم يكنوا بهذا العبث الذي كانوا يعثونه بالشيوخ والطلاب ،
ولكنهم جعلوا يجهرون بقراءة الكتب القديمة وتفضيلها على الكتب
الأزهرية . يقرءون كتاب سيبويه أو كتاب المفصل في النحو ، و يقرءون

كتابي عبد القاهر الجرجاني في البلاغة ، ويقرون دواوين الشعراء لا يتخرجون في اختيار هذه الدواوين ولا في الجهر بإنشاد ما كان فيهما من شعر المجون أحياناً في الأزهر . ويقلدون هذا الشعر ، ويتناشدون ما يتشئون من ك إذا التقوا . والطلاب ينظرون إليهم شزراً ، ويربصون بهم الدوائر ، ويتنزهون بهم الفرص . وربما أقبل عليهم بعض الطلاب الناشئين يسمعون منهم ويتحدثون إليهم ، ويريدون أن يتعلموا منهم الشعر والأدب ، فيغيظ ذلك نظراءهم من الطلاب الكبار ويزيدهم موجلة عليهم وإثماراً بهم .

وفي ذات يوم كان صاحبنا يعد مع أحد صديقيه درس الكامل ، فعرضت لم هذه الجملة من كلام المبرد : « وما كُفرت الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره : إنما يطوفون برمة وأعواد » . فأنكر صاحبنا أن يكون في كلام الحجاج ما يكفي لتكفيره ، وقال لقد أساء الحجاج أدبه وتعبيره ، ولكنه لم يكفر . ومع بعض الطلاب ذلك فأنكروه ، ثم تناقلوه .

وإن فتياننا الثلاثة لني مجلسهم حول الشيخ عبد الحكم عطا وإذا هم يدعون إلى حجرة شيخ الجامع ، فيذهبون واجمين لا يفهمون شيئاً . فإذا دخلوا على الشيخ « حسونة » لم يجده وحده وإنما وجدوا من حوله أعضاء مجلس إدارة الأزهر وهم من كبار العلماء ؛ فيهم الشيخ بختيت ، والشيخ محمد حسين العلوي ، والشيخ راضي

وآخرون . ويلقاهم الشيخ متجهماً ، ثم يأمر رضوان رئيس المشدين أن يدعو من عنده من الطلاب . فيقبل جماعة من الطلاب فيسألهم الشيخ عما عندهم . ويتقدم أحدهم فيتم هؤلاء الفتية بالكفر لمقاتلهم في الحجاج ، ثم يقص من أمرهم الأعاجيب .

وكان هذا الطالب ماهراً حقاً ؛ فقد أحصى على هؤلاء الفتية كثيراً جداً مما كانوا يعيبون به الشيوخ ، ومما كانوا يعيبون به الشيخ بختيت والشيخ محمد حسين والشيخ راضي والشيخ الرفاعي ، وكانوا جميعاً حاضرين ، فسمعوا بأذانتهم آراء هؤلاء الفتية فيهم . وشهد طلاب آخرون بصدق هذا الطالب في كل ما قال . وسئل الفتية فلم ينكروا مما سمعوا شيئاً . ولكن الشيخ لم يحاورهم ولم يداورهم ، وإنما دعا إليه رضوان فأمره في شدة بمحو أسماء هؤلاء الطلاب الثلاثة من الأزهر ؛ لأنه لا يريد مثل هذا الكلام الفارغ ، ثم صرفهم عنه في عنف . فخرجوا وجلين قد سقط في أيديهم لا يعرفون ماذا يصنعون ، ولا كيف يصورون هذه القصة لأهلهم . ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ولا عند نظر الطلاب إليهم في ضحك منهم وشتمات بهم ، ولكنهم أقبلوا بعهد صلاة العشاء ليلقوا شيخهم المرصق وليسمعوا منه درس الكامل . وأقبل الشيخ ، فلقبه رضوان وأنبأه في أدب ولطف بأن شيخ الجامع قد أنبى درس الكامل ، وبأنه ينتظره في مكتبته إذا كان البند .

فانصرف الشيخ محزوناً ، ومضى معه تلاميذه الثلاثة خجلين

وجلين ، والشيخ يسرى عنهم مع ذلك . حتى إذا كانوا في بعض الطريق خطر لهم أن يذهبوا إلى الشيخ بحيث ليستعطفوه ويوسطوه عند شيخ الجامع . وقال لهم شيخهم : لا تفعلوا ، فلن تبلغوا من سعيكم هذا شيئاً ، ولكنهم مضوا مع ذلك إلى دار الشيخ بحيث . فلما أدخلوا عليه عرفهم فلقاهم ضاحكاً ، ثم سالمهم عن جليلة أمرهم في فتور . فلما أخذوا يدافعون عن أنفسهم قال لهم في فتور أيضاً : ولكنكم تدرسون الكامل للمبرد ، وقد كان المبرد من المعتزلة ، فدرس كتابه إثم .

وهناك نسي الفتية أنهم جاعوا مستعطفين ، وأخذوا يجادلون الشيخ حتى أحفظوه . وانصرفوا عنه وقد ملأه الغضب والمأثم اليأس ، ولكنهم مع ذلك تضاحكوا من الشيخ وأعادوا بعض كلماته ، وتفرقوا وقد تعاهدوا على أن يخفوا الأمر على أهلهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ولقاو شيخهم من الغد ، فأنبأهم بأن شيخ الجامع قد حظر عليه قراءة الكامل ، وكلفه قراءة المعنى لابن هشام ، ونقله من الرواق العباسي إلى عمود في داخل الأزهر .

ثم جعل الأستاذ يعث بشيخ الجامع ، ويزعم لتلاميذه أنه لم يخلق للعلم ولا للمشيخة ، وإنما خلق لبيع العسل الأسود في سرياقوس ، وكان قد فقد أسنانه فكان ينطق السين ثاء ، وكان يتكلم لغة القاهرة فكان يحمل القاف همزة ، ويمد الواو بينها وبين

السين ، وكان يتكلم هامساً ، فلم ينس تلاميذه قط هذه الجملة التي طبعوا بها الشيخ حسوة رحمة الله ، فسموه « بائع العنبل في ثريا ووث » . ولكن بائع سرياقوس هذا كان شديداً حازماً وكان مهيباً صارماً ، يخافه الشيوخ جميعاً ومنهم الشيخ المرصني ، فقد أخذ يقرأ كتاب المعنى ، وذهب إليه تلاميذه مطمئنين ، وما يعينهم أن يقرأ الشيخ هذا الكتاب أو ذلك . حسبي أن يقرأ الشيخ وأن يسمعوا منه ويقولوا له وقد سمعوا منه . فلما هم الفتى أن يقول له بعض الشيء أسكنه في رفق وهو يقول : « لأ ، لأ ، عاوزين ناكل عيش » . ولم يعرف الفتى أنه حزن منذ عرف الأزهر كما حزن حين سمع هذه الجملة من أستاذه ، فانصرف عنه ومعه صديقه وإن قلوبهم لملؤها حزن عميق .

على أنهم لم يرضوا بهذه العقوبة التي فرضها عليهم شيخ الجامع ، وإنما فكروا في الطريق التي يجب أن يسلكوها ليرفضوا عن أنفسهم هذا الظلم . فأما أحدهم فقد أثار العافية وفارق صاحبيه واتخذ لنفسه مجلساً في جامع المؤيد معزل من العدو والصديق حتى تهدأ العاصفة . وأما الآخر فقص الأمر على أبيه ، وجعل أبوه يسعى في إصلاح شأن ابنه سعياً رقيقاً . ولكن الفتى لم يفارق صاحبه ولم يعتزل علواً ولا صديقاً ، وإنما كان يلقي صاحبه كل يوم فيتخذان مجلسهما بين الرواق العباسي والإدارة ، ويمضيان فيما تعودا أن يمضيا فيه من العبث بالطلاب والشيوخ .

وأما صاحبنا فلم يحتج إلى أن يقص الأمر على أخيه ، فقد انتهى الأمر إلى أخيه من طريق لا يعرفها . ولكن أخاه لم يلمه ولم يعتف عليه ، وإنما قال له : « أنت وما تشاء فستجني ثمرة هذاه العث وستجدها شديدة المرارة » . ولكن الفتى لم يكن يعرف رفقا ولا لينا ؛ فلم يسع لى أحد ولم يتوسل إلى الشيخ بأحد ، وإنما كتب مقالا عنيفا يهاجم فيه الأزهر كله وشيخ الأزهر خاصة ويطالب بحرية الرأي . وماذا يمنعه من ذلك وكانت الجريدة قد ظهرت وكان مديرها يدعو كل يوم لى حرية الرأي .

وذهب صاحبنا بمقاله إلى مدير الجريدة فتلقاه لقاء حسنا فيه كثير من العطف والإشفاق . وقرأ المقال ثم دفعه صاحكاً إلى صديق له كان فى مجلسه يومئذ ، فألقى الصديق نظرة على هذا المقال ثم قال غاضباً : لو لم تكن قد عوقبت على ما جنيت من ذنب لكانت هذه المقالة وحدها كافية لعقابك . وهم الفتى أن يرد على هذا الصديق ، ولكن مدير الجريدة قال له مترفقا : إن الذى يحدثك هو حسن بك صبرى مفتش العلوم الحديثة فى الأزهر . ثم قال له : أتريد أن تشتم الشيخ وتعيب الأزهر ، أم تريد أن يرفع عنك هذا العقاب ؟ قال الفتى : بل أريد أن يرفع عنى هذا العقاب ، وأن أستمتع بحقى من الحرية . قال مدير الجريدة : فذع لى إذا هذه القصة وانصرف راشداً .

وقد انصرف الفتى ، ثم لم يلبث أن تبين وتبين معه صاحبا ،

أن شيخ الجامع لم يعاقبهم ولم يمح أسماءهم من سجلات الأزهر ، وإنما أراد تخويرهم ليس غير .

ومنذ ذلك الوقت اتصل الفتى بمدير الجريدة وجعل يتردد عليه ، حتى جاء وقت كان يلقاه فيه كل يوم .

وفى مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشيء طالما تمناه ، وهو أن يتصل ببيئة الطرايش بعد أن سئم بيئة العمائم ، ولكنه اتصل من بيئة الطرايش بأرقاها منزلة وأثراها ثراء ، وكان وهو فقير متوسط الحال فى أسرته ، سبي الحال جداً إذا قام فى القاهرة . فأتاح له ذلك أن يفكر فيما يكون من هذه الفروق الخائلة بين الأغنياء المترفين والفقراء البائسين .

الإجازة أنفع لعقله وقلبه من العام الدراسي كله .
 كانت الإجازة تمكنه من أن يفرغ لنفسه فيفكر -- وما أكثر
 ما كان يفكر ! -- ومن أن يخلو إلى إخوته فيقرأ -- وما أكثر ما كان
 يقرأ ، وما أشد تنوعه وأعظم فائدته !

كان شباب الأسرة يعودون من معاهدهم ومدارسهم وقد ملثوا
 حقايبهم بتلك الكتب التي لا تتصل بدراستهم المنظمة ، ولا يتاح
 لهم أن يقرأوها في أثناء العام . وكانت هذه الكتب ألواناً ، منها الجدد
 ومنها الهزل ، منها ما ألف ومنها ما ترجم ، منها القديم ومنها
 الجديد .

فكان هؤلاء الشباب لا ينفقون أياماً في الأسرة حتى يسأموا
 البطالة ويعافوا الكسل ويقبلوا على كتبهم هذه ، فيمكفروا عليها
 نهارهم وأطرافاً من ليلهم . وكان أبومهم الشيخ يحب منهم ذلك
 ويمحدهم لهم . وربما ضاق منهم بذلك ولاهمهم فيه حين كانوا
 يقبلون على القصص الشعبي فيغرقون في ألف ليلة وليلة ، أو في
 قصص عنتره وسيف بن ذي يزن .

ولكنهم كانوا يقبلون على كتبهم هذه رضيت الأسرة أو
 سخطت . وكانوا يجهدون في هذه الكتب من المتاع واللذة أضعاف
 ما كانوا يجهدون في كتبهم الدراسية . وكانوا يقرءون ما ترجم فتحى
 زغول عن الفرنسية ، وما كان السباعي يترجم عن الإنجليزية ،
 وما كان جورجي زيدان يكتب في الهلال من مقالات ، وما كان

واشتد ضيق القى بالأزهر وأهله وبجياته في القاهرة ، غارقاً فيما
 لا يحب ، مُقضى عما تشبهه نفسه ويتحرق إليه قلبه . حتى لقد
 كان يصل إلى القاهرة في أول العام الدراسي ، فلا يكاد يستقر
 فيها حتى يدعو آخره متشديداً في الدعاء أو ملحماً فيه . والله وحده
 يعلم كم كان يسعد ويبهج حين كانت بشارت الصيف تقبل ، وحين
 كانت أرجاء الحى الذى كان يقيم فيه تمتلئ بهذه الروائح
 الكريمة التي كانت تبعها حرارة الشمس فتملأ الهواء وتجعل
 التنفس ثقيلًا بغيضاً ، وحين كان لا يجلس إلى شيخ من شيوخه
 في درس من دروس الظهر أو درس من دروس المساء إلا أسرع
 النوم إلى رأسه فحقق به خفقا عنيقا يلفت إليه الطلاب من حوله
 فيوقظونه جادين أو هازلين .

كان مقدم الصيف يملأ صدره حيوراً وبشراً ، لأنه كان يؤذن
 بقرب الإجازة والعودة إلى الريف والراحة من الأزهر والأزهريين .
 ولم يكن يحب الإجازة لهذا وحده ، ولم يكن يحبها لأنه سيلقى
 فيها أهله ، ولأنه سينعم فيها بما كان يمتنع عليه في القاهرة من
 طبيبات الحياة ، وإنما كان يحب الإجازة لهذا كله ولشيء آخر
 كان أعظم في نفسه خطراً وأبعد أثراً من هذا كله ؛ فقد كانت

ينشر من قصص ، وما كان يؤلف من كتب في تاريخ الأدب والحضارة ، وما كان يعقوب صروف يكتب في المقتطف ، وما كان الشيخ رشيد يكتب في المنار .

وفي الإجازات قرءوا كتب قاسم أمين ، وكثيراً من آثار الأستاذ الإمام . وكانوا يقرءون هذه القصص الكثيرة التي كانت تترجم لتلهية القراء والتي كانوا يفتنون بما كانوا يجدون فيها من صور للحياة تخالف ما عرفوا في ريفهم ومدنهم . وكان هذا كله يفرهم بالمضى في القراءة حتى يسرفوا على أنفسهم ، وربما أسرفوا على أسرهم أيضاً ؛ فقد كانوا لا يجدون في الصحف والمجلات إشارة إلى كتاب جديد أو كتاب قديم لم يعرفوه إلا كتبوا إلى الناشر يطلبون إليه إرساله إليهم . وما هي إلا أيام حتى يأتي الكتاب أو تأتي الكتب محمولة على البريد ، وحتى تضطر الأسرة إلى أن تدفع ثمنها سواء أرضيت عن ذلك أم ضاقت به .

وكان صاحبنا يحب الإجازة لأنه كان يفرغ للتفكير في أصدقائه من بعيد ، فيكتب إليهم ويتلقى منهم الكتب ، ويجد في نفسه لذلك نشاطاً وبه لذة لم يكن يجدها حين يلقى أصدقائه في القاهرة ويتحدث إليهم من قريب .

ثم كان يحب الإجازة لأنه كان يلقى فيها شباباً آخرين غير شباب أسرته ، شباباً من بيئة الطرابيش ، منهم من كان في المدارس الثانوية ، ومنهم من كان في المدارس العالية ، قد أقبلوا مثله

يلتمسون الراحة بين أهلهم في الريف . وهم يجدون في لقائه والتحدث إليه من اللذة والمتاع مثل ما يجد هو في لقائهم والتحدث إليهم ، فكان يسألهم عما يتعلمون ويسألونه عما يتعلم . وربما قرءوا عليه بعض كتبهم ، وربما قرأ معهم شيئاً من الأدب القديم . ولكنه أنكر بعض إجازاته أول الأمر ؛ فقد حدث حدث في

أسرته ، فتحولت عن مدينتها التي نشأ فيها الصبي إلى أعلى الإقليم أول الأمر ، فأقامت فيه عاماً أو عامين ثم تحولت بعد ذلك إلى أقصى الصعيد ، فأقامت فيه أعواماً طويلاً . وكان صاحبنا شديد الحزن على مدينته القديمة ، شديد الضيق بهذه الأماكن الجديدة التي لا عهد له بها ، والتي لم يكن يستطيع أن يذهب فيها عن يمين أو شمال . ولكنه اطمأن أخيراً إلى مدينته تلك في أقصى الصعيد حتى ألفها أشد الإلف وكلف بها أعظم الكلف ، وأصبحت له وطناً ثانياً ، مع أن زيارته الأولى لهذه المدينة قد أذته وشقت عليه .

ذهب إليها مع الأسرة كلها لزيارة أبيه الشيخ ، وكان قد بدأ عمله فيها وحيداً . فلما دبر أمره واستقر به المقام دعا الأسرة إلى أن تنتقل إليه . وصادف ذلك إجازة الصيف ، فانتقلت الأسرة ومعها الفتى . ركب القطار منتصف الليل ، وبلغت تلك المدينة في الساعة الرابعة من غد . وكانت المدينة جديدة ، وكان القطار لا يقف فيها إلا دقيقة واحدة . وكانت الأسرة ضخمة يقودها

أكبر أبنائها، وفيها النساء والأطفال، ومعها متاع ضخم عظيم . فلما دنا القطار من المحطة أقبل كبار الأسرة على النساء والأطفال والمتاع يقربون ذلك كله من باب العربة ، حتى إذا وقف القطار دفعوا ذلك كله دفعا إلى الأرض ، ثم توارثوا من ورائه ، ومضى القطار ولم ينسوا فيه إلا أبحارهم هذا الضريع .

وقد دعر الفتي حين رأى نفسه وحيداً عاجزاً عن أن يقضى في أمره بشيء . ولكن جماعة من السفر رأوا عجزه وحيرته ، فرفقوا به وسجلوا يهدئونه . حتى إذا وقف القطار في أول محطة أنزلوه وأسلموه إلى صاحب التلغراف وعادوا إلى قطارهم .

وقد عرف الفتي بعد ذلك أن الأسرة بلغت دارها في مدينتها الجديدة ، فجعلت تزور الدار وتفقد حجراتها وغرفاتها ، وتقر كل شيء في مكانه . ثم أقبل الشيخ عليها فجلس يتحدث إلى هذا وذلك من أبنائه وإلى هذه وتلك من بناته .

ثم جرى عرضاً ذكر الفتي بعد أن مضى على وصول الأسرة وقت غير قصير . فلما سمع الشيخ اسم الفتي ارتاع وارتاعت أمه وارتاع إخوته ، وهروا الشباب منهم إلى مكتب التلغراف ، ولكنهم لم يبلغوه حتى وجدوا النبأ بأن أحارهم في المحطة المحاورة ينتظر من يأتي ليرده إليهم . فأرسلوا إليه من جاء به ردفاً على ظهر بغلة كانت تسعى هادئة مرة مهملة به مرة أخرى ، فتضيف في قلبه فرقا إلى فرق وذعراً إلى ذعر .

ولم ينس الفتي قط مجلسه عند صاحب التلغراف ، وكان شاباً نشيطاً كثير الضحك كثير المزاح ، وقد اجتمع إليه جماعة من موظفي المحطة ، فلما رأوا عنده هذا الفتي أنكروه ثم عرفوا أمره ، فأظهروا العطف عليه والرفقة له . وقد رأوا شيخاً ضريراً ، فما شكوا في أنه يحسن قراءة القرآن أو يحسن الغناء . وهم يطلبون إليه أن يغني لهم شيئاً . فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن الغناء طلبوا إليه أن يقرأ لهم شيئاً من القرآن . فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن التصويت بالقرآن ألحوا عليه وأبوا إلا أن يسمعه . واضطر الفتي إلى أن يقرأ القرآن خجلاً وجلاً مستحيماً ضيقاً بالحياة لاعتناً للأيام ، وإذا صورته يحنس في حلقه ، وإذا الدموع تنهمر على خديه وإذا القوم يرفقون به وينصرفون عنه ، ويتركونه وحيداً أو كالوحيد حتى يأتي من يرده إلى أسرته .

آذت هذه القصة الفتي في نفسه ، ولكنها على ذلك لم تبغض إليه المدينة الجديدة ، ولم تزهد في زيارتها ، وإنما أحبها وجعلت نفسه تشتاق إليها أشد الشوق كلما دنا الصيف ، وإن كان الحر فيها شديداً لا يطاق .

وتغيرت أمور أهل الربيع تغيراً شديداً . فأما كبار الطلاب فقد ظفر اثنان منهم بدرجة العالمية ، والتحق سائرهم ، ومنهم أخو الفتي ، بمدرسة القضاء الشرعي لأول إنشائها . وأما الفتي فقد فارقه ابن خالته ذاك الذي كان يعينه على وحدته في الأزهر والربيع معاً والتحق بدار العلوم .

ونظر الفتى فإذا هو يعود إلى عزلته القاسية المنكرة التي طالما حملته ألوان العذاب في أول عهده بطلب العلم ، وإذا أمره يزداد شدة وقسوة ، فلن يفرغ له أحد إذا عاد إلى القاهرة بعد انقضاء الصيف . سيذهب أخوه إلى مدرسة القضاء . وسيذهب ابن خالته إلى دار العلوم . وماذا عسى أن يصنع هو وحيداً في الربيع ؟ وأي نفع له أو لغيره في أن يذهب إلى القاهرة ؟ لقد أخذ من العلم حظاً لا بأس به . وما عسى أن يفيد من درجة العالمية إن ظفر بها ! وأكبر الظن أنه لن يظفر بها ؛ فإن نيلها يحتاج إلى جهد عظيم لا يستطيع هو أن يبذله وحده . كذلك قال أخوه للأسرة في يوم من أيام الصيف حين أوشكت الإجازة أن تبلغ أجلها . وقد همّ الشيخ الوالد أن يقول شيئاً فقطع ابنه عليه الكلام بهذه الحجج المضحمة . ولم تجد أم الفتى ما تقول فأرسلت دموعاً صامتة غزيراً . ونهض الفتى فنهض متعثراً حتى خلا إلى نفسه في إحدى الحجرات جامداً واجماً لا يفكر في شيء .

وكانت ليلة ثقيلة طويلة لقي الفتى فيها من نفسه عذاباً شديداً . ثم أصبح لا يقول شيئاً ولا يقول له أحد شيئاً ، ففضى نهراً تقيلاً طويلاً . ثم أقبل عليه أبوه الشيخ مع المساء فسح رأسه وقبله وقال له : ستهب إلى القاهرة ، وسيكون لك خادم خاص . هنالك أحجش الفتى بالبكاء وأجهشت أمه بالبكاء أيضاً .

وجاء يوم السفر وخرج شباب الأسرة إلى القطار وفيهم الفتى .

وكان أهل الخادم قد ضربوا للأسرة موعداً في المحطة . فهؤلاء الشباب يبلغون المحطة ، وهذا القطار يصل ولم يأت الخادم . وهؤلاء شباب الأسرة يركبون القطار وهو يمضى بهم وقد تركوا الفتى فعاد به أبوه إلى الدار وكلاهما واجم حزين .

ويأتي الخادم مع الليل فيعود إلى الفتى استبشاره وإبتهاجه . ويسافر مع خادمه الأسود الصغير إلى القاهرة بعد يومين وقد حمل إلى أخيه طعاماً وزاداً .

وقد بلغ القاهرة وأقام فيها مع خادمه هذا الأسود ، يختلف معه إلى دروس الأزهر ، ويقرأ له طعام الإفطار ، ويقرأ له قراءة محطمة متعثرة أثناء فراغه .

ولكن الجامعة قد أنشئت ، وإذا صاحبنا يُقبل عليها ويتسبب إليها . وإذا هو يختلف مع غلامه الأسود إلى دروس الأزهر مصباحاً وإلى دروس الجامعة ممسياً . وإذا هو يجد للحياة طعاماً جديداً ، وإذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة لا سبيل إلى الموازنة بينهم وبين أساتذته في الأزهر .

وقد بعدت الجامعة عن الربيع ، وبعدت عنه مدرسة القضاء ، وبعدت عنه دار العلوم ، فلم يبق للجماعة فيه مقام ، وإذا هي تتحول عنه إلى بيت جديد أيضاً في درب الجماهير .

وإذا الفتى يستأنف حياة لا صلة بينها وبين حياته القديمة إلا أنه كان ربما ألم بالأزهر مرة في الأسبوع أو في الأسبوعين ،

وإلا أنه كان ربما لقي أصدقاءه من الأزهريين حين كانوا يسعون إلى الجامعة بين حين وحين ، وإلا أنه كان يزور الشيخ المرصني من وقت إلى وقت .

وفي الحق أن الفتي قد قطع الصلة بينه وبين الأزهر في دخيلة نفسه وأعماق ضميره ، ولكنه ظل مقيداً في السجلات . ولم يظهر أباه على ما تم عليه عزمه مخافة أن يحزن الشيخ أو ييأس ، فما كان يعرف من أمر الجامعة شيئاً ، وما كان يعنى من أمر الجامعة بقليل أو كثير . ولكن الفتي عاد مع إخوته إلى مدينتهم تلك في إجازة الصيف . ولهم لى قراءتهم ذات يوم وإذا البريد يحمل إلى أخيه كتاباً من أحد أصحابه ، وإذا هو يقرأ هذا الكتاب ثم يعيد قراءته على أخيه الفتي فيسمع منه عجباً من العجب .

كان الفتي قد أتفق في طلب العلم في الأزهر ثمانى سنين . وكان الأزهر قد تعرض لألوان مختلفة من النظام . فلما كان ذلك الصيف أبيع للطلاب المستبين أن يزبلوا مدة انتسابهم النظامية إذا استطاعوا أن يشتوا أنهم درسوا في الأزهر أو في المعاهد الدينية الأخرى قبل أن يبلغوا السن التى كانت تبيح لهم الانتساب النظامى وهو اثنتا عشرة سنة ، ليتعجلوا تقدمهم للامتحان وظفرهم بالدرجات .

وأعلن هذا الترخيص في أثناء الإجازة ، فيسرع هذا الصديق فيكتب إلى المشيخة طلباً باسم الفتي ، يزعم فيه أنه قد درس في

الأزهر ستين قبل أن يبلغ السن القانونية . ويعرض هذا الطلب على اثنين من كبار الشيوخ لم يرهما الفتي ولم يرياه قط ، لم يسمع لهما الفتي درساً ولم يسمعا منه شيئاً ، ولكنهما يقرآن ثم يشهدان بأن الفتي لم يقل إلا حقاً . وأى بأس لذلك وما أكثر من اختلاف إليهما من الطلاب ! وكيف السبيل إلى أن يعرفا تلاميذهما الذين لا يحصون ! وكذلك عرف الفتي من حيث لا يدري أنه قد أتفق في الأزهر عشرة أعوام وإن لم يفتق فيه إلا ثمانية ، وأنه لم يبق بينه وبين التقدم لنيل الدرجة إلا ستان اثنتان .

فليصل إذاً من جبل الأزهر ما انقطع أو ما هم أن ينقطع ، وليظل إذاً طالباً بالجامعتين : بالجامعة الأزهرية كما كان الأزهر يسمى في ذلك الوقت ، وبالجامعة المصرية . وليحى إذاً هذه الحياة المشتركة التى يتجاذبه فيها قديم الأزهر في ذلك الحى العتيق بين الباطنية وكفر الطماعين ، وجديد الجامعة في ذلك الحى الأتيق من شارع قصر العيني . فلندعه كما كان موضوعاً للصراع بين القديم والجديد . ومن يدري ! لعلنا نعود إليه مرة أخرى .

وها أنت ذا يا بنى تهجر وطنك ومدينتك ودارك وتفرق أهلك وأصدقاءك ، وتعبّر البحر في سنك هذه الصغيرة لتطلب العلم وحيداً في باريس .

فدعنى أهدي إليك هذا الحديث لعلك ترتاح إليه بين حين
 وحين إذا أجهدك درسك ووجدت في اللاتينية واليونانية مشقة
 أو عناء . هنالك ترى لوتاً لم تعرفه من ألوان الحياة في مصر ، وتذكر
 شخصاً طالما ارتاح إلى قربك منه ، وطالما وجد في جددك وهزلك
 لذة لا تعدلها لذة ، ومتاعاً لا يعدله متاع .

فيك سورسير

يوليو - أغسطس سنة ١٩٣٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٩٤٣

I.S.B.N 977-01-3820-7

الأيام

(الجزء الثالث)

المكتبة العربية

www.tipsclub.net

Amly

طه حسين

الفصل الأول

على باب الأزهر

كان صاحبنا الفتى قد أنفق أربعة أعوام في الأزهر . وكان يعدّها أربعين عاماً . لأنها قد طالت عليه من جميع أقطاره . كأنها الليل المظلم ، قد تراكت فيه السحب القائمة الثقال ، فلم تدع للنور إليه منفذاً . ولم يكن الفتى يضيق بالفقر . ولا يقصر يده عما كان يريد ، فقد كان ذلك شيئاً مألوفاً بالقياس إلى طلاب العلم في الأزهر الشريف .

وكان الفتى يرى من حوله عشرات ومئات يشقّون كما يشقى . وبلقّون . مثل ما يلقي . وتقصر أيديهم عن أقصر ما كانوا يحبّون . قد اطمأنوا إلى ذلك ، وألفته نفوسهم ، واستيقنوا أن الثراء والسعة وخفض العيش أشياء تعوق عن طلب العلم ، وأن الفقر شرط للجدّ والكّد والاجتهاد والتحصيل ، وأن غنى القلوب والنفوس بالعلم خير وأجدى من امتلاء الجيوب والأيدى بالمال .

وإنما كان يضيق أشدّ الضيق بهذا السأم الذي ملأ عليه حياته كلها ، وأخذ عليه نفسه من جميع جوانبها .

حياة مطّردة متشابهة لا يجد فيها جديدٌ منذ يبدأ العام الدراسي إلى أن ينتهي : درس التوحيد بعد أن تُصلى الفجر . ودرس الفقه بعد أن تشرق الشمس ، ودرس في النحو بعد أن يرتفع الضحى ، وبعد أن يصيب الفتى شيئاً من طعام غليظ ودرس في النحو أيضاً بعد أن تُصلى الظهر ، ثم فراغ فارغ كثيف بعد ذلك يصيب



فيه الفتي شيئاً من معام غليظ مرة أخرى . حتى إذا ضلّيت المغرب وراح إلى درس المنطق يسمعه من هذا الشيخ أو ذاك . وهو في كل هذه الدروس يسمع كلاماً هماداً وأحادث لا تمس قلبه ولا ذوقه ، ولا تغذو عقله . ولا تضيف إلى علمه علماً جديداً . فقد تربت في نفسه تلك الملكة كما كان الأزهريون يقولون ، وأصبح قادراً على أن يفهم ما يكرره الشيوخ من غير طائل .

وكان الفتي يفكر في أن أمامه ثمانية أعوام أخرى ، سيمدها ثمانين عاماً ، كما عدّ الأعوام الأربعة التي سبقتها . وفي أن عليه أن يختلف إلى هذه الدروس كما تعود أن يفعل ، وأن يعيد ويبدئ في هذا الكلام ، الذي لا يُسيغه ولا يجد فيه غناء . وفي أثناء هذا كله ذُكر اسم الجامعة ، فوقع من نفسه أول الأمر موقع الغرابة الغربية ، لأنه لم يسمع هذه الكلمة من قبل ، ولم يعرف إلا الجامع الذي كان يفتق فيه بياض النهار وشرطراً من سواد الليل . فما عسى أن تكون الجامعة ، وما عسى أن يكون الفرق بينها وبين جامعها ذلك أو جوامعها تلك الكثيرة التي كان يختلف فيها إلى شيوخه . فما أكثر ما كان بعض الشيوخ يتأون بدروسهم وطلابهم عن الأزهر ، ويؤثرون أنفسهم بمسجد من هذه المساجد الكثيرة في الحي ! وكان تنقل الفتي بين هذه المساجد يرقه عنه بعض الترفيه .

على أنه لم يلبث أن فهم كلمة الجامعة هذه فهماً مقارباً ، وعرف أنها مدرسة لا كالمدارس ، وأحس أن مزيتها الكبرى عنده أن الدروس التي ستلقى فيها لن تشبه دروس الأزهر من قريب أو بعيد ، وأن الطلاب الذين سيختلفون إليها لن يكونوا من الممتمين وحدهم ، بل سيكون فيهم المطربشون ، وعسى أن يكونوا أكثر عدداً من أصحاب العمام ، لأن هؤلاء لن يعدلوا بعلمهم الأزهرى علماً آخر ، ولن يشغلوا أنفسهم بهذه القشور التي يضيع فيها أبناء المدارس - كما كانوا يسمونهم في تلك الأيام - أوقاتهم .

وكان نبأ الجامعة هذا إيذاناً للفتى بأن غمته تلك توشك أن تُكشَف ، وبأن غَمَرته تلك توشك أن تنجلي . فقد يُتاح له أن يسمع غير ما تعود أن يبدئ فيه ويعيد من علمه ذاك الممل . وقد أقام الفتى مع ذلك على شكِّه ممضٍ يؤذي نفسه أشد الإيذاء ، ولا يستطيع أن يصرح به لأحد من أصدقائه أودوى خاصته .

أقبله هذه الجامعة بين طلابها حين يتم إنشاؤها أم تردّه إلى الأزهر رداً غير جميل لأنه مكفوف ، وليس غير الأزهر سييلاً إلى العلم للمكفوفين ؟ كان هذا الشك المؤلم يؤرّق ليله ويقضّ مضجعه ، ولم يكن يناجى به إلا نفسه . كان يستحي أن يتحدث عن آفته تلك إلى الناس ، وكان يؤذيه أشدّ الإيذاء أن يتحدث الناس عنها إليه ، وما أكثر ما كانوا يفعلون !

عاش إذن بين خوف ملحّ ورجاء ضئيل يعتاده بين حين وحين ، فيفتح لنفسه شيئاً من راحة وروح . حتى إذا أنشئت الجامعة وعلم الفتى علمها ذهب عنه الخوف ، وبلا الأمل نفسه رضاءً وبهجة وسروراً . واختلف إلى دروسه في الأزهر ذات يوم فلم يسمع من شيوخه شيئاً ، ولم يفهم عنهم شيئاً . كان في شغل عنهم وعن دروسهم بما سيكون حين يقبل المساء . ولأول مرة سمع درس الأدب في الضحى فكان حاضراً كالغائب ، وبقطاً كالنائم ، ولم ينتظر أن تُصلّى العصر ، وإنما سعى إلى الجامعة في أعقاب درس البلاغة مع زميليه ، فأدّى كلّ منهم ذلك الجنبه الذي لم يكن يبدّ من أدائه ليؤدّن له بالاستماع إلى الدروس . وكان غريباً عند هؤلاء الفتيّة أن يشتروا العلم بالمال وإن كان قليلاً . فهم لم يعودوا ذلك ولم يألفوه ، وإنما تعودوا أن يرقوا أرغفة في كلّ يوم ليطلبوا العلم في الأزهر ، وقد وجدوا بعض ما يقيم الأود . وكان أداء ذلك الجنبه عليهم عسيراً ، ولكنهم أحبوا دروس الجامعة بمقدار ما وجدوا من العسر في أداء ثمنها .

واستمع الفتى لأول درس من دروس الجامعة في الحضارة الإسلامية . فزاعه

أول ما راعه شيء لم يكن له بمثله عهد في الأزهر ، فهذا أحمد زكي بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التي لم يسمعها الفتى من قبل : « أيها السادة : أحبيكم بتحية الإسلام ، فأقول السلام عليكم ورحمة الله » .

وإنما كان الفتى يسمع في الأزهر كلاماً آخر لا يتجه به الشيوخ إلى الطلاب ، وإنما يتجهون به إلى الله عزّ وجلّ فيحسدونه ويشنون عليه ، ولا يجيئ فيه الشيوخ طلابهم ، وإنما يصلّون فيه على النبي وعلى آله وأصحابه أجمعين !

ثم راع الفتى بعد ذلك أن الأستاذ لم يقل في أول درسه : « قال المؤلف رحمه الله » وإنما استأنف الدرس يتكلم من عند نفسه ولا يقرأ في كتاب . . . وكان كلامه واضحاً لا يحتاج إلى تفسير ، وكان سويّاً مستقيماً لا تنفلة فيه ولا اعتراض عليه . وكان غريباً كلّ الغريبة ، جديداً كلّ الجديده ، تلك على الفتى عقله كله وقلبه كله ، فاشغل عن صحابه ، وشغل عن كان حوله من الطلاب ، وما كان أكثرهم ! حتى إذا أشك الدرس أن ينقضي ، أعلن الأستاذ أنه سيعيد هذا الدرس بعد دقائق ليتاح للطلاب الكثيرين الذين لم يسمعوا من دخول الغرفة أن يسمعه . وانصرف الفوج الأول من الطلاب ، ولكن صاحبنا لم يرم ، وإنما أقام في مكانه حتى سمع الدرس مرة أخرى .

لم يسمع الفتى من ليكته تلك ، وسمع المؤذن يدعو إلى صلاة الفجر فلم ينهض من فراشه ، وإنما تناقل وتناقل ، ولم يخرج من غرفته إلا حين ارتفع الضحى . ولولا درس الأدب في الرواق العباسي لظلّ في غرفته حتى يقبل المساء .

وقد سمع الفتى درس الأدب غير حتى به أول الأمر ، ولكن الشيخ سأله عن شيء فحلحج الفتى وسخر منه الشيخ ، وسأله عن هذين المقتطفين اللذين رُكبا في رأسه ماذا يصنع بهما ، يريد بالمقتطفين أذنيه . ومنذ ذلك الوقت أقبل الفتى على درس الأدب هذا كما كان يقبل عليه من قبل ، فلم يضيع مما قال الشيخ حرفاً .

وسمع بعد ذلك درس النحو فلم يمنح الأستاذ إلا أحد مقطفيه هذين ، ولعله لم يمنحه مقطفه كله . . إنما كان يعيش لساعة المساء ، ويتعجل ذلك الدرس الذي سيسمعه من أحمد زكي بك عن الحضارة المصرية القديمة . وقد سمعه فلم تسعه الأرض على رُحْبها ؛ سمع أشياء لم تكن تحظر له على بال ، ولم يكن يتصور أنها قد كانت ، أو أن الناس يمكن أن يتحدثوا بمثلها .

وكان تحرقه إلى درس اليوم الثالث أشدَّ وأقوى من تحرقه إلى الدرسين اللذين سبقاه ، فسيكون الأستاذ إيطالياً ، وستحدث باللغة العربية . إيطالي يتحدث إلى المصريين في العلم بلغتهم العربية ، وفي شيء لم يسمع الفتى وأترابه الأزهريون به قبل يومهم ذلك ، ولم يفهمه الفتى وأترابه حين سمعوه ، أنكرته آذانهم ، وأنكرته نفوسهم وأذواقهم أيضاً . وكان اسم هذا الشيء الغريب : « أدبيات الجغرافيا والتاريخ » .

ما كلمة الأدبيات هذه ؟ وكيف تكون في الجغرافيا والتاريخ ؟ وقد أقبل الفتيّة على الدرس فلم يفهموا شيئاً ، لأنهم لم يسمعوا شيئاً .

كان الأستاذ أغناشيوجودي شيخاً كبيراً نحيف الصوت ضئيلة جداً لا يبلغ عنه أقرب الطلاب إليه مجلساً ، وكان الطلاب كثيرين ، وكانت ضالة الصوت تغريم بالضجيج ، فضاع الدرس الأول في غير طائل بعد أن تعب الأستاذ في إلقائه ، وتعب الطلاب في محاولة الاستماع له . واضطرت الجامعة إلى أن تختار من الطلاب أرفعهم صوتاً وأفصحهم نطقاً ليبلغ عن الأستاذ كما يبلغ أحد المصلين عن الإمام حين تقام الصلاة .

ولم ينفق الفتى ثلاثة أيام منذ افتتاح الجامعة حتى تغيرت حياته تغيراً فجاجياً كاملاً .

الفصل الثاني

كيف سقطت في امتحان العالمية !

لم يكد صاحبنا يتصل بالجامعة حتى رتت الأسباب بينه وبين الأزهر ، فأصبح لا يمنحه من الوقت إلا أقصره ، ولا يعطيه من الجهد إلا أسره . ولم تكن الجامعة وحدها هي التي صرفته عن الأزهر ، وإنما صرفه عنه قبل ذلك زهده فيه ، وضيقه به ، ومكّله من أحاديثه المعادة . وقد انصرف صاحبنا عن الأزهر أيضاً : ذهب أحدهما إلى كلية الفرير يعلم فيها اللغة العربية ، وذهب الآخر إلى المطبعة الأميرية يصحح فيها ما كانت تطبع من الكتب ، فلم يبق لصاحبنا في الأزهر أرب ، وقد ضاق حتى بأحب ما كان في الأزهر إلى نفسه ، وهو المدرس الشيخ سيد المرصني . فأعرض عنه كل الإعراض ، لا زهداً فيه ، ولا نفوراً منه ، ولكن سخطاً على الشيخ رحمه الله ، لأنه أذعن لشيخ الأزهر وأسرف في الإذعان ، وأعرض عن معاينة تلاميذه ، وتوهم أن الجواسيس قد أرسدت له ، وبُثت عليه ، فتحفظ في كل ما كان يقول ، وكره أن يسمع من تلاميذه بعض ما كانوا يأخذون فيه إذا جلسوا إليه من عبث الشيوخ ونحوض في حديثهم ! ! وقال للفتى ذات يوم حين أخذ في بعض ذلك : « لا ، لا ، لا . دعنا نأكل العيش . . ! » ، فتركه الفتى يأكل العيش . . . وأصبح لا يلقاه إلا يوم الجمعة يسعى إليه في بيته ، فينفق معه الساعات حلوة حرّة ، يقول فيها ما يشاء ، ويسمع ما يشاء الشيخ أن يقول ، وما أكثر ما كان الشيخ يقول !

ومنذ ذلك الوقت أيضاً سلك الفتي في حياته طريقاً لم يكن يُقدَّر أن سيتاح له سلوكها ، فاتصل بالجريدة ومديرها الأستاذ لطفى السيد ، وقويت الصلة بينهما حتى كان يلقاه مرات في كل أسبوع ، وكان يلقى عنده من شيوخ المطربين وشبابهم قوماً كثيرين ، وكانت أحاديث الأستاذ وزائريه تفتح للفتى أبواباً من العلم والعرفه لم تكن تخطر له ببال من قبل ، ولم يكن يقدر وجودها فضلاً عن اتصاله بها من قريب أو بعيد .

واتصل الفتي كذلك بالشيخ عبد العزيز جاويش - رحمه الله - فأكثر الاختلاف إليه والاستماع له . وما هي إلا أن أخذ يجرب نفسه في الكتابة ، كما جرب نفسه في الشعرين لدى أستاذه المرصني . ولم يكد الفتي بأخذ في الكتابة حتى عُرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد ، قلما كان الشباب يقدمون عليها في تلك الأيام . ولكنه كان نقداً حافظاً غالباً في المحافظة ، إلا أن يعرض لشئون الأزهر ، فهناك كان يخرج حتى عن طور الاعتدال ، ويغلو في العبث بالشيوخ ، ويمجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبد العزيز جاويش ، وربما وجد منه إغراء بذلك وحشاً عليه . وكان صاحبنا موزعاً بين مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت . أحدهما مذهب الاعتدال والقصد ، ذلك الذي كان الأستاذ لطفى السيد يدعو إليه ويزينه في قلبه . والآخر مذهب الغلو والإسراف ، ذلك الذي كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ويحرضه عليه تحريضاً . وكان الفتي يستجيب للمذهبين جميعاً . فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة . وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني .

ولم ينس الفتي قط كلمة كتبها فأورثته أننا لأدعاً وحزناً مُبِضاً . واضطرته إلى أن يسعى معذراً متوسلاً بالصديقين إلى من كتبت فيه هذه الكلمة . كان ذلك حين اختصم الناس حول سؤال من أسئلة الامتحان في الشهادة الثانوية في الأدب . فكان

من شارك في هذه الخصومة زميل أزهرى من زملائه كان يعلم في كلية الفرير وكان هذا الزميل ينتمى إلى أسرة كبيرة وبعد انتهاءه إليها من مفارجه ، ولكنه لم يكن من هذه الأسرة إلا لأن أباه كان من عقائدها . فلما رد صاحبنا عليه نسبه إلى الأسرة وبين طبيعة انتسابه إليها لم يرد إيذاء زميله ، وإنما أعجبه هذا التعريض فاستجاب له ، ولم يراجع نفسه فيه إلا حين قرأه مطبوعاً في الصحيفة . ولامه فيه صاحبه . هنالك أسقط في يده ولم يرض زميله إلا بعد جهد وعناء ، وقد رضى الزميل وصفح . ولكن الفتي لم ينس هذا الإثم قط ، وما أكثر ما أذرى نفسه ، وحاول أن يأخذها بالألفظ كلفة في مقال حتى تفكر وتقدر وتتجنب الإيذاء ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ! ولم يكن هذا الندم كل ما جرَّ عليه طول اللسان من ألم . فما أكثر ما كان يكلفُ بالنقد فيمضى فيه مؤمناً به حريصاً عليه لا بحسب لعواقبه حساباً .

ثم تمضى الأيام في إثر الأيام ، وإذا هو قد نسي ما كتب ، وشغل عنه بأشياء أخرى ، ولكن الناس لم ينسوه وإنما حفظوه له ، وقيدوه عليه ، وأخذوه به حين سنحت الفرصة . وطول اللسان هو الذي قطع الصلة قطعاً حاسماً بين صاحبنا وبين الأزهر ، ودفعه دفعاً إلى حياته التي أتاحت له ، وعرضه لسخط أى سخط ، وحزن أى حزن ، وعناء أى عناء ، والغريب أنه قد تلقى السخط والحزن والعناء باسماً موفور الرضا ، طيب النفس ، فلم تتعلق نفسه قط بالجلوس إلى عمود من أعمدة الأزهر ، ولا بإلقاء الدرس في حلقة من حلقاته .

لم يأس إذن على انقطاع الصلة بينه وبين الأزهر ، وإنما ملأ قلبه الحزن والأسى حين عرف سخط أبيه الشيخ ، وحزن أمه التي كان يمتصها بالحُب والبرِّ والحنان . كان ذلك حين أنشأ الشيخ رشيد رضا - رحمه الله - شيئاً سماه مدرسة الدعوة والإرشاد ، وأعلن أن هذه المدرسة ستعبد طلابها من الأزهريين لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام ، ولإرشاد المسلمين أنفسهم إلى دينهم الصحيح المبرأ من أوهام القرون

وأباملها . وقد ضاق المجتهدون من أبناء الأزهر بهذه المدرسة أشدّ الضيق ، وسخطوا عليها أعظم السخط . رأوا فيها أحاط بإنشائها من الظروف انحرافاً عن الرقابة للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من رجل كان يرى نفسه أقرب تلاميذ الشيخ إليه ، وأخصهم به وأوفاهم له . فقد عطف الخديو على هذه المدرسة وأعانها وأغرى شيوخ الأزهر بتأييدها . ورأى تلاميذ الأستاذ الإمام أن في عطف الخديو على هذه المدرسة وإعانتها لها ما أثار في نفوسهم الرّيب فنفروا الناس منها ، وأطلقوا أنستهم فيها ، وعابوا على الشيخ رشيد أنه ثاب إلى من أخرج الأستاذ الإمام من الأزهر وعرضه لكثير من الشرّ والأذى وأغرى به الشيوخ ، حتى أذاعوا عن الشيخ ما أذاعوا من السوء ، ونالوه بما نالوه من المكروه .

وفي ذات يوم أقام الشيخ رشيد وأصحابه حفلاً بهذه المدرسة ، واجتمعوا حول مائدة العشاء في فندق من فنادق القاهرة يقال له فندق « سافوى » . ونشرت بعض الصحف أبناء زعمت فيها أن أكواب الشمبانيا أديرت حول هذه المائدة . وكان جماعة من شيوخ الأزهر يتقدمهم شيخهم الأكبر قد شهدوا هذا العشاء ، ورأوا ما أدير فيه من الأكواب فلم يتكروا بالعمل ولا بالقول .

هنالك ثارت نائرة المخلصين للأزهر ، فلهجوا بالشيوخ وقالوا فيهم فأكثروا القول . ودافع المدافعون عن الشيوخ بأن زجاجات فتحت في ذلك العشاء وكان لفتحها فرقة ، ولكنها لم تكن زجاجات الشمبانيا ، وإنما كانت زجاجات الكازوزة ! ولكن خصوم الشيوخ من أبناء الأزهر لم يقبلوا هذا الدفاع ، ولم يصدّقوه ، وإنما مضوا يلهجون ويقولون في الشيوخ فيكثرون القول ، وكان صاحبنا الفتى أطولهم لساناً ، وأجرأهم قلماً ، وأجرحهم لفظاً . عاب الشيوخ شعراً ونثراً ، ونشر عبد العزيز جاويش له ذلك في صحيفة « العلم » فرضى المجتهدون وأغرقوا في الرضا ، وسخط المحافظون وأسرفوا في السخط ، وتناقل أولئك ومولاه هذه الآيات الثلاثة من شعر

الفتى الذى لم ينسبه إلى نفسه ، وإنما زعم أنه تلقاه في البريد :

رعى الله المشايخ إذ توافوا إلى سافوى في يوم الخميس
وإذ شهدوا كؤوس الخمر صرّفاً .
تدورُ بها السقاة على الجلوس
رئيس المسلمين عدلك ذمّ ألاً الله درك من رئيس
ثم مضت الأيام وتتابع فيها الأحداث ، حتى إذا دار العام رأى الفتى نفسه يتبها للامتحان في الأزهر لينال درجة العالمية . وقد تلقى الفتى ما كان يسمى حينئذ بالتعيين ، وهو الدروس التي يجب أن يعدها ليلقيها أمام لجنة الامتحان ، وبثت لمناقشة المتقدمين فيها .

فاستعدّ الفتى وأحسن الاستعداد ، وحفظ فأحسن الحفظ ، حتى إذا لم يبق بينه وبين شهود الامتحان إلا سواد الليل ، أقبل عليه شيخه المرصنى - رحمه الله - فأنبأه هذا النبأ العجيب الذى لم يحمله إليه في ضوء النهار ، وإنما حمله إليه في ظلمة الليل ، بعد أن صلّت العشاء .

قال الشيخ : إذا أصبحت يا بنى فاستقل من الامتحان ولا تحضره من عامك هذا ، فإن القوم يأمرون بك ليسقطوك .
قال الفتى : وما ذلك ؟ !

قال الشيخ : تعلم أنى عضو في لجنة الامتحان التي ستحضر أمامها غداً ، والتي يرأسها الشيخ دسوق العربى ، فقد دُعِيَ رئيس اللجنة إلى الشيخ الأكبر وأمر بإسقاطك مهما تكن الظروف .

قال الفتى : ولكنى سأحضر أمام لجنة أخرى يرأسها الشيخ عبد الحكيم عطا .
قال الشيخ : فإن هذه اللجنة لن تجتمع لأن رئيسها أبى أن يسمع للشيخ الأكبر حين أمره بإسقاطك . فلما ألحّ الشيخ الأكبر عليه ألحّ هو في الإبقاء . فلما خيره الشيخ الأكبر بين إسقاطك وبين ألا تجتمع لجنته آثر ألا تجتمع للجنة .

كتبهما شاعر قديم لأبي عبيدة معمر بن المثنى :
صَلِّ إِلَهَهُ عَلَى لَوْطٍ وَشَيْعَتِهِ أَبَا عُبَيْدَةَ قُلْ بَاقَهُ آمِينَا
فَأَنْتَ عِنْدِي بِلَا شَكٍّ بِقَبِيحٍ

ولم يكده صاحبنا الفتي يريان هذا الشعر حتى أخذها ما يشبه الصاعقة .
وضحك صاحبنا ، وأغرق في الضحك ، وثاب صاحبا إلى مثل ما كان فيه .
فضحكوا معه وأغرقا في الضحك أيضاً ، ولكن بغضهم لزملائهم من طلاب الأزهر
زاد أضعافاً مضاعفة ، وجعل الفتي النواصي يبحث عن كاتب هذين البيتين بدون
أن يصل من بحثه إلى شيء . ولكنه رجح لغير سبب أن خصمه إنما هو ذلك الطالب
الأسود الذي كان ينافسه في دروس النحو ، والذي كان يبغضه أشد البغض ، فاتخذ
لنفسه عدواً ، وجعل يتعمد إيذاه كلما وجد إلى إيذائه سبيلاً . فكان لا يراه - وما
أكثر ما كان يراه ! - إلا رفع صوته بهذين البيتين اللذين حفظهما فيما زعم عن أبيه :

فِي الْمُنْتَهَى طَيْرٌ نَاطِقٌ سَبْحَانَ مَنْ قَدِ اهُمَّتْ
يَقُولُ فِي تَسْبِيحِهِ ابْنَ الْأُمَةِ مَا الْأُمَةُ

ومنذ ذلك الوقت أسرف ذلك الفتي النواصي على نفسه وعلى صاحبيه وعلى
زملائه من الطلاب . فكان يتبع سيئاتهم وأغلاطهم ، ويزيد فيها ويضيف إليها ،
ويقول في ذلك الشعر ، حتى أصبح هجاءً ، وكان لا يحتفظ بهجائه لنفسه ولصاحبيه ،
وإنما يهجر به كلما وجد إلى الهجر به سبيلاً . وربما احتال حتى ينشد شعره
ذاك بأرفع صوته ليسمعه من قبل فيهم من الطلاب . ثم عظم في نفسه الوهم واستأثر بها
حب الشرف ، فكان كلما رأى أحداً ينظر إليه فيطيل النظر ، أو ينظر إلى بعض أصحابه
أولئك الحسان اتخذهم لنفسه عدواً وهجاءً . ثم بدا له أن الهجاء وحده لا يُغني عنه
شيئاً ، فعمد إلى شتمه ، وجعل يكتب إلى إدارة الأزهر وإلى الشيخ الأكبر خاصة ،
الرسائل في كل يوم ، يسعى بها عنده في هؤلاء الطلاب الذين اتخذهم لنفسه عدواً .

وضاق الشيخ الأكبر بهذه الرسائل التي جعلت تُصَبُّ عليه في كل يوم كما
ينصب المطر من السماء ، وإذا الإدارة تعلق ذات يوم في لوحة الإعلانات تنبيهاً
تدعويه الطلاب إلى أن يكفوا عن هذه الخطة التي يُنكرها الخلق ويحرمها الدين ،
وهي السعي بالسوء في الشيوخ والطلاب عند المشيخة . وقد قرأ الفتي النواصي
هذا التنبيه ذات يوم بين هذه الإعلانات الكثيرة التي كان الطلاب يعلقونها يعلنون
فيها أن نعالهم قد ضاعت منهم ، وأن من وجدها فليردّها إلى صاحبا ، وأن من سرقها
فهو جدير بأن يغضب الله عليه ويقطعه من هذا المكان .

قرأ الفتي النواصي هذا التنبيه بين تلك الإعلانات ، فامتلاً قلبه غبطةً وإنهاجاً ،
وزعم أنه قد فاز فوزاً عظيماً ، لأنه ضايق الشيخ وأحرجه . وألحَّ في كتابة رسائله
تلك إمعاناً في مضايقة الشيخ وإحراجها ، ولم يكفَّ عن ذلك إلا حين كفَّ صاحبا
عن الإلام بالأزهر مخافة سوء العاقبة ، واضطرَّ هو إلى أن يهجر الأزهر كما هجره
صاحبا .

على أن صاحبا الفتي لم يلبث أن شغل ، أو كاد يشغل ، عن صاحبيه بياض
النهار . فقد كان يخلص لحياته هذه الجديدة التي أخذ يحيها منذ فرأ نفسه أول مقال
نشرته له الصحف . أرضاه ذلك عن نفسه وأطمعه في المزيد منه ، فجعل يكتب في
الجريدة رغبةً في الكتابة أحياناً ، وتقرُّباً إلى مدير الجريدة أحياناً أخرى . وجعل
مدير الجريدة يرضى عن فصوله ، ويُغريه بالكتابة ، ويحثُّه عليها حثاً ، ويعلمه القصد
في اللفظ والأناة في التفكير .

وما هي إلا أن جعل يقربه إليه ، ويدعوه إلى زيارته حتى أصبح الفتي ملازماً
لمكتب المدير ، يلتم به في أكثر أيام الأسبوع حين يرتفع الضحى ، فلا يحجب عنه ،
وإنما يلقاه الأستاذ المدير هاشماً له ، مرحباً به ، أخذاً في التحدث إليه والاستماع منه ،
فاتحاً له أبواباً من التفكير ، لم تكن تحظر له على بال ، خائضاً معه في حديث الأدب

القديم ، رابياً له من الشعر ما كان يحفظ وما لم يكن قد سمعه من قبل ، حتى استأثر بقلب القتي وعقله وحتى أصبح للفتي أستاذان يختصهما بحبه وإعجابيه ، أحدهما يذكره بأئمة البصرة والكوفة وهو الشيخ سيد المرصني ، والآخر يذكره بفلاسفة اليونان الذين سمع أسماءهم في الأزهر وجعل يدرس أطرافاً من فلسفتهم في الجامعة ، وهو العلي السيد .

وكان القتي يختلف مع ذلك إلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله ، فيسمع له صوتاً عذياً وحديثاً ليناً رقيقاً ، ويرى من وراء هذا اللين وتلك العذوبة عنفاً أي عنف إن ذكرت السياسة ، أو ذكر الأزهر وشيوخه ، أو ذكر بعض الكتاب الظاهرين الذين لا يكتبون في صحف الحزب الوطني . وكان يحبب العنْف إلى القتي ويرغبه فيه ، ويزين في قلبه الجهر بخصوصية الشيخ والنعمي عليهم في غير تحفظ ولا احتياط . فهدر كان يرى أهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كانوا يلجئون فيه من المحافظة ويعينون عليه الظالمين بمآلاتهم للخديو ، ومصانعتهم للإنجليز .

وكان بغضه لسعد زغلول رحمه الله معروفاً يتحدث به الناس . هجاء بمقالاته المشهورة التي جعل عنوانها : « ظلموك يا سعد » . وهجاء هجاء منكراً في بعض الشعر الذي لم ينشره لأنه كان أعنف من أن ينشر .

وقد أثنى قصيدة قالها في السجن ، وقد بلغه أن سعداً قد يعود إلى الوزارة أو يصبح رئيساً لمجلس الوزراء ، لم أحفظ منها إلا مطلعها وهو يشع كما ترى :
إن صبح ما أنتهى الرواة لسمعي فلسوف تصبح تحت حكم الأقرع

وعلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله يقع نصيب غير قليل من ثقل تلك الفصول الطوال السمجة التي كتبها القتي ، فشتمل بها الأدباء والمثقفين حيناً ، ثم لم ينقطع استخداؤه لها وضييقه بها وخجله منها كلما ذكرت له . وكان موضوعها نقد « نظرات » المنفلوطي رحمه الله . وكان عنوانها : « نظرات في النظرات » .

قرأ القتي الفصول الأولى من نظرات المنفلوطي راضياً عنها ، معجباً بها ، ثم لم يلبث أن شتمها وانصرف عنها . ولكنه لم يكذب يراها مجموعة في كتاب حتى ضاق بها أشد الضيق ، وكتب يعيها وبعض منها . وفرح الشيخ عبد العزيز جاويش بما كتب القتي أشد الفرح ، واستزاده من الكتابة ، وحرضه عليها وألح في التحريض ، حتى ألقى في روعه ألا يدع فصلاً من فصول المنفلوطي إلا اختصه بفصل من النقد . وكان القتي قديم المذهب في الأدب لا ينظر منه إلى اللفظ ، ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة . فكان عيب المنفلوطي عنده أنه يحط في اللغة ويضع الألفاظ في غير مواضعها ويصطنع ألفاظاً لم تثبت في « لسان العرب » ولا في « القاموس المحيط » .

وما أسرع ما انزلق القتي من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة . ولم ينس القتي مقالاً دفعه ذات مساء إلى الشيخ عبد العزيز جاويش ، فلم يكذب يقرأ أوله حتى طرب له وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذلك . وابتج القتي حين سمع الثناء ، وأحسن الإعجاب ، واستيقن أنه أصبح كاتباً ممتازاً . ثم لم يذكر بعد ذلك أول هذا المقال حتى طأطأ من رأسه ومن نفسه ، وسأل الله أن يتبع له التكفير عن ذنبه ذلك العظيم . وكان أول المقال : « تم صباحاً أو مساء ، واشرب هواة أو ماء ، واستأجر من تشاء لما تشاء فقد وضع الحق وبرح الخفاء » .

كان بعض تبعه هذا السخف يقع على الشيخ عبد العزيز جاويش ، ولكن للشيخ عبد العزيز جاويش فضلاً على القتي أي فضل ، فهو الذي ألقى في روع القتي فكرة السفر إلى أوروبا حين قال له ذات يوم : « لا بد من أن تصنع شيئاً لإرسالك إلى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام » . لم يكذب القتي يسمع هذه الألفاظ حتى استقر في نفسه أن ليس له بد من عبور البحر على أي نحو من الأنحاء . وقد لاحظ

الفتى فيها بعد أن أحاديثه تلك عن المنفلوطي قد شغلت الناس حتى تحدّث إليه فيها كل من كان يلقاه إلا رجلاً واحداً لم يشر إليها قط على كثرة ما كان يلقى الفتى ، وعلى كثرة ما كان يتحدّث إليه ، وهو مدير الجريدة لطفى السيد .

فهم الفتى ، ولكن متأخراً ، أن لطفى السيد لم يرض قط عن هذه الفصول . ولو قد رضى عنها ، وعن بعضها ، لتحدّث إليه فيها ، وهو الذى كان كثيراً ما يشجّع الفتى فيتنبأ له مرة بأنه سيكون موضعه من مصر موضع فولتير من فرنسا ، ويقول له مرة أخرى أنت أبو العلائنا . يتعمد إثبات الألف واللام على رغم الإضافة في اسم أبى العلاء ، ثم يضحك ويفرق في الضحك حين يرى تنكّر الفتى للجمع بين الإضافة وأداة التعريف .

أصبح الفتى كاتباً بفضل هذين الرجلين : لطفى السيد وعبد العزيز جاويش ، وأصبح كاتباً لشيء آخر : وهو أنه أثناء الأعوام العشرة الأولى من كتابته في الصحف لم يكتب إلا حباً للكتابة ورغبة فيها ، لم يكسب بها درهماً ولا مليماً .

الفصل الرابع

عندما خفى القلب لأول مرة !

.. على أن فضل الشيخ عبد العزيز جاويش على الفتى لم يقف عند هذا الحد ، وإنما تجاوزه فأمن في مجاوزته ، فهو الذى عرّف الفتى إلى جماهير الناس ووثّقه بين أيديهم ذات صباح منشداً للشعر ، كما كان يفعل الشعراء المعروفون ، وحافظ منهم خاصة ، في بعض المناسبات العامة .

كان الناس قد ألقوا الاحتفال برأس العام الهجرى كلما انقضى عام هجرى ، وأقبل عام جديد . وكان الشيخ عبد العزيز جاويش يحرص على أن يكون للحزب الوطنى احتفاله بهذا اليوم ، فأقام حفلة ذات عام في مدرسة مصطفى كامل ، واحتشد لهذا الحفل عدد ضخم من الناس شباباً وكهولاً وشيباً ، وكان الفتى قد أنشأ فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة ، وأنشدها أمام الشيخ عبد العزيز جاويش ، فرضى عنها وحثه على أن يقول أمثالها .

فلما كان هذا الحفل شهدته الفتى مع الشاهدين ، ولكنه لم يكده يتخذ مكانه بين الناس ، حتى أقبل من أخذ بيده وأجلسه على المنصة . ولم يهدر الفتى في نفسه إلا أن الشيخ عبد العزيز جاويش قد أراد أن يرقق به ويتلطّف له ويقرّبه من مجلسه ، فرضى عن ذلك كل الرضا ، وعدّه فضلاً من الشيخ عظيماً . وألقيت الخطب وصفت المصفقين ، ولم يُرَع الفتى إلا أن سمع اسمه يعلن إلى الناس ، ورأى نفسه يدعى إلى إنشاد قصيدته المصماء ! قلبت في مكانه جامداً واجماً لا يدري ماذا يصنع ، ولا

يعرف كيف يقول ، وأقبل من أخذ بيده ، وهمّ الفتى أن يمنع حياءً وخجلاً ، ولكن الذي أخذ بيده جذبته جذباً شديداً وجعل الذين من حوله يدفعونه وينهضونه حتى أنهبوه وجروه جراً إلى المائدة . واستقبل الفتى بتصفيق شديد منحه قرة وجرأة ، فأشدّ قصيدته في صوت ثابت ممتلئ ، ولكنه لم يكن يستقرّ في موقفه ، وإنما كان جسمه يرتعد ارتعاداً ، واستقبلت قصيدته أحسن استقبال وأروع حتى خجل إلى الفتى أنه قد أصبح حافظاً أو قريباً من حافظ .

ثم مرت الأعوام وتبعها الأعوام ، واختلفت على الشيخ وعلى الفتى خطوب أي خطوب ، وتعاقت أحداث في مصر أي أحداث . وجلس الفتى ذات مساء إلى صديق له كريم ، وقد جاوز الفتى سنّ الشباب والكهولة ، وأخذ في ذكر الصبا وأيام الطلب . وأتت الشيخ شبابه وصباه وشغل عن حياته الماضية ، وأعرض عن الشعر كل الإعراض بعد أن استبان له أنه لم يقل الشعر قطّ ، وإنما قال سخفاً كثيراً .

وإذا الصديق الكريم يذكره بموقفه ذاك في مدرسة مصطفى كامل وإنشاده قصيدته تلك ، ويذكر له مطلع تلك القصيدة ، فيرى الشيخ لما أضع من شبابه وما أنفق من جهده في غير طائل ولا غناء ، ثم لم يقف الشيخ عبد العزيز جاويش بالفتى عند هذا الحدّ ، ولكنه علّمه الكتابة في المجلات ، فقد أنشأ مجلة « الهداية » ، وطلب إلى الفتى أن يشارك في تحريرها ، ثم ترك له أو كاد يترك له الإشراف على هذا التحرير ، وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول . ولم تخل « الهداية » من جدال عنيف دفع إليه الفتى دفعا . وكان خصمه الشيخ رشيد رضا ، وقد أسرف الفتى على نفسه وعلى الشيخ رشيد في ذلك الجدال . وكتب أحاديث استحي منها فيما بعد حين ذكرت له ، ولكن الشيخ عبد العزيز كان عنها راضياً وبها كلفاً . وقد أجاز نشرها وشجّع الفتى على المضي فيها . كان يمقت من الشيخ رشيد ممالأته للخديوي وانحرافه عن طريق الأستاذ



الإمام ، وما دفع إليه من إعجاب بنفسه واعتراشائه الناس عليه وإعجابهم به .
ثم أضاف الشيخ إلى كل هذا الفضل فضلاً آخر وقع من نفس الفتى وقع الماء
« من ذى الفلّة الصادى » أرضاه عن بعض حاله ، وأكبره في نفسه شيئاً ، وأشعره
بأن قد أتبع له أن يجلس مجلس المعلم ، وأن يكون له تلاميذ كثيرين بعد أن حال
الأزهر بينه وبين ذلك .

فقد أنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش مدرسة ثانوية كما أنشأ مصطفى كامل
مدرسة ، وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على ألا ينتظر على ذلك أجرأ . فالمدرسة
عمل وطني لا أجر عليه لمن يشارك فيه ، ولم يكن الشيخ يفيد من هذه المدرسة شيئاً ،
وربما أنفق عليها من رزقه وكلف نفسه في سبيل ذلك شيئاً من الحرمان ، وربما
ألح على بعض الأغنياء وأوساط الناس حتى استكروهم على أن يعينوه على نفقاتها
ببعض المال . وقد أقبل الفتى على تعليمه ذلك فرحاً به مبهجاً له ، يرى فيه شفاء
لعيظه من الأزهر ، ويرى فيه مع ذلك مشاركة في بعض الخير .

ثم لم يلبث هذا كله أن انقطع فجأة ، صرف الشيخ عنه بأحداث السياسة ،
ثم اضطروا إلى أن يهاجر من مصر على غير انتظار لهجرته ، ولم يره الفتى منذ ودعهم
ليلة سفره إلا بعد أعوام طوال ، بعد أن عاد عودته تلك ، فقد سافر من مصر
فجأة وعلى غير علم من أهلها ، وعاد إلى مصر فجأة وعلى غير علم من أهلها أيضاً .

وهو على كل حال قد أعان الفتى على الخروج من بيته تلك المغلقة إلى الحياة
العامّة ، وعلى أن يكون له اسم معروف . ومثل ذلك فعل الأستاذ أحمد لطفى السيد ،
فعرّف الفتى إلى كثيرين من الذين كانوا يُلْمون بمكتبته في الجريدة من الشيوخ والشباب ،
وفي مكتبته اتصل برفاق له أجباه عمل معهم فيما بعد ، ولقى معهم خطوباً أى خطوب .
عرف عنده هيكل ومحمود عزمي والسيد كامل ، وكامل البندارى وأتراباً لهم كثيرين ،
وعرف ببضله لونا من المعرفة لم يكن يُقدّر أنه سيتاح له في يوم من الأيام . فقد لقي

عنده ذات يوم تلك الفتاة التي كان الناس يتحدثون عنها فيكثرون الحديث . لا لأنها
كانت جميلة فاتنة ، ولا لأنها كانت جذابة خلابة ، ولكن لأنها كانت طامحة مُلحّة
في الطموح ، ظفرت لأول مرة بالشهادة الثانوية ، وكانت أول فتاة ظفرت بها ،
وهي نبوية موسى .

وكان الفتى قد لقي السيدات في بيته تلك الريفية ، ولكنه لم يلقَ منهن القارة
الكاتبّة البرّزة التي تظهر في مجالس الرجال وتحوّروهم ، فتلجّ في المحاورّة وتخاصمهم
فتتمتع في الخصام ، قبل أن يلقى تلك الفتاة .

واحتفل ذات مساء في حجرة من حجرات الجامعة القديمة بتكريم خليل مطران
رحمه الله ، وكان الخديو قد أهدى إليه وساماً ، وكان شقيق الخديو الأمير محمد
على رئيساً لهذا الاحتفال . وكان الشعراء سينشدون فيه الشعر ، وكان الخطباء سيلقون
فيه الخطب ، فاعتذر الفتى إلى أستاذه في الجامعة من حضور الدرس ، ولم يكن يكره
شيئاً كما كان يكره التخلّف عن الدروس ، وآثر شهرد ذلك الحفل . وفيه سمع
كثيراً من الشعر وكثيراً من الخطب ، فلم يحفل بشيء مما سمع ، لم يعجبه شعر حافظ
في ذلك المقام ، مع أنه كان كثير الإعجاب بشعر حافظ . ولم تعجبه قصيدة مطران
لأنه لم يفهم منها شيئاً ، ولم يذق منها شيئاً ، وربما أحس فيها إسرافاً من الشاعر في
التضائل أمام الأمير الذي أهدى إليه ذلك الوسام . فقد شبّه نفسه بالنبتة الضئيلة .

وشبّه الأمير بالشمس التي تمنحها الحياة والقوة والنماء . لم يرض الفتى عن شيء مما سمع
إلا صوتاً واحداً سمعه فاضطرب له اضطراباً شديداً وأرق له ليلته تلك . كان الصوت
نجيلاً ضئيلاً ، وكان عذباً رائعاً . وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ منه في خيفة إلى القلب
فيفعل به الأفاعيل . ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئاً ، ولم يحاول
أن يفهم من حديثه شيئاً . شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث . وكان صوت
الآنسة مّي التي كانت تتحدّث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى . ولم يستطع الفتى

حين أصبح من ليلته تلك أن يمتنع عن السعي إلى مدير الجريدة . وقد جلس إليه فقال له وسمع منه . ثم مازال يدور بحديثه حتى انتهى إلى حفل مطران . وحتى انتهى من حفل مطران إلى ذكر تلك الفتاة التي تحدثت فيه ، والتي لم يسمع الفتى عنها قبل يومه ذلك . وقد سأله مدير الجريدة عما قالت الفتاة فلم يحسن رداً ، وإنما جليج في القول ، وأثنى الأستاذ على مي ، وأنبأ الفتى بأنه سيقدّمه إليها في يوم قريب . وابتهج الفتى بهذا الوعد وإن لم يعرب عن ابتهاجه ، وظلّ يرقب البرّ به . ولكن الأستاذ نسيه . واستحيا الفتى أن يذكره فحمل نفسه على المكروه . وما أكثر ما كان يحملها على المكروه ! وأعرض عن ذكر مي ، واجتنب حديثها إلى الأستاذ . ومضت أيام وأشهر وظفر الفتى من الجامعة بدرجة الدكتوراه ، وأعطى مدير الجريدة رسالته عن أبي العلاء ، فقرأها ورضى عنها ، ولكنه لم يردها إلى الفتى ، وإنما قال له إنما سترّد إليك رسالتك بعد أيام ، لأن الآتية مي قد طلبت أن تقرأها ، وسمع صاحبنا ذكر مي . فبدأ عليه فيها يظهر شيء من وجوم . وكان الأستاذ لاحظ ذلك فذكر وعده القديم وقال للفتى في رفق : ألم أعدك بتقدمك لي بها ؟

قال الفتى : أكاد أذكر ذلك .

قال الأستاذ : فالفتى مساء الثلاثاء فستزورها معاً .

وفي مساء الثلاثاء رأى الفتى نفسه لأول مرة في حياته في صالون فتاة تستقبل الزائرين من الرجال ، حفيّة بهم . معاتبه لم في رشاقة أي رشاقة . وفي ظرف أي ظرف . وفي حديث عذب يخلب القلوب ويستأثر بالألباب .

وطال المجلس وكثر الزائرون . ودارت أمكواب الشاي والفتى في مكانه لا يكاد يحسن من ذلك شيئاً ، قد ملك الوهم والوجل عليه أمره كله . فهو لم يشهد مثل هذا المجلس قط ، وليس له عهد بمثل ما يجري في مثل هذه المجالس من المراسم ولا بما يتبع فيها من التقاليد والعادات . فهو منكّر نفسه ، منكّر من حوله وما حوله ،

إلا شخصين اثنين هما الأستاذ لطفي السيد والآتية مي .

وقد أخذ الزائرون في الانصراف ، ورجب الفتى فيه ليخلص من حرّجه . وأشفق منه حرصاً على صوت مي وحديثها ، ولم يحاول أن ينصرف . فما كان له أن يحاول ذلك قبل أن يؤذنه به الأستاذ .

وقد انصرف الزائرون جميعاً وخلا للأستاذ وتلميذه وجه مي ، فخاضت مع الأستاذ في بعض الحديث ، وأثنت للفتى على رسالته في أبي العلاء ، فأغرقت في الثناء ، واستحيا الفتى شيئاً ، ولم يحسن أن يشكرها ثناءها . ولكن الأستاذ يطلب إلى الفتاة أن تقرأ عليه مقالها ذلك . فتردد الفتاة شيئاً ، ثم تقدم بعد أن تعلن إلى الفتى أنها تقرأ على الأستاذ هذا المقال لأنه هو الذي يعلمها العربية ويعلمها الكتابة .

قال الفتى في صوت مختنق ولفظ مجمجم : كما يعلمني أنا .

قالت مي : فنحن إذن زميلان .

وقرأت المقال ، وكان عنوانه « وكنت في ذلك المساء هلالاً » .

وسجّر الفتى ، ورضى الأستاذ ، وانصرفا بعد حين . وفي نفس الفتى من الصوت وبما قرأ شيء كثير !

وهو على ذلك لم يتم ليئته تلك ، وإنما أنفقها مسهداً محزوناً ، يذكر كيف لقيَ مثل هذه القسوة حين أراد أن ينتسب إلى الأزهر في آخر الصبا وأول الشباب ، وحين تقدم لأداء الامتحان في حفظ القرآن . فقال له أحد ممتحنيه : اقرأ يا أعمى سورة الكهف !

وذكر الفتى بعد ستين قصته هذه في الجامعة ، وقصته تلك في الأزهر ، حين دخل غرفة الدرس لأول مرة في جامعة مونبلييه ، فسمع الأستاذ يقول لصاحبه : أياكون زميلك هذا مكشوفاً !

قال الزميل : نعم .

قال الأستاذ : فإني أراه قد دخل الغرفة دون أن يرفع قلسوته .

وكان الفتى حديث عهد بأوروبا لم يعرف بعد أن الناس يرفعون قلائسهم حين يدخلون مكاناً مسقوفاً ، وأنهم يحضرون الدروس حاسري الرؤوس .

وكذلك قضى على الفتى أن يستقبل طلبه العلم في الأزهر والجامعة المصرية والجامعة الفرنسية بكلمة عن آفته تلك تؤدي نفسه وتقرض عليه ليلة ساهرة . ثم يعرض عنها بعد ذلك ، لأنه لم يكن يرى بدأماً ليس منه بد . وما أكثر ما ذكر بيت أبي العلاء :

وهل يأتق الإنسان من مُلكِ ربه فيخرج من أرض له وسماه ؟ !

وما أسرع ما كان الفتى ينسى هذه الكلمات المؤذية بعد أن يشتري هذا النسيان بليلة يتفقهها مسهداً محزوناً ! ثم يُقبل بعد ذلك على ما لم يكن بدّ من الإقبال عليه من العلم في الأزهر وفي الجامعة المصرية وفي جامعات فرنسا .

كان الفتى يرى حياته في الجامعة عيداً متصلاً ، كما كان يراها غيره من المصريين ، ولكنها كانت بالقياس إليه عيداً تختلف فيه ألوان اللذة والغبطة والرضا والأمل . كانت تخرجه من بيئته تلك الضيقة المقلقة في الأزهر ، وفي حوش عطا أودرب الجامعيز إلى بيبة أخرى واسعة لا حدّ لسعتها ، فهي كانت تتيح له أن يملأ

قلبه من الهواء الطلق حين يسعى إلى الجامعة . وحين يعود منها ، وأن يملأ عقله من العلم الطلق الذي لا يقيدُه تحرج الأساتذة الأزهريين فيما كانوا يلقون من الدروس ، ولا يفسده الإسراف في التفتلة والجدال حول هذا اللفظ أو ذاك ، وإضاعة الوقت في الإهراب حين لا يكون بين الدرس وبين الإعراب صلة .

وكانت هذه البيئة تتيح له كذلك علماً يخلق نفسه خلقاً جديداً لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد ، وإنما يذهب به مذاهب مختلفة في الأدب وفي ألوان من التاريخ لم يكن يُقدّر أنه سيعرفها في يوم من الأيام . ولم ينسَ الفتى يوماً العاصم فيه ابن خالته الذي كان طالباً في دارالعلوم ولجّ بينهما الخصام . فقال الدرعي للأزهرى : ما أنت والعلم ! إنما أنت جاهل لا تعرف إلا النحو والفقه ، لم تسمع قط درساً في تاريخ الفرائعة ! أسمعيت قط اسم رمسيس وإخناطون ؟ !

وبُهِتَ الفتى حين سمع هذين الاسمين ، وحين سمع ذكر هذا النوع من التاريخ . واعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غناء فيها . ولكنه يرى نفسه ذات ليلة في غرفة من غرفات الجامعة يسمع الأستاذ أحمد كمال رحمه الله يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة ، ويذكر رمسيس وإخناطون وغيرها من الفرائعة ، ويحاول أن يشرح للطلاب مذهبه في الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية ، ومنها اللغة العربية .

ويستدل على ذلك بألفاظ من اللغة المصرية القديمة يردها إلى العربية مرة وإلى العبرية مرة وإلى السريانية مرة أخرى . والفتى دهش ذاهل حين يسمع كل هذا العلم ، وهو أعظم دهشة وذهولاً حين يلاحظ أنه يفهمه ويسبغه في غير مشقة ولا جهد .

وهو يعود إلى بيته ذلك المساء وقد ملأه الكبر والغرور ، ولا يكاد يلقى ابن حالته حتى يرفع كفتيه ساخراً منه ومن دار علومه تلك التي كان يستعمل بها عليه .

وهو يسأل ابن خالته أنتعلمون اللغات السامية في دار العلوم ؟ فإذا أجابه بأن اللغات لا تدرّس في المدرسة أخذته التيه . وذكر العربية والسرانية ثم ذكر الهير وطلب وحاول أن يشرح لزميله كيف كان المصريون القدماء يكتبون . وتقلب الآية والمغلوب غالباً والغالب مغلوباً .

ويمضي العام الأول من الحياة الجامعية عيداً كله ، لا يحسن الفتى سائراً أوضيقاً به ، وإنما يحسن الحزن الممض حين تبدو طلائع الصيف .

ويتفق الإجازة كلها مفكراً فيها سمع ، ومشوقاً إلى ما سيسمع في العام المقبل ومتسائلاً عن يبق من الأساتذة الذين عرفهم ومن يُدعى من أساتذة لم يعرفهم ثم لا يلبث أن تستائر الجامعة بعقله كله وجهده كله ، وأن تشغله عن كل شيء . فقد أقبل أساتذة جُدد ملكوا عليه أمره واستأثروا بهواه ، فهذا الأستاذ نالينو المستشرق الإيطالي يدرّس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الأموي .

الأستاذ ستلانا يدرّس بالعربية أيضاً ، وفي لهجة تونسية عذبة ، تاريخ الفن الإسلامية وتاريخ الترجمة خاصة . وهذا الأستاذ ميلوني يدرّس باللغة العربية كتاب تاريخ الشرق القديم . ويتحدّث إلى الطلاب عن أشياء لم يتحدّث عنها قبله في مصر . فهو يفصل تاريخ بابل وآشور ، ويذكر الكتابة المسماة ، ويتحدّث عن قوانين هامورابي ، والفتى يفهم عن هؤلاء الأساتذة كل ما يقولون . لا يجد في التواء أو عسراً . وهو لا يكره شيئاً كما يكره انتهاء الدروس . ولا يتشوق إلى كما يتشوق إلى ما سيستقبل منها .

وهذا أستاذ ألماني ، هو الأستاذ ليتان ، قد أقبل يتحدّث إلى الطلاب عن اللغة السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية ، ثم يأخذ في تعليمهم بعض هذه اللغات وإذا الفتى يخرج من حياته الأولى خروجاً يوشك أن يكون تاماً لولا أنه يعيش زملائه من الأزهريين والدرعبيين وطلاب مدرسة القضاء وجه النهار وشرطراً من الليل .

ولكن عقله قد نأى عن بيته هذه نأياً تاماً ، واتصل بأساتذته أولئك اتصالاً متيناً . وكلهم قد عرفه ، وكلهم قد أثره بالحب والرفق والعطف . وكلهم قد أدناه من نفسه . ودعاه إلى أن يزوره في فندقه ، وأحب أن يقول له ويسمع منه . ولم ينس الفتى موعداً حضر به لأستاذه ستلانا ذات صباح ، ليحضر معه درساً من دروس الأزهر ، وقد أقبل الأستاذ إلى حيث كان ينتظره تلميذه أمام الرواق العباسي . وذهب مع الفتى إلى دروس الشيخ الأكبر الشيخ سلم البشري رحمه الله ، وكان يُلقى درسه في التفسير مع الصباح بالرواق العباسي . وجلس الأستاذ والتلميذ بين الطلاب ، وأخذ الشيخ يفسر آية كريمة من سورة الأنعام هي قول الله عز وجل : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحسبنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

وفسر الشيخ - رحمه الله - فأحسن التفسير ، ونخاض في حديث الجبر والاختيار ، وجعل يرذ على الجبريين ويدفع مقالاتهم ، ويأخذ الفتى في حوار الشيخ على عادة الأزهريين ، فيسمع الشيخ له ويردّ عليه ردّاً لا يقنعه ، وبأبى الفتى إلا اللجاج ، فيهره الشيخ بهذه الكلمات : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ! الله أكبر على العلم والإيمان . حضرتك مسلم ؟

ويهم الفتى أن يجيب ، ولكن الشيخ ينهره في سخرية غاضبة قائلاً : اسكت يا شيخ جانك الكلاب خلتنا نقرأ . ثم يمضي في حديثه غير حافل بالفتى ، ولكن الفتى يهم أن يتكلم ، وإذا أستاذه الإيطالي يمسّ كفه مساً متصلاً ، وهو يقول له هامساً بعريته التونسية العذبة : اسكت ، اسكت ، ليضربك !

يميل بالضاد إلى الظاء ، ويرى الفتى نفسه مفرقاً في ضحك حتى لا يدرى أكان مصدره سخرية الشيخ منه أم رفق الأستاذ الإيطالي به وإشفاقه عليه ؟ !

فإذا انتهى الدرس ذهب الفتي بأستاذه الإيطالي إلى إدارة الأزهر ، واستأجر له على الشيخ الأكبر ، فأذن له ، وتلقاه حفيماً به متلطفاً له في الحديث . ثم إلى الفتي فيسأله في رفق : أنت الذي كان يجادل في الدرس ؟ قال الفتي : نعم .

قال الشيخ متضحاً : ما شاء الله ! ما شاء الله ! فتح الله عليك وأنت بتلاميذك كما يشق بك أساتذتك ! !

الفصل السادس

أساتذتي ..

ولم تكن حياة الجامعة عيداً متصلاً زائغ الإمتاع لمكان الأساتذة الأجانب فيها ، بل كان فيها أساتذة مصريون يضيفون إلى روحها روعة وإلى إشرافها رزانة . ولم ينس الفتي طائفة من هؤلاء الأساتذة كان لهم في حياته أبعد الأثر وأعظمه ، جددوا علمه بالحياة وشعوره بها وفهمه لقديمها وجديدها معاً ، وغيروا مساره إلى مستقبل أيامه ، وأتاحوا لشخصيته المصرية العربية أن تقوى وتثبت أمام هذا العلم الكبير الذي كان يأتي به المستشرقون ، وكان جديراً بأن يحول هذا الفتي من مجرد تلميذ إلى رجل يفهم في العلم الأوربي إفتاء ، ولكن أساتذته المصريين هؤلاء أتاحوا له أن يأوي إلى ركن شديد من الثقافة الشرقية الخالصة ، وأتاحوا لمزاجه أن ياتلف مع هؤلاء معتدلاً من علم الشرق والغرب جميعاً . وكان الأساتذة المصريون يختلفون فيهم اختلافاً شديداً ، كان منهم المطربشون والمعمون والذين سبقت العمامة إلى رؤوسهم ثم انحسرت عنها وجاء مكانها الطربوش .

وكان منهم الصارم الحازم الذي لم يكن ثغره يعرف الابتسام إلا قليلاً ، والمنازع باسم الذي لم يكن وجهه يعرف العيوس إلا نادراً . وكان منهم ذو العلم العميق العريض الذي يبهر ويسحر ويذكر القلوب والعقول ، وذو العلم الضحل والثقافة الرقيقة الذي يتجلب باللفظ ثم لا يكون وراء لفظه الخلاب شيء ذي وبال . وكان منهم من يتجلب بلفظه العذب ودعابته الساحرة وعلمه الغزير . كان

منهم إساعيل رأفت ، رحمه الله ، ذلك الذي لم يكن يعرف من طلابه إلا أنهم يحملون رؤوساً يجب أن يصبَّ العلم فيها صباً . فكان يقبل عليهم عابساً وينصرف عنهم عابساً . لا يلقى إلى أحدهم كلمة . وإنما يأخذ مجلسه ويسط أوراقه ويأخذ في القراءة حتى تنتهي ساعة الدرس لا يقطعها إلا حين يفسر ما قد يحتاج إلى التفسير ، وحين يلقى على الطلاب هذا السؤال الذي تعود أن يلقيه في دار العلوم - وقد كان أستاذاً فيها : فاهمين يا مشايخ ؟

وقد سمع الفتى منه وصف إفريقيا على اختلاف أقطارها وعلى اختلاف ما يكون لهذا الوصف من صور يتصل بعضها بطبيعة الإقليم ، ويتصل بعضها الآخر بالسياسة والاقتصاد ونظم الحياة الاجتماعية وأجناس السكان .

وقد سمع الفتى فيما بعد دروساً مختلفة في الجغرافيا من أستاذة ممتازين في جامعات فرنسا ، فلم يحسن لأحدهم فضلاً على أستاذه ذلك المصري العظيم .

وكان من هؤلاء الأساتذة حفي ناصف ، رحمه الله . وكان ابتساماً كله وفكاهة كله وتواضعاً كله ، على غزارة في العلم ، وأصالة في الفقه بما كان يدرس من الأدب العربي القديم . وكان الطلاب يكلفون به أشدَّ الكلف ، ويطمعون فيه أعظم الطمع ، وكان بعضهم ربما انصرف عن دروسه ليجلس إليه في قهوة كوبري قصر النيل التي كان يجلس فيها ساعة قبل الدرس من يوم الخميس من كل أسبوع .

وكان الطلاب يأبؤون عليه أن يختم دروسه في آخر العام دون أن يزيدهم على المقرَّر درسين أو دروساً . وكان الفتى لسانهم حين كانوا يرغبون إليه في ذلك وكان الفتى يطلب إليه المزيد من الدرس ثراً حيناً وشعراً حيناً مستعطفاً مرة ومنذراً مرة أخرى . وكان - رحمه الله - قد شرح كتاب « الكافي في العروض » حين كان طالباً في الأزهر . وكان ينجل من هذا الشرع ويكره أشد الكره أن ينسب إليه .

الفتى يقسم له في آخر العام لئن لم يضيف إلى المقرر دروساً لينسب إليه شرح الكافي في مقال ينشره في الجريدة . وكان - رحمه الله - يستجيب فيضيف درسين ، ما أضاف أربعة دروس .

وكان أروع صورة عرفها الفتى لتواضع الأستاذ ، أنه لم يتكلف قطَّ ذلك الوفاق المستوع الذي يتكلفه بعض الأساتذة حين يرقون إلى مجلسهم في غرفة الدرس ، إنما كان يخلط نفسه بطلابه كأنه واحد منهم لولا أنه كان يكبر أكثرهم سناً -

لقد كان بين طلابه من تقدمت به السن كثيراً . وقرأ الفتى ذات يوم في الجريدة حديثاً لأحد القراء يطرح فيه موضوعاً لمسابقة عربية ، ويجعل هذه المسابقة جائزة هي كتاب « الأمالي » لأبي علي القالي ، يحكم بين المستيقين الأستاذ حفي ناصف وتلميذه ذاك الفتى . وأنكر صاحبنا أن يقرن إلى أستاذه ، وأحسن شيئاً من غرور . ولكن يجلس ذات مساء في بيته يدرب الجماهير مع جماعة من رفاقه يأخذون بعض ما كانوا يخوضون فيه من حديث ، وإنهم لفي ذلك وقد تقدَّم بهم الليل وإذا الباب يطرق عليهم . وإذا أدخل الطارئ ، وتَّحَمَّ الفتى ودهش الرفاق . فلم يكن الطارق إلا الأستاذ حفي ناصف ، قد جمع شعر المستيقين في الجريدة ، وسعى به إلى تلميذه في بيته ذلك في الطبقة السادسة من تلك الدار التي كان يسكنها ، وقال له في رفق عذب : أيتها لأخوتك إليك ساعة نفرغ فيها من قضية هؤلاء المستيقين .

وكان من بين الأساتذة المصريين الشيخ محمد الخضري ، رحمه الله . كان يدرس التاريخ الإسلامي ، وقد سحر الفتى بعذوبة صوته وحسن إلقائه وصفاء لهجته ، وأحب دروسه في السيرة وفي تاريخ الخلفاء الراشدين وفتحهم وفي تاريخ الفتن ودولة بني أمية والصدر الأول من دولة العباسيين . وكان يظن أن ليس فوق علم الأستاذ علم ، ولكنه لم يكذب يسمع دروس التاريخ في أوربا حتى عرف أن الأستاذ

رحمه الله كان ينقل دروسه نقلاً من كتب القدماء في غير نقد ولا تعمق وفي أيسر ما كان يمكن من فقه التاريخ .

وكان من الأساتذة المصريين أستاذان أحبهما الفتي أشدَّ الحب ، وعبت بهما أشدَّ العبت ، واستغلَّ سداً جيتهما وداعيتهما أشنع الاستغلال . كان أحدهما الشيخ محمد المهدي ، رحمه الله ، أقبل يدرس الأدب العربي بعد حضي ناصف ، فكان الفرق بين الأستاذين خطيراً بعيد المدى . كان أحدهما عميق العلم ، وكان الآخر أبعد ما يكون عن العمق . كان أحدهما سَمْحاً لا يتكلف ولا يتصنع ، وكان الآخر متكافئاً متفاسحاً لا يتكلم إلا العربية الفصحى مُعرباً فيها بملأها فبه وربما أضحك منها طلابه ، وكان يقدم السجارة إلى الفتي ، فإذا همَّ الفتي أن يشعلها قال له : « انتظريا بنى حتى ألْفها لك ... ! » ولم يكد الطلاب يسمعون هذه الكلمة حتى يغرِقوا في ضحك لا يَسْتَحْفُون به . وكان الأستاذ يضحك معهم ويغرِق في الضحك ! وكان الفتي جريئاً عليه يجادله في الدرس فيرهقه من أمره عسراً ، وربما أضحك منه الطلاب ، لأنه كان لا يحقِّق ما يروى من الشعر ، ولأن الفتي كان يردّه إلى الصواب . فيظهر عليه الاضطراب . وقد حاول أن يصدّه عن هذا الجدال ، ويصرف أنزابه عن هذه الجراءة ، فدعاهم ذات يوم إلى الغداء في داره . وقدم إليهم من طيبات الطعام ما لم يكن لأكثرهم به عهد ، وظنَّ أنه قد ردهم إلى شيء من الحياة . ولكنه لم يلبث أن تبين أنه لم يزد على أن أطمعهم في نفسه ، ورغبتهم في طعامه ، وزادهم عليه اجترأه . وكانت سيرة الفتي مع هذا الأستاذ الكريم مسرقة على الفتي وعلى الأستاذ جميعاً حتى أوْشكت أن تترك في حياة الفتي آثاراً منكراً .

وضع الفتي رسالته التي تقدم بها للدكتوراه ، ونقد فيها أستاذه مصرحاً باسمه ، وكان الأستاذ من המתحنين ، فضايق بهذا النقد ، وأبى في أثناء المداولة أن يمنح الفتي درجة الامتياز ، ولم يكن سبيل إلى هذه الدرجة إلا إذا أجمع عليها המתحتون .

والسلطات اللجنة أن تنزل بالفتي من درجة فائق إلى جيد جداً . وسافر الفتي إلى أوروبا فأقام بها عاماً ، ثم عاد منها في خطوط سيأتي حديثها . وفي أثناء إقامته في مصر ذهب إلى الجامعة واستمع لدرس الأستاذ الشيخ مهدي ، لم يخرج فكتب عن هذا الدرس مقالا في مجلة « السفور » نقد الأستاذ فيه نقداً مرّاً مفضاً . وأسرع الأستاذ فكتب إلى مجلس الجامعة شاكياً من هذا التلميذ المتمرد ، طالباً إلقاء بعثته عقاباً له على هذا التمرد ، وكان أن أمر المجلس بالتحقيق مع الفتي ، وكلف ثروت باشا وعلوى باشا ، رحمهما الله ، والأستاذ أحمد لطفي السيد ، سؤال الفتي عن هذا المقال ، فلم ينكر من مقاله شيئاً . ولم ير لأحد الحق في أن يعاقبه على نقد حريري ، لم يرد به إلا الخير ، ولم ير لأحد حقاً في أن يسأله في هذا النقد ، وتضاحك المحققون ، وكلف مجلس الجامعة الأستاذ أحمد لطفي السيد أن يصلح بين الأستاذ الغاضب والتلميذ المتمرد ، فحضر الأستاذ لطفي السيد ذات مساء درس الشيخ ، ثم دعاه ودعا التلميذ إلى العشاء ، وفي العشاء كان الصليح ، وعاد الفتي بعد ذلك إلى أوروبا موفوراً .

وكان الأستاذ الآخر الذي ملأ الجامعة فكاهة ودعابة ، وملأ الطلاب عبثاً به واجترأ عليه ، وملأ بطون الطلاب من طعامه ، هو الشيخ نلطواوى جوهرى ، رحمه الله . كان يدرس الفلسفة الإسلامية بعد الأستاذ محمد سلطان وبعد الأستاذ ستلتانا خاصة . وكان يتكلم كثيراً ولا يقول شيئاً ، وكانت كلمات الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق أكثر الكلمات جريئاً على لسانه منذ يبدأ الدرس إلى أن يتمه ، وكان لا ينطق بكلمة منها إلا مد ألفها فأسرف في المد ، وربما أخذه شيء من ذهول وهو يمد هذه الألف فيفرق الطلاب في ضحك يخاف به بعضهم ويجهز به بعضهم الآخر ، ويقيق الأستاذ من ذهوله على هذا الضحك ، فيلوم الطلاب لا على أنهم يضحكون ، بل على أنهم لا يشاركونه في الإعجاب بحمال الطبيعة وجمال الكون

وبهاء القمر حين يرسل ضوءه المشرق على صفحة النيل ، ومدّ ياه النيل فيسرف في مدّها ويأخذُه ذهول يردّ الطلاب إلى ضحك متصل .

وفي ذات يوم ختم الأستاذ دروس العام ، وقرر الطلبة قبل الدرس أن يكون القتي لسائهم في شكر الأستاذ على دروسه القيمة ، واشترطوا عليه أن يشكر الأستاذ بكلام غير مفهم ، واشترط عليه الأستاذ إبراهيم مصطفي ألا تخلو جملة من حديث الشكر هذا الذي يجب أن يكون طويلاً من إحدى هذه الكلمات الست : الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق .

وقبل القتي هذه الشروط كلها ، فخطب وأجاد ، ولكنه لم يقل شيئاً ، ورضي الأستاذ كل الرضا ، وقال للفتى : لا يكافؤ هذه الخطبة الرائعة إلا بديك رومي ، ولكنك لن تأكله وحدك ، وإنما يشاركك فيه زملائك جميعاً . فإذا كان يوم الجمعة فأنت تعرفون أين أقيم !

ولم يكن الأساتذة المصريون وحدهم هم الذين يملأون الجامعة فكاهة ودعابة ، ويتعرضون لعبث الطلاب وجراءتهم الماجحة ، وإنما كان الأساتذة الأجانب مصدراً من مصادر الفكاهة وموضوعاً من موضوعات العبث . كانت لهجتهم العربية تملأ أفواه الطلاب بالضحك ، وكان منهم الذين يكوّن أسنتهم بالعربية يقلدون هذا الأستاذ أو ذاك من أساتذتهم الإيطاليين أو الألمانين ، ولم ينس القتي يوماً قرّ فيه الطلاب أن يضرّبوا عن درس الأستاذ ناليون الإيطالي ، لأن إيطاليا أعلنت الحرب على تركيا ، وأرسلت سفنها غازية لطرابلس ، فأزعج الطلاب أن يجتمعوا في غرفة الدرس ، حتى إذا أقبل الأستاذ وارتقى إلى مجلسه خرجوا من الغرفة وتركوه فيها وحيداً . وقد أتم الطلبة ما قرّروا . فتركوا الأستاذ وحيداً في غرفة الدرس ، ووقفوا أمام الغرفة ينتظرون ما يكون من أمره ، ولبث الأستاذ في الغرفة دقائق ثم خرج ، فأقبل على تلاميذه ، وقال لهم في لجة عربية صحيحة فصحة يلتوى بها لسانه بعض الشيء :

اللهم مثل الرجل الذي أراد أن يغيظ امرأته فخصى نفسه !!
وكان السهم صائباً ، وكان أثره لاذعاً ممحّصاً ، ومنذ ذلك اليوم لم يفكر طلاب الجامعة في الإضراب ، ومنذ ذلك اليوم استقرّ في نفس القتي بغض شديد لإضراب الطلاب عن الدروس مهما تكن الظروف .
وكانت دروس الآداب الإنجليزية والفرنسية تلتقى في الجماعة ويشهدها الذين يحسنون هاتين اللغتين من الطلاب ، ويتجنبها القتي لأنه لم يكن يعرف لغة أجنبية . ولكن الجامعة نظمت ذات يوم ، وفرضت فيها الامتحانات ، وفرض فيها العلم بلغة أجنبية من هاتين اللغتين . وأقبل القتي ذات يوم مع زميله المرصني - وللمرصني حديث طويل سيأتي في إبانه - فاتفقا على أن يسمعا درس الأدب الفرنسي ، ليعرفا كيف تكون هذه اللغة ، فدخلوا غرفة الدرس ولبثا فيها ساعة كاملة لم يمهما فيها حرفاً مما سمعا ، ولم يميزا منه إلا لفظاً واحداً هو لافونتين الذي كان يتردّد كثيراً جداً على لسان الأستاذ .

ثم انصرفا بعد ذلك ولم يحفظا من أمر هذه الساعة إلا أنهما سمياها سجن لافونتين . وقد كان لهذه الساعة مع ذلك في حياتهما أثر أثير . فأما المرصني فعدل عن الجامعة ، وأعرض عنها وعن دروسها وامتحاناتها ، واتخذها مكاناً يلقي فيه الصديق ، ويتفكّه فيه بالعبث من بعض الأساتذة .
وأما القتي فأزعم أن يتعلم الفرنسية حتى لا يعود إلى سجن لافونتين ، وكانت له في تعلم هذه اللغة خطوب أي خطوب .

أن أعينك على ما تريد ، فالفتى إن شئت في قهوة كوبري قصر النيل نتحدث في هذا الموضوع .

وضرب له موعداً لهذا اللقاء ، ولم يكادا يلتقيان حتى تعارفا . وإذا بينهما صلة قديمة . فقد كان أبو هذا الأستاذ قاضياً شرعياً في المدينة التي نشأ فيها الفتى ، وعليه قرأ الفتى ألفية ابن مالك . كان يختلف إليه في المحكمة ضحى كل يوم ، ويقرأ عليه باباً من أبواب الألفية . وقد اتصلت المودة بين الأستاذ الكهل وتلميذه الفتى ، ولكن دروس هذا الأستاذ لم تُغْنِ عن التلميذ شيئاً . فقد كان يحبّ كتاباً وشعراء من الفرنسيين ، فإذا خلا إلى الفتى قرأ عليه من آثار هؤلاء الكتاب والشعراء وترجم له بعض ما يقرأ ، فيزيد شوق الفتى إلى العلم بلغة هؤلاء الكتاب والشعراء لروعة ما كان ينقل إليه من آثارهم . وقد سمع الفتى من أستاذه أسماء كانت تسحره وتبهه وتملك عليه أمره كله . سمع اسم لامارتين وألفريد دي موسيه وألفريد دي فيني وشاتوبريان ؛ فكان موقع هذه الأسماء غريباً ، وكان ما ينقل إليه من كلامهم أشدّ غرابة من أسمائهم يُعَدُّ الفتى عن الأدب العربي وعن الشعر القديم خاصة ، ويدفعه إلى عالم آخر مجهول لا يحدّق الفتى منه شيئاً ، ولكنه يهجم بالاضطراب فيه كل الهيام . وقد اضطرب آخر الأمر إلى أن يبحث عن معلم يُلقِّنه أوليات هذه اللغة تلقيناً منظماً متتجاً ، وما زال يبحث عنه حتى دل عليه .

فأقبل على دروسه كل يوم من الساعة الثانية إلى منتصف الخامسة . واستبقى مع ذلك مودة أستاذه ذلك . فكان يلقي أستاذه النظامي كل يوم في موعده المحدد ، فيتعلم منه الأوليات ، ويلقى أستاذه الآخر مرتين في الأسبوع إذا أقبل الليل ليسمع منه نثراً وشعراً ينقل إليه بعض معانيهما .

وكان الأستاذ النظامي رجلاً غريب الأطوار حقاً . كان شيخاً قد نَيْفَ على السبعين وقد حطّمته السنون ، وكان ألبانياً ، وكان قدراً تنبؤ عنه العيون . وكان

الفصل السابع

كيف تعلمت الفرنسية !

كان أول عهد الفتى بدرس اللغة الفرنسية أن حدّثه بعض صديقه من الأزهرين بأن مدرسة مسائية أنشئت في مكان قريب من الأزهر تدرس فيها هذه اللغة لمن يريد أن يتعلمها من المجاورين .

وكان للشيخ عبد العزيز جاويش ، رحمه الله ، يدٌ في إنشاء هذه المدرسة لم يحدّقها الفتى تحقيقاً واضحاً ، ولكنه ذهب إلى المدرسة فيمن ذهب إليها من الطلاب ، وسمع الدرس الأول من دروسها . ألفاه كهمل مصرى كان يحسن أن يلوى لسانه في النطق بالحروف ، وكان الفتى يبهه هذا النطق . ولكنه لم يفهم من هذا الدرس شيئاً ، فقد كان الأستاذ يرسم الحروف على اللوحة وينطق بها ، ويأخذ الطلاب بأن ينطقوا بهذه الحروف كما سمعوا منه ، وبأن ينظروا إليها مرسومة ، وينقلوها فيما أمامهم من الأوراق . وظل الفتى واجماً لا يرى الحروف ولا يسمعها . ولم يسأله الأستاذ أن ينطق بها ، وإنما كان يسأل من عن يمينه ومن عن شماله ويمرّه هوبدون أن يلوى عليه .

وضاق الفتى بذلك أشد الضيق ، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً ، ثم تفرق الطلاب وهم الفتى أن ينصرف . ولكن بدأ توضع على كفه وصوتاً يطلب منه الانتظار ، وإذا هو الأستاذ قد استوقف الفتى ، حتى إذا خلا إليه قال له : ليس لك أرب في حضور هذه الدروس ، ولكني أرى فيك حرصاً على تعلم هذه اللغة وأحبّ

معدماً لا يجد ما يفوته ، وكان يصيب غداه مع القتي كل يوم ثم لا يأخذ منه أجراً للدروس . وكان سريع التعب لا يكاد يتحدث إلى القتي دقائق حتى يدركه الإعياء فيبقى لحظة ثم يفيق ليأخذ فيما كان فيه ، ثم يعود إلى الإغفاء ، ثم يعود بعد ذلك إلى الإفاقة .

وكذلك كان القتي يختطف دروسه اختطافاً بين يقظة الأستاذ ونومه ، وربما أحس الأستاذ شدة الحر إذا أقبل الصيف وأراد أن يبرد ، فوقف الدرس ، وذهب إلى الحمام ، فصب على نفسه من ماء الدش ما شاء الله أن يصب . ثم عاد إلى تلميذه وقد أحدث شيئاً من نشاط ، ولكنه لا يكاد يمضي في درسه حتى تأخذه سته تلك ، فيضطر التلميذ إلى الانتظار به حتى يفيق .

على أن هذا الأستاذ لم يلبث أن ضاق به أخو القتي أشد الضيق . كان يأتي إذا دنت الساعة الثانية وينصرف إذا انتصفت الساعة الخامسة ، ويترك في البيت من قذارته آثاراً غلاظاً ، بعضها حتى يؤذى ، وبعضها ميت يمرض ، حتى شكوا الخادم وضاق أخو القتي بما كان يرى ، وبما كان يسمع . وصرف الأستاذ صرفاً رقيقاً .

ولتمس صاحبنا لنفسه أستاذاً آخر ، وجعل ينتقل بين معلم ومعلم ، ويجد في هذا الانتقال مشقة أى مشقة ، ومتاعاً أى متاع . تأتي المشقة من أجر الدروس الذى لم يكن له بد من أن يؤديه إلى معلميه ، ويأتى المتاع من اختلاف هؤلاء المعلمين ، وتباين أطوارهم وخصائصهم حين كانوا يتحدثون إليه ، ويُلقون علمهم عليه . حتى لقي القتي ذات يوم في الجامعة قتي كان قد ظفر بالشهادة الثانوية وتعلم في مدرسة القرير ، فكان متقناً للفرنسية ، ولم يكد يتحدث إليه حتى ذكر صباه كله ، فقد كان هذا القتي ابن ملاحظ الطريق الزراعية في مدينته ، وكان يختلف مع أخته إلى الكتاب الذى حفظ القتي فيه القرآن فقد لقي القتي إذاً رفيق صباه ، ويسر له اللغة

الفرنسية في غير مشقة ولا عناء ، وأى شيء أسير من أن يتعلم الفرنسية لا يدفع على تعلمها أجراً وإنما يعلم رفيقه بعض قواعد النحو والصرف !

وبفضل هذا الرفيق محمود سليمان ، رحمه الله ، خطا القتي في درس الفرنسية خطوات بعيدة ، علمه رفيقه كما تعلم هو في المدرسة . قرأ معه الكتب الأولى ، وما زال يتدرج به من كتاب إلى كتاب حتى رأى نفسه ذات يوم يقرأ مع رفيقه قصة كانديد لفولتير ، يتعثر في فهمها تعثراً شديداً متصلاً ، ولكنه يفهم منها شيئاً . ورأى القتي نفسه يختلف إلى دروس الأدب الفرنسى فتفوته أشياء ويصيب أشياء . والأستاذ يعطف عليه ويرفق به ، ورفيقه يعينه على فهم ما يفوته ، وإذا هو يتقدم في الدرس تتقدماً حسناً ، ويشعر أن أمر اللغة الفرنسية قد أصبح يسيراً ، فليس له بد من أن يحسنها ، وهو قادر على أن يحسنها إن مضت أموره على ما يحب .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجامعة بالقياس إليه وسيلة بعد أن كانت غاية ، فقد أتى الشيخ عبد العزيز جاويش في روعه فكرة السفر إلى أوروبا ، وإلى فرنسا خاصة ، فإله لا يفكر في هذا السفر؟ وما يمنعه أن يتبغى إليه الوسيلة؟ والغريب أن هذه الفكرة ما زجت نفسه ، وأصبحت جزءاً من حياته ، وجعل ينظر إليها لا على أنها حلم يداعبه نائماً أو يقظان ، بل على أنها حقيقة يجب أن تكون . وأغرب من هذا أن القتي جعل يتحدث بسفره إلى أوروبا كما يتحدث الإنسان عن أمر قد صحّت عزيمته عليه ، وقد تهيأت له أسبابه ، وكان يتحدث إلى إخوته وإلى أخواته إذا أقبل الصيف بسفره إلى أوروبا قريباً . وكان يغيظ أخواته بأنه سيقم في أوروبا أوعوماً ، ثم يعود منها وقد اختار لنفسه زوجاً فرنسية متعلمة مثقفة تحيا حياة راقية ممتازة ، ليست جاهلة مثلهن ، ولا غافلة مثلهن ، ولا غارقة في الحياة الخشنة الغليظة مثلهن . وكان أخواته يتضحكن حين يسمعن منه هذا الحديث ، وربما أضحكن به أم القتي وأباه .

وكان الفتى يقول لمن : « اضحكك اليوم فسترين غداً ! »

وفي ذات يوم قرأ صاحبنا في الصحف إعلاناً من الجامعة تطلب فيه إلى الشباب أن يستحقوا إلى بعثتين من بعثاتها في فرنسا . إحداهما لدرس التاريخ ، والأخرى لدرس الجغرافيا . ولم يكدهم بفرغ من قراءة هذا الإعلان حتى استقر في نفسه أنه صاحب إحدى هاتين البعثتين ، وأنه سيهجر البحر إلى باريس لدرس التاريخ في السوربون . وإذا هو يكتب إلى رئيس الجامعة الأمير أحمد فؤاد هذا الكتاب :

« دولتوا أفندم رئيس الجامعة المصرية

« أرفع إلى دولتكم وإلى مجلس إدارة الجامعة ، أتى قرأت في الصحف إعلان الجامعة ، أنها سترسل طالبين إلى أوروبا لدرس التاريخ وتقويم البلدان . وأنا شديد الحرص على أن أكون أحد هذين الطالبين ، وعلى أن توجهني الجامعة إلى فرنسا لدرس التاريخ . واعتقادي أن الجامعة إنما تجعل مقياسها في اختيار الطلبة الكفاءة الحقيقية . وعلى ذلك أتشرف بأن أؤكد لدولتكم وللمجلس الإدارة أن الجامعة قد جعلتني فيها أعتقد ، كفتناً لخدمتها بما علمتني من علم نافع ، وما أديتني به من أدب مفيد .

« وأنا على يقين أن الجامعة ستستفيد مني كثيراً إن قبلتني خادماً لها ، وهي لن تجني مني إلا ثمراً طيباً في مصروفى أوروبا .

« نعم ، إن الشروط التي تشترطها الجامعة في طلبه الإرساليات ينقصني بعضها ، فإني لم أحصل على الشهادة الثانوية ، كما أتى مكثوف البصر . ولكني أعتقد أن نقصان هذين الشرطين لا يضرني شيئاً . فأما الشرط الأول فلا يضرني نقصانه ، لأن ما سمعته في الجامعة من العلم وما أديته فيها من الامتحان ، وما أحرزته من الدرجات العظمى في جميع العلوم التي امتحنت فيها ، وهي علوم الجامعة كلها



إلى الآداب الأجنبية ، وما تشرفت به في إثر ذلك من رضا مجلس الإدارة عني ،
 وثناء الأساتذة غائبهم وحاضرم على كل ذلك ، يقوم مقام الشهادة الثانوية ويزيد
 عليها من غير شك ولا ريب ، ولا سيما أنني شارح في تعلم الفرنسية حتى إنني لأفهم
 بها غير قليل ، وقد أتممت منها مقداراً يمكنني من دخول الجامعة في فرنسا بعد أشهر
 أقضيها هناك ، ويضاف إلى ذلك أنني أتممت في الجامعة درس تاريخ الشرق القديم
 ونلت فيه الدرجة العظمى ، ودرس تاريخ الإسلام ، ونلت فيه أعظم درجة نالها طالب
 في الجامعة ليس بيني وبين النهاية إلا درجة واحدة ، وأتممت درس اللغات القديمة
 السامية ونلت فيها الدرجة العظمى أيضاً . وتلك مزية لم يجتمع لأحد من الطلبة
 المصريين في مصر . ولست أريد أن أتحدث بهذا ، وإنما أريد أن أتحدث بفضل
 الجامعة عليّ ، وأن هذا الفضل يجعلني أكثر الناس كفاءة لدرس التاريخ وخدمة
 الجامعة فيه .

« أما الشرط الثاني وهو فقدان البصر فليس بمنعني أن أسمع دروس الأساتذة
 ولا أن أؤديها ، أي ليس بمنعني أن أكون طالباً وأستاذاً ، وإذا كان قضاء الله
 قد قضى عليّ هذه البلية فقد عوّضني منها خيراً . وأنا أجمل المجلس عن أن يتخذ
 بيلة كهذه عقبة تحول بيني وبين ما أريد من الخير لنفسى وللجامعة .

« حقاً إن الجامعة إذا قبلت هذا الطلب فستضطر إلى أن تزيد في نفقتي
 ما يمكنني من الاستعانة بمن يكون معي في فرنسا ، ولعمري لئن فعلت ذلك ،
 فليس بضائر لها ، بل هو يدل على كرم نفس وعلى تضحية في معونة من يحتاج
 إلى الإعانة والتعصيد .. على أنني مستعد لأن تسترد الجامعة مني بعد عودتي من أوروبا
 ما أنفقت عليّ زيادة على النفقات العادية تأخذه من مرتبي أقساطاً . وما أظن الجامعة
 تكره أن تنفضل عليّ بهذا القرض الجميل .

« لذلك كله أرفع إلى دولتكم وإلى مجلس الإدارة هذا الطلب راجياً أن تنفضلوا
 بقبوله . ولكم الشكر الجميل والثناء المحمود .

طه حسين

طالب بالجامعة المصرية «

وعرض هذا الكتاب على مجلس الجامعة فلم يلقَ منه إلا الرفض ، لأن صاحبه
 لا يحمل الشهادة الثانوية ، بحكم آفته التي امتحن بها . ولأن إرساله إلى أوروبا
 سيكلف الجامعة نفقات إضافية تعين الفتى على أن يكون له رفيق يعينه على الاختلاف
 إلى الجامعة وقراءة ما يحتاج إلى قراءته من الكتب . ولكن هذا الرفض لم يفلح عزم الفتى
 ولم يثبط همته . وإذا هو يكتب إلى رئيس الجامعة هذا الكتاب الجديد :

« دولتوأنقدم رئيس الجامعة المصرية

أرفع إلى دولتكم وإلى مجلس الإدارة أنني كنت قد طلبت إلى الجامعة الإذن
 لي في أن أكون من إرساليها في أوروبا . ورفض المجلس هذا الطلب في جلسته الأخيرة
 لأنه يخالف قانون الإرسالية . وإنني لأعلم حق العلم قبل أن أرفع طلبي ذلك إلى دولتكم
 وإلى المجلس أنه يخالف القانون . ولكنني طلبت الاستثناء ورغبت فيه لما بيئت في ذلك
 الطلب من رغبتي في العلم وحرصى على خدمة الجامعة ولما اكتسبت بفضل الجامعة
 عليّ من المزايا التي تؤهلني لبلوغ هذه المترلة ؛ ولست أنكر على المجلس رفضه لهذا
 الطلب فإنه لم ينفذ إلا القانون ، وما كان تنفيذ القانون بالأمر الذي ينكر أو يعاب ،
 غير أنني أعيد هذا الطلب إلى المجلس راجياً في أن يعيد النظر فيه ، فإنه لم يرفض
 ذلك الطلب بالماضى إلا لأمرين مجتمعين أو كل منهما على حدة .
 « الأول أنني لا أحمل الشهادة الثانوية لأنني مكفوف البصر ، ولكن المجلس

أجلّ عندي من أن يحسب لهذا الأمر حساباً ، فإنه لا ينبغي أن أكون طالباً وأستاذاً بدليل أن المجلس نفسه يقبلني طالباً منتسباً في الجامعة أسمع دروسها وأجوز امتحاناتها وأنال شهادتها . وإذا كانت الطبيعة قد حالت بيني وبين كثير من نعم الحياة ، فما ينبغي أن تكون الجامعة عوناً للطبيعة على حرمانى لذة الانتفاع بالعلم والنفع به ، مع أنها تعلم أنى على ذلك أقدر ما أكون .

« الثاني احتياج الجامعة إذا أرسلتني إلى أن تنفق على أكثر من نفقتي العادية على طلابها في أوروبا . وأنا أعترف بأن للجامعة الحق في تقدير هذا المانع المالى ومراعاته وأن لها ألا تشتري خدمتي بهذا الثمن العالى لأنى لا أستحقه ولأنها لا تجده .

« ولذلك أتشرف بأن أرفع إلى المجلس من جديد أنى لا أطلب من النفقات إلا المقدار الذى يطلبه غيرى من الطلاب وعلى أن أقوم بما أحتاج إليه مما يزيد على هذا المقدار ، فعمل ذلك كله بشرطى بقبول المجلس طلبى هذا مقدراً حرصى على طلب العلم في غير مصر مع ما أحتمله في سبيل ذلك من الآلام والعناء ، فإن هذا أدعى إلى قبول الطلب وتقريره مع الشكر الجميل والثناء الجزيل .

٥ مارس سنة ١٩١٣

« طه حسين »
وكان المجلس قد ضاق بهذا الكتاب الجديد ، فرفضه كما رفض الكتاب الأول ، وسبب الرفض بأن الفتى لا يعرف اللغة الفرنسية حتى معرفتها .

وأراد المجلس أن يهون هذا الرفض على الفتى ، فصاغه في صيغة التأجيل حتى يحسن هذه اللغة مطمئناً إلى أنه لن يجد إلى إحسانها سبيلاً ، تحول بينه وبين ذلك آفته تلك ، ويعينها على ذلك فقر الفتى وإصفار يده من المال . فلم يزد الفتى إلا عزيمة وتصميماً ، وكتب إلى رئيس الجامعة بعد شهر هذا الكتاب الثالث :

« صاحب السعادة رئيس الجامعة المصرية

أعود الآن فأرفع إلى سعادتكم وإلى مجلس إدارة الجامعة رغبتى في السفر إلى أوروبا لدرس العلوم الفلسفية أو التاريخية موفداً من قبل الجامعة ، بعد أن رفضت هذا الطلب في السنة الماضية . فقرر مجلس الإدارة تأجيل سفرى إلى هذه السنة ريثما أقوى في اللغة الفرنسية . وإذا كنت قد وصلت من هذه اللغة إلى مقدار لا بأس به ، وسأتقدم في هذه السنة لامتحان شهادة العالمية في قسم الآداب ، فأنا أرجو أن يتفضل مجلس الإدارة فيوفى لى وعده الكريم مع الشكر والثناء .

١٩ يناير سنة ١٩١٤

طه حسين »

واضطرب مجلس الجامعة إلى نوع من التحدى فقرر النظر في إيضاد الفتى إلى أوروبا إذا ظفر بشهادة العالمية (الدكتوراه) . ولم يكن أحب إليه من هذا التحدى ، فأقبل على العناية بالدرس وإعداد الرسالة للامتحان ، وتقدم لهذا الامتحان ، وظفر بإجازة الدكتوراه ، ولهذا كله حديث يطول .

ثلاث تجارب ..

واتصلت أسباب الفتى بثلاثة من الصديق غير صاحبيه الزناني والزيات . كان لكل واحد منهم أثر أى أثر فى حياته الجامعية . وكان لاثنتين منهم أثر بعيد عميق فى حياته بعد أن جاوز طور الطلب وأصبح أستاذاً ومؤلفاً . عرف أحد هؤلاء الثلاثة فى الجامعة ، كان يختلف مثله إلى دروسها ، ولم يكن أزهرى النشأة ، وإنما كان من فئة المطرشين . كان متوقفاً الذهن ، نافذ الذكاء ، قوى الذاكرة ، محباً للدرس . وكان إلى ذلك حلوا الروح ، رقيق الصوت ، ساحر الحديث . وقد ألفه الفتى فى دروس اللغات السامية ، وبفضله استطاع أن يفرغ هذه الدروس ، ويحسن العناية بها ، ويحفظ كثيراً من النصوص السريانية عن ظهر قلب . كان رفاقه الأزهريون ينفرون من هذه الدراسات ويكروهون أن يتقنوا على أنفسهم بها . وكان ذلك الصديق لها محباً وبها كلفاً . فكان يلقى الفتى فى دروس الأستاذ ليتيان فيكتب عن الأستاذ كل ما كان يقول ، وكان يخلو إلى صديقه بعد ذلك فيعيد معه الدرس والاستظهار . ولم ينس الفتى يوماً احتفل فيه طلاب الجامعة بوداع أستاذهم ليتيان فى آخر العام بفندق من فنادق مصر الجديدة . وشهد هذا الاحتفال أستاذة الجامعة من المصريين والمستشرقين؛ وخطب الطلاب مثنين على أستاذتهم . فأكثروا ، ثم قام هذا الصديق فأثنى على الأستاذة المستشرقين . وعلى الأستاذ ليتيان خاصة . ولكنه لم يخطب باللغة العربية ولا بلغة أوروبية ، وإنما أتى كلمته باللغة السريانية ، وتصور رضا

••
الأستاذة الأجنب عنه وإعجابهم به واعتباط الأستاذ ليتيان بما أتبع له من نجاح ، وبأن تلميذاً من تلاميذه المصريين قد استطاع أن يخطب بهذه اللغة القديمة التى لا تجرى بها الألسنة إلا فى بعض الكنائس وفى قاعات الجامعات بين الأساتذة والطلاب .

وقد رأى الفتى أستاذه ليتيان بعد ذلك مرات كثيرة فى مواطن مختلفة ، فلم يحس عنده مثل هذه السعادة إلا فى موطنين اثنين : أحدهما فى ليدن بهولندا عندما سمع تلميذه الفتى يلقى بحثه فى مؤتمر المستشرقين ، فلم يملك دموعه التى أخذت تفيض على وجهه بين الزملاء ، والآخر فى كلية الآداب بجامعة القاهرة عندما شارك تلميذه فى امتحان السيدة سبير القلمارى لدرجة الماجستير ، وأعلن مفاجراً بعد فوزها بالدرجة أنه مغتبط سعيد ، لأنه يشارك فى تخريج هذه الفتاة التى بعدها حفيدته ، لأنها ابنة تلميذه ذاك الفتى . وما أكثر ما تحدث بعد ذلك بأنه جد فى علم له ابن وله حفدة .

أما الصديق الثانى فقد كان أزهرياً مُبغضاً لدروس الأزهر ، شديد النفور منها ، قليل الإلمام بمجالس الشيوخ ، غير حرقى بالجامعة ولا مكترث لها ولا مختلف إليها ، ولم يعرفه الفتى فى الأزهر ولا فى الجامعة ، وإنما عرفه فى قهوة الكلوب المصرى قريباً من سيدنا الحسين . وكان غريب الأطوار ، يضحك من نفسه ، وربما أغرى الناس بالضحك منه .

كان من أهل القرن الثالث أو الرابع ، وكان يعيش فى القرن الرابع عشر للهجرة . كان قليل الاحتفال بزبه وشكله وبزته ، يهمل هذا كله إهمالاً ظاهراً . ربما تكلفه معناً فى مخالفة الناس . وكان معنياً باللغة يجتهد فى إتقانها ويتبع غريبها ، فيحفظه ويحصى نوادره . وكان مع ذلك مشغولاً بالحياة الحديثة يأخذ سها طبياتها حين تتاح له ، ويكره أن يتعمقها أو يعرف دقائقها ، وحاول أن يتعلم الفرنسية فلم يحسن

منها إلا تحية الصباح وتحية المساء وجملاً قصاراً ، يلقيها بعض الناس إلى بعض حين يلتقون . ثم ضاق بها فأعرض عنها ، واكتفى من الحياة الحديثة بما كان يصيب من طيباتها بين حين وحين .

وكان قد أقبل من أقصى الصعيد ، واحتفظ بلهجته تلك فلم يكد يغير منها شيئاً . وكان ربما أضفى هذه اللهجة على تلك الجملة الفرنسية التي كان يلقيها فيضحك منها ويضحك الناس .

وبفضل هذا الصديق استطاع الفتى أن يقرأ آثار أبي العلاء عندما حاول أن يضع رسالته لتيل درجة الدكتوراه من الجامعة . كان يغدو عليه في داره بدرب الجامع إذا كان الضحى ، فلا يفارقه إلا إذا أقبل الليل . وكان يقرأ له اللزوميات وسقط الزند وما شاء مما حفظ عن أبي العلاء . كان يقرؤه متغنياً به غناء عذباً . وكان الفتى يسمع منه ويحفظ عنه ، ويطرب لإنشاده وغناؤه ، وما زال كلما قرئ عليه شعر أبي العلاء لم يسمع صوت قارنه ، وإنما يسمع صوت صديقه ذلك مترنماً بهذا الشعر في صوته ذلك العذب الذي كان يضطرب بين الخشونة واللين .

ولم يذكر الفتى كم مرة قرأ شعر أبي العلاء وبثره مع صديقه ذلك ، ولكنه عرف أنه قرأه مرات كثيرة وتأثر به أعمق التأثر ، وآمن به أشد الإيمان . واستيقن أن حياة أبي العلاء تلك هي الحياة التي يجب عليه أن يحيها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ورأى الفتى نفسه ذات يوم مستعداً لإملاء رسالته ، فتجدد صديقه ذلك للكتابة ، وجعل الفتى يملئ ، والصديق يكتب ، فإذا احتاج إلى الاستشهاد بشعر أبي العلاء أو بثره أو بما شاء الله أن يستشهد به من كلام القدماء بحث الصديق له عن هذه النصوص وأثبتها في مواضعها من الرسالة . وفي أشهر قليلة ثم الإملاء وتمت الكتابة ، وقرأ الصديق على صاحبه رسالته متغنياً بثرها وشعرها ، كما كان يتغنى بثر أبي العلاء وشعره ، واطمأن الفتى إلى رسالته ، وأزمع أن يقدمها إلى الجامعة . ولكن كيف السبيل



إلى تقديمها وليس عنده منها إلا هذه النسخة التي كتبها الصديق وعليه أن يقدم
منها نسخاً خمساً ؟

وهنا يظهر الصديق الثالث فيحمل عن القتي ثقل هذا العناء . وكان هذا الصديق
الثالث أزهري النشأة أيضاً . ولكنه كان من طراز آخر مخالف كل المخالفة لمن عرف
القتي في الأزهر والجامعة من الرفاق . كان حسن الصورة ، وسم المنظر ، رائق
الشكل ، معنياً بزبه أشد العناية ، يتكلف فيه الأناقة وينسج بين ألوانه تنسيقاً .
وكان شديد علوية الصوت ، ممتناً في خيفة الروح ، ظريفاً ليقاً مترفاً إلى حد ما .
كان أبوه شيخاً كريماً ميسراً عليه في الرزق ، مبسوط اليد في الإنفاق على ابنه ذلك ،
ولكنه كان على ذلك معتدلاً محافظاً على التقاليد . وكان ابنه طموحاً إلى مزيد
من نعم الحياة ، وما أباح الله من طيباتها . فلم يكتف به ما كان أبوه يعطيه من المال ،
فسمى حتى أصبح مدرساً في كلية القرير ، ليضيف نفقة إلى نفقة ، وليحسن العناية
بف نفسه وزيته . وكان أبوه يرى ذلك فلا يصدّه عنه ، وإنما ينظر إليه مبتسماً مشجعاً ،
يرى أن خير ما يصنع الشباب إنما هو الجِدُّ والعمل والاعتدال على النفس وكسب
المال ، ما وجدوا إلى كسبه سبيلاً . وكان القتي ورفاقه ينظرون إلى هذا الصديق
في شيء من الإعجاب به والثناء له . يعجبون به لثرائه وظرفه ، ويرثون له لأنه لم يكن
يحبب الدرس ، ولم يكن يتعمق لوناً من ألوان العلم . وإنما كان يلتم هذا كله إماماً .
يختلف إلى دروس الأزهر ليسخر من الشيوخ والطلاب ، ويختلف إلى دروس الجامعة
ليلقى أتباعه وليتحدث عن الجامعة بين زملائه من المصريين والفرنسيين في كلية القرير .
وكان يضحك من كل شيء ، ومن كل إنسان ، ويتندر بكل شيء وبكل إنسان ،
ويرى الحياة فكاهة حلوة يجب أن يأخذ الإنسان منها خير ما فيها .

كان في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره ، وحدته نفسه بأن ليس له من
الزواج بد ، فلما كلم أسرته في ذلك سخرت منه وهزئت به . وقال له أبوه في دعة

ورضاً : ما زال بينك وبين الزواج وقت ، طويل وعمل ثقيل .

ولكن القتي صمم على الزواج ، وأزمع أن يكره أهله على أن يزوجه . وكان
له ما أراد ، لأنه اصطنع الجنون إذا دخل داره . فكان عاقلاً بين رفاقه في الأزهر
والجامعة ، وكان مجنوناً إذا أغلق الباب من دونه في منزله ذلك عند سيدنا الحسين .
كان لا يكاد يدخل الدار حتى يؤذن أهله بمقدمه رافعاً صوته ما استطاع بهده
الكلمة التي كانت تخيفهم كل الخوف : « جنان » ، ثم يأخذ في تحطيم ما يستطيع
تحطيمه ، وفي إفساد نظام الدار حتى يضطر أهله إلى اصطناع شيء من القوة لردّه
إلى بعض الهدوء . وما زال يعقل بين رفاقه ويحج بين أهله حتى أصبح زوجاً ،
وحتى رزق الولد ، قبل أن يبلغ العشرين .

وأقبل ذات يوم على رفاقه متحدياً أيهم يستطيع أن يؤرخ له بالشعر مولد
الصبية التي ولدت له صباح ذلك اليوم . فلما لم يجد عند رفاقه شيئاً أنشدهم شعره
الذي ختمه بتاريخ مولد تلك الصبية . ثم دعاهم إلى غداء أعدّه لهم ، فأطعمهم
في نفسه منذ ذلك اليوم . وكانوا كلما أرادوا أن يدعوهم إلى غداء أو عشاء تملقوه
بالشعر ، يجنون قليلاً ويعثون في أكثر الأحيان ، ويستجيب لهم هوداماً .

وأقبل ذات يوم لا يملك نفسه من الإغراق في الضحك حتى ظن به
أصحابه الجنون . وحدتهم بعد أن أفاق بأن الذين رأوه بين داره وبين الأزهر ظنوا
به الجنون أيضاً . وكان مصدر إغراقه في الضحك أنه اجتمعت له طائفة حسنة
من الجننيات ، فاشتري لنفسه خاتماً له فص من ألماس نفيس ، ورأى أبوه هذا الخاتم ،
فلما سأله عن ثمنه أنبأه بأنه اشتراه بأربعين جنيهاً . فقال الشيخ ساخراً : لقد فسد
الزمان ! ما رأيت قبل اليوم قط قتي يحمل في أصبعه أربعين إردباً من القمح .

وجعل القتي يتصور هذا المقدار الضخم من القمح وقد كدس بعضه على بعض ،
وأقبل هو فحمله بأصبع واحدة . وكانت هذه الصورة هي التي أغرته بالضحك ،

ودفعته إليه حتى عرضته لتهمة الجنون .

لقد هذا الصديق صاحبه القتي ذات مساء في قهوة الكلوب المصري . وكان القتي ذاهلاً يفكر في رسالته كيف يقدمها إلى الجامعة وليس عنده منها إلا النسخة التي أملاها . وهو لا يعرف كيف يكتب النسخ الأخرى ، فلما عرف صديقه منه ذلك قال له متضحكاً : « هون عليك .. فلن تنقضي أيام حتى تقدم رسالتك إلى الجامعة » . ثم أصبح فاشترى أداة من أدوات الطبع على البلوطة ، واستأجر ناسخاً كتب الرسالة بالحبر الذي يلائم تلك الأداة ، وأعد من الرسالة نسخاً قدمت إلى الجامعة . وأصبح القتي أول طالب مصري يرشح نفسه في الجامعة المصرية للظفر بدرجة الدكتوراه .

وأقبلت بشائر الصيف ، وحُدِّد اليوم الذي تناقش فيه رسالة القتي . وأقبل القتيّ الأزهريون في مساء ذلك اليوم على الجامعة يحيطون بصديقهم مشجعين له . يُحيون في نفسه الأمل ويزينون في المستقبل الذي ينتظره ، إلا ذلك الصديق الذي طبع له الرسالة . فقد كان يتحدث إليه حديث المنذر المحذر ، لا حديث المشجّع المؤمل . ينذره بقسوة المتحنيين ، ويحذره من أن يكون له في الجامعة يوم كيومه في الأهر ، ويؤكد له أنه ليس مستعداً لأن يقدم له بعد رسوبه في الامتحان الثاني صبيحة المكارونة تلك التي قدمها إليه بعد رسوبه في الأهر .

ولكن القتي لم يرسب في هذه المرة ، وإنما ثبت لأسانذته الذين جادلوه وألحوا عليه في الجدال ، وظفر منهم بعد لأي بدرجة الدكتوراه .

وسجلت الجامعة هذا الامتحان ونجاح القتي فيه بهذا المحضر :

« في الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء خامس مايو سنة ١٩١٤ اجتمعت دار الجامعة لجنة امتحان العالمية المؤلفة من الأستاذ محمد الخضري رئيساً والأستاذين

محمد المهدي ومحمود فهمي المدرسين بالجامعة والأستاذين إسماعيل رأفت بك وعلام سلامة المتدربين من نظارة المعارف العمومية أعضاء لامتحان ... الطالب بالجامعة

المصرية وكان اجتماعها ببيتة علنية . ناقشت الطالب في رسالته التي قدمها في تاريخ أبي العلاء المعري ، ثم في العلمين اللذين اختارهما وهما الجغرافيا عند العرب والروح الدينية للخوارج ، واستمرت المناقشة ساعتين وسبع دقائق . وبعد نهاية الاختبار اجتمعت للمداولة فيما يستحقه الطالب من الدرجات فقررت أنه يستحق :

(أ) درجة جيد جداً في الرسالة .

(ب) درجة فائق في الجغرافيا عند العرب .

(ح) درجة فائق في الروح الدينية للخوارج .

وفي منتصف الساعة الثامنة أعلنت هذه النتيجة للجمهور وسط قاعة الامتحان . رئيس لجنة الامتحان

محمد الخضري «

٥ مايو سنة ١٩١٤ .

وتلقت الجماعة الضخمة التي كانت تضيق بها القاعة هذا الإعلان بالتصفيق الشديد الملح . ثم وقف علوي باشا - رحمه الله - فأعلن أنه تبرع بجائزة قدرها عشرون جنيهاً لأول طالب تخرج في الجامعة المصرية . فاتصل التصفيق . ثم تفرق الجمع ، وانصرف القتي مع رفاقه فأنفقوا ساعات في بيت الزيات لم يتحدثوا فيها إلا بأمر الرسالة والامتحان وما أتيح لصديقهم من فوز .

ولم يزم القتي من ليلته تلك .. حال الابتهاج بينه وبين النوم ، وهو يعلم أنه ما أحسن السعادة قط كما أحسها في ذلك اليوم وفيما تلاه من الأيام ، لا لأنه ظفر بهذه

الدرجة الجامعية ، ولا لأنه كان أول ظافرها ، ولا لهذه الاحتفالات التي أقيمت له .
ولا لكثرة ما تحدثت الصحف عنه وعن فوزه ، ولا للمشرين جنبياً التي أجازها بها
علوى باشا ، والتي كانت تزيد على مرتب أبيه عن شهر كامل ملؤه الجدد والكبد
والعناء ، بل لشيء آخر بعيد عن هذا أشد البعد ، قريب منه أشد القرب . وهو أنه
قد قبل تحدى الجامعة وظفر بدرجة الدكتوراه ، وأصبح سفره إلى فرنسا ديناً له على
الجامعة ليس لها بدّ من أن تؤديه إليه .

وكانت حياته في الأشهر التي أنفقها في مصر قبل أن يعبر البحر حلماً حلواً
متصلاً ، ولكنها على ذلك لم تخلُ من أيام شداد .

الفصل التاسع

الفلسفة المنفردة !

ولم تمض أيام بعد فوز صاحبنا في الامتحان ، حتى دعت الجامعة ، وأنبأته
بأنه سيُشرف بالمثل بين يدي الحضرة العلية الخديوية ، من غد ، إذا كانت الساعة
الخامسة بعد الظهر ، وأن عليه أن يتبأ للسفر إلى الإسكندرية ظهر الغد ، وسيقدمه
إلى الجناب العالي ، حضرة صاحب السعادة أحمد شفيق باشا الذي سيسافر إلى
الإسكندرية في نفس الموعد وفي نفس القطار .

وَجَمَّ الفتى لهذا النبأ وجوماً معقداً حقاً ، كان فيه السرور والغرور ، وكان فيه
الخوف والفرق ، وكانت فيه حيرة أى حيرة .. فليس قليلاً على ذلك الفتى الأزهرى
الفقير الضريع أن يرقى في هذه السرعة إلى حيث يلقي صاحب العرش ، وأين هو
من صاحب العرش ؟ .. وأين صاحب العرش منه ؟ ! ..

وكيف السبيل إلى الإسكندرية ومع من يسافر ؟ ! وغلامه ذاك الأسود لا يحسن
أن يصاحبه في شوارع القاهرة إلا في كثير من الجهد والعناء ، فكيف بمصاحبه إلى
هذه المدينة البعيدة الغربية التي تقوم على ساحل البحر في أقصى الأرض ؟ وكيف
يصاحبه إلى القصر ، وكيف يكون دخوله على الأمير ؟ ..

ثم في أى هيئة يدخل على الأمير ؟ ! .. أفى ثيابه تلك الرثة التي لم يكن يرضى
عنها ولا يطمئن إليها ولا يظهر فيها نظرانه إلا في شيء من الكره والحياء ! .. أم في
ثياب أخرى تليق ببقاء الأمير ، ومن له بهذه الثياب ؟ .. وماذا يصنع بعد أن يخرج

من القصر؟ وأين يقضى ليلته في هذه المدينة الغريبة؟ .. ومن له بما نحتاج إليه هذه الرحلة من النفقات؟ وهولاً يملك إلا قروشاً لا تتجاوز العشرة، ولا سبيل له إلى أن يطلب إلى أخيه شيئاً، فلم يعرف أخوه قط كيف يكون عنده أكثر من جنيه ينفق منه حتى إذا أتى عليه تكافؤ الاقتراض من صديقه هذا أو ذاك، حتى يكون أول الشهر ..

ازدحمت هذه الخواطر على الفتى فشغلكه عن أن يرجع الجواب على سكرتير الجامعة، حين أتى إليه هذا التبا السعيد .. وكان السكرتير قد أحسن شيئاً من حيرته فقال له متلماً : وسيكون سفرك إلى الإسكندرية ورجوعك منها على نفقة الجامعة ..

فابتسم الفتى في مرارة، ولم يزد على أن شكر ثم انصرف .

ورآه مساء ذلك اليوم راضياً مغتبطاً في الكلوب المصري، يضحك ملء شديقه . فقد لقي صديقه ذلك الموسر الذي كان يحمل في أصبعه أربعين إردباً من القمح، لقيه ولم يطلب إليه شيئاً، وإنما أنباه بأنه مسافر من الغد في صحبة شفيق باشا للتشرف بلقاء الأمير . قال الصديق متبجحاً : فسأكون رفيقك في هذه الرحلة . وستريح غلامك هذا الذي أثقلت عليه في هذه الأيام .

ثم سكت لحظة كأنه كان يفكر في شيء .. وأحسن الفتى - وإن لم ير - أن صديقه كان ينظر إليه نظرة فاحشة .. ثم انقطع الصمت، وقال الصديق : ألم يعلن علوي باشا أنه قد أجازك بعشرين جنيهاً؟ ..

قال الفتى : بلى .

قال الصديق : فهلم معي، فليس لك بد من ثوب تلقى فيه الأمير .

قال الفتى : وأى ثوب؟ ..

قال الصديق : اصحبي، ولا عليك .

لم مضى معه إلى حيث اشترى له معطفاً من هذه المعاطف التي كان الأزهريون يسمونها الكاكولا، ولم يكده الفتى يدخل فيها ويجمع طرفها على صدره بأزراره تلك حتى أحس كأن شخصه قد تغير، وكأنه قد خرج من طور من أطوار حياته، ودخل في طور جديد .

ولم يرد الفتى أن يبرح القاهرة دون أن يلتق أستاذه لطفى السيد، فسمى إليه حين ارتفع الضحى من الغد، وتلقاه الأستاذ حفاً به، فقصه إليه وقيله، وقال : المحسن مصاحباً، واذكر أنك في أول الطريق .

ورأى الفتى نفسه في قطار الإسكندرية، وفي الدرجة الأولى التي لم يعرفها قبل ذلك اليوم . ورأى نفسه بين صديقه ذاك وبين شفيق باشا رئيس الديوان الملكي، وهم يأخذون في أطراف من الحديث، والباشا يقصّ عليهما فنوناً من حياته حين كان طالباً يختلف إلى دروس العلوم السياسية في باريس أو في لوزان . والفتى يسمع ويرى نفسه مختلفاً بعد وقت يقصر أو يطول إلى دروسه في السوربون، ويعرض له في باريس خطوط لا تشبه الخطوط التي عرضت له حين كان يختلف إلى دروسه في الأزهر أو في الجامعة .

فإذا بلغ القطار مدينة الإسكندرية ذهب الفتى وصاحبه، إلى القصر في غرفة فخمة كانت تنتظر الباشا في المحطة، والفتى ينكر نفسه، وينكر هذا الزحف الذي لا عهد له به، وهو في الوقت نفسه حائر ذاهل يفكر فيما سيسمع من الأمير وفيما سيقول له .

وقد أدخل على الأمير . فإذا هو يلقي رجلاً كثيراً من الرجال الممتازين الذين كان يلقاهم في الجامعة من أعضاء مجلسها، وإذا هذا الرجل يلقاه في ساحة الجامعة بريئة من التكلف، وإذا هو يأخذ بيده فيجلسه على أريكة ويجلس عليها إلى جانبه، مهتماً له بفوزه، متمنياً له الخير والنجاح فيما يستقبل من الأيام .

سائلا إياه بعد ذلك عما يريد أن يصنع بعد أن ظفر بدرجته تلك
قال القتي : سأحاول السفر إلى فرنسا لأدرس الفلسفة أو التاريخ .

قال الأمير : إياك والفلسفة . . . فإنها تفسد العقول ! . . .

وكان الإنكار قد ظهر على وجه القتي ، ففضى الأمير قائلا : بل
لا تفسد العقول وحدها ، ولكنها تفسد الذوق أيضاً . . . لقد ذهبت إلى باريس
منذ سنين ، واستقبلني الطلاب المصريون هناك ، وكانوا جميعاً حاسري الرؤوس
في أيديهم قلائد منهم إلا واحداً منهم كان حاسر الرأس كزملائه ولكنه لم يكن يمسك
قلنسوة وإنما كان يمسك طربوشاً في يده . . . فلما سألت عن هذا القتي أنبئتني
منصور فهمي ، وبأنه يدرس الفلسفة . فعلمت أن الفلسفة قد أفسدت عليه عقله
وذوقه جميعاً . فصاحب الطربوش لا يرفعه عن رأسه ولا يأخذه بيده حين يمشي
الخديو ، وصاحب القلنسوة لا يتركها على رأسه وإنما يأخذها بيده في مثل هذا المقام
ولكن صاحبنا كان يدرس الفلسفة !

ثم أغرق في ضحك متصل ، والقتي مغرق في الروع . . .

فلما سكت عنه الضحك ، قال وهو يضع يده على ركة القتي : مستشار
إلى فرنسا ، ولكن لا تدرس الفلسفة عليك بالتاريخ فإنه علم عظيم . . .

ثم أعرض عن القتي وأخذ يتحدث إلى شفيق باشا في رطانة تركية لم يفهم
منها القتي قليلاً ولا كثيراً . ووقف بعد دقائق ، فوقف القتي وصحبه شفيق باشا إلى
خارج الغرفة حيث كان ينتظره صديقه ذاك . . .

فودّعه شفيق باشا وأسلمه إلى صاحبه وعاد هو إلى الأمير .

وانسل الصديقان من القصر ، لا يحفل بهما أحد ولا يلتفت إليهما أحد
وخرجا من القصر فلم يجدا عربية تنتظرهما ، وإنما مضيا أمامهما بقصص القتي على
صديقه حديث الأمير إليه ، والصديق يصحك . ثم يقول : هلم إلى مكتبي

المغراف لتتبي الجامعة بانتهاء المقابلة . ثم تخلص لانفسنا .

قال القتي : فسنبني الجامعة عدداً حين نعود .

قال الصديق : اسكت يا أحق ، فإن هذه البرقية ستكون أعظم خطراً وأبعد
الأم من المقابلة نفسها ، سيرقوها أعضاء مجلس الإدارة ، وستفضي على تردهم في
إرسالك إلى فرنسا .

وذهبا إلى مكتب التلغراف ، وكتب الصديق إلى الجامعة هذه البرقية ، لم يؤامر
إياها القتي ، وإنما قرأها عليه بعد أن انصرفا من المكتب :

« حضرة سكرتير الجامعة المصرية بالقاهرة

لبشنا في حضرة الجنب العالي ريع ساعة لقينا فيه من لطف المليك وعطفه
على الجامعة وعلينا ما أطلق ألسنتنا بالحمد له والثناء عليه .

طه حسين »

وأنفق الصديقان ساعات حلوة في الإسكندرية ، يبهان على ساحل البحر ،
و يأخذان في ألوان من الحديث فيها قليل من جد وكثير من العبث . واستكشف
القتي في صديقه خصلة لم يكن يعرفها منه ، وهي الإسراف على نفسه في الأكل .

لهم يكن يلقى شيئاً يؤكل مما يحمله الباعة المتجولون إلا اشترى منه وأقبل عليه بزرده
الدرادأ ، والغريب أنه أقبل على عشائه كأنه لم يأكل قبله شيئاً . ثم قضيا ليلتهما
في فندق تيمّن الصديق باسمه ، وقال لصاحبه : فأل حسن ! ستسافر إلى فرنسا
لأن الفندق يتسمى باسمها ، وينسب إليها . . .

ولم يبلغ القتيان مدينة القاهرة ، حتى قال الصديق لصاحبه : إذا أدى إليك
عابري باشا جازئته فاذكر أنك مدين لي بستة جنيهات ، واحذر أن تبطل في أذائها إلى !

وكان قبض هذه الجائزة أثقل على القتي من لقائه للأمير . فقد دُعِيَ إلى العشاء على مائدة علوي باشا ، مع أساتذته الذين امتحنوه . فجلس إلى المائدة ، ولكنه لم يصب من الألوان التي قدمت إليه شيئاً . كان شديد الحياء بطبعه ، وكانت المهابة تملك نفسه وتفسد عليه أمره كله . وكان لا يدري ماذا يصنع بشخصه كله وقد وضعت أمامه أدوات المائدة فلم يكذب يسها حتى أدركه منها ذعر شديد . . . ماذا يصنع بالملقة ، وماذا يصنع بالشوكة والسكين ! وكيف يتصرف بها . . . أليس الخبير كل الخبير في أن يلبث في مكانه هادئاً ساكناً لا يعرض نفسه لسخرية أو إشفاق ؟ . . .

وظل في مكانه هادئاً ساكناً أيضاً لا يحرك يداً ولا لساناً .

وأقبل الأساتذة على طعامهم غير هيايين ولا وجلين ولا مترددين ولا حافلين بهذا القتي الجالس بينهم كأنه التمثال ! قد انعطف أعلاه على أسفله . وهو مغرور في السكون والصمت لا يصنع شيئاً ولا يقول شيئاً . كان يستحي أن يحرك يده لسانه . وكان يستخذى من سكونه وصمته . وكان يتعجل مر الساعات ويتمنى أن تعود إليه حرية حين يرثى إلى غلامه ذلك الأسود الذي كان ينتظره غير بعيد وكان علوي باشا وحده يلح عليه في أن يصب من هذا اللون أو ذاك ، فلما استأجر منه ، قال في صوت حزين : أرجو أن يكون خادمك قد أعد لك ما يعشيك .

وقد فرغ القوم من طعامهم ، وأخذوا في أطراف من الحديث ، وشاركهم القتي في بعضها ، ثم قام الباشا فأدار مفتاحاً في خزانة وجذب إليه درجاً من أدراجها ثم أعاد إغلاقها . ثم أقبل على القتي فمدّ في يده ورقة تصبب جبينه لها عرقاً فلما أصبح عرف أنها كانت الشيك الذي دُعِيَ إلى العشاء ليتسلمه . وأدّى القتي دينه ، وأجاز خدم الجامعة كما أجازها علوي باشا ، وبقى جنيتها تسعة سطا عليها أخوه فلم يبق له منها شيئاً !

على أن هذا كله لم يُنس القتي حقّه عند الجامعة ، فهى قد علقت سفره على أن يفوز بالدرجة . وقد فاز بها ، فيجب أن تبرّ الجامعة بوعدها ، والقتي يكتب إليها هذا الكتاب :

« صاحب العطفوة رئيس الجامعة المصرية »

قد عرضت منذ حين على الجامعة المصرية أن توفدني إلى أوروبا لأدرس فيها التاريخ والفلسفة . فكلفتني تعلم الفرنسية . ثم قبلت الطلب وعلقت تنفيذه بنيل الشهادة العالمية . وإذا كنت قد فرغت من هذا كله بحمد الله فلم يبق إلا أن يحدد مجلس الإدارة موعد السفر وتكتب الجامعة بذلك لأعد له عدته .

لذلك رفعت إلى عطفوتكم هذا الطلب راجياً أن تنفضلوا بقبوله ولكم الشكر أفندم .

١٨ مايو ١٩١٤

طه حسين »

وبدأت الجامعة البرّ بوعدها ، فقررت ضمّ القتي إلى بعثتها بباريس وأرسلت إليه هذا الكتاب :

« حضرة المحترم الدكتور »

اطلع مجلس الإدارة على العريضة المقدمة من حضرتكم بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩١٤ فقرر انضمامكم إلى إرسالية الجامعة بباريس لدراسة التاريخ . وأن يكون سفركم في الأسبوع الأول من شهر أغسطس القادم . وهذا إخطار لحضرتكم بذلك . وأقبلوا وافر تحياتي .

رئيس الجامعة المصرية »

وكذلك تحقّق هذا الحلم السعيد الذي داعب نفس القتي وداعبته نفسه أعواماً ،

وأصبح صاحبنا عضواً في بعثة الجامعة ، وتقرر أن يعبر البحر على الباخرة لوكرس في الثامن من شهر أغسطس ، وسافر القتي إلى أقصى الصعيد حيث كانت تقع أسرته ليودع أبويه ، فأقام في أسرته أسابيع كانت تثير في نفسه كثيراً من الشجون فقد كان يرى أباه مبهتجاً أشدّ الابتهاج بسفر ابنه إلى أوروبا بعد أن ابتج أشدّ الابتهاج كذلك بفوز ابنه بدرجة الجامعة .

كان يتحدث بذلك إلى أهله ، وكان يتحدث به إلى الناس ، وكان كثيراً ما يقول لأولئك وهؤلاء : لله في خلقه شئون ! هذا أضعف بني وأخضعهم على جملنا وألقهم نفقة . قد أتبع له ما لم يتبع لإخوته الأقوياء المصريين الذين كلفوني من النفقة ما أطبق وما لا أطبق ، لم تتحدث الصحف عن واحد منهم ، ولم يقابل الخديو واحداً منهم ، ولم يحطري ولا لواحد منهم أنه قد يسافر إلى أوروبا كما سافر إليها أبناء الأغنياء . وكان قصاري ما تمنيت لابني هذا أن يجلس إلى عمود في الأزهر ليلقي الدروس على بعض طلابه . فإذا هو مسافر إلى باريس تلك التي نسمع من أحداثها الأعاجيب !

وكانت أم القتي راضية عما أتبع لابنها من النجاح ، ولكن رضاها كان مريراً قليلاً . كانت تفكر في حال ابنها وفيما سيرعرض له من الخطوب في بلاد الغربة وفيما سيتكلف من الجهد ويحتمل من المشقة ، وكانت كلما رأت ابتهاجه وابتهاج أبيه ثقل عليها هذا التفكير ، وربما استخفت بدموعها حتى لا تنفص على الأسرة هذا الابتهاج .

وأقبل القتي ذات يوم إلى القاهرة يتهباً للسفر البعيد ، ولكنه لا يكاد يأخذ في ذلك حتى يتقلب فرحاً حزناً وسروراً ألماً ولوعة . فقد أعلنت الحرب ، واستردت الجامعة طلابها من أوروبا ، ووقفت إرسال البعثة الجديدة واضطر القتي إلى أن ينتظر .. ماذا ينتظر؟ وإلى متى يكون هذا الانتظار : أيقصر أم يطول ؟ ..

أساذها مسمى خمسة جنيرات !

... وكانت تلك الأيام الطوال فقال التي قضاها صاحبنا في القاهرة مروراً طامعاً بعد أن حالت خطوب الحرب بينه وبين ما كان يريد . فقد أسلمته هذه الصدمة القاسية إلى هم متصل ذاد عنه النوم ، فلم يكن يدوقه إلا حين يسفر الصبح ويستيقظ الطير ، وقد بلغ منه الجهد غايته ، وانتهى به العناء إلى أقصاه ، بعد ليل مسهد وفكر مشرد ونفس قلقه عرفت كيف تنسل من ماضيها الثقيل ، ووقفت أمام المستقبل المظلم حائرة لا تعرف كيف تنفذ منه إلى ما كتب لها فيه من سعادة أو شقاء .

في تلك الأيام كان القتي فارغ النفس والقلب ، ليست أمامه غاية يسعى إليها ، ولا أرب يطمع فيه . يصبح فلا يجد أمامه عملاً ينفق فيه بياض النهار ، ويمسى ولا تغلت عليه الراحة . فلا يحسن من التعب والجهد ما يفريه بالنوم أو يفري به النوم ، يرى نفسه بعد أن جاوز العشرين لا يزال عيالا على أبيه الذي أثقلته نفقة البنين ، وحمل أخيه الذي جعل يعمل في الجمعية الخيرية الإسلامية منتظراً ذلك المنصب الذي يعدّ وكذ في سبيله ، وهو منصب القضاء الشرعي . في تلك الأيام أبغض صاحبنا نفسه ، وملّ حياته ، وزاده درسه لأبي العلاء بغضاً لنفسه ، وتبرماً بحياته وإهراقاً في الشاؤم المظلم الذي لا قرار له . ورأى نفسه ذات يوم وقد انتهى به الشاؤم والضيق إلى حيث ندم على ما قرط في جنب الأزهر وشيوخه حتى حيل بينه

وبين درجة العالمية تلك التي كان يسخر منها أشدَّ السخر ، ويزهد فيها أعظم الزهد بعد أن صرفت عنه فلم يحاول أن يستأنف السعي إليها .

وما أكثر ما كان يرِدُّ في نفسه ذلك الحديث المرّ : « لو قد ظفرت بتلك الدرجة لكان لي عمل أغدو إليه ، وموردٌ أعيش منه ، ولا أنقلت بهذه الحياة البغيضة على قوم من حقهم أن توضع عنهم الأفتال ، وتخفَّ عليهم الأعباء » .

والغريب أنه كان يخترع لنفسه هذه الحياة المرّة البغيضة اختراعاً . فهو لم يشم من أبيه ولا من أخيه بعض ما كان يجد في نفسه من الحزن والضيق واليأس ولم يلاحظ أن أحدهما ضاق من عنايته به أو رعايته له . وإنما جرت الصلة بينه وبين أسرته مطردة كما كانت تجرى من قبل لم يتغير فيها شيء ، ولم يَنبُ به مكانه في بيته ذلك ولا مكانه في القاهرة بين صديقه ، وإنما هو الذي كان يضيّق باطراد الصلوات وامتداد حياته على هذا النحو بدون أن يتغير قليلاً أو كثيراً .

فهم إذن كدَّ وشقَّى وتكلّف ما تكلّف من الدرس والامتحان ، وظفر بما ظفر به من النجاح ؟ وفهم كثر الحديث عنه والاحتراف به ؟ وفهم كانت هذه الأحلام الحلوة والآمال العراض ؟ أكان هذا وسيلة إلى هذه الحياة الفارغة التي يحياها وإلى أن يصبح آخر الأمر كلاً على أسرته أينما توجهه لا يأتي بخير ؟

بهذا كله كان ينجس نفسه إن أتاحت له الخلوة في النهار ، وسجين تفرض عليه الخلوة إليها في الليل . وهو على ذلك لا يُظهر لأحد شيئاً من ضيقه وتبرّعه ويأسه ، وإنما يلقي الناس كما تعود أن يلقاهم باسمًا لم وللحياة ، آخذاً معهم في أطراف من الحديث مختلفة ، كأنه لم يكن يائساً ولا شقيّاً ولا محزوناً .

ثم يحظر له ذات يوم خاطر يُخرجه من الملل واليأس ، ويدفعه لا إلى الأمل بل إلى محاولة الأمل . فيا الذي يمنعه أن يعلم في الجامعة بعد أن تعلم فيها ؟ وأن يختلف إليها أستاذاً بعد أن اختلف إليها طالباً ؟ وأن يكون شأنه معها كشأنه مع الأزهر

أو طاس بابويته ، وهو لا يريد من الجامعة أجراً . فما ينبغي أن يكون عيالا عليها . وليست هي البنية ولا بالاحتاجة إليه ، وإنما يريد أن يشغل نفسه عن نفسه ، وأن يشعر الناس أنه يستطيع أن ينفع نفسه ويفهمهم ، وأن وجوده في هذه الدنيا ليس عبثاً ولا لغواً . وهو يكتب إلى رئيس الجامعة هذا الكتاب :

« صاحب العطفة رئيس الجامعة المصرية »

« كانت هذه الحرب الحاضرة مؤخرًا لي عن السفر إلى باريس والالتحاق بطلبة إرسالية الجامعة ، كما قرّر مجلس الإدارة ، وإذ كنت خريج الجامعة ، وقد استفدت منها وتخصّصت لها ، وأنا مضطّر إلى أن أبقى بمصر ريثما تنتهي هذه الحرب ، فقد أردت أن أمضي هذه السنة في تدريس تاريخ الآداب العربية في الجامعة بغير أجر . وأعتقد أنني قادر بمعونة الله وقديم فضل الجامعة على أن أفيد الطلاب ونفسي بهذا الدرس فائدة حسنة ، وأبعث في الآداب وتاريخها شيئاً من الحياة غير قليل ، فإذا راق هذا الاقتراح لمجلس الإدارة فانا أرجو أن يتفضل فيقرّني (كذا) مدرّساً لهذه المادة في الجامعة ريثما تنتهي الحرب ، وله الشكر الجميل » .

وعرض هذا الكتاب المغرور على مجلس الجامعة في السادس عشر من سبتمبر من ذلك العام ، فقبل الطلب ورُفِّض ما عرض صاحبه من المجانية ، وكلف علوي باشا ، رحمه الله ، شئتين : أحدهما أن يشكر للفتى تبرّعه بهذا الدرس . والثاني أن يقدر له مكافأة ثلاثم حالة وثلاثم طاقة الجامعة .

وأخذ علوي باشا يساوم الفتى في هذه المكافأة ، فعرض عليه أول ما عرض أن تكون مكافأته بمقدار ما يكون من إقبال الطلاب على درسه ، وأن تفرض الجامعة على الذين يختلفون إلى هذا الدرس رسماً يسيراً ، ثم يجمع ما يحصل من هذه الرسوم ويدفع إلى الأستاذ الفتى . وزعم علوي باشا لصاحبتنا أن بعض الجامعات الألمانية تسير هذه السيرة مع الأساتذة المبتدئين ، ولكن صاحبتنا اعتذرت من قبول هذا

العرض لأنه يجعله مديناً لطلابه ديناً مباشراً بما يرزق من مرتب آخر الشهر .

قال علوي باشا : وإذن نستطيع الجامعة مكافأة قدرها خمسة جنيهاً في كل شهر ، وسيُسمح لنا أن نأخذنا لوجلت في مجلس الأستاذ .

واستخذتُ الفتى من مدا الحديث كله فلم يرجع على علوي باشا جواباً ، وإنما انصرف عنه محزون القلب كئيب النفس كاسف البال ، راضياً مع ذلك شيئاً من رضا ، فقد أصبح له عمل ينفق فيه وقته وجهده . وليس بقليل أن يقال عنه إنه أستاذ في الجامعة . وأقبل على الأدب وتاريخه بعد دروسه فيها . وقرآن يختار للدرس في عامه الأول تاريخ الأدب الأندلسي . وما هي إلا أن غرق في « نفع الطيب » وما إليه من كتب الأدب العربي في الأندلس ، فتسنى نفسه ونسى الناس ، ولكنه لم ينس البعثة إلى باريس ، ولم ينس الحرب التي تحول بينه وبين باريس . وكيف السبيل إلى نسيان الحرب وأنبأها المروعة تصبّحه وتمسيه في كل يوم ؟

وإنه لغارق في الأدب الأندلسي يقرؤه مع صديقه ذلك الذي قرأ معه أبا العلاء ، ويقرؤه مع خادمه كلما غاب عنه صديقه ذلك ، وإذا الجامعة تدعوه فيذهب إليها عجلًا وجلاً ذات ضحى ، وهناك يلتقى علوي باشا - رحمه الله - فيستقبله باسمًا له رقيقًا به ، وينبئه بأنه مسافر بعد أيام إلى فرنسا . فقد انجلت الغمرة بعض الانجلاء ، وانهمز الألمان أمام باريس وسمى ممثلو فرنسا في مصر عند الحكومة وعند الجامعة لتعميدا طلابهما إلى الجامعات الفرنسية .

ومنذ ذلك اليوم أقبل الفتى على تهيئة نفسه للسفر مستأنفاً حياته تلك التي كانت تملؤها الأحلام العذاب ، والآمال العراض . ويقبل اليوم الموعد فيسافر الفتى من القاهرة ومعه أخ له يرافقه في سفره ، ويحيا معه في فرنسا ، ليتم درسه هناك ، ويعين أخاه على الحياة الشاقة في تلك البلاد الغريبة النائية . وقد أبت الجامعة أن

يعمل من نفقة هذا الأخ قليلاً أو كثيراً . فاضطرّ الأخوان إلى أن يعيشا بمربط واحد على ما في ذلك من ضيق وشدة . وقبلت الأسرة أن تعينها بشيء من مال اسبرين حين وحين ، وعلى غير نظام مطرد .

وفي الرابع عشر من شهر نوفمبر أبحر الفتى من الإسكندرية ، ومعه أخوه ومالباين من طلاب البعثة الجامعية كان لهما في حياته في فرنسا شأن أي شأن .

فأما أحدهما فكان قد تيّف على الأربعين ، وكان غريب الأطوار حقاً .

فكان قد ظفر بالشهادة الثانوية ، وعمل في ديوان من دواوين الحكومة ، وانتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية . فكان يندو على مكتبه ويرؤخ إلى مدرسة الحقوق حتى

الطربدرجة الليسانس الفرنسية من جامعة باريس ، وكان مرتبه ضئيلاً ، ولكنه كان يحسن التدبير والاقتصاد ، فيؤدى رسوم المدرسة ، ويسافر إلى باريس في كل عام

لأداء الامتحان ، حتى إذا أتمّ الدرس طمع في أكثر من الدرجة التي ظفر بها . واتصل

بعلوي باشا فقصّ عليه قصته ، وتأثر الباشا بهذه القصة ، وقدر أن هذا الفتى يجب أن يكون حريصاً على العلم محباً له مشغوقاً به ، مادام قد تكلف في طلبه كل هذا

العناء ، وقتر على نفسه في الرزق كل هذا التقدير حتى ظفر بهذه الدرجة التي أتاحت

له . وجعله علوي باشا عضواً في البعثة الجامعية ليحضى في درس الحقوق حتى ظفر بدرجة الدكتوراه . لم يحفل بتقدّم سنه : ولم يفرض عليه امتحاناً أو شيئاً يشبه الامتحان .

وأما الآخر فكان قد تيّف على الثلاثين ، وكان قد تخرج في دار العلوم ، والقدم لمسابقة الجامعة فظفر فيها ، وأرسل إلى فرنسا للتخصص في الأدب العربي .

فأقام فيها سنتين متصلتين ، ثم رُدّ إلى مصر حين أعلنت الحرب ، ثم أعيد إلى فرنسا بعد أن انجلت عنها الغمرة الأولى . وكذلك لم يشعر الفتى وأخوه بشيء من الوحشة في هذا السفر بفضل هذين الرقيقين . وكان مسرفاً غير قاصد ، فيه كثير من جهد ،

وفيه شيء من خطر أيضاً .

فقد اختيرت لسفر البعثة سفينة فرنسية فقيرة حقيرة رخيصة . وكان اختيارها لولاً من الاقتصاد . وكان اسمها « أصبيان » ، وكانت على بؤسها وفقرها مرحلة تحب الرقص في البحر ، وتحسن اللعب على أمواجه ولا تحفل بما يلقى ركاها من عقاب حبا للرقص واللعب . وكانت تؤثر المهل على العجل ، وتفصل الأناة على السرعة ، وكانت السفن تعبر البحرين الإسكندرية ومارسيلييا في أربعة أيام فأما أصبيان فكانت تحب البحر وتؤثر أن تعبره في ثمانية أيام لا في أربعة ، وصعد القتي إلى « أصبيان » يتعثر في جيبه وقفطانه . ولم يكد يبلغ غرفته في الدرجة الثانية ويسمع الجرس المؤذن يقرب إقلاع السفينة حتى خرج من جيبه وقفطانه ، وتخطف من عمامته ، ودخل في ذلك الزئ الأوربي ... وشغله دخوله في ذلك الزئ عن إقلاع السفينة واندفاعها في طريقها هادئة أول الأمر ، مضطربة بعد ذلك أشد الاضطراب ، ورأى القتي نفسه حين أقبل المساء وقد فارق مضرباً ، ودُفع إلى مغامرته تلك التي عرف أولها ولكنه لم يعرف ما يكون بعد أولها هذا من الأحداث والخطوب .

والحق أنه لم يفكر في الأحداث ولا في الخطوب ، ولا في أول المغامرة ولا آخرها . وإنما شغل بزيه الجليد ساعة وبعض ساعة ، ثم شغل باضطراب السفينة بعد ذلك ، فلم يفرغ منه إلا حين أتمت السفينة رحلتها وانتهت به إلى مارسيليا ذات مساء بعد ثمانية أيام طوال حافلة بالفزع والروع والضيق .

• • •

وقد لزم القتي غرفته تلك منذ دخل السفينة إلى أن خرج منها . لم يذهب إلى غرفة المائدة ، وكيف يذهب إليها وهو لا يحسن الحركة في هذه السفينة التي لا تستقر ولا يعرف الجلوس إلى موائد الطعام ، ولا يحسن استعمال تلك الأدوات التي يستعملها الناس حين يطعمون ، ولا يستطيع أن يأكل أمام المسافرين من الأوربيين

بيديه كلتيهما أو إحداهما ، كما كان يصنع في مصر ، فليس له بد إذن من أن يصبب طعامه في غرفته . وكان الرفاق قد وكلوا به خادماً من خدم السفينة يحمل إليه غداه وعشائه ، وقد أعيداً إعداداً حسناً ، ليصيب منهما حاجته . فكان الخادم يحمل إليه الطعام في موعده ، فيضعه بين يديه ثم ينصرف عنه ، ويطلق باب الغرفة من دونه ، ثم يعود إليه بعد حين ليحمل ما وضع بين يديه من أطباق . وكان كلما عاد لحمل هذه الأطباق قال القتي في ضحكة حزينة جملةً بعينها لا يغير منها حرفاً حتى حفظها القتي ولم ينسها : « ما أقل ما تصيب من الطعام ! » . وأفاق السُّرَّذات ليلة مذعورين ، فقد اضطربت السفينة اضطراباً عنيفاً مفاجئاً ، وكثرت لها الجلجلة ، ثم وقعت السفينة فجأة ، وجعلت الريح تصصف من حولها ، واشتد اصطحاب الموج ، وصوت بعض النساء ، وعرف المسافرون أن عطياً قد أصاب محرك السفينة ، ولم يشك أحد في أن الخطر قريب .

وبينا كان السُّرَّ في ذعرهم وروعهم ، كان الرفيق الدرعمي مقبلاً على ذقنه يعمل فيها الموسيقى ، حتى إذا فرغ من ذلك دخل في ثياب النهار كما تعود أن يدخل لها قبل أن يخرج من غرفته في كل يوم ، ثم أقبل على القتي متكلاً ضحكاً يغالب به الرُوع . فلما رآه مستلقياً في سريره قال متضحكاً : وإنك لتستقبل الآخرة على هذه الحال !

قال القتي : وما تريد أن أصنع ؟

قال الدرعمي : فإني كرهت أن أستقبل الموت في قميص ، فحلقت ذقتي ، وأخذت زيتي لأغرق كرىماً لا يضحك الناس مني . ثم اندفع في ضحك يائس وأخذ يتغنى في شعر البردة كما يتغنى فيه بعض أصحاب الطرق :

أين تدكر جيران بني سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة يدهم

وإنه لقي هذا العبث ، وإذا اضطراب الناس يهمل . فقد عرفوا أن في السفينة من المهندسين والعمال من يستطيعون إصلاح ما أصاب محرّكها من عَطَب ، وأنها تستأنف سيرها بعد ساعات . وما أسرع ما استحال الرُّوع إلى ضحك ولهاج وابتهاج . .

وتستأنف السفينة سيرها وقد سكنت ، فهي لا تعصف ، وسكن الموج فهو لا يقصف ، ومضت السفينة في طريقها هادئة مستأنية ، كأن رَشدها قد تاب إليها ، وكأنها هي قد ثابتت إليه . وتبلغ مارسيليا مساء ذلك اليوم ، فيهبط صاحبها من السلم لا يتعثر في جبهته وقفظانه ، ولكن نفسه هي التي كانت تتعثر في هذه الحياة الجديدة التي يستقبلها ، ولا يعرف كيف يلقاها ، ولا كيف يحمل أعباءها ، ولا كيف ينفذ من مشكلاتها .

ويبلغ الرفاق مدينة مونتبييه التي أمرتهم الجامعة أن يطلبوا العلم فيها عامهم ذلك ، ولا يذهبوا إلى باريس حتى يؤذن لهم في الذهاب إليها ، وهم يبلغون تلك المدينة مع الليل ، وهم يجهلون من أمرها كل شيء . ولكن رفيقهم ذلك الذي تَبَّع على الأريبيين وحلب الدهر أشطره كما كان يقول ، وجعل نفسه رئيساً لهم بحكم السن ، يقودهم إلى فندق حقير فقير كسفيتهم تلك التي عبرت بهم البحر ، فإذا استقروا في هذا الفندق وعبث بهم البرد أقبل الذمعي متضاحكاً وهو يقول للفتى :

أوتل مثل توجه الكلب لكن لخاطر سلطان اصبر شويه
سلطان هذا هو اسم الرفيق سلطان الذي قادم إلى الفندق ، ولكن ضروره
الشعر حذفت ألفه ليستقيم الوزن ، وما أكثر ما تحذف ضرورات الشعر من
الحروف ! . . .

الفصل الحادى عشر

الفتى في فرنسا ..

واستقبل الفتى حياته في مدينة مونتبييه سعيداً بها إلى أقصى ما تبلغ السعادة ، راضياً عنها كأحسن ما يكون الرضا . فقد حقق أملاً لم يكن يقدر أنه سيحققه في يوم من الأيام .

وكان يكفبه أن يفكر في صباه ذلك البائس الذي قضاه متردداً بين الأزهر وحوش عطا ، تشقى نفسه في الأزهر ، ويشقى جسمه ونفسه في حوش عطا ، حياة مادية ضيقة عسيرة كأقصى ما يكون الضيق والعسر ، وحياة عقلية مجدية لليرة كأشد ما يكون الإجداب والفقر ، ونفس مضیعة بين عسر الحياة المادية ووفر الحياة المعنوية . ثم يوازن بين حياته تلك وبين الحياة الجديدة التي أخذ يحياها في هذه المدينة الفرنسية ، لا يحس جوعاً ولا حرماناً ، يُحْمَلُ إليه فطوره إذا أصبح ناعماً ليتأ لا خشونة فيه ولا غلظ . فإذا جاءت أوقات الطعام في وسط النهار وفي آخره ، وجد في اختلاف الألوان وتنوعها ما يذكره بطعامه ذلك المشابه حين كان يغمس خبزه في عسله ذلك الأسود مصباحاً ومسيماً ، وحين كان يحب أن يخلط من طعامه ذلك أحياناً ويخالف عن حلالته البغيضة إلى شيء آخر ، فلا يهد إلا ذلك الطعام الغليظ الذي كان الأزهريون يعيشون عليه في تلك الأيام . فإذا أحب أن يتفكه فلا ينصرف له عن البلبلة في الصباح والتين الغارق في الماء إذا كان المساء أو الضحى . وأين ذلك الطعام الغليظ من هذه الألوان المترفة

الرفيقة التي كانت تعرض عليه في عداوته وعشائه في غير تقدير ولا تضييق ، وفي كثير من إلهام الخدم وأصحاب الفندق عليه في أن يصيب منها أكثر مما أصاب .
ويذهب إلى الجامعة فيسمع فيها ما شاء الله أن يسمع من دروس الأدب والتاريخ واللغة الفرنسية ، لا يسمع درساً إلا أحس أنه قد علم ما لم يكن يعلم ، وأضاف إلى علمه القديم علماً جديداً ، وهو على قلة حظه من إحصان اللغة الفرنسية لم يكن يجد كثيراً من المشقة ، ولا يبذل كثيراً من الجهد ، ليفهم ما كان الأساتذة يلقون من الدروس فهماً يغيته ويرضيه . كان الفتى يوازن بين حياته هذه الجديدة وحياته تلك القديمة ، ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم ، فبرى نفسه أسعد الناس وأعظمهم حظاً من النجح والتوفيق ، وهو مع ذلك لم يكن ميسراً عليه في الرزق ، وإنما كان عليه أن يدبر مرتبه ذاك الذي لم يكن يتجاوز اثني عشر جنياً لينفق منه على نفسه وعلى أخيه . وقد تهيأ له ما أراد من ذلك في غير تكلف ولا عناء . كانت الحياة الفرنسية في تلك الأيام هينة ميسرة ، تتيح لفتين أجنبيين مثله ومثل أخيه أن يعيشا بهذا المربى الضئيل عيشة راضية حين تقاس إلى ما كانا يلقيان في مصر من قسوة الحياة وشظفها .

ثم لم يلبث الفتى أن فكر في أنه لم يعبر البحر إلى فرنسا ليرتد بين الفندق والجامعة ، وإنما أقبل إلى هذا البلد الغريب ليدرس ويحصل ويجوز الامتحان ، ويظفر بالدرجات الجامعية التي لم يظفر بها أحد قبله من مواطنيه . فلم يكن له بد من أن يظفر بدرجة الليسانس ، ولم يكن إلى الظفر بتلك الدرجة سبيل في تلك الأيام إذا لم يحسن الطالب لغتين لم يكن من إحسانهما بد . إحداهما لغة الدرس وهي اللغة الفرنسية التي كان الفتى قد أخذ منها بحظ يسير ، والأخرى لغة قديمة كان الفتى يسمع عنها ولا يحققها ولا يعرف إلى العلم بها سبيلاً ، وهي اللغة اللاتينية .

وقد أخذ الفتى يتبأ لإتقان الفرنسية من جهة ، وتعلم اللاتينية من جهة أخرى . فالتمس لنفسه معلماً خاصاً يُعينه من ذلك على ما كان يريد . وقد جعل رفاهه يبحثون له عن المعلم الذي يلائمه حتى قيل لهم إن صاحبكم مكفوف ، وليس له بد من أن يتعلم كتابة المكفوفين وقراءتهم ، ليستطيع أن يعتمد على نفسه في تحصيل ما يريد أن يحصل من العلم .

ثم قيل لهم إن في تلك المدرسة من مدارس المكفوفين أستاذاً ضريراً قد يعين صاحبكم على حاجته . فسعوا إلى هذا الأستاذ ، وقدموا إليه صاحبهم ، وأعلن الأستاذ إليهم أنه زعيم بأن يعلم رفقهم الكتابة والقراءة الفرنسية واللاتينية جميعاً ، ولم يطلب على هذا إلا أجراً ضئيلاً في نفسه ، ولكنه كان ثقيلاً على هذين الأخوين اللذين كانا يعيشان بمربى شخص واحد .

وقد قبل الفتى مع ذلك أن يشق على نفسه وعلى أخيه ، وأن يؤدي إلى الأستاذ أجره الذي طلبه . وكتب إلى الجامعة يستعينا فلم تبخل عليه بالنعون ، وقامت عنه بأداء هذا الأجر .

وأقبل الفتى على الكتابة البارزة بتعلمها ، فلم يلبث أن أحسنها ، ولكنه عندما حاول أن ينتفع بها في درسه لم يجد إلى الانتفاع بها سبيلاً . فلم تكن الكتب التي كان يحتاج إلى قراءتها قد طبعت على هذه الطريقة الخاصة . وكان ربما أتبع له الكتاب المطبوع على هذه الطريقة ، فلا يكاد يأخذ في قراءته حتى يضيق بهذه القراءة أشد الضيق ، وينفر منها أعظم النفور . فهو قد تعود أن يأخذ العلم بأذنيه لا بأبصاره ، وهو من أجل ذلك يجد المشقة كل المشقة في تتبع هذه النقط البارزة حتى يؤلف منها الكلمة ، ثم يؤلف من الكلمة وأمثالها جملة ، ثم يؤلف من هذه الجملة وأمثالها كلاماً يمكن أن يعمل فيه عقده وفهمه وبصيرته ، وإذا هو يجد في ذلك عسراً أي عسر ، ويسأم ذلك أشد السأم وأقساه ، ويرى أنه يستطيع

أن يحصل من طريق أذنيه في اللحظات القصيرة ما يحتاج إلى الوقت الطويل والمثل
التفكير ليحصله من طريق أوصابه . وهو يعدل عن الكتابة البارزة وعن القراءة
بالأصابع إلى طريقته التي ألفها إلا في درس اللاتينية . فقد كان حريصاً على
أن يتعلم هذه اللغة في أناة ومهمل ، وكانت هذه الطريقة في الكتابة والقراءة تواتيه
وتلائم ابتدائه درس هذه اللغة وحاجته إلى الريث والأناة .

على أنه لم يكد يتقدم في درس اللاتينية قليلاً حتى سُم القراءة بأصابعه ،
وآثر الاستماع على تلمس الحروف ، وأحس الحاجة إلى قارئ يقرأ عليه ما يريد في
اللاتينية والفرنسية جميعاً . ولم يستغن عن أستاذه ذلك الذي كان يعلمه هاتين
اللغتين . واستحى أن يطلب إلى الجامعة عوناً جديداً . فقتّر على نفسه أشد التقدير
وأغصاه ، وعاش عيشة فيها شيء من غلظة وشوشنة ، ولكنها كانت على كل حال
خيراً من حياته التي ألفها في مصر .

•••

على أن الأيام أبت إلا أن تشقّ عليه وترهقه من أمره عسراً . فقد كان يعيش
مع أخيه عيشة راضية على ما فيها من قسوة ومشقة . . وكانا يديران أمرهما تديباً
ملائماً لطاقتهم المالية ، ولكنها لم يلبثا أن اختلفا واشتد بينهما الاختلاف ، حتى
أصبحت حياتهما خصاماً متصلاً وشقاء ملحاً ، وحتى اضطر إلى أن يفترقا . .
يسكن كل واحد منهما في منزل غير الذي يسكنه أخوه ، ويلتقيان بين حين وحين .
وقد اضطرهما ذلك إلى المبالغة في التقدير على أنفسهما . فليست النفقات التي
يقتضيا افتراقهما في المسكن ، كالتفقات التي كانا يحتملها حين كانا يسكنان
في غرفة واحدة ، ويختلفان إلى مائدة واحدة .

وكذلك اشتدت قسوة الحياة على هذين الأخوين الغريبين ، ولكنها لم
تقتل من صبرهما ، ولم تصرفهما عن جدّهما في الدرس والتحصيل . ولم تكن حياة

الفتى على ذلك النحو مبعضة إليه ، ولا ثقيلة عليه من جميع وجوهها ، وإنما كانت
مزاجاً من الجد الصارم والجزل الباسم . يلتقيان أحياناً فيحيا الفتى حياة ليست حلوة
ولا مرة ، ولكنها تُعير في أول النهار ، وتحلو في آخره حين كان الفتى يلقي رفاقه
ويسمع لأحاديثهم ، ويقضى بينهم فيما كان يعرض لهم من المشكلات ، وما أكثر
ما كان يعرض لهم من المشكلات ، ومن مشكلات الحب والغرام خاصة . ا .
وكيف تريد فتية من المصريين على أن يعيشوا في فرنسا ويختلفوا إلى القهوات
والأندية وبعض ما يقام من الحفلات بدون أن يداعبوا الحب أو يداعبهم الحب ،
ويدون أن تقسو عليهم دعابة الحب بين حين وحين ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن
يمنع صديقين من أن تروقهما فتاة واحدة ، وإذا هما يلتمسان إلى لقائهما الوسيلة .
فإذا أتيح لهما هذا اللقاء ابتغيا عندها مواقع الرضا ، ثم لا يلبث أن يكون بينهما
التنافس ، ثم الخصومة ، ثم التلاحي ، ثم الفرقة . أهبما ظفر عند صاحبتهما
بالرضا فهو عدو لصاحبه الذي أخلفه الظن ، وكذبه الأمل ، ولم يقع من نفس
الحسنة ما كان يرجو من موقع الرضا والارتياح . ولا تلبث هذه الخصومة بين
الرفيقين أن تتجاوز الحب إلى غيره من ألوان الحياة التي كانا يتعاونان عليها ويشتركان
فيها . وإذا صاحبتا يصبح قاضياً بين رفاقه في شؤون الحب ، وليس له أربّ فيه
ولا سبيل إليه . وأتى له بشيء من ذلك وهو المكثوف الذي لا يحسن شيئاً حتى
يعينه عليه معين ، وهو لا يرى وجوه الحسان ، ولا يعرف كيف يتحدث إليهن ،
أو كيف يبتغي إلى رضاهن الوسائل . فهو يغدو على الجامعة مصيبحاً ، فإذا راح
إلى منزله آخر النهار لم يبرحه حتى يسفر له صبح الغد . والرفاق يُلْمون به في آخر
النهار وأول الليل ، فيختصمون بين يديه ويتخذونه حكماً بينهم ، وهو يصلح بين
المختصمين مرة ويقضى لبعضهم على بعض مرة .

•••

ولكن الليل لا يكاد يتقدم حتى يتفرق عنه رفاقه جميعاً ، وإذا هو يخلو إلى نفسه هذه الخلوة المرة التي لا يجد عليها معيماً . قد جلس وحده في غرفته تداعب نفسه الخواطر المختلفة الكثيرة . فيها ما يسر ، وفيها ما يسوء . فيها ما يحيي الأمل ، وفيها ما يملأ القلب يأساً وتوقلاً .

وما يزال القتي جالساً في مجلسه ذلك من غرفته تعبت به خواطره هذه المختلفة لا يسأل عنه سائل ولا يلتم به مليم ، وإنما هي الوحدة المطلقة القاسية التي كانت تذكروه وحدته في غرفته في حوش عطا ، حين لم يكن يؤنسه إلا صوت الصمت وما كان يتردد فيه أحياناً من أزيز بعض الحشرات .

وربما أسرفت عليه القسوة حتى تنتهي به إلى أقصاها فيمتنع عليه النوم ، ويأبى الأرق إلا أن يكون له حليفاً . وإنه لفي ذلك وإذا بابه يطرق ، وقد كاد الليل يبلغ ثلثيه . فإذا أذن للطارق بالدخول فتح الباب ، وأقبل عليه أحد رفاقه وقد أخذ من عتب الشباب بأعظم حظ ممكن ، وهو لا يريد أن يأوي إلى سريره حتى يتحدث ببعض عهته إلى صاحبه . فإذا فرغ من حديثه وانصرف ترك صاحبه وقد انتهى به الحزن والضيق إلى غايتها ، وإذا هو يقضي ليلة بيضاء لا يذوق فيها للنوم طعماً . فإذا أصبح غدا على حياة فاترة لا خير فيها لعقله ولا لجسمه .

وهو على ذلك وعلى ضيق ذات يده ، وعلى المشقة الشاقة التي كان يلقاها في الاختلاف إلى الجامعة والانتفاع بما كان يسمع من الدروس ، راضٍ عن حياته كل الرضا ، مطمئن إليها أشد الاطمئنان لا يتعنى إلا أن يمضى فيها حتى ينتهي إلى ما قدر له من غاية ، وهو واثق بأنه سيبلغ من هذه الحياة ما يريد ، سيحسن الفرنسية ، بل هو قد أخذ يحسنها ويطلق بها لسانه في غير مشقة ، وسيتعلم اللاتينية ، وسيتهيأ للامتحان . ومن يدري لعله أن يكون أول طالب مصري يظفر في يوم من الأيام بدرجة الليسانس في الآداب .

وإنه لفي هذه الحياة الحلوة المرة القاسية اللينة التي يحبها أحياناً كأشد ما يكون الحب ، ويضيق بها أحياناً أخرى كأشد ما يكون الضيق ، وإذا الحياة تنبسم له فجأة في يوم من أيام الربيع ابتسامة تغير حياته كلها تغيراً .

وإذا هو لا يعرف الوحدة ولا يجد الوحشة حين يخلو إلى نفسه إذا أظلم الليل ، وكيف تجذب الوحدة أو الوحشة إلى نفسه سيلاً ، وكيف تبلغه تلك الخواطر التي كانت تؤذيه وتضنيه وتؤرق ليله ، وفي نفسه صوت عذب رفيق يشيع فيه البر والحنان ، ويقرأ عليه هذا الأثر أو ذلك من روائع الأدب الفرنسى القديم ؟

• • •

يرحم الله أبا العلاء ، لقد ملأ نفس القتي ضيقاً بالحياة وبغضاً لها ، وأبأسه من الخير ، وألقى في روعه أن الحياة جهد كلها ومشقة كلها ، وعناء كلها . وإذا هذا الصوت يذود عن نفس القتي كل ما ألقى فيها أبو العلاء من ظلمة التشاؤم واليأس والقنوط ، كأنه تلك الشمس التي أقبلت في ذلك اليوم من أيام الربيع ، فجلت عن المدينة ما كان قد أطبق عليها من ذلك السحاب الذي كان بعضه يركب بعضاً ، والذي كان يقصف ويعصف حتى ملأ المدينة أو كاد يملؤها إشفاقاً وروعاً .

وإذا للمدينة تصبح كلها إشراقاً ونوراً .

سمع القتي ذلك الصوت يقرأ عليه شيئاً من شعر راسين ذات يوم . فأحس كأنه خلق خلقاً جديداً ، ومنذ تلك الساعة التي سمع فيها ذلك الصوت لم يعرف اليأس إلى نفسه سيلاً .

ولم يعرف القتي أنه أحب الحياة قط كما أحبها في الثامن عشر من شهر مايو في ذلك العام .

ولم يعرف أنه أقبل على الدرس كما أقبل عليه منذ ذلك اليوم .

ولم يعرف أنه انتفع بالاختلاف إلى الجامعة والقراءة في الكتب كما جعل يتنفع بهما منذ ذلك اليوم أيضاً . . حتى حين انقطع عنه ذلك الصوت العذب البرّ الرفيق يقدم الصيف .

فقد كان الصوت يصحبه دائماً ، لا يكاد يخلو إلى نفسه في ليل أو نهار إلا سمعه يقرأ عليه هذا الكتاب أو ذلك ، في تلك النبرات التي كانت تسبق إلى قلبه فتملؤه رصاً وغبطة وسروراً .

وإنه لفي هذه السعادة المتصلة ، وإذا صاحبه الدرعى يقبل عليه ذات صباح مظلم الوجه والنفس والصوت ، فينبهه بأن كتاباً قد وصل إليه من الجامعة تنبئه فيه بأن طلاب البعثة جُمِعوا يجب أن يعودوا إلى مصر ، وأن يأخذوا إليها أول سفينة تتاح لهم بعد قراءة هذا الدعاء .

وقد سمع الفتى حديث صاحبه فأغرق في ذهول عميق ، ثم أفاق بعد وقت لم يدرك أقصر أم طال ، وإذا هو يرى أماله العذاب قد استحالت في أقصر لحظة إلى آمال كذاب ، ويرى حياته المشرقة الباسمة الحلوة قد أصبحت ظلمة عابسة مرّة مضمّنة . ولكنه على ذلك لم يستسلم لليأس ، وإنما أخذ يتعلّق بالوهم ، فيبرق إلى من كان يعرف من الصديق القادرين على أن يسعوا له في الخير عند الجامعة أو عند السلطان . ويبرق إلى القصر ، ويتنظر ما يعود به البرق عليه ، وإذا البرق لا يعود عليه إلا بالإلحاح في الدعاء أن يعود إلى مصر في غير إبطاء .

ويرى الفتى نفسه ذات يوم من شهر سبتمبر يسعى مع رفيقه الدرعى إلى السفينة ، وكلاهما محزون كاسف البال ، كأنه لا يسعى للعودة إلى الوطن ، وإنما يساق إلى الموت .

الفصل الثاني عشر

الصوت العذب

وكانت أيام السفينة الستة طويلاً ثقلاً قد ألّني عليها الحزن عشاء شاحباً بغضاً . فلم يجد الصحابان فيها للذة السفر وراحته طعماً ، وإنما كان ألمٌ يصحبهما ويمسهما ، وكانت خيبة الأمل حديثهما في النهار حين يلتقيان ، وحديث نصيبهما في الليل حين يفترقان . وما لهما لا يشقيان بهذه العودة المفاجئة ، وأحدهما قد أشفق في باريس أعواماً طويلاً ثم لم يحقق من آماله شيئاً ، وإنما هم ولم يفعل ، فتعلم الفرنسية واختلف إلى الدروس ، وأخذ يتبهاً لإعداد رسالته التي ينال بها درجة الدكتوراه ، وإذا الحرب تردّه عن ذلك رداً . فإذا عاد إلى فرنسا واستأنف ما كان فيه من استعداد للرسالة والامتحان ردّه الأزمة المالية التي أدركت الجامعة إلى وطنه خائباً فارغ اليدين لم يصنع شيئاً ولم يظهر بشيء .

ولو قد التمس لنفسه عملاً حين تخرج في دار العلوم ولم يتكلف ما تكلف من السفر والغربة ، لكان في ذلك الوقت معلماً في هذه المدرسة أو تلك من مدارس الدولة . ولكنه يرى نفسه ضائعاً لا يكاد يدنو من الغاية حتى يصدّ عنها صدأ . تصدّه الحرب مرّة ، وتصدّه الأزمة المالية مرّة أخرى ، وهو يعود إلى مصر ليعيش فيها فارغاً لا يدري ماذا يعمل ، ولا يعرف كيف يكسب القوت ؟

وأما الآخر فقد جدّ وكذّ واحتمل المشقة والعناء ، وداعب الأحلام والآمال ، حتى إذا أشرف على البعثة ولم يكن يقدر أنه سيسرف عليها ردّه عنها إعلان الحرب ،

فعاش أشهراً عيالا على أبيه وأخيه وذاق مرارة الحياة التي لا تغنى عنه وعن غيره شيئاً . ثم أتاحت له البعثة فأقبل على عمله معتطاً سعيداً يكاد يخرجه النشاط من إهابه . وقد حاول من أمور الدرس ما أتبع له فيه كثير من التوفيق ، حتى ظن أنه بالغ ما يريد ، ثم عرض له في أثناء إقامته في فرنسا ما أحيأ في نفسه آمالاً لم تكن تخطر له ببال . فهو قد عرف أنه يستطيع أن يكون كثيره من الناس ، بل خيراً من كثير من الناس ، يحيا حياة فيها رضا وغبطة ، وفيها نعمة وبهجة . وفيها سكنون إلى هذه الرحمة التي كان قد استأيس منها والتي كان أبو العلاء قد ألقى في روعه أنه لن يدوقها ما عاش . وإذا الأيام تدنيه منها أو تدنيها منه .

وإنه لفي حياته تلك الراضية الناعمة على ما كان فيها من خشونة وعسر ، وإذا الجامعة تدعوه إلى مصر ليعود إليها كما خرج منها ، كأنه لم يداعب الأمل إلا ليتجرع مرارة اليأس كأبغض ما تكون مذاقاً .

وهو قد عرف التبطل والفراغ في أشهره تلك التي قضاه في مصر ، بعد أن أعلنت الحرب ، وهو يعود ليلقى التبطل والفراغ مرة أخرى في مصر .

أفأ لهما من رقيقين بغضين ! ولقد كان يقطع الأمد بين موبلييه ومارسيليا أثناء ليلته تلك الثقيلة وليس في نفسه إلا شيء واحد ، هو هذا الصوت العذب الذي طالما قرأ عليه آيات الأدب الفرنسي ، وهو الآن يناجيه في حزن أليم . . . واذن فلن نلتقي بعد أن ينفضي الصيف !

وقد صحبه هذا الصوت أيام السفينة يناجيه مناجاة اليأس مرة ، ومناجاة الأمل مرة أخرى ، يشفق عليه من الأحداث ، ويمنيه الانتصار والخروج منها ، ويتحدث إليه بأنها الغمرات ثم ينجلين . وبأن لكل أزمة غاية ، وبعد كل حرج فرجاً ، وهو مضطرب بين هذه الابتسامات المضيئة الخاطفة التي لا تكاد تعرض له حتى تنصرف عنه ، وهذا الحزن الجاثم المقيم الذي لا يفارقه إلا ريثما يعود إليه !

وتبلغ السفينة ثغر الإسكندرية ، وإذا الوطن زاهد في هذين الصاحبين البائسين ، لا يريد أن يلقاهما ولا أن يضمهما بين ذراعيه ، فقد كانت الحرب قائمة ، وكانت قيودها شديداً أقمالاتاً . وكان أمر مصر إلى غير أهلها ، وكان أمر التفرغ خاصة ضيقاً حرجاً ، قد فرضت عليه رقابة أى رقابة ، فلا تكاد البهنية تستقر في مساها ، ولا يكاد الصاحبان يحاولان الهبوط بها ، حتى يردا عن ذلك رداً شديداً ، فلم يكن يمكن أن يصل المصري إلى وطنه ليدخله ، وإنما كان يجب أن ينتظر ويطول انتظاره حتى يؤذن له بالدخول .

وقد انتظر الصاحبان حتى تستأذن السلطة في السماح لهما بترك السفينة والنزول إلى أرض الوطن ، وأيقا إلى الجامعة وإلى من يعرفان من الصديق يتسجلان هذا الإذن . ولكن الأمور لم تكن تجري في يسر وإسماح ، وإذا هما يقفان في السفينة يوماً ويوماً . وصنع الله لهما في هذين اليومين أن كانا فيهما مضطربين أشد الاضطراب ، يريدان أن تفتح لهما أبواب الوطن ، ويتمنيان في أعماق ضمائرهما أن تظلل مخلقة ، وأن تعود بهما السفينة إلى مارسيليا . . .

ولكن ماذا يصنعان في مارسيليا ؟

وكيف يعيشان في فرنسا ؟

بل كيف يعيشان في السفينة نفسها في أثناء عودتهما إلى مارسيليا ؟ ومن لهما

بشئ هذه العودة ؟

ولكن أبواب الوطن تفتح لهما بعد لأي ، والوطن يتلقاهما كئيباً ، فيضيف إلى

حزنها جزئاً وإلى شقائهما شقاء .

وقد أقام صاحبا في القاهرة قريباً من ثلاثة أشهر لا يعرف أنه شئ في حياته كلها كما شئ فيها ، ولا أنه سعد في حياته كلها كما سعد فيها . ولكن شقاءه كان طويلاً ملحاً ، وسعاده كانت سريرة خاطفة . كان يشقى بالتبطل والفراغ والبؤس ،

وكان يسمد بذلك الصوت العذب الذي كان يتناخه بين حين وحين ، وربما أيقظه من نومه مفرغاً ، سروراً مع ذلك بهذا الفرع . وكان يعد هذه الرسائل التي كانت تصل إليه بين حين وحين فيها كثير من الأمل المشفق ، وكثير من التشجيع على الاحتمالات ، وربما اشتملت بعض هذه الرسائل على زهرة قد جففت وأرسلت إليه ليحملها كما تحمل التأمم ولتذكره إن عرض له النسيان .

وشهد الله ما عرض له النسيان قط . . .

في هذه الأشهر الثلاثة شكى الفتى كما لم يشك قط في حياته ، شكاً شعراً ونثراً حتى لآلمه في ذلك بعض الصديق ، وقال له قائلهم أين الصبر ؟ وأين الإجمال ؟ وأين الشجاعة والاحتمال ؟ وأين ذهب عنك الحياء حتى كتبت في بعض الصحف هذين البيتين :

الحمد لله على أنني قد صرْتُ من دهري إلى شُرْحَال
لا أملكُ القوتَ ولا أبتغي ما فاتني منه بَدَلُ السَّوَالِ

وقال له قائلهم أيضاً : املك عليك نفسك ، فإنك إن تكن تشكو الزمان إلى الزمان فهو لن يسمع لك ، لأن الزمان أصمٌ غبيٌّ غافلٌ ذاهلٌ ، لا يعرف بينه ولا يسمع لهم ، وإن كنت تشكو الزمان إلى الناس : فالتاس مشغولون عنك بأنفسهم ، وهم بين رجلين : عاطف عليك ، ولكنه لا يقدر لك على شيء ، وقادر على معونتك ، ولكنه لا يحفل بك ولا يلقي إليك بالا ، ولو قد أهدى إليك العون لما قبلته منه ، فأأرى أنك ترضى لنفسك هذا الهوان .

ولكن صاحبنا لم يقلع عن شكايته ، لأنه لم يكن يشكو الزمان إلى الزمان ، ولا يشكو الزمان إلى الناس ، ولا ينتظر من الزمان ولا من الناس شيئاً ، وإنما كانت الشكوى غناءً نفسه المحزونة وباله الكئيب .

في تلك الأيام كان عبد الحميد حمدي - رحمه الله - يصلح جريدة « السفور »

في كل أسبوع ، ويطلب إليه وإلى غيره من الصديق أن يعينه بالكتابة فيها ، فكان صاحبنا يرسل إليه حديث نفسه ذلك المرّة .

وكان يتردد على الجامعة ويسمع بعض دروسها ، فسمع ذات يوم درس الأستاذ المهدي ، رحمه الله ، وكان له مع الأستاذ تلك الخطوب التي رويت في حديث مضى ، والتي كادت تفصله من بعثة الجامعة لولا أن أعضاء مجلس الإدارة كانوا أوقفه وأذكى من أن يستجيبوا للأستاذ رحمه الله .

وفي تلك الأيام طلب عبد الحميد حمدي إلى الفتى أن ينشر كتابه عن أبي العلاء ، فاستجاب الفتى لذلك سعيداً محبوراً . وجد في ذلك تسلياً لبعض همّه ، وشغلاً لبعض وقته ، وإرضاء لغروره الذي كان في حاجة إلى بعض الرضا ، بعد أن أسرفت الأيام في القسوة عليه . وأى رضا للغرور أعجب إليه وأثر في نفسه من أن يظهر له كتاب في أيامه تلك الشداد ؟

وقد نشر الكتاب ، ولكن صاحبنا لم يُبَدِّ من نشره مالا قليلاً أو كثيراً . ولم يبد منه رضاً قليلاً أو كثيراً . فقد أُعْجِلَ عن هذا كله ، دعاه علوى باشا ذات يوم ، وأنبأه - في رفق به وعطف عليه لم ينسهما قط - أن أزمة الجامعة قد انضجرت ، وأن عليه أن يتأهب للسفر ، فسيبحر مع صاحبه الدرعي وغيره من أعضاء البعثة بعد أيام .

ثم أنبأته الجامعة بعد ذلك بأنه سيستشرف مع زملائه أعضاء البعثة بقاء السلطان حسين كامل .

وقد أتيح لهم هذا اللقاء في ضحى يوم من الأيام ، ذهبوا إلى القصر بقودهم علوى باشا ، وأدخلوا على السلطان ، فلقبهم لقاء حسناً ، وألقى على الفتى سؤالاً لم يعرف كيف يرد عليه .

سأله : من أول من رفع شأن التعليم في مصر ؟



فَوَجِمَ الفتى ولم يرجع جواباً .

قال السلطان وهو يضرب على كتفه وينطق في لهجة تركية : جنة مكان

إسماعيل باشا .

ثم صرف الرفاق ، ولم يكادوا يخرجون من غرفة الاستقبال حتى أنباهم منبئ

بأن السلطان قد تفضل وأجاز كل واحد منهم بمخمين جنبياً . . .

وخلص الرفاق بعد أن خرجوا من القصر نجياً ، فقررُوا أن يهدوا جوائزهم إلى

الجامعة معونة لها واعترافاً ببعض ما قدمت إليهم من جميل . وكانوا بهذا القرار

سعداء حقاً كأنما أهدوا إلى أنفسهم خيراً عظيماً ومعروفاً جزيلاً .

وهم يسعون إلى علوى باشا - رحمه الله - ليرفعوا إليه قرارهم ذلك . منتظرين

أن يسمعوا منه رصاً عنهم وثناء عليهم وتشجيعاً لهم على أن يكونوا أحياناً . ولكن علوى

باشا يلقاهم ويسمع منهم ، ثم يفرق في ضحك متصل ، ثم يقول لهم : ما هذا الكلام

الفارغ ؟ ! خذوا أموالكم واذهبوا ، فاعشوا بها في باريس ، أيها الحمقى . . فن

حسبكم أن ترفعوها عن أنفسكم أياماً بعد ما لقيتم في هذه الأشهر من عناء طويل

ثقيل !!

ثم يسكت حيناً ثم يقول : فإذا أصبحتم أغنياء فاستأنفوا ما أقدمتم عليه من

خير ، وما أراكم تفعلون يوماً ، فستعرفون قدر المال .

وانصرف الرفاق عن علوى باشا لا يعرفون أكانوا راضين ، لأنه قد حفظ

عليهم أموالهم لينفقوها في باريس . . أم كانوا ساهطين لأنه لم يقبل منهم تبرعهم

ذلك الذي أقدموا عليه مخلصين ؟

ويقد الرفاق صباح يوم إلى الجامعة ليأخذوا منها تذاكر السفر ، ولكن

صاحبنا يسمع ما يؤذنه أشد الأذى وأمصه .

فقد آبت شركة السياحة أن تصرف له تذكرة السفر إلا بإذن خاص من

المفوضية الإيطالية ، فقد كان الرفاق سينزلون في نابولي ، وكانت الشركة تخشى ألا يؤذن لصاحبنا بالنزول في إيطاليا لأنه ضرير ولا يحسن السعي في اكتساب الرزق . وظنّ الفتى ، وفي قلبه حزن أى حزن ولوعة أى لوعة ، أنه سيردّ عن السفر مرة ثالثة . ولكن الأستاذ لطفي السيد والأمير أحمد فؤاد يسيران له سفره ، ويصبح من غد فيركب القطار إلى بورسعيد ، ويصعد إلى سفينة هولندية تعبره البحر إلى نابولي . وما أعظم الفرق بين سفره هذا إلى نابولي وعودته تلك إلى الإسكندرية ! كان لا يملك نفسه من الفرح والمرح والسرور . وكان كل شيء يضحكه ويفريه بالبهجة والاعتباط حتى حين أقبل الخادم عليه وعلى صاحبه الدرعى بعد أن تقدم الليل قليلاً فقال لهما : إذا سمعنا الجرس فأسرعاً إلى اتخاذ منطقة النجاة ثم أسرعاً إلى الزورق المخصص لكما .

قال الدرعى : وفيه هذا كله ؟

قال الخادم : فإنك تعلم أن الحرب قائمة ، وأنا لا نأمن من أن تعرض لنا في الطريق إحدى الغواصات . ثم انصرف .

وأخذ صاحبنا الدرعى يقول شاكياً باكياً ذاكرةً أمه التي لن يراها ولن تراه . والفتى مفرق في ضحك لا يكاد ينقضي .

ولم تعرض للسفينة غواصة ، ولم يلق المسافرون كيداً ، وإنما بلغوا مدينة نابولي ذات صباح ، ولم يكادوا يطأون الأرض الإيطالية حتى ألح صاحبنا على صديقه الدرعى في الإسراع إلى مكتب البريد .

وهناك وجد رسالتين كانتا تنتظرانه من باريس . فقرأهما عليه صديقه مرة ومرّة ، فلما طلب منه قراءتهما للمرة الثالثة ، قال له متكرراً : إليك عني ، فإن في مدينة نابولي ما هو أنفع لنا وأجدي علينا من ترديد هذا الكلام الذي حفظناه عن ظهر قلب . وأنفقاً في نابولي يوماً سعيداً ، حتى إذا كان الليل ، ركبنا القطار إلى باريس .

الفصل الثالث عشر

في الحى المدينى ..

وكان صاحبنا مقسم النفس بين السعادة المشرقة والشقاء المظلم في أثناء سفره هذا الطويل منذ ترك القاهرة إلى أن بلغ باريس .

كان سعيداً لأن الغمرة قد انجملت عنه ، فاتصل من إقامته في فرنسا ما انقطع ، وأذن الله له في أن يتم ما بدأ من الدرس ، ويحاول تحقيق ما كان يداعب من الآمال ، ويسمع من جديد ذلك الصوت العذب يقرأ عليه روائع الأدب الفرنسى وأوليات التاريخ اليونانى الرومانى ، ويعينه على درس اللاتينية .

وليس هذا كله بالشيء القليل ، وبعض هذا كان جديراً أن يُنسى كل ما لقي من جهد ، وكل ما احتمل من عناء . ولكنه كان يحمل في نفسه ينبوعاً من ينبوع الشقاء لا سبيل إلى أن يفيض أو ينضب إلا يوم يفيض ينبوع حياته نفسها ، وهو هذه الآفة التي امتحن بها في أول الصبا ، شقى بها صبياً ، وشقى بها في أول الشباب ، وأتاحت له تجاربه بين حين وحين أن يتسلى عنها ، بل أتاحت له أن يقهرها ويقهر ما أثارته أمامه من المصاعب وأنشأت له من المشكلات ، ولكنها كانت تأتي إلا أن تظهر له بين حين وحين أنها أقوى منه ، وأمضى من عزمه : وأصعب مراسماً من كل ما يفتق له ذكاؤه من حيلة .

والغريب من أمره وأمرها أنها كانت تؤذيه في دخيلة نفسه وأعماق ضميره . كانت تؤذيه سراً ولا تجاهره بالخصومة والكيد . لم تكن تمنعه من المضى في الدرس ،

ولما من التقدم في التحصيل ، ولا من النجاح في الامتحان حين يعرض له الامتحان ، وإنما كانت أشبه شيء بالشيطان الماكر المسرف في الدهاء الذي يكن للإنسان في بعض الأحناء والأثناء بين وقت ووقت ، ويخلى له الطريق يمضي فيها أمامه قُدماً ، لا يلوي على شيء ، ثم يخرج له فجأة من مكته ذاك هنا أو هناك ، فيصيبه ببعض الأذى ، وينشئ عنه كأنه لم يعرض له بمكره بعد أن يكون قد أصاب من قلبه موضع الحس الدقيق والشعور الرقيق ، وفتح له باباً من أبواب العذاب الخفي الأليم .

كان حين ركب السفينة لأول مرة وخرج من زيه ذاك الأزهرى ودخل في زيه الأوربي الجديد قد نسي شيئاً واحداً لم يحسب له حساباً لأنه لم يكن ينظر له بال ، نسي بصره ذاك المكفوف ، وأجفانه تلك التي كانت تفتح ولكن على الظلمة المظلمة .

وكان قد قرأ فيها قرأ من أحاديث أبي العلاء أنه كان يقول : إن العمى عورة . وفهم هذا كما فهمه أبو العلاء نفسه . فكان يتحرج في كثير من الأشياء أمام المبصرين . وكان يستخفي بطعامه وشرايه كما كان يستخفي بهما أبو العلاء حتى لا يظهر المبصرون منه على ما يثير الإشفاق ، والرثاء أو السخرية .

ولم ينظر له قط أن الحياة الحديثة تفرض عليه أن يستر أجفانه تلك التي لا تغني عنه شيئاً سترأ مادياً . وقد أنفق أيامه في السفينة الأولى على هذا النحو ، ولكنه لم يلق كيداً ، لأنه لبث تلك الأيام قابلاً في غرفته لا يتجاوز بابها مهما تكن الظروف ، إلا أن يضطر إلى ذلك اضطراراً ، فكان لا يخرج في تلك الحال إلا حين يتقدم الليل .

فلما بلغ مارسيليا تبه رفاقه في تلطّف أيّ تلطّف أن تقاليد الفرنسيين تقضي على مثله أن يضع على أجفانه تلك غطاء من زجاج أسود . واشتروا له غطاء من

الغطاية الزجاجية السود التي يتقي بها المبصرون ضوء الشمس . ولم يؤذنه تبيبه الرجال له إلى ذلك وإنما رأى فيه تجديداً ، وارتاح إليه بعض الارتياح ، وكاد يمضي النقاء بعينه المظلمتين ، ثم لم يفكر في شيء من أمرها ولا من أمر غطاءها ذلك الأسود حتى عاد إلى مصر . وفي مصر لقيه أكبر إخوته رحمه الله . وكان مطرباً مياملاً الريف على ضيق ذات يده وضآلة مرتبه . فلما رآه أنكر غطاء عينيه وقال :

« رخيص حقير لا يليق بمثلك .
قال الفتى : وما على أن يكون رخيصاً أو حقيراً ، فما ينبغي لمثل أن يزيّن
ال هذا الغطاء .

قال أخوه : ولكن غطاءك هذا لا يزيد ثمنه على قرشين اثنين ، وأنا مهّد إليك شيئاً منه أستر لعينيك وأليق بمكانتك بين الذين تلقاهم من الرفاق والصدّيق ، وبين الذين تزورهم من أصحاب المكانة الظاهرة في مصر .

ثم أهدى إليه غطاء ذهبياً ، وعزم عليه ليتخذته مكان ذلك الغطاء الرخيص الحقير واستجاب الفتى لأخيه شاكراً رفته به وعطفه عليه . وأقام في مصر ما أقام يعمل على أنفه وأذنيه ذلك الغطاء الذهبي الذي لم يكن رخيصاً ولا حقيراً . ولكن عادوه إلى أوروبا تنقّر ويغلو على الجامعة ذات يوم فقرأ عليه كتابان ، ثم يروح إلى منزله فيقرأ عليه كتاب ثالث كان قد حملة البريد صباح ذلك اليوم . وتملأ هذه الكتب الثلاثة قلب صاحبتا غماً وهماً وبغضاً للحياة وضيقاً من الناس ، وتلقى على نفسه ووجهه غشاء صفيقاً من الكتابة ينكره الرفاق

وينكره علوى باشا - رحمه الله - حين يراه وهو يركب القطار ، ويرى على وجهه هذا الغشاء الكتيب ، فيهمس في أذنه : مالي أراك محزوناً كئيباً . وقد كنت أفكر أن أراك اليوم أشد ما تكون ابتهاجاً وإشراقاً . ألا يسرك أن تعود إلى

الرفاق ؟

ولم يجب الفتى . . . ولكن دمتين تنحدران على خديه .

وإذا علوى باشا يضمه إليه ويقبل جبهته قبله ملؤها الحنان والبر

قط .

ثم يهمس في أذنه : أقسم لك يا بنى ما عاد صديقك هذا - يريد الدرهم إلى فرنسا إلا من أحلك . . . ثق بالله ولا تخف شيئاً .

ويعضى القطار وقد سكت البكاء عن الفتى . ولكن هذه الكتب الثلاثة تسكت عنه ، وإنما رافقته في أثناء سفره كله ملحمة عليه بالعذاب ، حتى لو جديرة أن تبغض إليه نفسه لولا ذلك الصوت العذب كان يتاجبه بين حين وحين فيرد إلى نفسه المروعة شيئاً من أمن وإلى قلبه اليائس شيئاً من أمل .

كان أول هذه الكتب الثلاثة من علوى باشا إلى أكبر إخوته ذلك المطر بنيته فيه بأن الظروف المالية للجامعة قد فرضت عليها أن ترد بعثتها إلى مصر كارهة وأنه حريص أشد الحرص على أن يتم أخوه درسه ، لأنه يتوسم فيه خيراً ، ويكره يعود قبل أن يحقّق أمه من السفر إلى فرنسا ، ويقترح عليه أن ترسل الأسرة له المرتب الذى كانت الجامعة تمنحه للفتى ، ويتبرع هو بالنصف الآخر حتى الفتى أربيه ، ويعود وقد ظفر بالدرجات الجامعية الفرنسية ، ويصبح أستاذاً للجامعة .

وكان هذا الكتاب جديراً أن يملأ قلب الفتى سروراً ورضاً وشكراً له باشا ، ذلك الذى كان الناس يذكرون الحديث عن حرصه على المال وإشفاقه إتفاقه في غير موضعه ، وهو يتبرع بمقدار من المال في كل شهر ليعين هذا الفتى المكسر على أن يبلغ من الدرس في أوروبا ما كان يريد .

نعم ، كان هذا الكتاب جديراً أن يملأ قلب الفتى سروراً وبشراً وشكراً له الرجل الكريم النبيل ، ولكن ردّ أخيه على هذا الكتاب محاً من قلبه كل

وكل بشر ، وإن لم يمح منه الشكر الدائم والاعتراف بالفضل والجميل لذلك الرجل الكريم . . . كان رد أخيه بشعاً حقاً ، كان يشكر فيه للبasha فضله وكرمه ، ويعتبر له عن الأسرة بأنها فقيرة لا تستطيع أن تستجيب لما تراد عليه . فرتبه هو ضئيل لا يبلغ العشرين جنبياً ، وله بنون ينفق عليهم . ووالده شيخ يعمل على تقدّم سنه ، وينفوضى مرتباً لا يزيد على مرتبه هو إلا قليلاً ، وله بنون آخرون ينفق على تعليمهم في المدارس ، وكما كانت الأسرة تمنى ان تعين هذا المسكين على أن يتم درسه لو وجدت إلى ذلك سبيلاً ! وهى تطلب إلى البasha أن يستعين بالسلطان على تعلم هذا البائس ، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً فليرده إلى مصر وليستبق رعايته له وعطفه عليه .

وكذلك رأى الفتى رجلاً غريباً مستعداً للقيام ببعض نفقته في أوروبا ، وأخاً غريباً كارهاً لبعض ما يطلب إليه من ذلك . والغريب أنه لم يثنى بأمر هذا التبرع من علوى باشا أباه ولا أخاه الشيخ ، وإنما كتم القصة عن الأسرة كلها . وكان له - رحمه الله - عذره في هذا الكتمان . فقد كان أبوه يرسل إليه بين حين وحين جنهيات تبلغ العشرة مرة ، وتزيد عليها مرة أخرى ، ويكلفه أن يرسلها إلى أخويه في أوروبا معونة لهما على الحياة ، فكان يتلقى هذه الجنهيات فإذا استقرت في يده لم يسبل عليه إرسالها إلى أوروبا ، وإنما أنفقها في بعض شأنه هو .

أما الكتاب الثالث فكان من أكبر إخوته ذلك يودّعه ويتمنى له النجح والتوفيق ، ويسترد غطاء عينيه الذهبي ، لأنه كان شديد الحاجة إليه .

وما أيسر ما ردّ الفتى ذلك الغطاء الذهبي ، وعاد إلى غطائه ذلك الرخيص الحقيق الذى لم يكن ثمنه يزيد على قرشين اثنين . ولكن كتاب أخيه في أمر ذلك الغطاء قد أضاف إلى حزنه حزناً ، وإلى ألمه ألماً . وعاد إلى فرنسا سعيداً محبوباً ، ولكنه مع ذلك كان مزوداً بمقدار من الشقاء غير قليل .

ولم ينس صاحبنا قط أنه اجلس في مكانه من القطار حين بلغ روما ولما انصرف الليل ، فلم يرح مكانه ذلك إلى جانب النافذة إلا حين بلغ القطار باريس بعد ثلاثين ساعة كاملة لم يتحرك ، وإنما كان أشبه بمتاع قد ألقى في ذلك الموضع ، وانتظر حتى يبلغ القطار غايته لينقل إلى موضع آخر . لم يتحرك ، وكان أشبه شيء بالمتاع ، ولكنه كان متاعاً مفكراً . يفكر مرة فيما حفظ من قول أبي العلاء إذا العمى عورة ، وقد فهمه الآن على وجهه وهو يرفع يده بين حين وحين ليتحقق من أن ذلك الغطاء الرخيص الحقيق ما زال يستر عينيه اللتين كان يجب أن تسترا .

ويفكر مرة أخرى في الفقر والغنى ، وفي الذين لا يعرفون كيف يتفقون ما يتاح لهم من المال ، فيكدسونه أكداً أو يثرثرونه ثراً فيما لا يجدى عليهم ولا على غيرهم شيئاً ، والذين لا يجدون ما يتفقون لقيموا أودهم ويستروا جسمهم ويسترأ عورة العمى حين تفرض عليهم آفته ، وفي الذين تسمو همهم إلى أكثر من إقافة الأود وستر الجسم وتغطية العينين المظلمتين إلى الاغتراب في طلب العلم ، ثم لا يجدون أيسر ما يحتاجون إليه في ذلك . يبخل عليهم القادرون ، ويبخل عليهم الأقربون ، ويهم بالإحسان إليهم بعض الأخيار فيردون عن ذلك رداً

ويفكر مرة ثالثة في ذلك الصوت العذب الذي كان ربما ألم به بين حين وحين موائياً له مترقفاً به قارئاً عليه هذا الفصل أو ذلك من هذا الكتاب الفرنسي أو ذلك منبثاً له بين ذلك بأنه ينتظره في باريس ليقرأ عليه ، وما أكثر ما سيقراً عليه !

لبث في مكانه ذلك لم يرحه ثلاثين ساعة كاملة ، يعرض الرفاق عليه الطعام حين يأتي مواعده فيرده في رفق ولكن في تصميم ، ويعرض عليه الرفاق الشراب بين وقت ووقت فيرده في رفق وفي تصميم أيضاً . ويريد الرفاق أن يراجعوه في ذلك فيجدون منه إعراضاً وصمتاً ، حتى ظنوا به الظنون ، وحتى يقول له رفيقه الدرعى ما رأيت كالأيوم رجلاً لا يخاف البحر على هوله وعلى ما كان يُذكر من أم

الدواصات ، فإذا ركب القطار امتلأ قلبه رعباً ورغب حتى عن الطعام والشراب . أشجاعة حين كان يستحب الجبن ، وحين حين يصبح الجبان مثيراً للهزه والسخرية ؟ ما الذي تخاف من القطار ؟ إن قطار أوروبا كقطار مصر لا فرق بينهما . ألم تأكل قط حين ركبت القطار في مصر ؟

ثم ينصرف عن هذا الحديث إلى غنايه ذلك الذي كان يتغنى به أمام بعض النتيات الفرنسيات ، فيرضين عنه أشد الرضا ، ويُعجبين به أشد الإعجاب ، ولا يلبثن إلا تمتنن عليه أن يعيد عليهن غناؤه ذلك ، وكن يسمينه « أعرابي » ، فيقلن له في إلحاح : غن لنا « أعرابي » .

يلغين العين ويلغثن بالراء ويقصرن الألف بينها وبين الباء . ويرتاح صاحبنا إلى إلحاحهن فيندفع في غناؤه على نحو ما يصنع بعض المنشدين في الأذكار :

يا رَبِّ صَلِّ عَلَى الهادى واغفرْ ما أنتَ بهِ أعلمُ
أعرابى جاء إلى الهادى معه ضبٌ لا يتكلمُ

يوقع هذا الغناء على نغم مرقص ، وكان الفتى لا يسمعه إلا أغرق في ضحك متصل . وكان ربما تخفى عليه بين حين وحين أن يغنى له أعرابي ، ينطقها كما ينطق بها النتيات الفرنسيات ، ولكنه في ذلك القطار لم ينشط حتى لهذا الغناء ، واستياساً منه صديقه الدرعى ، فخلّى بينه وبين ما أحب من السكون والصمت . وأعرض عنه كما كان يعرض عن متاعه ، يرمقه بين حين وحين ليأمن عليه من السرقة والضياح ، ولكنه لا يتحدث إليه ولا يعرض عليه شيئاً ، حتى إذا بلغ القطار باريس في أول المسحى أقبل على الفتى متضاحكاً وهو يقول : سننقل المتاع الصامت الهامد إلا ، ثم ننقل المتاع الحى الناطق بعد ذلك !

وأسلم الأمتعة إلى الحمالين ثم أقبل على الفتى كأنه يريد أن يحمله ، ولكن الفتى نهض ومضى معه كأنه لم يسكن ثلاثين ساعة كاملة .

وبعد قليل كان الفتى في غرفة جميلة رائحة بندق من فنادق الحى اللاتينى .
ولم يكذب يستقر في غرفته حتى أصلح من شأنه ، وتبياً لاستقبال شخص طاملاً
نازعه نفسه إلى لقائه منذ شهر ، وطاملاً أشفق من ألا يلقاه أبداً .

ويطرق الباب طرقةً رفيقاً في آخر الضحى ، فإذا أذن بالدخول دخل عليه
شخصان لم يكذب يسمع صوت أحدهما حتى انجلى عنه حزنه ، وانجاب عنه يأسه ،
وانصرف عنه الهم ، كأنه يستأنف حياة جديدة لم يحبها من قبل . ولم لا ؟ لقد
بدأ منذ ذلك اليوم حياة ليس بينها وبين حياته الأولى سبب أو صلة .

الفصل الرابع عشر

قصّة حب .

كانت حياة الفتى في باريس حلوة مرةً ويسيرة عسيرة ، لم يعرف فيها سعةً
ولا دعةً ، ولكنه ذاق فيها من نعمة النفس وراحة القلب ورضا الضمير ما لم يعرفه
قبل وما لم ينسه قط . كانت حياته المادية شاقة ، ولكنه احتمل مشقتها في
الجماعة ورضا وسماح ، لم يكن مرتبه يتجاوز ثلثائة من الفرنكات ، كان يدفع
الله في اليوم الأول أو الثانى من كل شهر ، ثمناً لمسكنه وطعامه وشرابه ، وكان
يلعب نصف الثلث الذى كان يبيع له أجرةً لسيدة كانت تصحبه إلى السوربون
صباحاً ومسيماً ، لسمع فيها دروس التاريخ على اختلافها ، وتقرأ له بين ذلك ما
أراه الله من الكتب حين لا يجلو له ذلك الصوت العذب الذى كان قد رتب له
الاعمال بعينها في النهار ، ليقرا له فيها روائع الأدب الفرنسى ، وكان يستيقى فضل
أمره بعد ذلك لينفق منه على ما يعرض من حاجاته اليومية ، فأما أمر كسوته فقد
أراه إلى الله لأن مرتبه لم يكن يتسع له .

وأنتفى السنة الأولى من حياته في باريس لا يخرج من بيته إلا إلى السوربون .
وكان سجيناً أو كالسجين ، لم يذكر قط أنه خرج من باريس إلى ضاحية من
الضواحي في أيام الراحة التى كان رفاقه ينفقون فيها أيام الأحاد ، ولم يذكر قط أنه
اتلف إلى قهوة من قهوات الحى اللاتينى التى كان رفاقه الجادون يلمون بها بين حين
وبين ، وكان أكثر الطلاب المصريين يختلفون إليها أكثر مما كانوا يختلفون إلى

الجامعة ، وإنما كان يلزم بيته في أيام الراحة لا يفارقه ، وربما خلا إلى نفسه البركة كلة في غرفته ، إلا أن يلم به ذلك الصوت العذب فيقضى معه ساعة من نهار . وكان يسمع أنباء المسارح ومعاهد الموسيقى واللهو ، وكانت نفسه ربما تلهو إلى بعض هذه المسارح لسمع هذه القصة أو تلك ، ولكنه كان يرد نفسه في غير ذلك إلى القناعة والرضا . وكيف السبيل إلى غير ذلك وهو لا يستطيع أن يذهب وحده إلى حيث يريد ، ولا يستطيع أن يدعو غيره إلى مرافقته ، ولا يريد أن يكلف غيره من الناس عناء مرافقته من جهة وتحمل ما تقتضيه هذه المرافقة من النفقات من جهة أخرى ، ولم تكن ذكرى أبي العلاء تفارقه في لحظة من لحظات اليقظة إلا أن يشغل عنها بالاستماع إلى الدرس أو إلى القراءة . كان يذكر دائماً قول أبي العلاء في آخر كتاب من كتبه إنه رجل مستطيع بغيره ، وكان يرى نفسه مستطيعاً بغيره دائماً ، ويحتمل في سبيل ذلك من غيره هذا الذي يتيح له الاستطاعة ألواناً من المشقة وفنوناً من الأذى بدون أن يتكر منها شيئاً ؛ فهو مكروه على احتياها إكراهاً ، وهو مخير بين أن يقبل ما يكره من غيره من الذين كانوا يعينونه على ما يريد أو يرفضه فيضطر إلى العجز المطلق اضطراراً ، ويضع حياته في باريس بل حياته كلها في باريس أو غير باريس ، وكيف السبيل له إلى أن يذهب إلى السوربون ليعلم الدروس فيها إذا لم تعنه على ذلك هذه السيدة التي لم يكن من معونتها بد ، وإنما كانت ترفق به أحياناً وتعنف به أحياناً أخرى ، وربما صحبته من البيت إلى الجامعة بدون أن تلقى إليه كلمة أو يسمع لها صوتاً . وإنما كانت تعطيه ذراعها وتحضى معه صامتة كأنها تجر متاعاً لا ينطق ولا يفكر . حتى إذا بلغت قاعة الدرس أجلسته إلى مائدة من موائدها ، وانصرفت عنه إلى خارج القاعة فانتظرت حتى إذا فرغ الأستاذ من درسه أقبلت عليه فأقامته من مجلسه . ومضت به إلى بيته . حتى إذا انتهت به إلى غرفته أدخلته فيها وأغلقت من دونه الباب ، وهي تقول له في صوت

خاطف : « إلى اللقاء في ساعة كذا من النهار » .

وربما اعتذرت هذه السيدة من مهمتها بعد أن تجرد له سيدة أخرى تقوم مقامها . فكانت هذه السيدة الثانية ثرثرة تؤذيه بحديثها المتصل أكثر مما كانت تلك تؤذيه بصمتها الملح . . .

على أن عجز الفتى لم يكن مقصوداً على ذهابه إلى الجامعة وعودته منها ، وإنما كان عاماً شاملاً يمس الفتى في أشد الأشياء لزوماً له ، فهو كان يستحي من كل شيء . ويكره أن يثير الضحك منه أو الرثاء له والإشفاق عليه . وكان شرطه حين سكن في البيت الذي أقام فيه ألا يشارك أهله في طعامهم ، وإنما يخلو إلى طعامه الذي يحب أن يحمل إليه في غرفته حين يأتي وقته ، فكان الطعام يحمل إليه ويوضع بين يديه ثم يحلّي بيته وبينه فيصيب منه ما يستطيع لا ما يريد . يحسن ذلك أحياناً ويخطئه أحياناً أخرى ، وربما وضع بين يديه من ألوان الطعام ما لا يحسن تناوله فيتركه مؤثراً العافية ، محتملاً في سبيلها ما قد يتعرض له أحياناً من ألم الجوع . وظل الفتى على هذه الحال أشهراً ، ولكن الله رفق به بعد ذلك فأتاح له من كان يهين له طعامه ويعلمه كيف يرضى منه حاجته .

وأخذ الفتى زى الأوربيين ، وما أسرع ما تعلم الدخول فيه والخروج منه ، إلا شيئاً واحداً لم يحسنه أعماماً طويلاً ، وهو هذا الرباط السخيف الذي يديره الناس حول أعناقهم ثم يعقدونه بعد ذلك من أمام عقدة يتأقنون فيها قليلاً أو كثيراً ! لم يفتح الله على صاحبنا بتعلم هذا الجزء من زيه ، فكان أخوه يدير له هذا الرباط حول عنقه ما عاشا معاً في موبيليه .

فلما افترقا حار الفتى في أمره ، ولكن صديقه الدرعى أخرجه من هذه الحيرة ، واشترى له أربطة مهيأة لا تحتاج إلى عناء ، وإنما تدار حول العنق في يسر ويجمع بين طرفيها في يسر أيضاً ، وقد هيئت عقدها فليس محتاجاً إلى أن يتكلف

عقدتها وتوسيتها والتأنيق القليل أو الكثير فيها ، ولكنه كان مضطراً إلى ألا يفكر مطلقاً في الملامة بين هذه الأربطة وبين ما كان يتخذ من ثياب . وربما أخذ منها رباطاً واحداً يديره حول عنقه في كل يوم ويمضي على ذلك الأسابيع المتصلة ، وربما لاحظ هذا الرفيق أو ذلك من رفاقه اختلافاً بين ثوبه ورباط عنقه ، وربما أعانه صديقه الدرعى فتقدم إليه في أن يغير هذا الرباط واختار له ما يلائم زيه مما كان عنده من هذا السخف الذى لم يفهم له معنى قط .

وكذلك عاش الفتى عامه الأول أو أكثر هذا العام ، مضطرباً في هذه الحياة المادية المختلطة المقعدة من جميع نواحيها . وربما كان يجد بعض الألم في ذلك ، ولكنه كان يبره مرّاً سريعاً لا يقف عنده ولا يفكر فيه إلا قليلاً . كان يعزبه عن ذلك إقباله على الدرس ، وإحساسه الانتفاع به والتقدم فيه ، وشعوره بأنه قد أخذ يفهم الفرنسية في غير مشقة ولا عسر ، ويقرأ كتب التاريخ والأدب والفلسفة ، فلا يجد في فهمها جهداً ولا عناء ، قد انقطع لذلك انقطاعاً تاماً ، فهان عليه منه ما كان صعباً ، وبسر له منه ما كان عسيراً .

ولم تكن حياته العقلية أقل تعقيداً والتواء من حياته المادية ، فلم يكد يختلف إلى دروس التاريخ والأدب في السوربون حتى أحس أنه لم يكن قد هيئ لها ، وأنه لا يفهمها ولا يسبغها كما كان ينبغي أن تفهم وتساغ ، وأن درسه الطويل في الأزهر وفي الجامعة لم يبيته للانتفاع بهذه الدروس .

وكانت آماله عراضاً ، فكان ينبغي أن يتخذ إليها أسبابها ، وأول هذه الأسباب أن يعد نفسه لفهم الدروس التي تلى في الجامعة ، وسبيل هذا الإعداد أن يقرأ في أقصر وقت ممكن ما كان التلاميذ الفرنسيون ينفقون الأعمار الطوال في درسه مدارسهم الثانوية . فليس له بدّ إذن من أن يكون تلميذاً ثانوياً إذا أوى إلى بيته ، وطالبا جامعياً إذا اختلف إلى دروس السوربون .

وما أسرع ما نظر في برنامج المدارس الثانوية الفرنسية ، واستخلص منه برنامج إليه ، وأزمع أن يدرس منه التاريخ والجغرافيا والفلسفة ، وهذه الخلاصات البرية التي كانت تلى إلى التلاميذ عن الآداب الأجنبية الأوربية قديمها وحديثها . أمل على ذلك كله في عزم لا يعرف الضعف ، وتصمم لا يعرف التردد ولا الفتور . استطاع في وقت قصير أن يحصل من هذا كله ما يحصله التلميذ الذى كان يتقدم الشهادة الثانوية مطمئناً إلى أن המתحني لن يردوه عن هذه الشهادة خزيران

واستقامت له دروسه في السوربون فجعل يفهمها ويسبغها كما كان يفهمها بها زملاؤه الفرنسيون . واختار لنفسه أستاذاً من أستاذة المدارس الثانوية يعلمه اللغة الفرنسية تعليماً منظماً ، فلم يكن يكفيه أن يفهم إذا سمع ، وأن يفهم الناس إذا تحدث إليهم ، وإنما كان يجب عليه أن يحسن العلم بحقائق هذه اللغة والقها وأن يكتبها كتابة لا تنبو عن يقرؤها .

وكان يقدر أن الأساتذة في السوربون ، سيكلفونه بعض الواجبات المكتوبة ، كما كانوا يكلفون غيره من الطلاب . فلم يكن له بدّ إذن من أن يهيأ لتحرير هذه الواجبات حين تطلب إليه على وجه لا يعرضه للسخرية والازدراء . وما أكثر ما كان الأساتذة يسخرون من طلابهم إذا كتبوا لهم الواجبات فقصروا في بعض نواحيها ! لأن الأساتذة يقرمون بعض هذه الواجبات ، يختارون من بينها للقراءة أشدها تعريضاً للضحك ، ثم يأخذون في هذا النقد على نحو لا ذع ممض يحرضون به الطلاب على أن يفسدوا العناية حين يكتبون . وكانت سخريتهم بالمقصرين تضحك الزملاء وتخرجهم أحياناً عن أطوارهم .

فكرة الفتى أن يتعرض لبعض هذه السخرية ، ولكنه تعرض ذات يوم لشرها . كلفه أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع

عن الحياة الحزبية في فرنسا بعد سقوط نابليون ، فأقبل على هذا الموضوع فلم
 كما استطاع في الكتب التي نبه إليها الأستاذ ، وفكر فيه كما استطاع أيضاً
 ثم كتب عنه ما أتبع له أن يكتب ، وقدمه إلى الأستاذ في اليوم الموعد .
 يوم النقد فاستعرض الأستاذ ما قدم إليه من الواجبات ناقداً ساخراً متدداً مثل
 موضحاً بعض الطلاب أحياناً ، حتى إذا ذكر اسم القتي لم يزد على أن أنكره
 واجبه معقياً بهذه الجملة المرة التي لم ينسها قط : « سطحي لا يستحق النقد »
 وكان لهذه الكلمة وقع لاذع في نفس القتي أمضه بقية يومه ، وأقضى مضجعه
 أقبل الليل ، وأشعره بأنه لم يتبأ بعد كما ينبغي ليكون طالباً في السوربون ، فأب
 في درس الفرنسية ، وكلف نفسه في هذا الدرس من الجهد الثقيل والعناء المتصل
 ما كاد يصرفه عن غيره من الدروس . وأعرض عن المشاركة في كتابة الواجبات
 تم له أداة هذه الكتابة وهي اللغة الفرنسية .

وبينا كان القتي يُمتحن بأثقال هذه الحياة المادية والعقلية العسيرة ، مجاهد
 ما استطاع الجهاد ، مروماً بين حين وحين بهذا اليأس الذي كان يترامى له
 وقت إلى وقت فيشقيه ويضنيه ، فتح له باب من أبواب الأمل لم يكن يقدر أنه
 سيفتح له في يوم من الأيام . ألمت علة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب الذي
 كان نعيمه الوحيد في حياته الشاقة المظلمة ، فأقبل يعودها وجلس يتحدث إليها
 ثم لم يدرك كيف التوى به الحديث ، ولكنه سمع نفسه يلقى إليها في صوت أنكره
 قبل أن تنكره هي : أنه يحبها .

ثم سمعها تجيبه بأنها هي لا تحبه .
 قال : وأى بأس بذلك ؟
 إنه لا يريد لوجه صدي ولا جواباً وإنما يحبها وحسب .
 فلم تجبه ، وغيّرت مجرى الحديث ، وانصرف عنها بعد ساعة ، وقد اسطر

في نفسه أن حياته ستسلك منذ ذلك اليوم طريقاً جديدة .
 وليس من شك في أن نفسه كانت قد تعلقت بذلك الصوت العذب ثم
 بصاحبه منذ وقت طويل . . وإلا فما جزعه حين اضطر إلى العودة إلى مصر ؟ وما
 الهاجه بهذه الرسائل التي كانت تصل إليه ؟ . وما شوقه العنيف إلى العودة إلى
 فرنسا ليلمع فيها ذلك الصوت ؟ . وما خروجه عن طوره حين وجد الرسلتين اللتين
 كانتا تنتظرانه في نابولي ؟ . وما إلحاحه على صاحبه الدرعمى في أن يقرأ عليه
 هاتين الرسلتين مرة ومرة حتى أمه ؟ . ثم ما حرصه على أن يسمع هذا
 الصوت في باريس ؟ . وما نزوله في بيته ذاك الذي كان يسمع فيه هذا الصوت
 برود في كل ساعة من ساعات النهار ، ويلقى فيه صاحبة الصوت حين يريد لقاءها
 دون أن يتكلف لذلك جهداً أو سعياً أو انتظاراً ؟ . وما سعاده بأنه كان يقيم
 في هذا البيت غير بعيد من ذلك الشخص الذي كان يلقى عليه تحية الصباح حين
 يخرج من غرفته ، ذاهباً إلى السوربون ويلقى عليه تحية المساء ، حين يتقدم الليل
 ويأوي أهل البيت إلى مضاجعهم . ويقرأ عليه بين ذلك ما شاء الله من آيات الأدب
 الفرنسي ؟

ولكن جبه كان يستحى حتى من نفسه فينكرها ، وكان القتي يخفي شعوره ذاك
 في أبعده ما يمكن أن تستقر من أعماق ضميره ، ويكره أن يتحدث به إلى نفسه ،
 وقد استيقن أنه لم يخلق لمثل هذا الشعور وأن مثل هذا الشعور لم يخلق له . . وأين
 هو من الحب ؟ وأين الحب منه ؟

إنما كتب عليه أن يعيش كما عاش مثله الأعلى ذلك الذي وقف حياته منذ
 لرون طوال في دار من دور المعرفة على الدرس ممعناً فيه ، غير معنى إلا به ، محرم
 على نفسه ما أباح الله للناس من طبيبات الحياة .
 كان القتي يطوى نفسه على شعوره ذاك بانسأ منه ومن عواقبه ، راضياً بما يتاح

له من سماع ذلك الصوت ومن الحديث إلى صاحبه حين يتاح له الحديث إليها ،
وإنما بأن هذا أقصى ما يمكن أن يساق إليه من النعم . غير طامع في أكثر منه .
وكان واجداً على الحياة والظروف لأنها تحول بينه وبين أكثر منه .

ولكن العلة الطارئة التي ألمت بصاحبه ، والصوت العذب الذي أدرکه الضعف
وشاع فيه الفتور ، والإشفاق من الألم والجهد ، على ما كان يكره له أن يحس الألم
أو يحمل ثقل الجهد ، كل ذلك ملك عليه أمره ، وملاً عليه قلبه ، وأنساه تحفظه
وتحرجه ، وأجرى على لسانه تلك الكلمة التي أنكرها . وليس غريباً بعد ذلك أنه
لم يجد حزناً ولا شقاء ولم يحس لوعة ولا ألماً حين بلغ مسمعه الرد على كلمته تلك
موتساً مقنطاً . فهو لم يكن ينتظر إلا الأيس والقنوط ، قد وطن نفسه عليهما وعزى
نفسه عنهما بما كان يعنى فيه من الدرس والتحصيل .

وهو قد انصرف عن صاحبه في ذلك اليوم راضياً عن نفسه ساخطاً عليها
راضياً عنها لأنها قالت ما لم يكن بدّ من أن يقال .

ساخطاً عليها لأنها عرضته بهذه الكلمة لشر عظيم ، فهي قد عرضته لإشغال
تلك الفتاة عليه وراثتها له وضيقتها به . ومن يدري لعلها تريد أن تصرفه عنها صرفاً ،
وأن تلقى بينها وبينه حجاباً يقطع تلك الأسباب العذاب التي كانت تتيح لها اللقاء
والاستمتاع العقلي والشعوري بما كانا يقرآن معاً من آيات الأدب الفرنسى .

ومن يدري لعل هذه الكلمة التي ألقاها في غير تدبّر وعن غير إرادة أن تردّه
إلى تلك الظلمة المظلمة التي ظن أنه قد خرج منها ، وأن تضطره في يوم قريب
أو بعيد إلى أن يترك ذلك البيت ويلتمس له مسكناً آخر لا يسمع فيه ذلك الصوت ،
ولا يلقى فيه ذلك الشخص ، ولا يجد فيه شعور الرضا والنعم . وإنما يجد فيه
شعوراً آخر كله سخط مرّ وحزن مفضّ وألم مفسد للحياة .

عاش صاحبنا بين هذا السخط وذلك الرضا أياماً لم يكده ينتفع فيها بقراءة

أو درس ، ولم يكده ينوق فيها للحياة طعماً .

ولكنه يلقى صاحبه بعد أن انجلت عنها غمرة العلة . فإذا هي كهمهدها بها لم
تتغير ، لم تزدد إقبالا عليه ، ولم يجد منها إغراضاً عنه ولا تفوراً منه ، وإنما هي
تلقاه كما تعودت أن تلقاه رفيقةً به عطوفاً عليه ، ونقرأ له كما تعودت أن نقرأ له ،
وتبين له ما يُشكّل عليه في أثناء القراءة ، كما تعودت أن تفعل من قبل ، فيردّه
ذلك إلى شيء من الأمن ، ثم إلى شيء من الدعة وراحة البال . وتنتضى أيام .
وإذا ذلك الشعور الخفى العميق الذى ظهر فجأة في ساعة من الساعات ثم استجياً
وعاد إلى مستقره ذلك من أعماق الضمير ، يظهر مرة أخرى . ولكن في تحفظ
وتردد وأناة ، لا يتحدث إلى الفتاة بشيء ، ولا يتحدث إلى الفتى بشيء حين يلقاها ،
وإنما يكن في مستقره من أعماق الضمير .

حتى إذا تقدم الليل وخلا صاحبنا إلى نفسه ، وهم أن يستقبل النوم خرج ذلك
الشعور من مكنته ، وذاد النوم عن صاحبه ، وجعل يسامره حتى يوشك الصبح أن
يسفر ، ثم يعود إلى مكنته ذلك ، ويسلم الفتى إلى نوم قصير .

ولم تلبث آثار هذا الأرق المتصل أن تظهر ، وأن يلحظها أهل البيت ،
وتلحظها معهم ذات الصوت العذب ، وهم يسألونه عن أمره فيلتوى بالجواب ،
وهم يريدون أن يعرضوه على الطبيب فلا يستجيب لما يريدون ، وإنما يزعم لهم أن
ليس به بأس .

وما يزال هذا شأنه حتى يظهر عليه بعض الضرر . وتسأله الفتاة ذات يوم
- وقد خلّت إليه تقرأ عليه بعض ما كانا يقرآن - فيريد أن يلتوى بالجواب ،
فتلحّ عليه ، وإذا هو ينبتها مردياً أو غير مريد بأمره كله .

فتسمع له ، ثم تسكت عنه ، ثم تأخذ في القراءة حتى إذا أتمتها وهمت أن
تصرف قالت له في رفق : وإذن فإذا تريد ؟

قال الفتى : لا أريد شيئاً .

قالت : فإني قد فكرت فيما أنبأتني به ، وأطلت فيه التفكير . ولم أنتهِ بعد إلى شيء ، وقد أوشك الصيف أن يظلنا وسنفتق ، فاصبر حتى إذا كان اقتراقنا فستصل بيننا الرسائل كما تعودنا أن نفعل . فإذا قرأت في بعض رسائل أتي أدعوك إلى أن تنفق معنا بقية الصيف فاعلم أتي قد أجبك إلى ما تريد . وإن لم تقرأ هذه الدعوة حتى ينقضي الصيف فاعلم أنها الصداقة الصادقة بينك وبينى ليس غير . ولم يسعد الفتى بشيء قط كما سعد بهذا الحديث . وكانت آية سعادته أنه أطرق ولم يقل شيئاً .

وأقبل الصيف وكان الاقتراق . ذهبت هي إلى قرية في أقصى الجنوب . . . وأقام هوى باريس ، واتصلت بينهما الرسائل . ولكنها قبل أن تفارقه كلفت زميلة لها أن تكون هي الكاتبة القارئة لرسائلهما حتى لا يطلع على هذه الرسائل زميل من زملائه . واتصل الفراق شهراً . . . ولكن رسالة تصل إليه في آخر هذا الشهر وفيها الدعوة المرتقبة إلى أن يقضى معها ومع أسرته بقية الصيف وإذن فقد تحققت أمله ، أو كاد أن يتحقق ، وهو يعلن إلى زملائه المصريين أنه سيرتك باريس إلى حيث يقضى الصيف مع تلك الأسرة وهم يصدونه عن ذلك مشفقين عليه .

ولكنه مصر على ما أراد ، فيصحبه صديقه الدرعى ذات مساء إلى حيث يضعه في القطار ، ويوصى به بعض من فيه . . . وينصرف عنه وبدعه وحيداً . وينفق الفتى ليلاً في القطار ، لا يدرى أقصر أم طال ، لأنه لم يفكر في أثنائه إلا في هذا اللقاء الذي سيكون حين يرتفع الضحى ويبلغ القطار غايته ، وإذا الصوت العذب يدعو صاحبنا في رفق وعطف وحنان ، ويشعر بأنه منذ اليوم سيخلق خلقاً جديداً

الفصل الخامس عشر

المرأة التي أربصت بعينها !

واستأنف الفتى حياة جديدة ، بأوسع معاني هذه الكلمة وأعمقها ! كان يرى نفسه في كلمة أبي العلاء حين قال إنه أنسى الولادة ، وحشى الغريزة .

كان يرى نفسه إنساناً من الناس ولد كما يولدون ، وعاش كما يعيشون ، مقسم الوقت والنشاط فيما يقسمون فيه وقتهم ونشاطهم . ولكنه لم يكن يأنس إلى أحد ، ولم يكن يطمئن إلى شيء ، قد ضرب بينه وبين الناس والأشياء حجاب ظاهره الرضا والأمن ، وباطنه من قبلة السخط والخوف والقلق واضطراب النفس ، في صحراء موحشة لا تحدها الحدود ، ولا تقوم فيها الأعلام ، ولا يتبين فيها طريقه التي يمكن أن يسلكها ، وغايته التي يمكن أن ينتهي إليها .

ولكنه ينظر ذات يوم فإذا هو قد أخذ يتخفف قليلاً قليلاً من غريزته تلك الوحشية القلقة ، ويحس شيئاً من الأُنس الرفيق إلى بعض الناس ، ثم يحس هذا الأُنس يقوى في نفسه من يوم إلى يوم ، وإذا هو لا يطمئن إلى ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه ، وإنما يطمئن إلى غيره من الناس أيضاً .

كان يرى نفسه غريباً أليماً كان رحيمًا حل ، لا يكاد يفرق في ذلك بين وطنه الذي نشأ فيه ، وبين غيره من الأوطان الأجنبية التي كان يلم بها ، لأن ذلك الحجاب الصفيق البغيض الذي ضرب بينه وبين الدنيا منذ أول الصبا كان محيطاً به ، يأخذه من جميع أقطاره في كل مكان ، فكان الناس بالقياس إليه هم الناس

الذين يسمع أصواتهم ، ويحس بعض حركاتهم ، ولكنه لا يراهم ولا يتفد إلى ما وراء هذه الأصوات التي كان يسمعها والحركات التي كان يحسها .
كان غريباً في وطنه ، وكان غريباً في فرنسا ، وكان يرى أن ما يصل إليه من حياة الناس ليس إلا ظواهر لا تكاد تفنى عنه شيئاً .

وكانت الطبيعة بالقياس إليه كلمة يسمعها ولا بعقلها ، ولا يحقّق من أمرها شيئاً ، كأنما أعلّق من دونها بالقياس إليه باب لا سبيل له إلى النفوذ منه . كان ينكر الناس وينكر الأشياء . وكان كثيراً ما ينكر نفسه ويشك في وجوده !

كانت حياته شيئاً ضئيلاً نجحلاً رقيقاً لا يكاد يبلغ نفسه . وكان ربما تساءل بين حين وحين عن هذا الشخص الذي كان يحسه مفكراً مضطرباً في ضروب من النشاط ما هو ؟ وما عسى أن يكون ؟ وكان ذلك ربما أذهله عن نفسه وقتاً يقصر أو يطول ، فإذا تاب إليها أو ثابت إليه أشفق من هذا الذهول وظن بعقله الظنون . وتساءل أينجد الناس من الذهول عن أنفسهم مثل ما أينجد ، ويحسون من إنكار أنفسهم مثل ما يحس ؟ !

كانت حياته حيرة متصلة كلما خلا إلى نفسه . وكان لا يملك أمره إلا حين كان يتحدث إلى الناس أو يسمع لهم أو يختلف إلى الدروس أو يصنعى لما كان يقرأ عليه . فأخذ كل هذا يتنجاب عنه وأخذ يدخل في الحياة كأنه لم يعرفها من قبل ، وكان ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه هو الذي أخرجه من عزلته تلك المنكرة . فألقى في رفق وفي جهد متصل أيضاً ما كان مضروباً بينه وبين الحياة والأحباء والأشياء من الحجب والأستار !

كان يحدثه عن الناس فيلقى في روعه أنه يراهم وينفذ إلى أعماقهم .

وكان يحدثه عن الطبيعة فيشعر بها شعور من يعرفها من قرب .

كان يحدثه عن الشمس حين تملأ الأرض نوراً ، وعن الليل حين تملأ الأرض

ظلمة ، وعن مصابيح السماء حين ترسل سهامها المضيئة إلى الأرض ، وعن الجبال حين تتخذ من الجليد تيجانها الناصعة ، وعن الشجر حين ينشر من حوله الظل والروح والجمال ، وعن الأنهار حين تجري عنفة والجداول حين تسعى رشيقاً ، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة ومن مظاهر القبح والبشاعة فيمن كان يحيط به من الناس ، وفيما كان يحيط به من الأشياء .

فكان يتخيّل إليه أنه يكشف له عن حقائق كانت مستخفية عليه ، ولم تكن غريبة بالقياس إليه ، كأنه قد عرفها في الزمان الأول البعيد ، ثم نسيها دهرًا طويلاً ، فهويّد كرها بعد أن طال عهده بها .

وكذلك أخذت تثوب إليه ثقته بنفسه وراحته إلى غيره ، وأخذ ينجلي عنه الشعور بالغرابة ، والضيق بالوحدة والسأم من العزلة . وليس من شك في أنه قد صدق كل الصدق وأعرب عن ذات نفسه في غير تكثّر ولا غلو حين قال في بعض ما كتب إن فتاته تلك قد جعلت شقاءه سعادة ، وضيقه سعة وبؤسه نعيمًا وظلمته نوراً .

ولم يتفق الفتى وصاحبه صيفهما ذاك فيما تعود الفتيان المحبون أن يتفقوا فيه أيام جهيم الأولى من تلك الحياة الهائمة الناعمة التي تخلص من المشقة وتتخفّف من الجهد وتفرغ لرضا النفوس وغبطة القلوب والذهاب مع الخيال الهائم في كل مذهب . وإنما عرفا أن وهبهما أضيّق من الفراغ للحب وتعيبه ، فوقت الفتى في فرنسا محلود ، وعليه واجبات يجب أن تؤدي ، وله مهمة يجب أن تم ، وهو مسؤول عن هذا كله أمام جامعة في مصر لا تعرف السباح ولا المزاح مع الذين ترسلهم إلى أوروبا ليطلبوا العلم فيها .

ولها الحق كل الحق في ذلك ، فهي إنما ترسلهم إلى أوروبا ليتعلموا ليحبوا ، وليجتنّبوا في طلب العلم لا ليتعلّقوا بأسباب الخيال .

وما أكثر ما ذكر القتي أشهر الصيف تلك في أقصى الجنوب الفرنسي ، وما جاء بعدها من الشهور في باريس ، فرضى عن صاحبه وعن نفسه رضاء لا تشوبه شائبة من مسخط أو إنكار .

ولنظر إلى فتاة وقفي في أول عهدهما بالخطة ينفقان أكثر النهار في درس اللاتينية حين يصبحان ، وفي قراءة الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون حين يرتفع الضحى .

فإذا جاء وقت الغداء ألمًا بالمائدة فأصابا شيئًا من طعام . ثم أقبلًا على تاريخ اليونان والرومان فقرأ ما شاء الله أن يقرأ .

فإذا كانت الساعة الخامسة انصرفا عن تاريخ اليونان والرومان إلى الأدب الفرنسي فقرأ ما شاء الله أن يقرأ كذلك . لا ينصرفان عن القراءة إلا ريثما يخرجان للتروض خارج القرية التي يعيشان فيها . ينفقان في تروضهما ذاك ساعة أو أقل من ساعة ، ثم يعودان إلى المائدة فيصبيان شيئًا من طعام ثم يجتمع الأسرة كلها إلى كتاب يقرؤه عليها ذلك الصوت العذب .

حتى إذا تقدم الليل شيئًا تفرقت الجماعة ، وأوى كل واحد منها إلى غرفته ، وخلا صاحبنا إلى نفسه يذكر ماضيه الغريب ، وينعم بحاضره السعيد ، ويفكر في مستقبله المجهول .

ينفق في ذلك أكثر الليل مؤرقًا لا يكره الأرق ولا يدعو النوم . ولكن النوم يغلبه على أمره من آخر الليل . فإذا أسفر له الصباح استقبل يومه أخذًا في الدرس كما فعل من أمس .

وعلى هذا النحو أنفق الأشهر الأولى لخطبته ، ثم يعود مع الأسرة إلى باريس فيستأنف فيها حياته الجامعية مختلفًا إلى السوربون حين يصبح وحين يمسي ، خاليًا إلى قارته بين ذلك وإلى أستاذ الفرنسية يومًا وأستاذ اللاتينية يومًا آخر ، مقدراً

عسر المهمة التي تكلفها وبعد الغاية التي يسمى إليها .

وكان قد أزمع أن يظفر قبل كل شيء بدرجة الليسانس ثم يتقدم للدرجة الدكتوراه بعد ذلك ، ولم يكن الطلاب المصريون إلى ذلك الوقت يحاولون الظفر بدرجة الليسانس هذه ، لأنها كانت تكلف الذين يطلبونها عناء ثقيلاً . كانت تكلفهم إتقان الفرنسية أولاً ليؤدوا الامتحان التحريري فيها يدرسون من العلم ، وليؤدوه كما يؤدبه الطلاب الفرنسيون ، يكتبون ما يراودون على كتابته في لغة فرنسية مستقيمة لا عوج فيها ولا خطأ ، وكانت تكلفهم درس اللاتينية ليؤدوا فيها امتحاناً تحريريًا كذلك .

ولم تكن اللاتينية تدرس في مصر لا في المدارس الثانوية ولا في المدارس العالية .

فكان المصريون يرون أنهم لن يستطيعوا مجاراة زملائهم من الطلاب الفرنسيين في هذه اللغة التي لم يسمعوا بها قبل وصولهم إلى فرنسا ، على حين كان الطلاب الفرنسيون يدرسونها ست سنين في مدارسهم الثانوية ، ثم يدرسونها في الجامعة قبل أن يتقدموا لامتحان الليسانس .

من أجل ذلك كان المصريون يعرضون عن درسها إعراضاً لا تكلف فيه ، ويعرضون بالطبع عن درجة الليسانس التي لا سبيل إليها من غير هذه اللغة .

وكان ثلاثة من المصريين قد أزمعوا أن يقهروا هذه الصعوبة ، ويقتحموا هذه العقبة ، ويدرسوا اللغة اللاتينية ، ويظفروا بدرجة الليسانس مهما يكلفهم ذلك من الجهد والعناء . فأما أحدهم فقد جدَّ وكَدَّ وتقدم للامتحان فأخفق ، ثم أخذ يستعد ليؤدى الامتحان في العام المقبل . ولكن الأسباب تقطعت بينه وبين ذلك . أدركه العلة فاضطرب أمره ، واختلط عقله ، وردَّ إلى مصر فأنفق فيها أياماً كئيبية بائسة ، فاستأثرت به رحمة الله فأراحته من أثقال الحياة .

وأما الآخر فكان الأستاذ الديكور صبرى السوربوى .

وقد جدّ وكذّ وتقدّم للامتحان مرة ومرة ، ولكن عقدة اللاتينية أدرّكه .
فكان إذا أقبل على الامتحان وتلقى النص اللاتينى الذى يجب أن يترجمه إلى الفرنسية
أتى عليه نظرة سريعة . ثم طواه وقدم إلى المتحنيين صفحة بيضاء لم يمسه خطأ أو
صواب . وانصرف ضاحكاً يمثّل بيت لاتينى قديم يصور اليأس والقنوط ، ولكنه
لم يعرف ياساً ولا قنوطاً ، ولم يدعّن لعقبة أو صعوبة ، وإنما حاول وطاول وألحّ فى
المحاولة والمطاوله حتى تقدم للامتحان ذات يوم وتلقى النص اللاتينى فلم ينظر فيه
نظرة سريعة ، وإنما أقبل عليه فترجمه وقدم إلى المتحنيين صحفاً أتاحت له
الفوز والنجاح .

وكان صاحبنا ثالث هذين الزميلين ، وكان قد عرف من أمر صاحبيه ما
يحتملان من مشقة وما يبذلان من جهد . وما يلقىان من إخفاق ، فلم يقل ذلك
من عزمه ، وإنما مضى فى درس اللاتينية فى بيته وفى السوربون مصمماً على أن
يظفر بهذه الدرجة مهما يكن دونها من العقاب .

ولكن مشكلة خطيرة عرضت له ، وكانت خليقة أن تفسد عليه أمره كله ،
ولم يكن بينها وبين الدرس صلة ، فهو قد خطب تلك الفتاة إلى نفسها وإلى أسرته ،
وقد قبلت الفتاة خطبته بعد تردد طويل ، وقبلتها الأسرة بعد امتناع وإباء . ولكن
صاحبنا لم ينس إلا شيئاً واحداً ، وهو أنه قد أعطى الجامعة قبل أن يسافر إلى
أوروبا ذلك العهد الذى كان يعطيه أعضاء البعثة جميعاً قبل سفرهم ألا يتزوج
فى أثناء إقامته فى الخارج طالباً للعلم .

وهو لم ينقض هذا العهد لأنه خطب ولم يتزوج ولكنه عجل إلى الزواج .
فليس له بدّ إذن من استئذان الجامعة أو نقض العهد الذى أعطاه لها . وقد أزعج
أن يستأذنها ، وكتب إليها فى ذلك . ولكنه كان يطيل التفكير فى عواقب هذا

الكتاب ، كان يرجع ألا تأذن له الجامعة ، وكان يسأل نفسه فيطيل السؤال عما
يكون من أمره إن رفضت الجامعة الإذن له فيما يريد .

وكان ذلك ربما ننص عليه حياته من حين إلى حين . ولكن الجامعة كانت أرف به
وأرحم له مما قلتر ، فأذنت له بعد خطوب لم يعرفها إلا بعد أن أتم درسه وعاد إلى مصر .
أذنت له الجامعة إذن ، ولكنه هو لم يأذن لنفسه ولم تأذن له الفتاة حتى يظفر
بدرجة الليسانس هذه التى لم يظفر بها مصرى بعد ، وحتى يشعر الجامعة بأنه
صاحب جدّ ونشاط وإنتاج لا صاحب لعب وكسل واشتغال بنفسه عما يجب عليه
من الدرس والتحصيل .

والقريب من أمر صاحبنا أنه لم يكن فى ذلك العام تيبياً لامتحان الليسانس
وحده ، وإنما كان فى الوقت نفسه يعدّ رسالته للدكتوراه ، وقد زاده إذن الجامعة له
بالزواج جدّاً وكذاً ونشاطاً ، حتى كان العام الأول لخطبته غريباً حقاً ، كلف فيه
نفسه وخطبته من الأمر أعسره وأشدّه مشقة .

ولم ينس القى قط ولم تنس صاحبه ، أنهما كانا يخرجان بين حين وحين فى
أيام الآحاد من باريس يطلبان الزهرة والتروض ، فلم يخرجوا قط وحدهما وإنما
صحبهما دائماً كتاب من هذه الكتب الثقالة التى ترهق القارئ فيها من أمرهم عسراً ،
والذين يعرفون كتب أوجست كونت ويقدرّون ما فيها من العسر الذى يتصل بمعانيها
والفاظها وأسلوبها يرحمون هذين الخطيبين اللذين كانا يختلفان إلى هذه الغاية أو تلك
من الغابات التى تحيط بباريس ، فيأويان إلى ظل شجرة من أشجارها ويأخذان
فى هذه القراءة العسيرة الشاقة المرهقة التى لم يكن بينها وبين ما كان يملأ قلوبهما من
الحب والأمل سبب قريب أو بعيد .

وقد أقبلت بوادر الصيف من ذلك العام وجعل القى يستعد للامتحان ، ثم
دفع إليه فى شهر يونيو فلم يتردد ولم يتلصّب ، وإنما أقدم فو ، عناد أى عناد . لم يكن

وأتقاً بنفسه ولا مطمئناً إلى نتيجة هذه المغامرة التي يقدم عليها ، ولكنه كان يقول لنفسه إن أتيج لى النجاح فرمية من غير رام ، وإن كسب على الإخفاق فما أكثر الذين يخفقون !

وكان مزماً إن ظفر بالنجح أن يبرق به إلى الجامعة ، وإن كسب عليه الإخفاق أن يكتمه ويجعله سراً بينه وبين نفسه إن أمكن أن يكتم الإخفاق فى الامتحان ، ومن حوله زملاؤه المصريون يرقبونه رفاقاً بما مشجعين له عاطفين عليه . وقد أتيج له النجاح . . وكان الأستاذ الدكتور صبرى السوربوتى هو الذى أقبل ذات مساء فرحاً يكاد يخرج الفرح عن طوره ، مكلوداً يكاد يقطع الإعياء تنفسه لشدة ما جرى بين السوربوتى وبين بيت الفتى ، ولشدة ما أسرع فى صعود السلم إلى بيت الفتى فى الطابق السادسة . فلم يكد يفتح له الباب حتى أعلن لمن فتحه له أن زميله قد ظفر بدرجة الليسانس ، ولم يدخل وإنما رجع أدرجه ولم يرد أن يستريح . وكان الزميل الكريم قد تقدم للامتحان ، ولم يكد ينظر فى النص اللاتينى حتى طواه وقدم صفحه البيضاء وانصرف ضاحكاً متمثلاً ببيته اللاتينى ذلك الذى يصور اليأس والقنوط . فكان رائعاً حقاً أن يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسيرة أملاك له وأشد استنثاراً به من إخفاقه هو فى الامتحان !

وألقى نبأ النجاح إلى الفتى ، فلم يصدقه حتى صجته خطيبته إلى السوربوتى وقرأت له اسمه بين أسماء الناجحين ، ثم لم تعد به إلى البيت حتى حجرت أمكنة للأسرة كلها فى بيت مولير تكافئ بذلك صديقها وخطيبها على هذا النجاح الذى لم يكن مرتقباً .

وأصبح الفتى من غده فأبرق إلى الجامعة ، ولم يمض يومان حتى أبرقت إليه الجامعة تهته وترسل إليه مكافأة قدرها عشرين جنباً .

فى ذلك اليوم قرر الخطيبان أن يبا زواجهما قبل رحلة الصيف إلى الجنوب .

طلب تأجيل الامتحان للزواج !

وكان أمر الفتى فى عامه الدراسى ذلك عجباً كله ، فهو لم يتبها لامتحان الليسانس وحده على ما فيه من عسر ومشقة ، وإنما جعل يعد رسالته للدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، فقرأ لذلك ما شاء الله أن يقرأ فى اللغتين العربية والفرنسية ، وترجمت له نصوص أخرى من لغات أوربية مختلفة ، ثم أخذ فى إملاء رسالته ، يقول هو وتكتب صاحبه ، وتقوم فى أثناء ذلك ما يعوج من لغته الفرنسية . ولا يكاد يفرغ من إملاء فصل من فصول هذه الرسالة حتى يعيد قراءته ثم يعرضه على أستاذه المستشرق الفرنسى كازانوف ، فإذا أقره أخذ فى إملاء الفصل الذى يليه . ولم تكن الجامعة قد فرضت عليه هذه الرسالة ، بل لم يكن بين هذه الرسالة وبين برنامجهِ الدراسى سبب . فهو قد أرسل ليدرس التاريخ ، وكلف الحصول على درجة الليسانس ، وتطوع هو بهذه الرسالة لأنه سمع دروس الاجتماع التى كان يلقيها الأستاذ دوركم ، فشغف بهذا العلم أى شغف ، وأراد أن تكون له مشاركة فيه ، وأن يشرف الأستاذ على هذه المشاركة . فاتفق معه على موضوع الرسالة ، وعلى أن يكون هو مشرفاً عليها من الناحية الفلسفية ، وأن يشاركه فى الإشراف مستشرق يحسن العلم بالشئون العربية والإسلامية فكان كل فصل من هذه الرسالة يقرؤه أستاذان ، يقرؤه الأستاذ المستشرق أولاً ثم يقرؤه الأستاذ دوركم بعد ذلك . ولا استقام أمر هذه الرسالة للفتى كسب إلى الجامعة ينيها بما صمم عليه ،

وبأن هذا لن يغير من برنامج المرسوم شيئاً ، بل ينبغي بأنه يزعم أن يضيف إلى هذا البرنامج المرسوم شيئاً آخر : يريد - إن ظفر بالليسانس - أن يظفر بالإجازة التي تليه ، وهي دبلوم الدراسات العليا . واستأذن الجامعة في أن تهباً لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ ، على أن ذلك يستلزم أن تمتد إقامته في أوروبا أربعة أعوام بعد حصوله على الليسانس والدبلوم .

فكثبت إليه الجامعة تأذن له بنيل الدبلوم إن استطاع بعد الليسانس ، وتغنيه من دكتوراه الدولة في التاريخ ، لأنها تظليل إقامته في أوروبا وتكفل الجامعة من التفتقات أكثر مما تطيق .

ثم أذنت له بتقديم رسالته عن ابن خلدون لنيل دكتوراه الجامعة ، وذكرته بالمعهد الذي قطعه على نفسه قبل أن يسافر من مصر وهو ألا يقدم رسالة إلى جامعة أجنبية مهما يكن موضوعها إلا بعد أن تقرأها الجامعة المصرية وتأذن في تقديمها . وكان الصديق الكريم الدكتور منصور فهمي هو الذي اضطر الجامعة إلى أن تأخذ طلابها في أوروبا بأن يعطوا على أنفسهم هذا المعهد .

والناس لم ينسوا بعد ما أثارت رسالة الدكتور منصور التي حصل بها على الدكتوراه من ضجيج وعجيج أثاراً سخط الهيئات الرسمية أولاً ، وسخط الرأي العام بعد ذلك ، واضطر الصديق الكريم إلى أن ينأى عن مصر قريباً من عام ، ولا يعود إليها إلا حين اضطرت الحرب إلى أن يعود . وحيل بينه وبين التعليم في الجامعة أعواماً ، حتى إذا كانت الحركة المصرية ستة تسع عشرة وتسعمائة وألف ، وما نشأ عنها من الأحداث ومن تحرر العقول ، أذن له بما كان ينبغي أن يؤذن له فيه منذ أتم درسه في فرنسا . وكان ثروت باشا رحمه الله هو الذي أذن له في ذلك .

ولم ينس القتي مساء يوم من الأيام جلس فيه بين زملائه إلى بعض الأساتذة في الجامعة حين كان طالباً ، وإنه لصح إلى الأستاذ وإذا يدُ تمسه مساً رفيقاً ثم

تحاول إقامته مكانه ، فيلتفت فينبته صوت بأن الذي يريد أن يقيمه هو علوي باشا ، فيستجيب القتي لهذه اليد وهو يشفق في نفسه من بعض الشر . فهو قد أقيم مرة من درسه في الأزهر مع صاحبين له ليقدموا للمحاكمة أمام شيخه الأكبر الشيخ حسونة رحمه الله . وقد سأل القتي إلى من سيقدم ، وفهم يمكن أن يحاكم هذه المرة . ورأى القتي نفسه قد أجلس على كرسي وقيل له إنك أمام مجلس إدارة الجامعة وإن المجلس يريد أن يسألك عن بعض الأمر . وإذا صوت رقيق يتحدث إليه في رفق ، فينبته أولاً باسمه عبد الخالق ثروت ، ويسأله بعد ذلك عن حكم الدين في أشياء تليت عليه من رسالة لطالب من طلاب الجامعة في أوروبا .

قال القتي : فإنه لا يملك الإفتاء في أمور الدين .

قال محدثه : فإننا نريد أن نعرف رأيك .

قال القتي وهو ييسم في شيء من غضب ساخر : كنت أظن أنني في الجامعة حيث لا يحاسب الناس على آرائهم . فإذا أنا أراي في الأزهر لا أسأل عن رأي نفسي وإنما أستفتي في رأي غيري من الناس .

قال صوت غليظ : رده يا علوي باشا إلى درسه فلن تأخذ منه شيئاً .

ورد القتي إلى درسه لم يصحبه في عودته علوي باشا وإنما صحبه خادم من خدم

الجامعة .

ومند أثار الدكتور منصور ذلك الضجيج أقامت الجامعة نفسها رقيباً على رسائل طلابها ، وأخذت عليهم المعهد ألا يقدموا رسائلهم إلى الجامعات الأجنبية حتى تأذن لهم في ذلك بعد أن تقرأ الرسائل وتقرها . فلما استأذنها القتي في تقديم رسالة عن ابن خلدون ذكرته بعهد ذلك ، فوق به وأرسل نسخة من الرسالة بعد أن أمعها ، وأحالها مجلس الإدارة إلى الأستاذ أحمد لطفى السيد فقرأها ورضى عنها وأذنت الجامعة في تقديمها إلى السوربون .

ولم يتقضى شهر يوليو من ذلك العام حتى كان الفتى قد نجح في اللسانس من جهة ، وأذنت له السوربون في طبع رسالته توطئة لمناقشتها بعد الصيف .

وقد تخففت الفتى من عبئين ثقلين . . عبء اللسانس وما فيه من امتحان اللغة اللاتينية ، وعبء الرسالة وما فيها من رقابة الجامعة والإذن في تقديمها . على أن فوزه بالليسانس لم يكن كاملاً ، فهو قد نجح في الامتحان التحريري نجاحاً حسناً ، ولكنه كان قد شق على نفسه بالاستعداد لهذا الامتحان وكتابة الرسالة وهو بعد ذلك مشغول متصل التفكير في زواجه الذي أذنت به الجامعة والذي كان يجب أن يتم في ذلك الصيف .

فخادع الفتى نفسه شيئاً ، وقرر أن يرجئ الامتحان الشفهي إلى الدور الثاني في أول العام الدراسي ، وما هي إلا أن يعرض نفسه على طبيب فيشهد كتابة بأنه مكثود الأعصاب محتاج إلى الراحة ، ويقدم هذه الشهادة إلى السوربون فتدخل ما بقى من امتحانه إلى شهر نوفمبر ، ويفرغ الفتى لنفسه وخطيته ، وما كان يعتبها من أمر الزواج .

فإذا كان اليوم التاسع من أغسطس من ذلك العام ، أصبحت زوجين حين انتصف النهار ، وتركا باريس إلى الجنوب حين أقبل الليل . ولم يفرغا مع ذلك لحياتهما الجديدة في أثناء الصيف ، وإنما استقرا في مدينة هادئة من مدن الجنوب ، وأقبلوا فور استقرارهما على مالم يكن بد من الإقبال عليه وهو الاستعداد للامتحان الذي يجب أن يؤدى بعد شهرين .

وكان الاستعداد عسيراً حقاً . فلم يكن بد لطالب اللسانس في التاريخ أن يكون مستعداً بعد نجاحه في الامتحان التحريري لأن يسأل فيما يريد الأساتذة أن يسألوه فيه من تاريخ العصور القديمة وتاريخ القرون الوسطى والتاريخ الحديث والتاريخ المعاصر والجغرافيا والفلسفة ولغة أوربية غير اللغة الفرنسية . وحسبك بهذا

كله عبئاً ثقيلاً وعناء طويلاً . وحسبك به أو بالاستعداد له نعيماً بلائم حياة عروسين قد آتما زواجهما منذ أيام !

وهما مع ذلك يقبلان على هذه المحنة الثقيلة لا يضيقان بها ولا ينفران منها ، وإنما يصيحان في التاريخ ويمسيان في الجغرافيا ويلمان بالإنجليزية بين ذلك ، ويركان أمر الفلسفة إلى الله وإلى ذاكرة الفتى ، وما يمكن أن يكون قد استقر فيهما مما سمع في السوربون أثناء العام .

ويقتضى الصيف ويعود الزوجان إلى باريس ، ويقبل صاحبنا على الامتحان مشفقاً منه أعظم الإشفاق ، مروعاً به أشد الروع لا يخاف التاريخ القديم ، وإنما يخاف أشد الخوف أساتذة التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر ، ولا يكاد يذكر الجغرافيا حتى يُجن جنونه ، فقد كان واثقاً بأنه مخفق فيها من غير شك . وقد كتب عليه أن يرضى في يوم من أيام الامتحان كل الرضا مصباحاً وأن يسخط فيه كل السخط ممسبياً .

وأقبل من ضحى ذلك اليوم على أستاذ تاريخ القرون الوسطى وكان من أعظم أساتذة السوربون قدراً ، وهو الأستاذ شارلي ديل . فإذا الأستاذ قد كتب على أوراق صغيرة أسئلة كثيرة وضعها أمامه ، وجعل الطلاب كلما أقبل واحد منهم على الأستاذ يرمقونه ويرقبون ما يسعفه به الحظ . ويقبل صاحبنا ترافقه زوجه ، فإذا أخذت ورقة ودفعتها إلى الأستاذ نظر فيها ثم ابتسم ثم قال في صوت عذب : لقد أسعدك الحظ بمرافقة هذه الآتسة . حدثني إذن عن الإمبراطورية العربية أيام بني أمية ، وما أرى إلا أنك تعرفها خيراً مما أعرفها .

واندفع الفتى في حديثه لا يولوى على شيء حتى وقفه الأستاذ قائلاً : حسبك فقد ظفرت بالدرجة العليا .

في ذلك اليوم لم يعد الزوجان إلى البيت ليصيبا غداًهما ، وإنما ألح الفتى

على صاحبه في أن يرقها عن نفسيهما بتناول الغذاء في مطعم من مطاعم الحي اللاتيني ، يجدان فيه من لين الطعام ما لم يكن مقدراً أن يجدها إن عادا إلى البيت . وكانت صاحبه تذكره له أن يسرف فيما يبني له من مرتبه بعد أداء ما عليه فيه من الحق ، فامتعت عليه وألحت في الامتناع ، ولكنه ما زال بها حتى استجابت له . فأصابا في ذلك اليوم غذاء قلما كانا يصيبان مثله في سائر أيامهما .

وعادا بعد ذلك إلى السوربون ، وإن قلب الفتى ليخفق فرقاً وقلقاً ، وكيف لا وهو مقبل على امتحان الجغرافيا بعد قليل ؟ وكان قد قدر في نفسه أن الأستاذ الذي سيمتحنه لن يراه مقبلاً عليه حتى يرقق به ويعرف أن مثله لا ينبغي أن يسأل إلا فيما يفهمه العقل وتحفظه الذاكرة بدون أن يحتاج إلى الإبصار . يسأله في الجغرافيا السياسية أو الاقتصادية أو البشرية ولا يسأله في الجغرافيا الطبيعية مثلا . ولكن الأستاذ يدعوه فيسعى إليه ويمجلس بين يديه ، ويقول الأستاذ في هذه المداعبة الرفيعة التي يتكلفها المتحنون عادة : مسيوحين ، صف لي مجرى نهر الرون .

ويسمع الفتى هذا السؤال فيسرع إليه الوجوم ، ولكن العناد يسبق الوجوم إلى عقله وقبه جميعاً . وإذا هورفض الإجابة عن هذا السؤال في صوت لا تردد فيه ولا اضطراب .

قال الأستاذ متلطفاً : فإن من الحق عليك أن تجيب حين تسأل .

قال الفتى : ولكني لن أجيب .

قال الأستاذ : فقد اكتفيت .

ودعا طالباً آخر .

فانصرف صاحبنا محزوناً ومدحوراً ، مستيقناً أنه قد أخفق في الامتحان ، وأن نجحه في أول الصيف قد ذهب هباء ، مشفقاً في الوقت نفسه على صاحبه من هذا الحزن الذي سيسعى إليها من غير شك . ولكن صاحبه تخرج به من هذه الغرقة

مرفقة به قائلة له في ابتسامه عذبة : وما رأيت في فنجان من القهوة تخبأ به للقاء أستاذ الفلسفة ! وقال : وفيم لقاء هذا الأستاذ وقد ذهب الامتحان كله هباء ؟ قالت متصاحكة : لا عليك . فقد كان هذا المتحزن غليظ الطبع قليل الحظ

من الذوق .

وما زالت به حتى سقته القهوة . ثم عادت به إلى السوربون ، فلقى أساذ الفلسفة وسمع منه وقال له غير محقق في نفسه شيئاً مما سمع أو مما قال . وراحا إلى بيتهما وهو يضرر اليأس ويظهوره . وهي تظهر الأمل ، والله يعلم ما كانت تضرر .

وتكلفت صاحبنا أن يشغل نفسه عن التفكير في الامتحان بالتكبير في مناقشة الرسالة التي تم طبعها وقدمت إلى السوربون ، والتي سيحدد لمناقشتها فيما كان يقدر موعد قريب .

ولم تتحدث إليه صاحبه في أمر هذا الامتحان ، وإنما جعلت تتحدث إليه في أشياء كثيرة ليس بينها وبين السوربون وعنائها صلة ، ثم تقبل عليه ذات يوم فلا تكلمه ولا تلتق إليه تحيتها وإنما قبله ثم تهمس في أذنه : لقد نجحت ! ولم يصدق الفتى ما سمع حتى أنبأته بأنها عائدة من السوربون حيث أعلنت أسماء الناجحين وفيها اسمه .

وعلم الفتى بعد ذلك أن الأستاذ ريمونجون أستاذ الجغرافيا لم يكن غليظ الطبع ولا قليل الحظ من الذوق ، فلم يمنحه الصفر الذي كان يستحقه ، وإنما منحه درجتين التنتين ليعصمه من الإخفاق إن أتيح له النجاح في غير الجغرافيا من مواد الامتحان . وتريد الظروف بعد سنتين أن يعقد في مصر مؤتمر للجغرافيا ، وأن يكون هذا الأستاذ من الذين مثلوا وطنهم في هذا المؤتمر ، وأن يلقاه صاحبنا في حفلة من حفلات الشاي التي تكثر حول المؤتمرات ، فإذا قدم إليه صافحه وأطال النظر إليه وإلى

صاحبه ثم قال متضحكاً : يخيل إلى أني رأيتك !
قال القتي مغرماً في الضحك : نعم رأيتني ، وكنت تضع على درجة اليسانس .
قال الأستاذ : الآن ذكرك . ولعلك راضى عني ، لأنني لم أعطك الصفر الذي
كنت له أهلاً !

ولم يضحك وحدهما ، وإنما ضحك معهما من كان حولهما من الناس .
وكذلك خلص القتي من مشكلات اليسانس ، وأقبل على الرسالة يتياً لمناقشتها
مستريح القلب هادئ النفس راضى الضمير ، ولكنه لم يلبث أن روع بوفاة
الأستاذ دوركم المشرف الفلسفي على رسالته . وكان القتي لأستاذه محباً وبه معجباً
إعجاباً يوشك أن يبلغ القنون ، فأدركه للخطب فيه حزن عميق . ولكن للحياة
حقائقها وتبعاتها . وليس بد هذه الرسالة من أن تناقش ، وليس بد لمناقشتها من
فيلسوف متخصص في الاجتماع .

وقد استطاعت السوربون أن تندب لمناقشة القتي في رسالته أستاذاً من أستاذتها
كان من تلاميذ الأستاذ الفقيه وهو الأستاذ بوجليه . وكذلك تم الاستعداد للمناقشة ،
ولكن الدكتوراه الجامعية في فرنسا لا يمكن فيها أن تقدم الرسالة وأن تناقش ، بل
يجب أن يناقش الطالب قبل ذلك في موضوعين يختاران له قبل اليوم الموعد ليتياً
للخوض فيهما .

ويتصل القتي بأستاذته الذين سيمتحنونه ليعرف منهم هذين السؤالين . فأما
الأستاذ المستشرق فلم يقترح شيئاً واكتفى برسالة الطالب عن ابن خلدون . وأما
الأستاذ الفيلسوف فاقترح على القتي موضوعاً رآه في أول الأمر عسيراً أشد العسر ،
ثم لم يلبث أن رآه يسيراً كل اليسر بعد أن عرف الموضوع الثاني الذي اقترحه
أستاذ التاريخ . اقترح الأستاذ الفيلسوف : « علم الإجماع كما يصوره أوجوست
كونت » ، واقترح أستاذ التاريخ - وكان من مؤرخي الرومان وهو الأستاذ جوستوف

بولك - والقضايا التي رفعت على حكام الأقاليم كما يصورها بليونس الشاب في
رسائله .

وقال الأستاذ وهو يلقي هذا الموضوع إلى القتي : وأريد أن أناقشك في النصوص
فلا تكف بفهم التاريخ .

في ذلك اليوم عاد القتي إلى أهله يرعد من الخوف والسخط جميعاً . كان يظن
أنه قد فرغ من اللغة اللاتينية وعنايتها ، وإذا أستاذ التاريخ ذاك يرده إليها ويفرض
عليه أن يدرس طائفة من رسائل ذلك الكاتب اللاتيني القديم .

وأقبل القتي على رسائل ذلك الكاتب فقرأها كلها مترجمة إلى الفرنسية أولاً .
واستخرج منها الرسائل التي تمس موضوعه فعاد إليها يدرسها في نصوصها اللاتينية درساً
دقيقاً عميقاً ، لأنه كان يعرف الأستاذ ، ويعلم أنه لا يجب المزاح ولا يكتفى بالقليل .
ولم يرتعد القتي في امتحان قط إلا في هذا الامتحان حين أخذ الأستاذ يناقشه
في هذه الرسائل ، ونسى حكام الأقاليم وقضاياهم ، ولم يحفل إلا بالنص اللاتيني من
حيث هو نص أدبي يجب فهمه أولاً وذوقه ثانياً وتحليله ونقده بعد ذلك .

ولولا فضل من شجاعة واستحياء من الرفاق ومن زوجه التي كانت تشهد
الامتحان ومن سائر النظارة لاصططت أسنانه ذعراً وهلعاً . ولكنه ثبت للخطب
على كل حال ، وإن رأى الأستاذة والنظارة أن فراقه كانت ترتعد ، وأنه كان
شديد الاضطراب ، وثابت نفسه إليه حين سكنت عنه أستاذ التاريخ وأخذ أستاذ
الفلسفة في مناقشته وجرت ريح الامتحان له رخاء حتى رفعت الجلسة .

وخلت اللجنة للمداولة وعادت بعد لحظات فأعلن إليه رئيسها ، وهو أستاذ
التاريخ ، أن الكلية ترشحه لدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الممتازة ومع تهنئة
اللجنة .

ولأول مرة سمع القتي تصفيق النظارة من الفرنسيين لشخصه المتضائل الضعيف .

وعاد إلى أهله جذلان فرحاً ، وظن أن قد حطت عنه أثمان الدراسة ، وأن ما بين
له منها لن يكون شيئاً ذا بال .

ولكن الأيام كشفت له عن أنه كان مغالياً في تفاوله بل مسرفاً في الغلو .
فقد بقى عليه أن يظفر بدبلوم الدراسات العليا ، وأراد حظه أن يعدّ رسالته لهذا
الدبلوم بإشراف أستاذ التاريخ ذلك الذي أرقه من أمره عسراً .

الفصل السابع عشر

يوم سقطت القنبلة على بيتي !

ولم يمهل صاحبنا نفسه بعد أن فرغ من امتحان الدكتوراه إلا أياماً قليلة ،
ثم أقبل على درس أستاذ التاريخ ذلك كما تمود أن يفعل منذ أقام في باريس ،
وكان على هذا الدرس حريصاً ولصاحبه مجباً ، بل كان إعجابه بصاحب هذا
الدرس عظيماً ، فلما انتهى الأستاذ من درسه سعى إليه صاحبنا خزياً وجلاً ،
وأنبأه بأنه يود لو أذن له في أن يجيئ بإشرافه رسالة في التاريخ القديم ينال بها دبلوم
الدراسات العليا .

وقد قبل الأستاذ طلب تلميذه أحسن قبول ، وضرب له موعداً بعد درس الغد
ليتحدث معه في موضوع هذه الرسالة . وانصرف الفتى راضياً مشفقاً . راضياً
عن العمل مع هذا الأستاذ العظيم ، مشفقاً من مشقة هذا العمل . فقد كان الأستاذ
معروفاً - على حبه لتلاميذه - بالشدّة عليهم وتكليفهم من الأعمال أشقها وأشدّها
عسراً ومحاسبتهم بعد ذلك حساباً لا رفق فيه .

ولقي الفتى أستاذه من الغد فقال له متضحكاً : لقد وجدت لك موضوعاً
قيماً حقاً ، لأنه سيتيح لك من القراءة ما تستمتع به أحسن التمتع موقعاً في النفوس .
قال الفتى متشوقاً : وما ذلك ؟!

قال الأستاذ : ستدرس القضايا التي أقيمت في روما على حكام الأقاليم الذين
أهانوا جلال الشعب الروماني وغضّوا من شرفه ، كما صوّرها المؤرخ العظيم تاسيت .

وأؤكد لك أنك ستسعد بقراءة هذا المؤرخ كما لم تسعد قط بقراءة مؤرخ أو أدب .

ثم أحصي له طائفة من الكتب يجب أن يقرأها ، وطائفة أخرى يجب أن يرجع إلى بعض فصول فيها . ولم يستطع صاحبنا أن يناقش الأستاذ أو يجادله في هذا الموضوع العسير ، وإنما سمع وأطاع ، وانصرف قلقاً مستخذاً .

ثم فكر حين خلا إلى نفسه في هذه الكتب التي ينبغي أن يقرأها أو يراجع فصولاً فيها ، فرأى أنه لا يستطيع أن يستعيرها ، لأن مثل هذه الكتب لا تعار من مكتبة الجامعة لكثرة حاجة الطلاب إليها . وليس له بد إذن من شرائها ، وفي شرائها المعضلة الكبرى . فتمننا لا يقل عن المرتب الذي يتقاضاه أثناء شهرين كاملين !

وكتب إلى الجامعة يستعيرها على شراء هذه الكتب ، فأبت عليه ، وكانت الجامعة شديدة البخل على طلابها ، تكرهها ظروفها المالية على ذلك إكراهاً . فهي لم تكن تمنينهم على ما يعرض لهم من المرض ، ولا على ما يحتاجون إليه من الكتب ، وإنما كانت تعطيمهم مرتباتهم وأجور ما يحتاجون إليه من الدروس الخاصة إذا تبيئت أن ليس لهم من هذه الدروس بد . ثم تخلى بينهم وبين حياتهم يصنعون بها ما يريدون ، أو تصنع هي بهم ما تريد . وعلى الطلاب مع ذلك أن يثبتوا جدم في الدرس وتقدمهم فيه . فإن ثبت لها تقصير أو قصور فليس بد للطلاب من أن يعود إلى مصر ويوفر ما تنفقه الجامعة عليه من المال .

وقد راجع صاحبنا الجامعة في أمر هذه الكتب فأذنت له - بعد خطوب - في أن يشترها ويتفجع بها على أن تكون ملكاً للجامعة ترد إليها بعد عودته إلى مصر . وكذلك أخذ يتبأ لهذا الموضوع الخطير . وأي شيء أخطر بالقياس إلى مصرى مثله لم يعرف اللاتينية إلا بأخرة ، ولم يسمع في مصر الا دروس الأزهر

في علومه الموروثة ودروس الجامعة التي ليس بينها وبين تاريخ اليونان والرومان صلة - أي شيء أخطر بالقياس إلى مصرى مثله من العكوف على هذا المؤرخ الروماني العظيم العسير يقرؤه ويحصى ما فيه من أخبار هذه القضايا ، ثم يفهم هذه القضايا من نواحيها القانونية الخالصة ، ثم يعرضها بعد ذلك عرضاً واضحاً مستقيماً ؟ لقد أحس في نفسه شيئاً من الندم على أنه لم يختر لرسالته موضوعاً في التاريخ العربي الذي يحسنه والذي لا يكلفه قراءة في اللاتينية ولا فيها يشبه اللاتينية ، ولكنه قد ورط نفسه في هذا الموضوع ، وليس له بد من أن ينفذ من مشكلاته ، مهما يكلفه ذلك من جهد أو عناء .

وإنه لما بدأ في قراءته تلك العسيرة ، إذا حدث يحدث ذات ليلة فيقطع هذه القراءة فجأة ، ويضطره إلى أن يترك باريس ، ويفرضه وبزوجه إلى جنوب فرنسا ، طلباً للأمن واجتناباً للخطر . وكان ذلك حين انتصفت ليلة من ليالي فبراير أو كادت تنتصف . وكان كل شيء هادئاً من حول صاحبنا ، وكان قد انصرف عن القراءة وأوى إلى مضجعه ، وأخذ النوم يسعى إليه أو أخذ هو يسعى إلى النوم ، ولكن التنذير بالغاثة الجوية يوقظ أهل البيت جميعاً ، وصاحبنا شجاع لا يحفل بالغاثة ولا يريد أن يظهر أهل البيت منه على ذعر أو شيء يشبه الذعر . فهو يبأى أن ينهض من مضجعه سائحاً من الغارة والمغربين . وما أكثر ما سمع أهل باريس هذا التنذير ! وما أكثر ما اهتم له المهتمون ، وسخر منه الساخرون ، وأنجلت غمرته عن باريس دون أن تلقى منه كيداً ! فما يمنع هذه الغارة أن تكون كغيرها من سابقتها ؟ وصاحبنا معتد بنفسه معتز بشجاعته ، يرى أهل البيت من حوله يتباؤون للهبوط من طابقيهم السادس ليأووا إلى مخبئهم ذلك ، وهو ثابت في مضجعه لا يريم ، ولكنه يسمع فجأة صوتاً مروعاً ، وينظر فإذا هو يهبط مع الهايطين مسرعاً ، لا يحفل بما يمكن أن يلقاه من عقبات ، ولا يتوب إلى نفسه إلا بعد أن استقر في

جلسه من المخبأ بين اللاجئين إليه من أهل الحى ، وهو مستخذ في نفسه ، ومستخذ من أهله ، ولكن ماذا يصنع وقد كانت الفرصة أقوى من عقله وإرادته جميعاً ؟ وتنجل الغمرة ، ويأوى الناس إلى مضاجعهم ، فإذا أصبحوا رأوا شراً عظيماً ، فقد سقطت التنازل في الحى اللاتينية نفسه ، ودمرت أبنية قريبة من الدار التي كان يسكنها صاحبنا ، وهو يحس آثار هذا التدمير في طريقه مصباحاً إلى السوربون ، ويسمع من أنبائه الشيء الكثير . ولم يخطر له أن في هذا الحادث ما يضطره إلى ترك باريس والهجرة إلى الجنوب . ولكن ظروف زوجه تفرض عليه ذلك بأمر الطبيب . فيهاجر معها إلى مونبلييه مقدرين أن يقيما فيها إلى أن يصل الطفل الذي كانا ينتظرانه ، ثم يعودا بعد ذلك إلى باريس .

وهم صاحبنا بعد أن استقر في مونبلييه أن يدرس الحقوق ويتخرج في القانون ، يبدأ الدرس في فرنسا ويتمه في مصر بعد أن يعود إليها ، ولكن إعداد رسالته تلك شغله عن ذلك ، وما أكره ما لام نفسه وشق عليها في اللوم بأنه لم يتم ما حاول من دراسة القانون ! فقد ألت به في حياته محن وخطوب .

وكان ينظر فيرى نفسه مسؤولاً عن أسرة فيها صبيان بريثان لم يخاصما السلطان ولم يثيرا غضبه ، وعن زوج بريثة غريبة لا شأن لها بما كان يحدث في مصر من الأحداث ، ويرى نفسه مع ذلك اضطر إلى شيء يشبه العجز عن رعاية هذه الأسرة والقيام بحقها عليه في تلك الأيام . وكان يذكر رغبته في درس القانون ، وكان يقدر أنه لو فعل لاستطاع أن يتجنب التبطل وأن يعصم هذه الأسرة مما كانت تتعرض له من البؤس والضييق . ولكن هذا حديث لم يأت وقته بعد .

أقبل القتي إذن على درسه ، وأقبل في الوقت نفسه على درس اللغة اليونانية ، وشاركته زوجه في هذا الدرس ، فكانت حياتهما في مونبلييه راضية حقاً ، فيها نعم العقل بهذا الإمعان في الدرس والأخذ في كل يوم بسبب جديد من أسباب المعرفة ،

فيها نعم الأمل بانتظار هذا العاقل الذي كان يسعى إلى الحياة في أناة ورفق . وفيها نعم الرضا بالقليل والقناعة بالرقيق الذي معها يكن مقترراً فيه فقد كان يقيم الأود ويعصم من الحاجة ويرضى الزوجين من نفسها ، لأنها يحسان التدير والاحتمال . وكان ربما تعرض لبعض ألم حين يوشك الشهر أن ينقضى ، ويوشك ما بين أيديهما من المال أن ينفد ، فيثبان لذلك في صرامة لا تعرف اللين وشدة لا تعرف الدعة حتى تنجل عنها الغمرة ويعود إليهما السير السريع مع أول الشهر إن جاز أن يوصف السير بأنه عسير .

وكان القتي قد أرسل نسخاً من رسالته عن ابن خلدون إلى صديق له في مصر بقيت له بعد أن أخذت السوربون خمسين ومئة نسخة ، وأخذت الجامعة عشرين نسخة ، وأهدى إلى بعض الرفاق والأصدقاء عدداً آخر من النسخ ، وبقي له نحو مئة نسخة من هذه الرسالة ، فأرسل إلى صديقه ذلك - رحمه الله - ليتصرف فيها كما يجب . ومضى على إرسال هذه النسخ وقت غير قصير حتى نسيها القتي ، ولكنه يتلقى ذات ضحى كتاباً من صديقه ذاك ومعه حوالة على أحد المصارف بمقدار من المال لا بأس به كاد يبلغ عشرين جنبياً .

ما كان أسعد ذنك الزوجين بهذا الكتاب ، وبما حمل إليهما من معونة ، كانا في أشد الحاجة إليها ! ولا سباً أنه قد قرب مقدم الطفل المنتظر ، ولا بد من التهيؤ للقائه ، ومن لقائه حين يقبل في إكرام له وعناية به وحفاوة تلائم ما كانا يجدان في مقدمته من السعادة . وكان ربما أدركهما حزن عميق يخفيه كل منهما على صاحبه رفقاً به وإشفافاً عليه . فكانت هذه المعونة الطارئة مقدماً لهما من هذا العذاب .

وفي يوم من أيام شهر يونيو أقبلت أمينة مع الصباح ، واختلط صباحها بغناء الطير المستقطلة . فكان لهذه الموسيقى الحلوة موقع أى موقع في قلب الزوجين أنساها

أوسلاهما عما وجدنا في ليلتهما تلك من رُوعٍ وما تعرّضاً له من هولٍ .

ولم نجد أمانة أبويها حزنين ولا مهتمين ولا مضيقاً عليهما في استقبال زائرهما العزيز ، فقد أتاحت لها ابن خلدون - رحمه الله - من السعة ما مكّنها من أن يلقيا ابنتهما كأحسن ما يكون اللقاء .

وانقضى الصيف ثقيلًا طويلًا يضطرب فيه الزوجان بين السعة في أول الشهر والصيق في آخره ، ولكنهما يستعنان على السعة والصيق جميعاً بنشئة أمانة من جهة ، والجدد في إعداد الرسالة ودرس اليونانية من جهة أخرى . ولم يقبل شهر سبتمبر حتى عاد الزوجان ومعهما جوهريتهما إلى باريس .

وكان صاحبنا يقدر أنه سيفرغ الفراغ كله لرسالته إذا استقر في باريس ، ليلقى أستاذه من أول العام الجامعي مستعداً للتحدث إليه بما قرأ وما فهم وما يريد أن يفعل ، ويلتقى منه ما يمنحه من التوجيه والإرشاد .

ولكنه لا يكاد يبلغ باريس حتى يُصَرَّف عن الرسالة صَرفاً عنيفاً ، ويشغل عنها شغلاً متصلًا أكثر من شهرين فهذا رفيق مصري من رفاقه في الدرس ، وصديق من أصدقائه قبل البعثة وبعدها ، قد آلم به مرض عصبي خطير ، وليس له في باريس من يرعاه أو يهتم لشأنه . وقد انتقلت إدارة البعثة الجامعية من باريس إلى لندن فلم يكن بد للفتى من أن يعنى بصديقه وزميله في الدرس ، ويقوم منه مقام مدير البعثة ، وهو يعرضه على الطبيب بعد الطبيب ، ويكتب في شأنه إلى مدير البعثة مرة وإلى الجامعة في القاهرة مرة أخرى . وينفذ أمر الأطباء ، فينقل صديقه من باريس إلى حيث يستطيع أن يعيش خارج المدينة في الهواء الطلق والحياة الهادئة التي لا عجيج فيها ولا ضجيج . وهو مضطرب إلى أن يزوره بين حين وحين ، وقد يدعو فجأة صاحب الفندق الذي يقم فيه المريض فيسرع إليه ، ويسمع من أبناء صديقه ما يملأ قلبه لوعة وحزناً ، ويثير أمامه من المشكلات ما لا يعرف إلى التفوذ

منه طريقاً . وهو في أثناء هذا كله يتلقى الرسائل المتناقضة من الجامعة ومن مدير البعثات ، ويتلقى المال القليل لينفق منه على المريض الذي كان يسرف في الإنفاق ، ولم تكن حاجاته تنقضى ، ويتلقى في الوقت نفسه من الجامعة مطالبته بتأدية الحساب الدقيق عما أنفق ، ولا تنجلي عنه هذه الغمرة حتى يتلقى أمر الجامعة بإعادة الصديق المريض إلى القاهرة .

وفي أثناء هذا كله تضع الحرب أوزارها ، وتعلن الهدنة ، ويتجه الفرنسيون ونزلاء فرنسا بمقدم السلم . ولا يكاد صاحبنا يمضي فيما عاد إليه من الدرس بعد تلك المحنة في صديقه الكريم عليه الأثر عند حثى تأتي الأبناء من مصر فتصرفه مرة أخرى عن رسالته وإعدادها صَرفاً عنيفاً . ولكنه لم يكن حزيناً ولا مروعاً ، وإنما كان سعيداً يملأ القلب غبطة والضمير رصاً والنفس ثقة وإعجاباً . فقد جاءت الأبناء بأن مصر تطلب استقلالها إلى المحتلين المنتصرين .

ثم جاءت الأبناء بأن مصر تلي من المحتلين عنناً أى عنت وجحوداً أى جحود ، وبأن بعض المصريين قد أخرجوا عنوة من وطنهم ، واتخذوا رهائن في مالطة ، وبأن مصر قد غشبت لأبنائها وثارت بأعدائها .

فتقع هذه الأبناء كلها من قلب الفتى ومن قلوب زملائه الطلاب المصريين موقع الماء من ذى الغلة الصادى . ليس الأوربيون وحدهم إذن هم الذين يشورون غضباً للكرامة الوطنية وطموحاً إلى استقلال الوطن . بل إن مصر الإفريقية تتور هي أيضاً كما ثار الإنجليز والفرنسيون والأمريكيون وأمم غربية أخرى .

ما أوسع الآمال التي ملأت قلوب أولئك الطلاب الغرياء ! وما أعظم الكبرياء التي ملأت نفوسهم ! وما أكثر ما أضعوا من الوقت في أحاديث لا تنقضى عن هذا كله ! وما أكثر ما أعرضوا عن الدروس ليفرغوا لحديث الثورة والثائرين ! وكان صاحبنا مؤثراً للعزلة لا يلقى رفاقه المصريين إلا قليلاً . فقد كثر لقاءه

لم وخوضه معهم في أحداث الثورة والثائرين منذ جعلت الصحف الفرنسية تنشر أبناء مصر وما يجري فيها من الأحداث .

ولكنه على هذا كله لم يهمل الرسالة ولم يعرض عن درس أستاذه المشرف عليها ، وإنما مضى في عمله ضيقاً به حريصاً على الجلد فيه ، كأن أبناء مصر قد زادت إقداماً على إقدام وجدداً على جد . وهي على كل حال قد شوّكته أشد التشويق إلى أن يتم درسه ويعود إلى مصر ليشهد الأحداث عن كتب ، ومن يدري لعله يستطيع أن يشارك في بعضها مما يتاح له أن يشارك فيه .

ولم ينس صاحبنا قط كيف كان يتلقى قارئته مع الصبح ، فيفرق معها في قراءة الفقه المدني والفقهاء الجنائي والمدني الروماني في كتابي المؤرخ الألماني العظيم ممش . ولم يكن الفتى يصدق - بعد أن مضت على ذلك السنون - أنه قرأ هذه المجلدات الأحد عشر في وقت قصير على ما في قراءتها من العسر وكثرة ما في هذه المجلدات من التعليقات ومن النصوص اللاتينية .

وما أكثر ما كان يسمع للقارة وقد حمل أمانة بين ذراعيه ليتيح لزوجه أن تفرغ لما كان ينبغي أن تفرغ له من شؤون البيت !

وما أكثر ما كان يمل فصول هذه الرسالة وصيته بين ذراعيه يمشى بها في غرفته الضيقة ملياً وقارئته تسمع منه وتكتب عنه ! وربما طلبت إليه أن يريح نفسه من الإملاء ويريحها من الكتابة دقائق ، وأخذت منه الصية فحملتها ومشت بها في الغرفة وغنت لها بعض ما يغني للأطفال ، وأتاحت له بذلك أن يجلس ويستريح وزوجه في أثناء هذا كله في مطبخها مقبلة على تهيئة الغداء أو العشاء .

وفي ذات يوم يقبل الرفاق فينبئون بأن سعداً - رحمه الله - وأصحابه سيصلون إلى باريس ، وأنهم يتباؤون لاستقبالهم ، ويطلبون إليه أن يشاركهم في ذلك فيعتز ، لأنه لا يحسن من هذه الأمور شيئاً .

ولكنه ينتظر حتى إذا استقر الوفد في باريس ذهب ذات ضحى إلى حيث كان أعضاؤه يقيمون ، فلقى سعداً - رحمه الله - بعد أن لى رفاقه ، وفيهم أستاذه الرفيق به العطوف عليه أحمد لطفى السيد .

وفيهم صديقه المشجع له الذي طالما شمله بالعناية والرعاية حين كان طالباً في الجامعة . وكاتباً في الجريدة . ثم شمله بالعناية والرعاية حين كان عضواً في البعثة الجامعية بباريس وهو عبد العزيز فهمي رحمه الله .

وفيهم غير هذين الصديقين الكريمين آخرون كان يعرفهم بأسمائهم ، ثم اتصلت المودة بينه وبينهم بعد ذلك ، كما اتصلت الخصومة أيضاً بينهم وبينه بعد ذلك .

لقد هؤلاء جميعاً ومعه وزوجه ، ثم أُذِن له في لقاء سعد ، وكان لسعد عنده دين منعه الحياء من أدائه حين كان طالباً في الجامعة وأتيح له أن يؤديه بعد أن كان يتم دراسته في باريس .

أجابته في فتور وضيق بأن جهده وجهده أصحابه وجهده الشعب كله لن يغنى عن الوطن شيئاً . ألا ترى إلى كل هذه الأبواب التي غلقت من دوننا ؟ وما نحن أولاء قد وصلنا إلى باريس فقطعت علينا الطريق إلى مؤتمر الصلح ، وألقيت الحجب الكثاف بيننا وبين ممثلي الدول المشتركة فيه ؟

قال الفتى : ولكن هذه الجهود توقظ الشعب ، وتنبهه لحقه ، وتدفعه إلى المطالبة به والجهاد في سبيله .

قال سعد محولاً الحديث عن مجراه : ماذا تدرس في باريس ؟

قال الفتى : أدرس التاريخ .

قال سعد : أو مؤمن أنت بصدق التاريخ ؟

قال الفتى : نعم إذا أحسن البحث عنه والاستقصاء له وتخليصه من الشائبات .

قال سعد : أما أنا فبكني أن أرى هذا التضليل وهذه الأكاذيب التي تنشرها الصحف في أقطار الأرض ويقبلها الناس في غير تثبيت ولا تمحيص لأقطع بالأ سبيل إلى تصفية التاريخ من الشائبات ، ولأقطع بعد ذلك بالأ سبيل إلى استخلاص التاريخ الصحيح من هذه الشائبات . وانظر إلى ما ينشرنا في مصر وفي باريس وحدثنى كيف تستطيع أن تستخلص منه التاريخ الصحيح !

وهم الفتى أن يتكلم ، ولكن سعداً مضى في حديثه قائلاً : لقد أقبلنا إلى باريس والأمل مملأ نفوسنا فلم نعلم فيها أياماً حتى استأثر بنا البأس .

قال الفتى : وكيف نبأس وقد أبغظتم الشعب فاستيقظ ، ودعوتوه فاستجاب ؟

قال سعد : وماذا يستطيع الشعب أن يصنع وهو أعزل لا يستطيع الدفاع

عن نفسه ، فضلاً عن أن يثور بأصحاب القوة والبأس ؟

قال الفتى : هو الآن أعزل . ولكنه سيجد السلاح غداً .

قال سعد : وأين يجده ؟

أطروال الناس لساناً !

وكان دين سعد عند صاحبنا قديماً يرجع تاريخه إلى العام الذي قدم فيه رسالته عن أبي العلاء إلى الجامعة ، وظفر بعد مناقشتها بدرجة الدكتوراه ، وكثر حديث الصحف والناس عن هذه الرسالة وصاحبها . وفي تلك الأيام قدم عضو من أعضاء الجمعية التشريعية اقتراحاً يطلب فيه أن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة لأنها خرجت ملحداً هو صاحب رسالة « ذكرى أبي العلاء » .

وكان سعد - رحمه الله - رئيس لجنة الاقتراحات فيما يظهر . فلما عرض عليه هذا الاقتراح دعا المقترح للقاءه ، وطلب إليه أن يعدل عن اقتراحه ، فلما أتى قال له سعد : إن أصرت على موقفك فإن اقتراحاً آخر سيقدم ، وسيطلب صاحبه إلى الحكومة أن تقطع معونتها عن الأزهر ، لأن صاحب هذه الرسالة عن أبي العلاء تعلم في الأزهر قبل أن يتعلم في الجامعة .

واضطر الرجل إلى أن يسرد اقتراحه ، وسلمت للجامعة معونتها ، ولم يتعرض الفتى لشر . وكان الأستاذ أحمد لطفى السيد هو الذى أنبأ صاحبنا بهذه القصة ، وطلب إليه أن يسعى إلى سعد بشكر هذا الجميل . ولكن الفتى استحيا إذ ذاك فلم يسع إلى سعد ، وأين هو من سعد ؟

فلما أتبع له لقاء رئيس الوفد في باريس شكره تلك العارفة ، وأثنى على جهده الخصب في خدمة مصر وتضحيته في سبيل الوطن والشعب . فسمع منه سعد ولكنه

قال الفتى : إن الذين يهربون لنا الحشيش يستطيعون أن يهربوا لنا الأسلحة .
فأغرق سعد في الضحك ، وقال وهو ينهض : ألا تعلم أن الذين يراقبون تهريب
الحشيش سيراقبون تهريب الأسلحة ؟

وانصرف الفتى عن سعد فلم يره إلا بعد عام ، بل بعد أكثر من عام . ولم
يلقه سعد في تلك الزيارة الثانية بباريس لقاء الماهر له المرحب به ، وإنما لقيه
في شيء من الفتور . قال له وسمع منه ، ولكنه لم يقل شيئاً ذا بال ، ولم يسمع منه
شيئاً ذا بال ، وإنما كان لقاء قصيراً قوامه المجاملة ليس غير .

وقد عرف الفتى مصدر هذا الفتور ، فلم يضق به ، ولم يتبجح له ، وإنما هز
رأسه ورفع كتفيه . . وكان مصدر هذا الفتور أن جماعة من تلاميذ الأستاذ الإمام
الشيخ محمد عبده أحيوا ذكرى وفاة أستاذهم في الجامعة ، وخطب صاحبنا في
ذلك الحفل فزعم أن مصر مدينة بما أتبع لها من اليقظة لثلاثة رجال لا ينبغي أن تنساهم .

أولهم : الأستاذ الإمام الذى أحيى الحرية العقلية .

والثانى : مصطفى كامل الذى أذكى جذوة الحرية السياسية .

والثالث : قاسم أمين الذى أحيى الحرية الاجتماعية .

وقرأ سعد هذا الحديث . . فوجد على الفتى ، لأنه لم يذكره بين هؤلاء العظماء .
وتوالت خطوب السياسة بعد ذلك ، وكان صاحبنا أطول الكتاب لساناً
وأجراً قلماً في مهاجمة سعد وتقد سياسته قبل أن يلى الحكم وبعد أن وليه ، وبعد
أن اضطر إلى اعتزاله . وأصاب الفتى من هذه الخصومة مكروه أى مكروه ،
ولكنه لى سعداً بعد ذلك للمرة الثالثة والأخيرة في دارشوق ، رحمه الله .

كان شوق يستقبل الشاعر الهندى العظيم تاجور . وقد دعا لهذا الاستقبال
من شاء الله أن يدعوه من أصحاب الثقافة ورجال السياسة والحكم . وكان صاحبنا
أحد المدعوين . وإنه ليين جماعة من أصحابه وإذا سعد يقبل ، فيخفف الناس

جميعاً للقاءه وبهم صاحبنا أن يتأخر ولكن أصحابه يدفعونه دفعا . وكان أشدهم
في ذلك الشيخ عبد العزيز البشرى ، رحمه الله . ويجد الفتى نفسه يصافح سعدا
ويسمع سعداً يلقاه لقاء حسناً . ثم يعود الناس إلى أماكنهم ويقع سعد ساعة أو

بعض ساعة ثم ينصرف إلى مجلس النواب ، وكان له رئيساً .
وقد كاد الفتى يلقى سعداً مرة أخرى لو أريد الفتى على أن يلقى سعداً مرة أخرى ،
ولكنه امتنع وألح في الامتناع فلم يتم هذا اللقاء . كان ذلك حين أراد بعض النواب
الوفديين أن يثير قصة الشعر الجاهلى مرة أخرى في المجلس . فرده سعد عن ذلك
قائلاً : لقد انتهى هذا الموضوع فلا معنى للعودة إليه .

قرأ صاحبنا ذلك في الصحف فلم يكذب بحجل به أو يلقى إليه بالاً ، ولكن
الأستاذ أحمد لطفى السيد كان مدير الجامعة ورفيقاً بصاحبنا . فألح عليه في أن
يمر بدار سعد ويترك بطاقته ، وعسى أن يلقاه فيشكر له كلمته الطيبة في مجلس
النواب . ولكن صاحبنا أبى وأصر على الإباء ، وقال إن سعداً لم يرد على أن أذى
واجبه وكفى سفيهاً أحق من نوابه عن سفهه وحمقه .

واشدد الجدال في ذلك بين الأستاذ وتلميذه ولكنهما لم يصلا إلى شيء ، فاحتكما
في المساء إلى عبد العزيز فهمى ، رحمه الله . ولم يلبث هذا أن قضى لصاحبنا
في غير مشقة ولاجدال . وما أسرع ما استحال الأمر كله إلى دعابة بين الأستاذين
الكبيرين حول ما كان يملأ قلب عبد العزيز فهمى وعقله ويجرى على لسانه من
سخط على سعد ، وإنكار لكل ما كان يصدر عنه من قول أو فعل ، لا لشيء
إلا لأنه صدر عن سعد .

وكذلك كانت صلة صاحبنا بسعد يسيرة كل اليسر في ظاهرها ، عسيرة
أشد العسر في حقائقها ودخائلها . جرت على الفتى شراً كثيراً ، وأناحت له مع
ذلك خيراً كثيراً ، وتقلبت به بين ضروب من الرضا والسخط ، وفنون من الأمل

والنأس ، وألوان من الشدة واللين . ولكن حديث هذا كله لم يأت إبانه بعد .
فلنعد إلى صاحبنا في باريس لتراه مقبلاً على حياته ، غارقاً في مشكلتها ،
مثقلاً بأعبائها . بعد رسالته ، ويختلف إلى دروسه ، ويلقى أستاذه ، ويحتمل ضروباً
من الجهد في إجراء حياة أسرته على ما ينبغي أن تجرى عليه من هذه السعة اليسيرة
التي تقم الأود ولا تعرض للنأس أو الشقاء .
وأقبل الصيف وقد قدم صاحبنا رسالته إلى السوربون فرضيت عنها ، ولكنه
لم يرسلها إلى الجامعة ، ولم تسأله الجامعة عنها ، وإنما أقبل على امتحانه فنجح فيه
نجاحاً حسناً ، وظفر بالدبلوم ، وأتم بذلك أداء واجبه الذي كلفته الجامعة أن يؤديه .
وأن له أن يعود إلى مصر .

ولكن عودته إلى مصر أثارت بينه وبين المدير الإنجليزي للبعثة خلافاً طويلاً
ثقيلاً سخيفاً في وقت واحد . فقد كان نظام البعثة يقضى بأن يعود الطالب إلى
مصر على نفقة الجامعة إن أتم دراسته على الخطة المرسومة له . ولكن صاحبنا لن
يعود وحده ، بل ستصحبه زوجته ، فعلى نفقة من تعود هذه الزوج ؟
هنا حار المدير الإنجليزي للبعثة . فكذب إلى الجامعة مستفتياً ، وأذنت له
الجامعة في أن يعيد الزوجين جميعاً . ولكن الزوجين لن يستطيعا العودة إلا إذا
عادت معها أطفالهما ، وكانت الكتب أهم هذه الأثقال . فهي أكثر وأضخم من
أن توضع في الحفائب وكثير منها ملك للجامعة سيستقر في مكتبها آخر الأمر ،
والانتقال من باريس إلى القاهرة لا يتم بمجرد أن يتسلم المسافر بطاقات السفر
في القطار والسفينة ، ولكنه يحتاج إلى فضل من النفقة ، فمن يؤدي هذا الفضل
من النفقة ؟ وكذلك احتاج مدير البعثة أن يكتب إلى الجامعة مستفتياً مرة أخرى ،
وليس شيء أضيع للوقت ولا أقل للجهد ولا أدعى إلى السأم والضيق من الجدال
الطويل المتصل حول الموضوع السخيف الذي لا خطر له ولا طائل فيه .

وكم ضاق الفتى بما كان يكتب وما كان يتلقى من الرسائل حول هذا السحذ
الذي لا يغنى عنه شيئاً ، ولكنه وصل مع زوجته إلى مارسيليا عشية اليوم الذي حدد
لابحار السفينة .

ولا يكادان يصلان إلى هذه المدينة حتى يعلما ، وبما ثقل ما علما ! أن سفيتيها
لن تبحر من الغد ، لأن إضراباً يحول بينها وبين الإبحار . واتصل الإضراب يوماً
ويوماً ويوماً ، ثم اتصل بعد ذلك حتى بلغ خمسة وعشرين يوماً . وليس مع صاحبنا
وزوجه وطفلهما ما ينفقان ، ولا أمل في الاتصال بمدير البعثة ، ولا سبيل إلى
الاتصال المباشر بالجامعة . فليقرض إذن من زميله ذلك الذي سيعود معه على السفينة
نفسها ، والذي ينتظر مثله أن ينقضى الإضراب ، والذي لا يخلو حبه من مال كثير ،
لا لأنه كان غنياً ، بل لأنه كان مديراً مقتصداً أروع تدبير واقتصاد . وقد أخذ
يقترض ، وبدأ الزوجان حياتهما المستقلة بالدين وأى دين .

ويبلغان الإسكندرية بعد لأي وقد شق عليهما السفر ، وعنف بسفيتيها
البحر ، ونفذ ما اقترضا من المال . ولكن الفتى كان قد كتب إلى صديقه الكريم
عليه المؤثر له حسن باشا عبد الرزاق محافظ الإسكندرية إذ ذاك بمقدمه . فلا تكاد
السفينة ترسو حتى يقبل رسل المحافظ الصديق فيستخلصوا الأسرة من الضيق والشدة
والحيرة إلى السعة والدعة والاطمئنان في ذلك البيت الرائع الجميل الذي كان المحافظ
قد اتخذه في رمل الإسكندرية .

وفي هذا البيت تقم الأسرة مع الصديق الكريم ، رحمه الله ، أسبوعاً قبل أن
تمضى إلى القاهرة ، ولكنها تؤثر الإقامة في الإسكندرية وتشفق من شظف العيش
الذي ينتظرها متى هبطت من القطار . ومن لها بالقطار وصاحبنا لا يملك أجره ولا يجرؤ
على أن يتحدث إلى صديقه في ذلك ، ولا يستطيع أن يكتب إلى أخيه في القاهرة ،
لأن زوجه لا تكتب العربية ولأن أخاه لا يقرأ الفرنسية .

وإن الزوجين لفي سرهما مع المحافظ الصديق ذات ليلة ، وإذا هوينبهما بأن قد آن لهما أن يسافرا ، وأن للفتى أن يقدم نفسه إلى الجامعة التي تعرف وصوله إلى مصر وتنتظر مقدمه إليها .

وقد أعد كل شيء لسفرهما في القطار الذي يبرح الإسكندرية ضحى الغد ، فإذا أصبحتا وفرغا من طعام الإفطار أقبل الصديق متلطفاً يقول لزوج الفتى :
أتعرفين النقد المصرى ؟

قالت متضحكة : لا .

- ما هو ذا فادوسيه على مهل .

ثم ودعهما وانصرف مسرعاً فركب عربته إلى مكتبه .

وتدريس زوج الفتى هذا النقد ، فإذا الصديق قد جمع لها أوراقاً تصور النقد المصرى إلى العشرة من الجنيهات . وقد فهم الزوجان عن صديقهما ، وأضافا في حسابهما ديناً لم يؤذ قط إلى دين ما أسرع ما طالب صاحبه بأدائه ومعه قوائمه على قلة ماليت الدين في ذمتها من الأسابيع . .

ويتجاوز النهار نصفه قليلاً ويبلغ القطار محطة القاهرة ، وينظر الزوجان فإذا هما في غمرة من الأهل والصديق ، ومنذ ذلك اليوم اتصلت أسباب حياتهما الجديدة بأسباب مصر .

الفصل التاسع عشر

رفقت أن أمضت مؤتمراً للمصريان !

وبدأت حياة الزوجين في مصر متعرة ، ييسم لها الأمل فتخفت وتشرق ، وتعبس لها الضرورة فتثقل وتظلم . كانا ضيفاً على أخى الفتى ، ولكنهما كانا يعلمان أن هذه الضيافة لا ينبغي لها أن تطول ، وأن ليس لهما بد من أن يستقلا بحياتها ولا يكونتا عيالاً على قريب أو غريب . واستقلال الأفراد كاستقلال الجماعات ، لا يهبط لهم من السماء ولا ينجم لهم من الأرض ، وإنما يكتسب اكتساباً ، ويتبنى إليه الوسائل ، وتسلك إليه السبل التي تستقيم بأصحابها حيناً وتلتوى بهم حيناً آخر . وكانا يعرفان هذا كله ، ويعرفان السبيل إلى استقلالهما ، ولكن صاحبتنا لم يكن يملك الوسائل إلى سلوك هذه السبيل . . . فهو لا يملك درهماً ولا ديناراً . وقد تجلت الجامعة عليه بما كانت تمنحه التاجحين من طلابها إذا عادوا إلى مصر من المكافأة ليهيئوا أنفسهم لاستقبال حياتهم الجامعية ، وأكبر الفطن أنها لم تبخل عليه بهذه المكافأة عن رضا واختيار ، بل عن كره واضطرار . فقد رأى صاحبتنا نفسه إذن مضطراً إلى أن يقرض من المال ما يتبع لزوجه وله أن يأويها إلى دار يعيشان فيها كما يريدان ، لا كما يراد لهما .

وهوّن عليه الأمر صديق كريم هو الأستاذ محمد رمضان ، رحمه الله ، صحبه إلى شركة كانت تسمى شركة التعاون المالى ، وضمنه عند هذه الشركة ، فأقرضته مئة من الجنيهات واقتطعت منها الفائدة وأعطته سائرها . وظن الفتى حين

وقد مرت الشهور والأعوام وجعل الفرنك ينحل ويتضاءل ، وتنحل معه قيمة هذه الأسهم وتتضاءل ، حتى بلغت قيمة السهم الذي اشتراه الفتى لزوجه سبعة جنيهات ، ثم خمسة ، ثم انتهى إلى ثلاثة . ثم انقطعت أنباؤه وذاب كما يذوب الملح في الماء . مهما يكن من شيء فقد نظر صاحبنا بعد أداء دينه وشراء سهمه إلى ما بقي له من المال ، فإذا هو لا يبلغ العشرات الخمس . وإذا هو أقصر بدأ وأضيق ذراعاً من أن يبلغ ما يريد ويؤسس لزوجه ولنفسه داراً يرضيان عنها وعماً فيها . ولا بد لهما مع ذلك من دار ومن أثاث في تلك الدار ، فاستأجر لهما الأستاذ محمد رمضان داراً في حي السكاكيني ، وعمدا ومعهما الأستاذ محمد رمضان إلى سقف المتاع ، فاشترى ما منه ما يقوم بأمر تلك الدار من الأثاث .

وما أشد ما شقيت نفس الفتى حين كان يرى زوجه تغالب دموعها وهي تختار بين ذلك السخف الذي لم يكن بدّ من الاكتفاء به حتى يجعل الله بعد عسر يسراً ، وبعد ضيق سعة ، وبعد حرج فرجاً .

وقد أوى الزوجان آخر الأمر إلى دارهما ، وتخاذعا نفسيهما عما فيها ، واطمأننا إلى ما لم يكن بد من الاطمئنان إليه .

وكان صاحبنا قد صرف بهذا الوقت الطويل عما كان ينبغي أن يفكر فيه منذ بلغ القاهرة . فستبدأ الدراسة في الجامعة بعد أيام ، وليس له بد من أن بعد درسه الأول ويتبهاً لإلقائه في ذلك الحفل الذي سيقدمه فيه إلى المستمعين عضو من أعضاء مجلس الإدارة . وما أسرع ما عاد إلى الكتب ، وعاد الصوت العذب إلى القراءة ، وعاد اشتراك الزوجين في هذه الحياة الصافية النقية التي لا يكدرها المال ولا ينفصها الحرمان ، والتي تسلى عن البأس والبؤس والحرمان .

وجاء اليوم الموعد ، وأقبل صاحبنا إلى قاعة الدرس ، فتلقاها ثروت باشا ، رحمه الله ، وقدمته إلى المستمعين أحسن تقديم . وألقى صاحبنا درسه ، فرضى عنه

وقد في يده هذا المال أنه أصبح على رأس ثروة ضخمة . فهو لم يملك مثل هذا المقدار من المال قبل اليوم . وقد أتى عليه حين من الدهر كان أقصى ما يمكن أن يقع في يده من المال لا يبلغ الجنيه غالباً ولا يتجاوز بحال من الأحوال . ثم أتى عليه حين آخر من الدهر كان أقصى ما وصل إليه من المال لا يزيد على عشرين جنيهاً . أتبع له هذا المقدار الذي كان يراه ضخماً حين نجح في الجامعة بمصر ، وحين نجح في السوربون بباريس . وهو اليوم بعد الجنيهات التي صارت إليه بالعشرات الكثيرة . على أنه لم يلبث أن رأى هذه العشرات تتناقص شيئاً فشيئاً . فقد أدّى دينه إلى زوميله ذلك الفتى الذي أعانته على انتظار آخر الإضراب في مارشيليا .

ومر مع زوجه بمصرف الكريدى ليونيه ، ولا أدري كيف كان ذلك . فقرأت عليه زوجه إعلاناً ينبي بأن المصرف يعرض منذ اليوم للبيع سهماً في قرض فرنسي جديد . ومن مزايها هذه السهام أن القرعة تجرى بينها من حين إلى حين ، وأن بعض هذه السهام يمكن أن يربح مليوناً من الفرنكات . وكانت قيمة هذا المليون في تلك الأيام عشرين ألفاً من الجنيهات . ولم يسمع الفتى هذا الإعلان حتى عزم على زوجه لتدخلن معه المصرف وليشترين لها سهماً من هذه السهام ، وقد أبت عليه أشد الإباء ، ولكنه ألحّ وغلا في الإلحاح حتى استجابت له كارها . وما هي إلا ساعة حتى رأى الفتى زوجه مسهمة في هذا القرض الفرنسي ، وجعلت الآمال تداعيه ، وجعل يقبس ما بقي له من مال إلى الألوف العشرين التي يمكن أن تساق إلى زوجه إن ربح سهمها بعد حين ، فيأخذها شيء يشبه الدولار .

ولكن الاقتراع الأول قد أجرى ، وربح فيه سهم مصرى لم يكن سهم زوجه ، وإنما كان يملكه مظلوم باشا ، رحمه الله . . .

وما أكثر ما ضحك الزوجان حين قرأ ذلك النبأ ، وحين صح لهما ما كانا يسمعان من أن المال يدعو المال ، ومن أن العسر لا يدعو اليسر إلا قليلاً !

وقد مرت الشهور والأعوام وجعل الفرنك ينحل ويتضاءل ، وتنحل معه قيمة هذه الأسهم وتتضاءل ، حتى بلغت قيمة السهم الذي اشتراه الفتى لزوجه سبعة جنيهات ، ثم خمسة ، ثم انتهى إلى ثلاثة . ثم انقطعت أنباؤه وذاب كما يذوب الملح في الماء . مهما يكن من شيء فقد نظر صاحبنا بعد أداء دينه وشراء سهمه إلى ما بقي له من المال ، فإذا هو لا يبلغ العشرات الخمس . وإذا هو أقصر بدأ وأضيق ذراعاً من أن يبلغ ما يريد ويؤسس لزوجه ولنفسه داراً يرضيان عنها وعماً فيها . ولا بد لهما مع ذلك من دار ومن أثاث في تلك الدار ، فاستأجر لهما الأستاذ محمد رمضان داراً في حي السكاكيني ، وعمدا ومعهما الأستاذ محمد رمضان إلى سقف المتاع ، فاشترى ما منه ما يقوم بأمر تلك الدار من الأثاث .

وما أشد ما شقيت نفس الفتى حين كان يرى زوجه تغالب دموعها وهي تختار بين ذلك السخف الذي لم يكن بدّ من الاكتفاء به حتى يجعل الله بعد عسر يسراً ، وبعد ضيق سعة ، وبعد حرج فرجاً .

وقد أوى الزوجان آخر الأمر إلى دارهما ، وتخاذعا نفسيهما عما فيها ، واطمأننا إلى ما لم يكن بد من الاطمئنان إليه .

وكان صاحبنا قد صرف بهذا الوقت الطويل عما كان ينبغي أن يفكر فيه منذ بلغ القاهرة . فستبدأ الدراسة في الجامعة بعد أيام ، وليس له بد من أن بعد درسه الأول ويتبهاً لإلقائه في ذلك الحفل الذي سيقدمه فيه إلى المستمعين عضو من أعضاء مجلس الإدارة . وما أسرع ما عاد إلى الكتب ، وعاد الصوت العذب إلى القراءة ، وعاد اشتراك الزوجين في هذه الحياة الصافية النقية التي لا يكدرها المال ولا ينفصها الحرمان ، والتي تسلى عن البأس والبؤس والحرمان .

وجاء اليوم الموعد ، وأقبل صاحبنا إلى قاعة الدرس ، فتلقاها ثروت باشا ، رحمه الله ، وقدمته إلى المستمعين أحسن تقديم . وألقى صاحبنا درسه ، فرضى عنه

الناس ، ورضى عنه هو أيضاً .

وعاد الزوجان من ليلتهما تلك موفورين محبوبين ، قد ملأ الأمل قلوبهما ، وأزالا عنهما وَصْرَ ما احتملا من شقاء . وكان حظهما من السعادة والغبطة والرضا أعظم وأعمق بعد أن ألقى صاحبنا درسه الثاني .

وكان تاريخ اليونان هو الموضوع الذى اختاره صاحبنا للدروسه فى هذا العام ، ولا سبيل إلى الأخذ فى درس التاريخ إلا إذا قَدِّمَ بين يديه وصف جغرافى للبلاد التى يدرس تاريخها ، فكان على صاحبنا أن يعرض الوصف الجغرافى لبلاد اليونان . وشهد الله لقد عرض هذا الوصف فلك قلوب الذين استمعوا له ، وملاً نفوسهم رضا عنه وإعجاباً به . وهو لم يصنع فى إعداد هذا الدرس إلا أن سمع لزوجيه وأطاع .

أرادت زوجته أن تفهمه الوصف الجغرافى لبلاد اليونان ، فأخذت قطعة من الورق وصاغتها فى شكلها على نحو ما صاغت الطبيعة تلك البلاد . ثم أرادت أن تصوّرها فى هذه البلاد من الجبل والسهل الذى يضيّق حيناً ويتسع حيناً ومن البحار التى تأخذها من أكثر جهاتها ، فصوّرت ذلك بارزاً فى هذه القطعة من الورق ثم أخذت يد الفتى وجعلت تمرّها على هذه الورقة بعد أن افترضت معه أنها تبدأ من الجنوب وتمضى إلى الشمال ، وتتحرّف مرة إلى الشرق ومرة إلى الغرب ، لتبين له مواقع البحر ، ولتبين له الأماكن التى تضيق حيناً وتتسع حيناً ، والتى كانت تقوم فيها المدن القديمة . وما زالت به حتى فهم ذلك حق الفهم وأعادها فاطمأنت إليه . وكان أول ما عجب له الموظفون فى الجامعة أن صاحبنا طلب قبل الدرس أن

تعرض الصورة الجغرافية لبلاد اليونان فى قاعة الدروس . سمع الموظفون ذلك فأنكروه ، ولكنهم أضرموا إنكارهم وأجابوه إلى ما أراد . وأقبل الفتى على مجلسه فأنبأ المستمعين بأنه سيصف لهم بلاد اليونان من جنوبها إلى شمالها ، وليس عليهم إلا أن يتبعوه بأبصارهم على هذه اللوحة المصورة . ثم أخذ فى الحديث فلم يلجج ولم يتردد .

والطلاب يسمعون بأذانهم ويتبعون بأبصارهم حتى انقضت ساعة الدرس وقد أتم الفتى ما أراد من الوصف الجغرافى لبلاد اليونان .

وبكان ثروت إيشا حاضراً هذا الدرس ، فلما تفرق الطلاب دعا الفتى إليه فأشبهه نثاء وتقرّياً وتشجيعاً .

ولم تمض أيام بعد تلك الليلة السعيدة حتى أقبل على دار الفتى ذات ضحى شاب من موظفى القصر ، فأنبأه بأنه قد أقبل يدعو للقاء رئيس الديوان .

قال الفتى : وماذا يريد منى رئيس الديوان السلطانى وأنا لم أعرفه ، وما أظنه

رأىنى قط ؟

قال الموظف : لا أدرى ، ولكنه أمرنى أن أدعوك للقاءه ، وأن أصحبك إلى

مكتبه .

وبعد ساعة كان الفتى عند رئيس الديوان شكرى باشا ، رحمه الله ، فرأى رجلاً سمح النفس ، عذب الحديث ، خفيف الظل ، له مشاركة فى الأدب العربى ، ولكن فى الأدب العربى الذى كان الناس يحبونه فى القرن الماضى . فهو كان يتحدث عن الجناس والطباق وحسن الفكاهة وبراعة التورية ، ويروى لكل هذا أمثلة من الشعر المتأخر لم يحفظ الفتى منها إلا بيتاً واحداً لأنه لم يكده يسمعه حتى غلبه الضحك على ما كان ينبغى له من الأدب والوقار فى ذلك المجلس المهيّب . وضحك شكرى باشا لضحك الفتى ، وقال فى نغمة لا تخلو من حزن : كان هذا البيت يملأنا رضى وإعجاباً وما أنتم أولاء شباب اليوم تضحكون منه ويتندرون به وبأمثاله ، والبيت هو :

أخذ الكرا منى وأحزمنى الكرى بينى وبينك باظلم الموقف
ويجب أن تقرأ الكرا مكسور الكاف فى أول البيت وهو الأجر ومفتوح الكاف
فى آخر الشطر الأول وهو النتم ، وأن تعرف أن « الموقف » هو ذلك المكان الذى كانت

تجتمع فيه الحُمُر لتحمّل إلى حيث يريدون من المدينة .

والشاعر يريد أن يقول إن صاحب الحمام قد أخذ منه الأجر ، واشتطّ عليه فيه ، فذاد عنه النوم ، ثم هويشكوميون ظلم صاحب الحمام ، ويجعل موقف الحساب يوم القيامة بينه وبينه ليبيّنه الله منه .

وظاهر أن الجناس بين الكِرا والكِرى والتورية بالموقف لموقف الحُمُر هما مصدر الجمال الذي فنّ رئيس الديوان وأضحك الفتى ؛ ولا عليك من هذه الهزئة التي زبدت في حرمي فقد دعت إليها ضرورة الوزن . والضرورات تبيح المحظورات ! وطال مجلس الفتى عند رئيس الديوان حتى إذا أقبل بعض الزائرين ، استأذن في أن ينصرف ، فأذن له الرئيس وهمس في أذنه : إن مولانا يحب أن يراك .

ولم يعرف صاحبنا كيف يقول ، ولكنه لم يُمنس من ذلك اليوم حتى عاد إليه موظّف القصر يحمل إليه كتاباً من كبير الأمناء بأن المقابلة التي التمس التشرف بها قد حُدِّد لها تمام الساعة الحادية عشرة من صباح غد .

وسمع الفتى ذلك الكتاب فلم يملك نفسه أن قال : ولكني لم أتمس شيئاً . قال موظّف القصر في صوت يجري فيه الخوف : لا تقل هذا ، فراسم التشرف بمقابلة مولانا تقتضى دائماً أن تطلب المقابلة .

وسكت الموظّف قليلاً ثم قال : هل عندك سرّة الردنجوت ؟

قال الفتى : نعم .

قال الموظّف : ما شاء الله ! كنت أريد أن أعبرك سترتي .

قال الفتى : لقد اتخذت هذه السرّة حين كنت أتهباً للزواج .

ولم تتم الساعة العاشرة من صباح غد حتى أقبل موظّف القصر ذاك رحمه الله فصحب الفتى إلى حيث أسلمه لأحد الأمناء الذي أخذ يحدثه حتى حان موعد المقابلة ، فصحبه إلى مكتب السلطان . وخوف السلطان للقائه كأحسن ما يكون

اللقاء . ثم أجلسه غير بعيد من المائدة التي كان يجلس إليها ، وتلطف له في الحديث ، وشمله بعطف كثير . وسأله : ماذا درس في فرنسا ؟ وماذا نال من الدرجات الجامعية ؟ فلما أنبأه الفتى بما درس وما نال من الدرجات أظهر الرضا ، وأثنى على الفتى ثناء حسناً لأنه درس اللغتين القديمتين ، ثم قال مرفقاً : تعلم أني كنت رئيس الجامعة حين كنت أنت طالباً فيها . . .

فأطرق الفتى ولم يجب . قال السلطان : إنما ذكرتكَ بذلك لأدعوك إلى أن تلجأ إلى كل ما ضقت بشيء أو احتجت إلى عون .

واضطرب لسان الفتى بالشكر . ولكن السلطان دقّ الجرس ووقف ، فوقف الفتى ، وأقبل الأمين فصحبه إلى خارج الغرفة . وأسلمه إلى موظّف القصر ليردّه إلى داره .

وكان الفتى مضطرباً قبل أن يلقي السلطان لقصة كانت له معه حين كان رئيساً للجامعة ، وكان صاحبنا طالباً فيها .

انصدق في مصر مؤتمر للمكفوفين في سنة من تلك السنين ، واهم له سكرتير الجامعة أحمد زكي « بك » . فألقى فيه حديثاً وقدم إليه كتاباً عربياً قديماً بنى فيها يظهر بأذن العرب قد سبقوا إلى اختراع الكتابة البارزة .

وفي ذات مساء كان الفتى يسعى إلى غرفة الدرس ، وإذا رجل يأخذ بمجامع جيّته وقططانه ويقول له في لغة ملتوية : تعرف أن في مصر الآن مؤتمراً متعقداً يبحث في شؤون العميان . . .

قال الفتى في عنف : وما أنا وذاك !

قال الرجل : تلقى فيه خطبة .

قال الفتى : لن ألقى شيئاً .

فخلاه الرجل ومضى وهو يقول : مش فاهم مش فاهم .

ولم يكف الفتي يبلغ غرفة الدرس حتى أحاط به ثلاثة أو أربعة من أعضاء مجلس إدارة الجامعة وجعلوا يسألونه : أنت من حدثك ؟

قال الفتي : لا اعرفه . ولا يعنى أن أعرفه .

قال قائل منهم وهو يضع يده على كتف الفتي : إنه أفندينا الأمير ! إنه رئيس الجامعة ، فلا أقل من أن نجيبه في أدب حين يتحدث إليك .

وهز الفتي رأسه ولم يقل شيئاً ، فترقوا عنه وإن أحدهم ليقول : « دعوه فإنه شيخ ! » .

ذكر صاحبنا هذه القصة في طريقه إلى القصر فاضطرب لها . فلما ذكره السلطان بأنه كان رئيساً للجامعة وقع في نفسه أن السلطان يريد أن يذكره بتلك القصة . فكاد الاضطراب يغلبه على أمره لولا أن السلطان رده إلى الهدوء بما مضى فيه من حديثه ذلك .

ولم يمض وقت طويل حتى تعقدت الأمور بين الجامعة وبين صاحبنا ، فهو قد تبين أن زوجه لا تستطيع أن تمنحه من وقتها كل ما يحتاج إليه للقراءة وإعداد الدروس . ولا تستطيع أن تصحبه دائماً إلى الجامعة ، ولا أن تخرج معه كلما أراد الخروج فليس لها بد من أن تعنى بصبيها ومن أن تقوم على دارها . وإذن فهو محتاج إلى رفيق يقرأ له أكثر النهار ، ويغدو معه ويروح كلما أراد غداً أو واحداً . ولا سبيل إلى أن يقتطع أجر هذا الرفيق من مرتبه ، وكان ثلاثة وثلاثين جنبها يقتطع منه في كل شهر ما يؤدي به بعض دينه لشركة التعاون . فطلب إلى الجامعة أن تزيد في مرتبه ما يعينه على أجر ذلك الرفيق . وأبى عليه الجامعة ما طلب كأنها ضاقت بكثرة مطالبه ، فاستقال في لهجة شديدة غضب لها مجلس الإدارة أشد الغضب .

وقال سكرتير الجامعة لصاحبنا ذات مساء : إن المجلس مزعج أن يقبل استقالتك وأن يطالبك بأن تردّ على الجامعة ما أنفقت عليك في أثناء إقامتك في فرنسا .

وسمع صاحبنا ذلك فضاق به ، واكتأب له ، وراح إلى أهله محزوناً كاسف البال ؛ فلما قصّ الأمر على زوجه هوت عليه الصعب ، ويسرت عليه العسير . وأقنعته بأنه كغيره من الناس يخطئ ويصيب ، وبأنه أخطأ حين أسرع إلى الاستقالة ، والرجوع إلى الصواب خير من الإصرار على الخطأ ، وأسرف حين أساء إلى الجامعة التي أحسنت إليه ، والرجوع إلى القصد خير من التمادى في الإسراف . فليس عليه بأس أن يسترد استقالته ، وليس عليه بأس أن يعتذر من لهجته تلك القاسية . وأصبح صاحبنا فاسترد استقالته راغماً ، واعتذر إلى الجامعة راغماً أيضاً . واقتطع من مرتبه منذ ذلك اليوم أجر ذلك الرفيق الشيخ الذي كان يقرأ له ويغدو معه ويروح .

ولم يعلم الفتي كيف ارتفع أمر هذه الخصومة بينه وبين الجامعة إلى السلطان . ولكن موظف القصر يزوره ذات مساء ويقول له في صوت متضاحك : لقد التمسّت التشرف بمقابلة عظمة السلطان ، وقد حدّد هذه المقابلة منتصف الساعة الثانية عشرة من الغد .

ويدفع إليه كتاباً من كبير الأمانة بهذا المعنى ، فإذا انصرف عنه قال : سأصحبك غداً إلى القصر .

وتلقى السلطان صاحبنا لقاء حسناً ، وتحدث إليه فأطال الحديث . ثم قال له فجأة : لقد بلغني نبأ استقالتك من الجامعة ، وقد أحسنت بالعدول عن هذه الاستقالة ، ولا بد من صبر طويل واحتفال كبير من الجهد ، فبين هؤلاء الناس وبين حسن الذوق وقت ما زال طويلاً . ولكن اذكر دائماً ما قلته لك حين لقبتك في المرة الأولى . ثم دق الجرس ووقف ، فوقف الفتي ، وأقبل الأمين فقاده إلى خارج الغرفة . وشعر صاحبنا بأن عليه منذ اليوم للسلطان ديناً يجب أن يؤدي . ولم تحض شهر حتى كان قد أتم أول كتاب أصدره بعد عودته من أوروبا : « صحف مختارة

من الشعر التمثيلي اليوناني . فأهداه إلى السلطان ، ورفعه إليه في مقابلة ثلاثة التمسها هو وأجيب إليها . وظن أنه قد أدّى إلى السلطان حقّه وشكر له عطفه عليه وبرّه به ، ولكن السلطان كان يرى شيئاً آخر ، ويتنظر شكراً آخر غير إهداء كتاب مهما يكن موضوعه .

الفصل العشرون

إيماناً بالثورة!

لم يكن صاحبنا قد أتم العقد الثالث من عمره حين عاد من أوروبا وأصبح أستاذاً في الجامعة ، ولكنه كان يعتقد أن تجاربه الكثيرة التي بلا حلوها ومرّها في أثناء إقامته في فرنسا قد تجاوزت به هذه السن ، وتبيّنت به على الأربعين ، فهو قد أنفق في فرنسا أعوام الحرب العالمية كلها ، وهو لم يعيش تلك الأعوام لاهياً عما كان يجري حوله من الأحداث ، ولا غافلاً عما كان في هذه الأحداث من عبر وعظات . وهو لا يذكر أنه صُرف عن أحداث الحرب وأصدائها في الأمة الفرنسية وغيرها من الأمم المحاربة يوماً من الأيام . كان يقرأ الصحف الفرنسية معنياً بقرائتها ، وكان يطيل التفكير فيها يقرأ .

وهو لم يعد إلى مصر إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وامتاز المنتصر من المهزم ، وظهرت آثار الانتصار عند الغالبين ، وآثار الهزيمة عند المغلوبين ، وثلت عروش كان الناس يقدرّون لها الخلود ، وذلت شعوب كان الناس يقدرّون لها سلطاناً لا يزول .

وفي أثناء تلك الحرب كانت ثورة لم يعرف التاريخ لها نظيراً إلا الثورة الأمريكية والفرنسية في القرن الثامن عشر . وقد حاولت هذه الثورة أن تحقق نظاماً كان الناس يقرءونه في الكتب ، ويعتقدون أنه من هذه المثل البعيدة التي لا سبيل إلى تحقيقها . كل ذلك عرفه صاحبنا وتتبع أنباءه وآثاره في عناية لم تكن أقل من عنايته

بالدرس والتحصيل ، وهو في هذا الدرس وهذا التحصيل قد قرأ وسمع أساتذته يعرضون ويفسرون تاريخ الأمم القديمة والحديثة ، وما اختلف عليها من الأحداث التي تطورت لها نظم الحكم على اختلاف العصور . وكان شديد التأثر بدروس الأستاذ دوركيم في علم الاجتماع . وكان الأستاذ دوركيم قد أنفق عاماً كاملاً يدرس لتلاميذه مذهب الفيلسوف الفرنسي سان سيمون الذي يقوم على أن أمور الحكم الصالح المنتج الذي يحقق العدل ، ويكفل رفق الشعب ، ويتيح للإنسانية أن تتقدم إلى أمام ، يجب أن تصير إلى العلماء لأنهم هم الذين يستطيعون أن يلائموا بين نتائج العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقتهم واستعدادهم للتطور والمضي في سبيل الرقي .

فليس غريباً أن يعود صاحبنا إلى وطنه مؤمناً بالثورة التي نشبت فيه ، ومؤمناً في الوقت نفسه بأن عبثاً خطيراً من أعباء هذه الثورة سيقع على العلماء والمثقفين من أبناء هذا الوطن ، فهم قد عرفوا تجارب الأمم ، وعرفوا حقائق العلم ، واستطاعوا أن يميزوا بين ما يمكن من الأمر وما لا يمكن ، وهم القادرون على أن يقودوا الشعب إلى الخير ، ويسلكوا به قصد السبيل ، ويعصموه من التورط فيها تورطت فيه شعوب كثيرة فلم تجن منه إلا شراً .

وكان صاحبنا يقدر أن الساسة الذين يقودون الثورة سيختلفون في يوم قريب أو بعيد ، ويعتقد أن العلماء والمفكرين سيكونون هم الذين يحققون التوازن بين الساسة حين يختلفون ، وسيقتضون بينهم فيما يضطرون إليه من الاختلاف .

كان مؤمناً بهذا ، وكان مستيقناً أن العلماء والمفكرين لن ينحازوا إلى الأحزاب ، ولن يكونوا كثيرهم من عامة الناس ، الذين يقادون ولا يقودون ولم يكن يقدر أن يشارك في السياسة من قرب أو بعد ، ولكنه لم يكن يردّد في أنه لن يحجم عن أداء الواجب وقول كلمة الحق إن اضطر إلى ذلك غير حاسب للظروف ولا للعواقب حساباً .

على أنه لم ينفق في مصر شهوراً حتى تبين أنه كان واهماً في كل ما قدر ، وأن العلماء والمفكرين ناس من الناس يتأثرون بالجماعات التي يعيشون فيها ، فيخطئون مثلها ويصيبون . بل هم قد يرون الخطر ويعمدون إليه متابعين للجماعات التي يذهبون مذهبها أو يرون رأيها . وهناك تبين أن ذلك الشاعر الجاهلي إنما صور حقيقة خالدة من حقائق الجماعات حين قال :

أمرهمو أمرى بمنعرج اللوى فلم يستينوا الرشد إلا ضحى الغلغلي
فلمّا عَصَوْني كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم أو أنني غير مهتدى
وهل أنا إلا من غزيتُه إن عَوْتُ غَوَيْتُ وإن تُرشدُ غزيتُ أُرشدُ
وكان أول ما لاحظ بعد أن أقام وقتاً قصيراً في مصر ، أن الأمر كان مختلفاً بين الذين كانوا يرون أنفسهم علماء ومفكرين وبين عامة الناس والشباب منهم خاصة .

فأما أولئك فكانوا يؤمنون بالثورة ، ولكنهم كانوا يؤمنون بأنفسهم أيضاً ، وهم من أجل ذلك لا ينظرون إلى الأحداث ولا يشاركون فيها خالصين لها في غير تردد ، وإنما كانوا يقدرون لأرجلهم مواضعها قبل الخطو ، ولا ينحرجون من نقد الساسة والقادة والتندر بهم حين يقولون وحين يفعلون . وكان هذا الموقف يعرضهم للانقسام على أنفسهم وبمشاركة الساسة في الاختلاف حين يتورطون فيه .

وأما عامة الناس - والشباب منهم خاصة - فكانوا مؤمنين بالثورة ، قد أخلصوا لها نفوسهم وقلوبهم وأيديهم أيضاً . لا يفكرون في عاقبة ولا يخافون هولاً مهما يكن . وهم كانوا يعرضون صدورهم لرصاص الإنجليز ، ويغامرون بحياتهم مغامرة رائعة على حين كان بعض الساسة القائمين بالحكم في تلك الأيام لا يحفلون بهم ولا بما يلقون ، وإنما يصانعون الإنجليز حيناً ، ويصانعون القصر حيناً آخر ، ويسخرون من أولئك الذين كانوا ينتظرون في باريس أن تفتح لهم أبواب وزارات الخارجية أو يحاولون

في لندن أن يصلوا مع الإنجليز إلى كلمة سواء .

ولم يكذب الإنجليز يعلنون زهدهم في الحماية وميلهم إلى إلغائها وإقامة نظام خيرٍ منها ، ولم تكذب وزارة الثقة - كما كانت تسمى في تلك الأيام - تنهض بأعباء الحكم ، ولم يكذب سعد - رحمه الله - يعود إلى مصر ، حتى نجم الخلاف بين الوزارة وبين الوفد حول المفاوضات : من الذي يجريها ؟ !

أجبرها الوزارة لأنها تمثل السلطان الشرعي النظامي ؟

أم يجريها الوفد لأنه يمثل الشعب الناصر ؟

وكان الغريب من أمر هذا الخلاف أنه كان يتصل بالمظاهر والصور لا بالوقائع وحقائق الأمر . كان أعضاء الوزارة وأعضاء الوفد يؤمنون جميعاً بحق مصر في الاستقلال ، وبأن هذا الاستقلال يجب أن يستخلص من الإنجليز بالمفاوضة الحرة إيثاراً للسلم ورغبة في العافية ومخلاً بالماء على أن تراق وبالنفوس على أن تهتق قبل أن تستنفد وسائل السلم . ولكنهم على هذا الاتفاق والإجماع كانوا يختلفون في مظاهر هذه المفاوضة ، لأن من يجريها سيتاح له تحقيق الاستقلال إن قدر له النجاح .

وكذلك انقسم المصريون وثارَت بينهم فتنة منكرة جعلت بأسهم بينهم شديداً . ونظر صاحبنا فإذا العلماء والمفكرون كغيرهم من الناس قد انقسموا إلى فريقين : فريق منهم مال إلى الوفد وقال مع القائلين : « لا رئيس إلا سعد » ، وفريق آخر مال إلى الوزارة وقال مع القائلين : « إنما المفاوضات لمن ولي الحكم » . ثم نظر صاحبنا فإذا هو كغيره من عامة الناس ، وإذا هو مع الفريق الذي مال إلى الوزارة ورئيسها عدلى باشا ، رحمه الله .

وما أسرع ما اضطربت الفتنة حتى مس لها كل نفس وكل عقل وكل ضمير وإذا الوفد بتنى الإخفاق للوزارة في مفاوضاتها ، وبدبر لهذا الإخفاق ، وإذا

أتباع الوفد يجهرون في غير تحفظ بدعائهم ذلك البغيض : « الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى ! »

وإذا صاحبنا يتفق أقصى ما كان يملك من العنف في مهاجمة هؤلاء الوفد الذين اتخذوا من بغضهم لعدلى وأصحابه ، ومن حرصهم على رياسة المفاوضات ديناً ، وإذا هو يكتب ذات يوم في صحيفة « المقطم » ساخراً من السعديين يقول الوفديون لا رئيس إلا سعد كما يقول المسلمون لا إله إلا الله .

وقد بلغ الشر أقصاه بين الفريقين حتى انتهى إلى إخفاق المفاوضات ، ولم يتزل الإنجليز لعدلى عن الاستقلال وكثرة المصريين لا تؤيده بل لا تحبه بل تبغضه وتبغض أصحابه أشد البغض وأنكره .

ويعود عدلى مخفياً ، فيفرح بإخفاقه الوفد وأتباعه ، ويزعم أصحاب عدلى - أن صاحبهم قد كان أياً كريماً قد ثبت للإنجليز فلم يتزل لهم عن حق الوطن ولم يقبل منهم الدنية وعاد أشم مرفوع الرأس .

ويرى صاحبنا نفسه ذات يوم في محطة القاهرة مع المستقبلين لعدلى وهو يصيح مع الصائحين : « ليحى عدلى باشا » .

وقد حمل العدليون صاحبهم على الأكتاف حتى وضعوه في سيارته . ولا يكاد المستقبلون للمحقق العظيم يخرجون من المحطة حتى تنهال عليهم اللعنات ويصب عليهم الاستهزاء صباً ، ثم يقذفون بالحجارة والعصى ، ويصاب صاحبنا ببعض الأذى ، ولولا أن رفيقه كان ماهراً لبقاً لتعرض لشرك كثير . ولكن رفيقه انعطفت به إلى حارة من الحارات ثم نفذ به إلى حيث أمن الحصى والحجارة والشتم . وأعادته إلى داره موفوراً مكبواً مع ذلك .

ويتنى سعد بعد إخفاق عدلى بقليل ، وينكر عدلى هذا الإخفاق ، ويلج في قبول استقالته ، ويرى أصحاب عدلى أن نفي سعد إهانة للوطن كله ، وتوشك

الكلمة أن تجتمع ، ويوشك المصريون أن يصبحوا بداً واحدة على خصمهم من الإنجليز . ولكن العصا لا تلبث أن تنشق ، والخلاف لا يلبث أن يعود كأعنف ما كان ، لم يغير أحد الفريقين من رأيه ولا من خطته شيئاً .

يقول المدليون إن حب الوفد للرياسة قد أضاع المفاوضات !

ويقول السعديون إن ازدياد عدلى للشعب ومثله قد أضاع الاستقلال ، ويوشك الاستقلال أن ينسى ويتصرف عنه النفوس بفضل هذه الفتنة المظلمة التي كان المصري فيها يخرج يده فلا يكاد يراها .

على أن تصريح الثامن والعشرين من شهر فبراير سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف يرد إلى العدليين شيئاً من ثقة وكثيراً من أمل . فقد ظفر ثروت باشا رحمه الله ببعض الحق . وشيء خير من لا شيء !

وقد أتيح لمصر أن تدبر أمورها بنفسها ، وأتيح للشعب أن يكون له دستور ، وأن يحيا حياة ديمقراطية كريمة . . وأصبح السلطان ملكاً ، وأصبح لمصر أن ترسل ممثلها السياسيين إلى البلاد الأجنبية بعد أن عادت إليها وزارة الخارجية التي ألغائها الإنجليز حين أعلنوا الحماية .

وكل هذا يتيح لمصر مظاهر الاستقلال وشيئاً من حقايقه مهما يكن قليلاً فإن له ما بعده . ولكن السعديين كانوا ينكرون هذا التصريح ويرونه شرّاً ونكراً ويرون قبوله جريمة وإثمًا .

والخلاف يمضي في طريقه لا تهدأ ثورته ولا ترداد ناره إلا اضطراباً ، وصاحبنا ماض مع أصحابه في إذكاء هذه النار لا يعنيه أن يرضى عنه الراضون أو يستخط عليه الساخطون ، وإنما هو مقتنع بأن شيئاً خيراً من لا شيء وبأن القليل صائر إلى الكثير ، وبأن هذه المظاهر ستصبح في يوم من الأيام حقائق إن عرف المصريون كيف يحزمون أمورهم وكيف يجمعون كلمتهم وكيف يحسنون انتهاز الفرص .

وقد أخذ ثروت باشا رحمه الله يهين لوضع الدستور فألف لجنة الثلاثين ، وأخذت هذه اللجنة في عملها . ولكن شرّاً آخر يظهر في أفق مصر . . .

فهذه اللجنة قد أخذت عملها على أنه جد ... وحصلت تضع دستوراً ديمقراطياً ينزل الشعب من الحقوق ما لا يريد القصر أن يتزل عنه . وإذا سلطان الأمس وملك البيع يحكم بالوزارة واللجنة جميعاً . وإذا الخلاف يظهر بين القصر وبين ثروت باشا ، وتكون ديمقراطية الدستور هي أصل هذا الخلاف . وصاحبنا ماض في تأييد الدستور الديمقراطي غير ملتق بالآ إلى القصر ولا إلى صاحب القصر الذي أحسن لقاءه ومنحه كثيراً من العطف والبر والتشجيع .

وفي ذات يوم نبئ ثروت باشا صاحبنا بأن القصر ساخط عليه ، وبأنه يحلول أن يصلح الأمر .

قال صاحبنا متضاحكاً : فأصلح الأمر بين الوزارة وبين القصر إن وجدت إلى ذلك سبيلاً . فهذا أجدر بمنايتك من إصلاح الأمر بين القصر وبيننا ! ولم يستطع ثروت باشا أن يصلح الأمر بين القصر والوزارة ، ولا بين القصر وصاحبنا ، وإنما استقال .

ونظر صاحبنا فإذا هو بين عدوين لا يدري أيهما أنكى له من صاحبه .

يراه السعديون مارقاً مالا المارقين .

ويراه القصر كافرًا بالنعمة جاحداً للجميل .

ويرى هو أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن بعد ذلك ما يكون .

وكذلك غرق صاحبنا في السياسة إلى أذنيه ، وكان جليلاً أن يفرغ للعلم والتعليم وألا يفكر إلا في طلابه وكتبه ، ولكن بعض الظروف تعيط بالشعب فتجمل الحيدة بالقياس إلى بعض أبنائها إنما لا يتضرر ، ولا يمتحي آثاره .

وكان صاحبنا يرى الحيدة في ذلك الوقت جيناً وضاقاً . ولهم أنه غرق في

السياسة أو احترق بناها ، ولم يكن له بد من أن يحتمل نجات هذا الفرق أو هذا الحريق . وهل كانت حياته كلها منذ تلك الأيام إلا نتيجة طبيعية لإقدامه على السياسة وغرقه فيها واصطلامه نارها ؟

كل ما لقيه بعد ذلك في حياته من خير أو شر ، ومن عرف أو نكر ، ومن رضا أو سخط لم يكن إلا أثراً من آثار تلك السياسة التي أقدم عليها غير حاسب لأعقابها ونتائجها حساباً . وعلى كثرة ما لقي من أهوال السياسة وما احتمل من ألقاها وما تعرض لسخط المتطرفين حيناً والمعتدلين حيناً آخر ، لم ينكر من سيرته شيئاً ولم يندم على فعل فعله أو قول قاله .

وكثيراً ما كان الناس من صديقه يلومونه على أنه عرض نفسه لسخط هذه الفئة أو تلك . فلم يكن يزيد على أن يهز رأسه ويرفع كفيه ويحيب هؤلاء الصديق بما كان يديره بينه وبين نفسه دائماً : لو استؤنف الأمر من حيث ابتدأ لاستأنف سيرته التي سارها ، لم يغير منها شيئاً ولم ينكر منها قليلاً أو كثيراً . ذلك لأنه لم يستجب فيما قال أو فعل إلا لما كان يدعو إليه ضميره من الإقدام في غير تهيّب ولا وجل ، ولا سبياً حين يبلغ الشر أقصاه وتنتهي الفتنة إلى غايتها . . .

ولقد رأى نفسه ذات يوم وليس بينه وبين الهمة إلا خطوة إلى أمام ، وليس بينه وبين العافية إلا خطوة إلى وراء ، وأن أصدقاءه المهيين له العاطفين عليه الذين لم يكونوا يملكون له في تلك الأيام إلا المشورة والنصح ، ليلحون عليه في أن يؤثر العافية ، ولو وقتاً قصيراً ، فلا يسمع لمشورتهم ولا يحفل بالمحاحمهم ، وإنما يخطو خطوته تلك إلى أمام . فيلقى بنفسه بين ذراعي وجبة الأسد كما يقول الشاعر القديم . وما أمض ما جرد ووجد أهله معه من ألم ! وما أمر ما ذاق وذاق أهله معه من شقاء ! . . . ولكنه كان يستحب تلك الشدة الشديدة والقسوة القاسية على العافية واللين .

كان يعرف نفسه حين يشق في سبيل ما يرى أنه الحق ، وينكرها أشد الإنكار

بل يبعثها أشد البغض إذا نعم بالخفض واللين لأنه صانع أو داجي أو جهر بغير ما يسر أو أثر رضا السلطان على رضا الضمير . وكان شعاره دائماً الشعار الذي كان يبادى به من يخاصمه كما كان يبادى به من يغريه قول أبي نواس :

وما أنا بالمشغوفِ ضربةً لازِبٍ ولا كلُّ سلطانٍ على أمير !

فهرس

٣	على باب الأزهر	الفصل الأول
٩	كيف سقطت في امتحان العالمية	الفصل الثاني
١٥	أثر احتفاء المرأة	الفصل الثالث
٢٣	عندما حقق القلب لأول مرة	الفصل الرابع
٣٠	أستاذي يدعو على بالشقاء	الفصل الخامس
٣٧	أساتذتي	الفصل السادس
٤٤	كيف تعلمت الفرنسية	الفصل السابع
٥٤	ثلاث تجارب	الفصل الثامن
٦٣	الفلسفة المفسدة	الفصل التاسع
٧١	أستاذ جامعي عمسة جنبيات	الفصل العاشر
٧٩	الفتى في فرنسا	الفصل الحادى عشر
٨٧	الصوت العذب	الفصل الثانى عشر
٩٥	فى الحى اللاتينى	الفصل الثالث عشر
١٠٣	قصة حب	الفصل الرابع عشر
١١٣	المرأة التى أبصرت بعينها	الفصل الخامس عشر
١٢١	طلبت تأجيل الامتحان للزواج	الفصل السادس عشر
١٣١	يوم سقطت القنبلة على بيتى	الفصل السابع عشر
١٤٠	أطول الناس لساناً	الفصل الثامن عشر
١٤٧	رفضت أن أحضر مؤتمرًا للعميان	الفصل التاسع عشر
١٥٧	إيمان بالثورة	الفصل العشرون